رواية

CORMAC McCARTHY

كورماك مكّارثي

خطّ الدم

أو حمرة الغسق في الغرب

ترجمة : عماد إبراهيم عبده

مراجعة وتدقيق : محمود الزواوي



روايات

كورماك مكّارثي

خطّ الدم

أو حمرة الغسق في الغرب

◆

ترجمة : عماد إبراهيم عبده

مراجعة وتدقيق : محمود الزواوي





الأهليّة للنشر والتوزيع
e-mail : alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، عمّان ، وسط البلد ، خلف مطعم القدس
هاتف 4638688 6 00962 ، فاكس 4657445 6 00962
ص. ب : 7772 عمّان 11118
الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين ، مقابل طيران الشرق الأوسط (ممم)
بجانب البنك المركزيّ ، مكتب القاصة
مكتب بيروت
لبنان ، بيروت ، بئر حسن ، شارع السفارات
هاتف : 824203 1 00961 ، مقسم 19

◆

خطّ الدم .. أو حمرة الغسق في الغرب
كورماك مكّارثي / مؤلّف من الولايات المتّحدة الأمريكيّة
ترجمة : عماد إبراهيم عبده / الأردنّ ◆ مراجعة : محمود الزواوي / الأردنّ

الطبعة العربيّة الأولى ، 2007
حقوق الطبع محفوظة

◆

تصميم الغلاف : **زهير أبو شايب** 95297109 7 00962 ، الأردنّ
لوحة الغلاف : **غيريت غريف / الولايات المتّحدة الأمريكيّة**
الصفّ الضوئي : **إيمان زكريّا خطّاب ، عمّان ، هاتف** 079/5349156

-1-

مرحلة الطفولة في (تينيسي) - يهرب - (نيو أورلينز) - يتعارك - رُمي بالرصاص - إلى (جالفستون) - (ناكوجدوتشيز) القسيس (غرين) - القاضي (هولدن) - شجار - (تودفين) - إحراق الفندق - نجاة.

* * *

ألق نظرة على الصبي. إنه شاحبٌ ونحيل، يرتدي قميصاً كتّانياً ممزقاً، رثّاً ورقيقاً. يقوم بإذكاء نار غرفة غسيل الأطباق. في الخارج تقبع حقول تحولت إلى سواد تشوبه قطع من الثلج، وغابات أشد حلكة وراء ذلك الميناء وبضعة مما تبقى من الذئاب. لقد عُرف قومه بقاطعي الأخشاب وساحبي المياه، ولكن في الحقيقة أن والده كان يعمل مدير مدرسة. كان ثملا ويقتبس من شعراء أصبحت أسماؤهم طي النسيان الآن. يجثم الصبي بجانب النار ويراقبه.

ليلة مولدك. ثلاثة وثلاثون(*). كان يطلق عليهم (ليونيدز). يا إلهي كيف سقطت النجوم. بحثت عن سواد، ثقوب في السماء. مجموعة نجوم الدب شكلت مقطعا شعريا.

توفيت الأم منذ أربع عشر سنة واحتضنت في صدرها ذلك المخلوق الذي تسبب في موتها. لم يتفوه الأب باسمها أبدا، والصبي لا يعرف ذلك. إن له أختاً في هذا العالم لن يراها ثانية.

(*) المقصود عام 1833.

كان يراقب، شاحباً وقذراً. كان أمياً لا يستطيع القراءة أو الكتابة، ويحمل في داخله ميلاً للعنف الغبي. تجد التاريخ كله يتجلى في هذه الملامح، الطفل ووالد الرجل.

في عمر الرابعة عشر فر هارباً. لن يرى المطبخ المتجمد في ظلام ما قبل الفجر، ولن يرى الحطب ولا أواني الغسيل. تجوّل بعيداً في الغرب حتى (ممفيس). إنه مهاجر وحيد في هذا المشهد الريفي. الرجال السود في الحقول، هزيلون ومنحنو القامة، تختلط أصابعهم الشبيهة بالعناكب مع حبوب القطن، وشبح الألم يخيم على البستان. عند ميلان الشمس إلى الغروب تتحرك أشكال بشرية في الغسق المتباطئ على صحيفة السماء. هنالك مُزارع وحيد أسود يتبع بغلاً ويمهد التربة في الأرض المنخفضة المعشوشبة بماء المطر عند المساء.

بعد سنة وصل إلى (سانت لويس)، وأخذ على متن مركب إلى (نيو أورلينز). قضى أربعة وأربعين يوما في النهر. في المساء مرت بهم مراكب بخارية تصدر صوتاً كنعيب البوم وتتهادى بتثاقل فوق المياه السوداء وهي مضاءة بكاملها كأنها مدنٌ طافية في مهب الريح. نزلوا على المنصة العائمة وباعوا ألواح الخشب. مشى في الشوارع وسمع لغات لم يسمعها من قبل. أقام في غرفة فوق الساحة خلف الحانة وكان ينزل في المساء، كوحش حكاية ما من حكايات الجن، للقتال مع البحارة. لم يكن ضخما ولكن كان رسغاه ضخمان ويداه كبيرتان وكان كتفاه متقاربين. بدا وجه الصبي من وراء الندوب، لم يلمسه أحد بشكل يثير الفضول، وعيناه بريئتان بشكل غريب. اقتتلوا باستخدام

القبضات وبالأرجل وبالزجاجات والسكاكين. وكانوا من كل العروق والأجناس. رجال كلامهم كان مثل نخير القرود. ورجال من أراض بعيدة وغريبة يقفون بجانبهم حيث يرقدون ودماؤهم تسيل في الوحل، لقد شعر أن الجنس البشري قد بُرِّئ.

في الليلة المحتومة، قام عريف ملاحين مالطي بإطلاق الرصاص عليه مستخدماً مسدساً صغيراً فأصابه في ظهره. ترنح وحاول أن يسدد ضربة لذلك الرجل إلا أنه أطلق عليه الرصاص مرة ثانية فأصابه تحت القلب تماما. هرب الرجل واتكأ هو على البار ودمه يسيل خارج قميصه. الباقون كانوا ينظرون بعيدا. بعد برهة جلس على الأرض.

استلقى في سرير صغير داخل غرفة في الطابق العلوي لمدة أسبوعين، وكانت زوجة صاحب الحانة تقوم برعايته. كانت تُحضر له وجبات الطعام، وتحمل برازه إلى الخارج. كانت امرأة قاسية الملامح وذات جسم نحيل ولكنه قوي كجسم رجل. في الوقت الذي تماثل فيه للشفاء لم يكن يملك مالا يدفعه لها، فغادر في المساء ونام على رصيف النهر إلى أن وجد قاربا ينقله. كان القارب ذاهباً إلى (تكساس).

الآن فقط تجرَّد الصبي أخيراً من كل ما كان عليه. لقد أصبح أصله نائيا كما هو حال مصيره ولن يتكرر ثانية في جميع دورات الأرض وجود مناطق متوحشة وبربريّة إلى هذا الحد ليختبر ما إذا كان الخلق قد شُكّل حسب رغبة البشر أم أن قلبه ما هو إلا نوع آخر من الطين. كان المسافرون مجموعة من أشخاص خجولين، غاضين أبصارهم ولم يسأل

أحدٌ منهم الآخر ما الذي أتى به إلى هنا. نام على سطح المركب مرتحلاً وسط مسافرين. كان يرقب الشاطئ المعتم يرتفع وينخفض. طيور بحر رمادية تحدق ببلاهة وأسراب البجع الرمادية فوق الأمواج الرمادية بمحاذاة الساحل.

نزل مستوطنون مع عبيدهم من السفينة إلى الصندل، جميعهم يتأملون الخط الساحلي المنخفض حيث المنعطف الرملي الخفيف وأشجار الصنوبر الخفيضة تسبح في السديم.

مشى في شوارع الميناء الضيقة. الهواء يعبق برائحة الملح والخشب المنشور للتو. في المساء، كانت المومسات يدعونه من الظلام كأرواح متسولة. لم يلبث أن مر أسبوع، حتى شد الرحال من جديد، وفي محفظته بضعة دولارات كان قد كسبها. كان يمشي وحيدا في الطرقات الرملية، في ليلة رياحها جنوبية. كوّر يديه وأدخلهما في الجيوب القطنية لمعطفه الرخيص. ممرات ترابية مرتفعة عبر الأرض المنخفضة، وطيور البلشون البيضاء في بيوتها كأنها شموع داخل مستنقع طحالب، رياح رطبة تغادر متبخترة على جانب الطريق وتعدو إلى حقول المساء. رحل شمالاً عبر قرى صغيرة ومزارع، عمل بأجر يومي مع المبيت والطعام. رأى قاتلاً لأحد والديه معلقاً على مفترق طرق لقرية صغيرة، وأصدقاء الرجل يركضون ويسحبون رجليه ليتدلى من الحبل ميتاً شنقاً. وقد أصبح لون بنطاله غامقا من البول الذي تسرب داخله.

عمل في منشرة، وعمل في مستشفى للأمراض المعدية لعلاج الدفتيريا. أخذ بغلاً هرماً من مُزارع مقابل عمله. وتعُود ولادة هذا البغل إلى ربيع عام (1849). امتطاه عبر ما يعرف اليوم بجمهورية (فريدونيا)، إلى مدينة(ناكوجدوتشيز).

* * *

كان القسيس (غرين) يلعب حتى يحصل على فول في لعبة البوكر يومياً ما دام المطر يهطل، وقد استمر هطول المطر أسبوعين. عندما انحنى الصبي ليدخل الخيمة المليئة بالفئران لم يجد مكانا للوقوف إلا بجانب الحائط. كان يوجد مكان أو اثنان ورائحة كريهة قوية تصدر من أناس مبللين لم يستحموا لدرجة أنهم هم أنفسهم كانوا يندفعون إلى الخارج تحت المطر المنهمر بغزارة بين الفينة والأخرى لاستنشاق الهواء النقي قبل أن يدفعهم هطول المطر إلى الدخول مرة ثانية. وقف مع أشخاص على شاكلته على طول الحائط الخلفي. الشيء الوحيد الذي كان يمكن أن يميّزه عن ذلك الحشد هو انه لم يكن مسلّحاً.

اخوتي في الإنسانية، قال القسيس. لم يستطع أن يبقى خارج تلك الأماكن المثيرة للاشمئزاز، تلك الأماكن القذرة هنا في (ناكوجدوتشيز)، قلت له، قال: هل ستأخذ ابن الرَّب معك إلى هناك؟ قال: آه لا لا لن أفعل. قلت: ألا تعلم أنه قال بأنه سيتبعك دائماً حتى إلى آخر العالم؟

قال: حسنا، أنا لم أطلب من أي شخص أن يذهب إلى أي مكان. قلت: يا أخي، لست بحاجة لأن تطلب. فهو سيكون معك هناك في

كل خطوةٍ تخطوها، سواء أطلبت منه ذلك أم لم تطلب. وقلت: يا أخي لا يمكنك الانفصال عنه. والآن هل ستجرّه إلى ذلك المكان القذر هذا؟

هل رأيت في حياتك مكاناً تهطل فيه الأمطار بغزارة مثل هذا المكان؟

كان الصبي يراقب القسيس. استدار نحو الرجل الذي تكلم. كان له شاربان طويلان على غرار سائقي الشاحنات، ويرتدي قبعة ذات حافة عريضة وقمة مستديرة منخفضة. كان عنده حول بسيط في عينيه وهو يراقب الصبي بجدية وكأنه كان يعرف رأيه بشأن المطر.

لقد جئت للتو إلى هنا، قال الصبي.

حسنا إنها تفوق كل ما رأيته في حياتي.

أومأ الصبي برأسه. دخل الخيمة رجل يرتدي معطفاً واقياً من المطر مصنوعاً من قماش مشمع وخلع قبعته. كان اصلعاً كالحجر ولم يكن يظهر على وجهه أي أثر لشعر لحية، ولم يكن لعينيه حاجبان ولا حتى رموش. كان طوله يصل إلى سبعة أقدام، تقريبا. وقف يدخن سيجارا بالرغم من وجوده في بيت الرَّب البدائي ، ويبدو أنه خلع قبعته فقط من أجل أن يُسقط عنها المطر، فقد لبسها الآن مرة ثانية.

توقف القسيس عن إلقاء خطبته الوعظية تماما. وخيّم الصمت على الخيمة. كان الجميع يراقبون الرجل. عدّل قبعته وشق طريقه متجها حتى حافة منصة المنبر حيث كان يقف القسيس، واستدار

ليخاطب جماعة المصلين. كان وجهه هادئاً صافياً وطفولياً بشكل غريب. كانت يداه صغيرتين وكان يمدهما إلى الأمام.

سيداتي وسادتي، أشعر أنه من واجبي أن أعلمكم أن الرجل الذي يعقد هذا الاجتماع الديني ما هو إلا أفاك دجال. إنه لا يحمل أي شهادات لاهوتية من أي معهد معترف به أو غير رسمي. انه مجردٌ تماما من أدنى كفاءة تؤهله لهذا المنصب الذي اغتصبه، وهو يحفظ فقط بضعة مقاطع من الكتاب المقدس بهدف إضفاء نكهة خفيفة لمواعظه المخادعة من التقوى التي يحتقرها. في الحقيقة، أن الرجل المحترم الذي يقف أمامكم هنا ويتظاهر بأنه قسيس، ما هو إلا رجل أمّي ومطلوب للعدالة في ولايات (تينيسي) و(كنتاكي) و(ميسيسيبي) و(أركنسا).

يا إلهي، صرخ القسيس، أكاذيب، افتراءات! وبدأ يقرأ بانفعال شديد من إنجيله المفتوح.

ومع تنوع التهم الموجهةِ إليه، كانت آخرها تورطه مع فتاة في الحادية عشرة من عمرها - لقد قلت الحادية عشرة - التي أتت إليه لتكون في رعايته ففاجأها بالاعتداء عليها وهو يرتدي زي رجال الدين المميز.

صدر أنين من بين الحشد. وجثمت سيدة على ركبتيها.

إنه هو، صرخ القسيس وهو يجهش بالبكاء، إنه هو. الشيطان. انه يقف هنا.

لنشنق ذلك القذر، صرخ قاطع طريق قبيح من الجمهور يجلس في المؤخرة.

قبل ذلك بأقل من بثلاثة أسابيع طُرد من (فورت سميث أركنسا) لجامعته عنزة. نعم سيدتي، هذا ما قلته عنزة.

لتصب اللعنة على عيني إن لم أقتل ابن العاهرة، قال رجل ظهر في الجانب البعيد من الخيمة، وسحب مسدسا من حذائه عالي الساق وصوبه نحوه ثم أطلق النار.

أخرج سائق الشاحنة الشاب سكينا من ملابسه بسرعة وفتق الخيمة ثم خرج في المطر. تبعه الصبي. حنيا رأسيهما وركضا عبر الوحل باتجاه الفندق. عندئذ عمّ إطلاق النار الخيمة كلها ومُزقت عدة مخارج في جوانب الخيمة وتدفق الناس إلى الخارج. نساء يصرخن وأناس يتعثرون وآخرون يُداسون تحت الأقدام في الوحل. وصل الصبي وصديقه إلى ردهة الفندق ومسحا المطر عن أعينهما والتفتا لمشاهدة ما حدث. في الوقت الذي التفتا فيه بدأت الخيمة تتمايل وتنثني، ومثل قنديل بحر ضخم ومجروح، استقرت ببطء على الأرض وانسحبت جوانب الخيمة البالية وحبال الشد الرثة على الأرض.

عندما دخلا، كان الرجل الأصلع موجودا وراء البار. وعلى الخشب المصقول أمامه كانت توجد قبعتان وحفنتان من القطع النقدية. رفع كأسه ولكن ليس لهما. وقفا عند البار وطلبا ويسكي

ووضع الصبي نقوده على الطاولة، ولكن الساقي دفعها اليه بإبهامه وأومأ برأسه.

هذه على حساب القاضي. قال الساقي.

شربا الويسكي. وضع سائق الشاحنة كأسه ونظر إلى الصبي، أو يبدو كأنه نظر إليه. لا يمكنك الجزم أين كان يحدق. نظر الصبي بلا مبالاة إلى البار حيث يقف القاضي. لقد كان البار عاليا بحيث لا يمكن لكل رجل أن يضع فوقه كوعيه، ولكنه كان يصل إلى مستوى خصر القاضي فقط، ويداه منبسطتان على الخشب، كان متكئاً بخفة على البار وكأنه على وشك أن يقدّم خطاباً ثانياً. واجتمع الرجال حول القاضي، وتم اختيار مجموعة لمطاردة الواعظ.

أيها القاضي، كيف تمكنت من الحصول على هذه البينات المثبتة على ذلك التافه؟

بينات؟ قال القاضي.

متى كنت في (فورت سميث)؟

(فورت سميث)؟

أين عرفته ليكون عندك كل هذه المعلومات عنه؟

هل تقصد القسيس (غرين)؟

نعم يا سيدي، أظن انك كنت في (فورت سميث) قبل أن تأتي إلى هنا.

لم أكن يوماً في حياتي في (فورت سميث). أشك أنه كان هناك.

نظر كل منهما إلى الآخر.

حسنا، أين كان لقاؤك به؟

لم تقع عيناي على هذا الرجل قبل اليوم. حتى أني لم أسمع به أبدا.

رفع كأسه وشرب.

خيّم على الغرفة صمت غريب. وبدا الرجال كأنهم تماثيل من الطين. أخيرا بدأ أحدهم يضحك، ومن ثم آخر، وسرعان ما أخذ الجميع بالضحك معا. واشترى أحدهم مشروبا للقاضي.

* * *

كان قد مضى ستة عشر يوماً على هطول المطر عندما قابل (تودفين)، وكان هطول المطر مستمراً. وهو ما يزال يقف في نفس الحانة، وأنفق كل ماله على المشروب وبقي معه دولاران. كان سائق الشاحنة قد ذهب، والغرفة شبه خالية، والباب مفتوحاً بحيث يمكنك رؤية المطر يهطل على الأرض الجرداء خلف الفندق. شرب كأسه حتى آخر قطرة وخرج. كانت هناك ألواح موضوعة فوق الوحل، واتبع شريط الضوء الخافت المنبعث من الباب باتجاه المراحيض الخارجية في آخر قطعة الأرض. أقبل رجل آخر من المراحيض

الخارجية فتقابلا في منتصف الطريق على قطعة خشبية ضيقة. كان الرجل الذي أمامه يترنح قليلا، وسقط من حافة قبعته المبللة ماء على كتفيه، ما عدا الجهة الأمامية المثبتة إلى الخلف. كان يحمل زجاجة بتراخي بيد واحدة وقال: من الأفضل لك إن تبتعد عن طريقي.

لم يكن الصبي ليفعل ذلك، ووجد أنه لا فائدة من مناقشة الأمر. فركل الرجل في فكه. فوقع الرجل ثم نهض ثانية وقال: سأقتلك.

لوّح بالزجاجة فانحنى الصبي، ثم لوّح ثانية، فتراجع الصبي إلى الوراء. عندما ضربه الصبي كسر الرجل الزجاجة على جانب رأسه. نزل عن الألواح الخشبية داخل الوحل. واندفع الرجل وراءه حاملا عنق الزجاجة المسنن محاولاً أن يغرزها في عينه. كان الصبي يدافع عن نفسه بيديه وكانتا مضرجتين بالدماء. استمر في محاولة الوصول إلى سكينه الموجودة في حذائه طويل الساق.

عليك اللعنة، قال الرجل، وتعاركا بقوة في ظلمة المكان وقد خلعا أحذيتهما. الصبي يحمل الآن سكينه وهما يدوران كسرطان البحر، وعندما ترنح الرجل نحوه قطع الصبي قميص الرجل. رمى الرجل عنق الزجاجة أرضاً وأخرج خنجراً من غمده الموجود خلف رقبته. سقطت قبعته وتأرجحت خصل شعره السوداء الدبقة حول رأسه، ويلخص تهديداته في كلمة واحدة (أقتل) كأنشودة مجنونة.

هذا رجل ثمل، قال واحد من مجموعة الرجال الواقفين على طول الطريق يراقبون.

اقتل، اقتل، قالها الرجل بطريقة صبيانية وهو يمشي في الوحل إلى الأمام. إلا أن أحدهم كان آتيا إلى المكان، ينطق ألفاظاً بصوت يشبه خوار البقر باستمرار وبحماس، وكان يحمل هراوة ضخمة. وصل إلى الصبي أولاً، وعندما لوّح بالهراوة سقط الصبي على وجهه في الوحل. كان من الممكن أن يموت لو لم يقلبه أحدهم على ظهره.

عندما أفاق كان الوقت نهاراً وقد توقف المطر وكان ينظر إلى الأعلى في وجه رجل طويل الشعر مغطى تماما بالطين. وكان الرجل يقول له شيئاً ما.

ماذا؟ قال الصبي.

قلت: متعادلان؟

متعادلان؟

متعادلان. لأنك إذا كنت تريد المزيد مني، فتأكد انك ستحصل على المزيد.

نظر إلى السماء. عالية جدا. صغيرة جدا. فيها صقر يحوم.

نظر إلى الرجل وقال: هل كُسرت رقبتي؟

نظر الرجل عبر المكان وبصق ثم نظر إلى الصبي مرة ثانية وقال: ألا تستطيع أن تنهض.

لا أعلم، لم أحاول.

لم أقصد أن أكسر رقبتك.

حقاً.

قصدت قتلك.

لم يسبق أن تجرأ أحد على فعل ذلك من قبل. تشبث بالوحل ودفع نفسه إلى الأعلى. كان الرجل جالساً على قطعة خشب ثقيلة وثخينة والى جانبه حذاؤه، قال: لم تصب بأي أذى.

نظر الصبي بحذر وهو متيبس نحو ضوء النهار وقال: أين حذائي؟

نظر الرجل إليه شزراً. سقطت من وجهه قشور الطين الجاف. سأكون مضطرا لقتل أي ابن عاهرة إذا أخذوا حذائي.

هناك، يبدو أنها واحدة منهما.

بذل الصبي جهدا مضنيا للخروج من الوحل ثم أحضر فردة حذاء واحدة وخاض في الوحل في الساحة وهو يشعر بكتل الطين، وقال: أهذه سكينك؟

نظر إليه الرجل شزراً وقال: يبدو أنها هي.

قذفها الصبي إليه، فانحنى الرجل والتقطها ثم مسح حافتها الضخمة برجل بنطاله. ظننت أن أحدهم قد سرقِك، قال مخاطبا السكين.

وجد الصبي فردة الحذاء الثانية، ثم أتى وجلس على الألواح الخشبية. بدت يداه ضخمتين بسبب الوحل الملتصق بهما. مسح إحداهما بسرعة بركبته وتركها تسقط مرة ثانية.

جلسا هناك جنباً إلى جنب ينظران عبر الأرض الجرداء. عند حافة الأرض ثُبت سياج بأوتاد، ووراء السياج كان هناك ولد يسحب الماء من بئر، ودجاجات في الساحة. أتى رجل من باب الحانة وذهب باتجاه المرحاض الخارجي. توقف حيث يجلسان ونظر إليهما ثم تابع مسيره داخل الوحل. بعد برهة عاد ومشى في الوحل مرة ثانية ثم استدار واستمر في سيره.

نظر الصبي إلى الرجل. كان رأسه ضيقا بشكل غريب وشعره متلاصقاً مع بعضه بالوحل بشكل تسريحة بدائية وعجيبة. وقد كُوي على جبهته حرفي (H,T)، وأسفل منهما، تقريبا بين العينين كُوي حرف (F)، وهذه العلامات كانت مفلطحة ومزخرفة وكأن الحديد المحمى كان قد تُرك لفترة طويلة عليها. عندما التفت لينظر إلى الصبي، لاحظ الصبي أن ليس للرجل أذنين. وقف الرجل وغمد السكين ثم بدأ في المشي وهو يحمل حذاءه بيده، فنهض الصبي ولحق به. في منتصف الطريق إلى الفندق توقف الرجل وألقى نظرة على الوحل ثم جلس على ألواح الخشب ولبس حذاءه وهو مليء بالطين، ونهض وخاض في الوحل ليلتقط شيئاً ما.

قال: أريدك أن تنظر هنا، انظر إلى قبعتي الملعونة.

لن تستطيع أن تكتشف ما هي. شيء رث. قذفها ثم سحبها فوق رأسه، واستمر بالمشي والصبي يتبعه.

كانت الحانة عبارة عن قاعة ضيقة وطويلة، مكسوة بألواح خشبية مصقولة، وكانت الطاولات بجانب الحائط، ومبصقات على الأرض. لم يكن هناك زبائن. رفع الساقي نظره عندما دخلا. وسند زنجي كان يكنس الأرض المكنسة على الحائط ثم خرج.

أين (سيدني)؟ قال الرجل المرتدي بذلة من الوحل.

في السرير على ما أعتقد.

استمرا في كلامهما.

(تودفين)، نادى الساقي.

نظر الصبي إلى الخلف.

خرج الساقي من وراء البار وكان ينظر إليهما. عبرا الباب من خلال بهو الفندق باتجاه الدرج، مُخلّفين وراءهما أشكالاً من الطين على الأرض. عندما بدآ صعود الدرج، اتكأ الموظف الجالس على طاولة المكتب، وناداهما.

(تودفين).

توقف ونظر خلفه.

سيُطلق عليك الرصاص.

(سيدني) العجوز؟

(سيدني) العجوز.

صعدا الدرج. في أعلى الدرج كان يوجد بهو طويل ينتهي بضوء نافذة. وكانت هناك أبواب مصقولة على الجدران ومتقاربة من بعضها البعض، كان من الممكن أن تكون خزائن حائط. استمر (تودفين) بالمسير حتى وصل نهاية البهو. أصغى عند الباب الأخير، وحدّق بالصبي.

هل لديك عود ثقاب؟

بحث الصبي في جيوبه وأخرج علبة خشبية مهشمة وملطخة.

أخذ الرجل العلبة منه وقال: نحتاج هنا إلى بعض ما يسهُل اشتعاله. كان يفتت العلبة ويكدس القطع الصغيرة بجانب الباب، وأشعل عود الثقاب في القطع. ثم دفع بالكومة الصغيرة من الخشب المحترق تحت الباب وأضاف المزيد من أعواد الثقاب.

هل هو في الداخل؟ قال الولد.

هذا ما نحاول أن نعرفه

ارتفعت لفة داكنة من الدخان، لهيب أزرق من الورنيش المحترق. جثما في الردهة وأخذا يراقبان. ألسنة لهب رفيعة أخذت ترتفع فوق ألواح الخشب، ثم تندفع بقوة إلى الخلف مرة ثانية. بدا المشاهدان كأنهما أشكال استُخرجت من مستنقع.

أنقر على الباب الآن. قال (تودفين).

نهض الصبي ووقف (تودفين) ينتظر. وكان بإمكانهما أن يسمعا فرقعة ألسنة اللهب داخل الغرفة. نقر الصبي الباب.

من الأفضل أن تضرب بقوة أكثر من ذلك، فهذا الرجل ميال للشرب.

كوّر الصبي قبضته وضرب الباب حوالي خمس مرات.

نار جهنم، قال صوت ما.

ها قد أتى.

وانتظرا.

أنت، يا ابن العاهرة، قال الصوت. ثم دارت القبضة وفُتح الباب.

وقف بملابسه الداخلية وهو يمسك بيده المنشفة التي استخدمها لإدارة قبضة الباب. عندما رآهما التفت وعاد إلى الغرفة، ولكن (تودفين) قبض على رقبته وطرحه أرضاً ثم امسكه من شعره وبدأ ينتزع عينه بإبهامه. فأمسك الرجل بمعصمه وعضه.

إركل فمه، صرخ (تودفين)، إركله.

تقدم الصبي من أمامهما إلى الغرفة والتفت ثم ركل الرجل في وجهه. وأمسك (تودفين) برأسه وسحبه من شعره إلى الخلف.

إركله، صرخ، آوه، إركله يا عزيزي.

فركله.

أدار (تودفين) الرأس المضرج بالدماء ونظر إليه ثم تركه يخبط في الأرض ثم نهض وركل الرجل بنفسه. اثنان من المشاهدين كانا يقفان في الردهة. وكان الباب قد احترق تماما وكذلك جزء من الحائط ومن

السقف. خرجا ونزلا إلى البهو. كان كاتب الفندق صاعداً الدرج كل درجتين معا.

(تودفين)، يا ابن العاهرة، قال له.

كان (تودفين) فوقه بأربع درجات، وعندما ركله أصابه بمقدّم العنق. جلس كاتب الفندق على الدرج، وعندما مر به الصبي ضربه على جانب رأسه فوقع كاتب الفندق وانزلق باتجاه منصة الدرج. داس الصبي فوقه وسار إلى البهو عبر الباب الأمامي ثم خرج.

كان (تودفين) يركض في الشارع ويلوّح بقبضتيه فوق رأسه بجنون وهو يضحك. كان يبدو كلعبة "فودو" ضخمة مصنوعة من الطين دبّت فيها الحياة، وكان الصبي يبدو كلعبة ثانية. من خلفهما كانت ألسنة اللهب تلتهم الزاوية العلوية من الفندق وارتفعت سحب من الدخان الحالك في صباح (تكساس) الدافئ.

كان قد ترك البغل عند عائلة مكسيكية تؤوي الحيوانات في طرف المدينة، وقد وصل إليها كالمتوحش وكان مقطوع النفس. فتحت المرأة الباب ونظرت إليه.

أريد أن استعيد بغلي. قالها وهو يتنفس بجهد ومحدثا صوت صفير.

نظرت إليه مرة أخرى، ثم نادت من خلف المنزل. سار حول المنزل ورأى خيولاً مقيدة بحبال طويلة لترعى في الأرض، وكانت هناك عربة ذات مقعد مسطح بجانب السياج وتجلس على طرفه ديوك

رومي تطل من فوق السياج. جاءت السيدة العجوز إلى الباب الخلفي ونادت (نيتو)، تعال. هيه لدينا فارس هنا. تعال. (بالإسبانية)

نزل من السقيفة باتجاه غرفة عدة الفرس وأخذ سرجه الرث ودثاره ثم أحضرهما معه. وجد البغل فحلَّ مربطه ثم لجمه برسن مصنوع من جلد غير مصبوغ وقاده إلى السياج. اتكأ بكتفه على الدابة ورفع السرج فوقها وربطه بإحكام. جفل البغل وصار يحرك رأسه بسرعة على طول السياج، فقاده عبر الحقل، واستمر البغل يهز رأسه يمنة ويسرة وكأنما دخل شيء ما في أذنه.

جرّه إلى الطريق في الخارج، وعندما مرّ بالمنزل ظهرت المرأة العجوز ومشت خلفه بخطى خافته، وعندما رأته يضع رجله في الركِاب أخذت تركض. كان يتأرجح على السرج المكسور وربّت على البغل ليتقدم. توقفت المرأة عند البوابة وراقبته وهو يرحل. لم ينظر خلفه.

عندما مر عبر البلدة في طريق العودة كان الفندق يحترق وكان الرجال يقفون حوله يراقبونه، بعضهم يحمل دلاء فارغة. بضعة رجال كانوا على صهوة جيادهم يراقبون ألسنة اللهب، وكان أحدهم هو القاضي. عندما مر الصبي بجانب القاضي، التفت ونظر إليه، ثم أدار الحصان وكأنما أراد للحصان أن يشاهد أيضا. عندما نظر الصبي إلى الخلف ابتسم القاضي. حرّك الصبي البغل وانطلقا غربا على طول الطريق مارَيْن بالحصن الحجري القديم.

* * *

-2-

عبر البراري - الناسك - قلب زنجي - ليلة عاصفة - باتجاه الغرب ثانية - سائقو قطعان الماشية- لطفهم - على الأثر ثانية - عربة الموتى - سان أنتونيو دي بكسار - حانة مكسيكية - قتال آخر - الكنيسة المهجورة - الميت في غرفة المقدسات - عند مخاضة النهر - استحمام في النهر.

* * *

جاءت الآن أيام التسول، أيام السرقة. أيام ركوب الخيل في أماكن لم يكن يركب فيها أحدٌ سواه. لقد خلّف وراءه موطن شجر الصنوبر، وأمامه تميل شمس المساء إلى الغروب خلف الأرض اللامتناهية، ويسقط الظلام كقصف الرعد وتُحرِّك الرياح الباردة الأعشاب فتصطك ببعضها كصرير الأسنان. تمتد سماء الليل الباردة المليئة بالنجوم لدرجة لا يبقى مكان للسواد فيها، وتسقط طوال الليل في أقواس حادة. وبالرغم من ذلك فإن أعدادها لا تنقص.

لقد تجنب طريق المَلِك خوفا من المواطنين. كانت ذئاب البرّية الصغيرة تعوي طوال الليل، وطلع عليه الفجر وهو بين الأعشاب

المتجعدة حيث اختبأ من الرياح . ووقف البغل الأعرج بجانبه يراقب الشرق منتظرا ضوء النهار.

كانت الشمس البازغة بلون أزرق ضارب إلى الرمادي. سقط ظله المرتفع أمامه لأميال. كان يرتدي على رأسه قبعة صنعها بنفسه من أوراق الأشجار التي جفت وتكسرت بسبب الشمس وأصبح يبدو كرجل أشعث شَرَد من بستان ما حيث كان يُستخدم فيه كفزاعة طيور.

عندما أتى المساء تتبع عموداً لولبياً من الدخان يرتفع بشكل مائل من بين التلال المنخفضة. وقبل المساء صاح مناديا عند مدخل باب ناسك عجوز مسترخ على العشب مثل الحيوان الكسلان. كان وحيدا ونصف مجنون. كانت حواف عينه محمَّرة وكأنهما محجوزتان في جحريهما وراء أسلاك متوهجة. ولكن كان له جسد ثقيل. وكان يراقب بصمت بينما كان الصبي ينزل عن البغل وهو متيبس. هبّت ريحٌ قاسية طيَّرت الخِرق الرثة التي كان يرتديها.

رأيت دخانك، قال الصبي. هل يمكنك أن تؤمـّن شربة ماء لرجل.

حكَّ الناسك العجوز شعره الأشعث القذر ونظر الى الأرض ثم التفت ودخل إلى الكوخ وتبعه الصبي.

في الداخل كان هناك ظلام ورائحة للأرض. وكانت تشتعل نار صغيرة فوق الأرض الترابية، وقطعة الأثاث الوحيدة التي كانت

موجودة هي كومة من جلود الحيوانات مركونة في إحدى الزوايا. كان الرجل العجوز يجرُّ قدميه متثاقلا عبر الظلام ورأسه محني لكي لا يرتطم بالسقف المنخفض المصنوع من الأغصان المحبوكة والطين. وأشار إلى حيث يوجد دلو موضوع وسط التراب. كان الماء مالحا وكبريتيا. كان يشرب منه.

أتعتقد أنه يمكنني أن أسقي بغلي هناك؟،

بدأ الرجل العجوز بضرب كفه بقبضة يده ورَشَقَه بِنَظرة حادة.

إنني مستعد لإحضار بعض الماء النقي، أخبرني فقط أين أجده.

بماذا تنوي أن تسقيه؟

نظر الصبي إلى الدلو ثم نظر حوله في الكوخ المظلم.

أنا لا أشرب بعد البغل، قال الناسك.

ألا يوجد لديك لا دلو قديم ولا أي شيء.

لا، صرخ الناسك، لا، لا يوجد لدي . كان يضرب مؤخرة قبضتيه المغلقتين بإحكام مع بعضهما على صدره.

نهض الصبي ونظر باتجاه الباب وقال: سأحاول أن أجد شيئا. أين توجد البئر؟

أعلى التلة، اتبع الطريق.

إنها معتمة جداً لدرجة أنه لا يمكن الرؤيا في الظلام الحالك في الخارج.

إنها طريق صعبة. اتبع قدميك. اتبع بغلك. أنا لا أستطيع الذهاب.

خطى إلى الخارج في الريح وبحث عن البغل، ولكنه لم يكن هناك. بعيداً إلى الجنوب توهج البرق دون صوت. مشى في الطريق بين الأعشاب المتناثرة، ووجد البغل عند البئر.

كان عبارة عن حفرة في الرمل تتكوَّم حولها حجارة. وتغطيها قطعة جافة من جلد حيوان. وفوقها حجرٌ ليثبتها. كان هناك دلو ومقبض من جلد غير مدبوغ وحبل من جلد مُشحَّم. كان للدلو حجر مربوط بالمقبض ليتمكن من إمالته وملئه فقام بإنزاله حتى تدلى الحبل من يده وكان البغل يراقب من فوق كتفه.

سحب ثلاثة دلاء ممتلئة وحملها هو لكي لا يسكبها البغل ثم أعاد الغطاء فوق البئر وساق البغل عائداً إلى الكوخ.

أشكرك على الماء، صاح .

ظهر الناسك عند الباب المظلم وقال: ابقَ معي.

حسنا.

من الأفضل أن تبقى، يبدو أن هناك عاصفة قادمة.

هل تعتقد؟

أعتقد، وأعتقد قريباً.

حسناً.

سأحضر لك سريراً، سآتيك بالمتوفر.

فكَّ حزام السرج وألقاه وشدَّ رجل البغل الأمامية إلى الخلف وأخذ فراشه الملفوف إلى الداخل. لم يكن هناك ضوء إلا ضوء النار، وكان الرجل العجوز يجثو بجانبها.

وقال: في أي مكان، في أي مكان، أين وضعت السرج؟

أشار الصبي بذقنه.

لا تتركه في الخارج يا صاحبي فقد يأكله شيء ما. هذا بلدٌ جائع.

خرج وسار باتجاه البغل في الظلام. كان البغل يقف وينظر إلى النار في الداخل.

اذهب من هنا أيها الغبي. قال له. أخذ السرج وعاد إلى الداخل.

والآن أغلق الباب قبل أن نطير إلى الخارج، قال الرجل العجوز.

كان الباب عبارة عن ألواح من الخشب مركّبة على مفصلات جلدية. سحبه فوق التراب وثبته بالمزلاج الجلدي.

أظن أنك قد أضعت طريقك، قال الناسك.

لا، بل ذهبت إليه مباشرة.

لوَّح الرجل العجوز سريعاً بيده، وقال: لا، لا، أقصد أنك أضعت طريقك ولذلك أتيت إلى هنا، هل كان بسبب عواصف رملية؟ هل انحرفت عن الطريق في الليل؟ هل هاجمك اللصوص؟

تأمل الصبي في كلامه وقال: نعم لقد انحرفنا عن الطريق بشكل أو بآخر.

لقد عرفت أن ذلك قد حدث.

منذ متى وأنت هنا؟

هنا أين؟

كان الصبي يجلس على بطانيته بجانب النار على الجهة المقابلة للرجل العجوز، وقال: هنا في هذا المكان.

لم يُجب الرجل العجوز وأدار رأسه جانبا فجأة ثم أمسك أنفه بين إبهامه وسبابته ونفخ خطين من المخاط على الأرض ومسح أصابعه بدرزات بنطاله الجينز. لقد أتيت من الميسيسبي. لقد كنت نخاسا. لا أرغب في الحديث عن ذلك، لقد كسبت نقودا جيدة. ولم يُـقبَض علي أبدا. ولكني قَرِفْت ذلك العمل. قَرِفْت الزنوج. إنتظر حتى أريك شيئا.

استدار وأخذ يُنقِّب بين جلود الحيوانات ثم أعطاه من بين ألسنة اللهب شيئا أسود صغيراً. قلّبه الصبي بين يديه. إنه قلب رجل ما، لقد جفّ واسْوَدّ. أعاده إليه. هزَّه الرجل العجوز في راحة يده وكأنه يزنه.

قال: هناك أربعة أشياء يمكن أن تُدمِّر الأرض، النساء والويسكي والمال والزنوج.

جلسا في صمت. كانت الرياح تئن داخل ماسورة الموقد التي كانت تمر من خلال السقف فوقهم لتُخلِّص المكان من الدخان. بعد برهة وضع الرجل القلب جانباً.

قال: لقد كلّفني هذا الشيء مائتي دولار.

دفعت مائتي دولار مقابل هذا؟

نعم، هذا هو الثمن الذي وضعوه مقابل هذا الشيء الذي كان يتعلّق داخل ذلك الأسود ابن العاهرة.

أسرَعَ إلى الزاوية وأحضَرَ غلاّية نحاسية قاتمة. رفع الغطاء ليبحث داخلها بفضول وبإصبع واحد. بقايا أحد الأرانب البرية مغموراً بالزيت البارد وعلى فرائه عفن أزرق فاتح. ثبَّت الغطاء على الغلاية ووضعها على النار. وقال: لا يوجد الكثير ولكننا سنتقاسمه.

أشكرك.

أضعت طريقك في الظلام. قال الرجل العجوز. حرَّك النار واخرج أنياباً عظمية رفيعة من داخل الرماد.

لم يُجبه الصبي.

هزّ الرجل العجوز رأسه إلى الأمام والخلف. إن طريق الآثم صعبة. لقد صنع الرَّب هذا العالم، ولكن لم يصنعه بحيث يناسب كل شخص. أليس كذلك؟.

لا أعتقد أنه كان يفكر فيّ.

آه، قال الرجل العجوز. من أين يكتسب الرجل عقائده، أي عالَم رآه وأعجبه أكثر؟

أستطيع أن أفكر بأماكن أفضل وطرق أفضل.

هل يمكنك تحقيق ذلك؟

لا.

لا، إنه لغز. إن الإنسان في صراع ليعرف عقله، لأن عقله الذي يعرف به الأشياء فارغ. يستطيع أن يعرف بقـلبه، ولكنه لا يرغب بذلك، هكذا هي الحقيقة. من الأفضل أن لا تنظر بداخلك. إنه ليس قلب المخلوق الذي يتجه إلى الطريق التي حددها له الرَّب. يمكنك أن تجد دناءة في أحقر المخلوقات. ولكن عندما خلق الرَّب الإنسان كان الشيطان على مقربة منه. إنه مخلوق قادر على فعل كل شيء. إصنع آلة والآلة تصنع آلة. والشيطان الذي استطاع أن يستمر آلاف السنين، لا يحتاج إلى فعل ذلك. هل تصدق هذا؟

لا أعرف.

صدِّقه.

عندما سَخَنَ طعام الرجل العجوز قسَّمه حصصا وأكلا بصمت.

كان الرعد يتحرك شمالاً، ولم يمض زمنٌ طويل حتى كان يدوِّي فوق رأسيهما، وأخذت قطع صغيرة من الصدأ تتدفق بقوة مفاجئة

على شكل خيوطٍ رفيعة من ماسورة الموقد. جثيا فوق صحنيهما ومسحا الدهن بأصابعهما وشربا من وعاء اليقطينة.

خرج الصبي ونظّف صحنه وكأسه بالرمل ثم عاد وضرب الصفائح ببعضها وكأنه يريد أن يتقي شبح الوادي السحيق في الظلام. ارتفعت السحب القزعية(*) البعيدة عالياً وارتعشت قبالة السماء المشحونة ثم ابتُلعت في الظلام ثانية. جلس الرجل العجوز وقد انتصبت إحدى أذنيه باتجاه صوت العصف في الأرض القاحلة المترامية في الخارج. أغلق الصبي الباب.

هل تحمل معك ورق اللعب؟

لا، ليس لدي. قال الصبي.

لم يُسمح لك أن تلعب.

هل تظن أنها ستمطر؟

لا فرصة لذلك، المرجح أنها لن تمطر.

كان الصبي يراقب النار، وكان يومئ برأسه. في النهاية نهض وهز رأسه. كان الناسك يراقبه من فوق ألسنة اللهب التي بدأت تخمد. وقال: هيا اذهب وجهِّز سريرك.

(*) تُرى قبل العاصفة الرعدية.

فعل كما قال له الناسك، وفَرَشَ بطانيته على الطين المكوَّم وخلع حذاءه النتن. كانت ماسورة المدخنة تدوِّي وسَمِع البغل يضرب بحوافره ويخن في الخارج. كان الصبي يعاني في نومه ويتمتم ككلب يحلم.

استيقظ في وقت ما من الليل فوجد الكوخ يغرق في ظلام دامس والناسك ينحني فوقه وهو في سريره.

ماذا تريد؟ قال الصبي. ولكن الناسك زحف مبتعدا. عندما أفاق في الصباح كان الكوخ فارغا، فحزم أشياءه ورحل.

طوال ذلك اليوم كان يراقب باتجاه الشمال خطا رفيعا من الغبار. كان يبدو وكأنه لا يتحرك نهائيا، وكان الوقت متأخرا مساء قبل أن يراه يتجه نحو طريقه. عَبَرَ غابة البلوط الحيّ ثم ارتوى من جدول وتابع مسيره في الغسق وخَيَّم بدون إشعال نار. أيقظته العصافير حيث كان يستلقي في غابة جافة ومغبَّرة.

بحلول وقت الظهيرة كان في البرية مرة ثانية وقد امتد خيط الغبار المتجه إلى الشمال على طول حافة الأرض. عند المساء ظهر للعيان أول قطيع مواشٍ، ووحوش ممشوقة ضارية ذات قرون طويلة وضخمة. في تلك الليلة، جلس في خيمة الرعاة وأكل الفاصولياء وخبز البحارة وسمع قصصاً عن الحياة في القفر.

جاؤوا من (أبيلين)، وكانوا قد خرجوا منذ أربعين يوماً، في طريقهم إلى الأسواق في (لويزيانا). كانت تتبعهم قطعان من الذئاب، والهنود. كان القطيع يئن من حولهم لعدة أميال في الظلام.

لم يسألوه أي سؤال، وكانوا هم أنفسهم مجموعة من المشردين. بعضهم هجين وبعضهم زنوج أحرار، وهندي أو اثنان.

قال: لقد سُرقت ملابسي.

أومأوا برؤوسهم في ضوء النار.

لقد سرقوا كل شيء أملكه. أنا لا أملك حتى سكينا.

يمكنك أن تنضم إلينا. لقد فقدنا رجلين. عادا إلى (كاليفورنيا).

أنا ذاهب في ذلك الطريق.

أعتقد أنك أنت نفسك ذاهب إلى (كاليفورنيا).

ربما، لم أقرر بعد.

لقد التقى الصبية الذين كانوا معنا بمجموعة من الـ(أركنسا). وكانوا متجهين إلى (بكسار). في طريقهم إلى المكسيك والغرب.

أراهن أن أولئك الصبية يحتسون المشروب في (بكسار) حتى الثمالة.

أراهن أن (لوني) العجوز قد امتطى كل عاهرة في البلدة.

كم تبلغ المسافة إلى (بكسار)؟

حوالي يومين.

إنها أبعد من ذلك. أظن أربعة أيام على الأرجح.

كيف يمكن للمرء أن يذهب إن رغب بذلك.

تتجه نحو الجنوب مباشرة، وستعثر على الطريق خلال نصف يوم.

هل تذهب إلى (بكسار)؟

قد أفعل.

سترى (لوني) العجوز هناك، قل له أن يجامع امرأة نيابةً عني. قل له إنني (أورين) العجوز. سيشتري لك شرابا في حال لم يكن قد انفق كل نقوده على المشروب.

في الصباح تناولوا كعكاً محلىً مع دبس السكر وامتطى الرعاة جيادهم وانطلقوا. عندما وجد بغله كانت هناك حقيبة صغيرة من الألياف مربوطة في حبل الدابة وبداخلها مِلءُ كوب من الفول الجاف وبعض البهارات وسكين قديمة ذات مقبض مصنوع من الحبال. سَّرّج بغله وكان ظهر البغل متقرحا وجافا وحوافره متصدعة وأضلاعه كحسك السمك. انطلقا عبر السهل الشاسع.

وصل إلى (بكسار) في مساء اليوم الرابع وأجلس البغل المنهك على تلةٍ منخفضة ونظر إلى الأسفل على البلدة وعلى بيوت الطين الهادئة وَصفّ أشجار البلوط الخضراء وغابات شجر الحور القطني التي تُحدِّد خط النهر، كانت الساحة مزدحمة بالعربات ذات الأغطية المتينة، ونظر إلى المباني الشعبية المبيّضة، وقبة كنيسة مبنية على الطراز المغربي العربي ترتفع وسط الأشجار والمواقع العسكرية ومستودعات البارود الحجرية العالية البعيدة. حرّك نسيم خفيف سُعف النخل المصنوعة منها

قبعته، وحَرّك كذلك شعره المتلبد المجدول الدبق. كانت عيناه قاتمتين ومحفورتين في وجه مجوّف قَلِق، وكانت تنبعث رائحة نتنة من ثقوب حذائه. غربت الشمس لتوها، وإلى الغرب كانت تمتد سلاسل من الغيوم بحمرة لون الدم وترتفع منها طيور الضوع الصحراوية الصغيرة وكأنها هاربة من نار ضخمة في طرف الأرض. بصق بصقة بيضاء جافة وجمع الركاب الخشبية المتصدعة على أضلاع البغل وتحركا مترنحين مرة ثانية.

نزل في طريق رملية ضيقة، وأثناء مسيره قابل عربة موتى مربوطة بصندوق مليء بالجثث وجرس صغير يقرع على الطريق ومصباح يتأرجح من البوابة. كان يجلس على الصندوق ثلاثة رجال. هم أنفسهم لا يختلفون عن الأموات أو الأشباح بلونهم شديد البياض المشوب بلون شاحب وكأنه فوسفوري في الغسق. كان يجر العربة حصانان، صعدا إلى الطريق في جو انتشرت فيه رائحة مطهر خانق وثقيل الوطأة وتواريا عن الأنظار. التفت وراقبهما وهما يغادران. كانت أرجل الأموات العارية المتصلبة تتصادم وتتأرجح من جانب إلى جانب.

كان الظلام قد حلَّ عندما دخل البلدة تلازمه كلاب نابحة، ووجوه تزيح الستائر عن النوافذ المضاءة بالمصابيح، وصوت قعقعة حوافر البغل الخفيف يُصدِر صدى في الشوارع الخالية الضيقة. تنشّق البغل الهواء وترنّح باتجاه الزقاق إلى ساحةٍ حيث تركد في ضوء النجوم بئر ومَعلَف ومربط جياد. ترجل الصبي عن البغل وأخذ الدلو من بين

الإفريز الحجري وأنزله في البئر. أصدرت طرطشة خفيفة صوت صدى، سحب الدلو والماء يقطر منه في الظلام. غمس اليقطينة وشرب. مرغ البغل كوعه بالتراب. عندما انتهى من الشرب وضع الدلو في الشارع وجلس على الإفريز الحجري للبئر وراقب البغل وهو يشرب من الدلو.

تابع مسيره في البلدة وهو يقود الدابة. لم يكن هناك أحد. بعد قليل دخل الساحة وسمع أصوات قيثارات وبوق. في الطرف البعيد من الساحة كانت هناك أضواء تَصْدُر من مقهى وأصوات ضحك وصرخات صاخبة. اقتاد البغل إلى الساحة نحو الطرف البعيد ماراً برواق معمد طويل باتجاه الأضواء.

كان هناك فريقٌ من الراقصين في الشارع وكانوا يرتدون ملابس مبهرجة ويصرخون بالإسبانية. وقف مع بغله عند حافةِ الأضواء وأخذ يراقب. جلس رجال كبار في السن على طول حائط الحانة، وكان الأطفال يلعبون في الغبار. وكان الجميع يرتدون ملابس غريبة، والرجال يضعون قبعات غامقة ذات قمة مسطحة وقمصان نوم بيضاء وسراويل مزودة بأزرار على طول الساق من الخارج. والبنات بوجوه مزخرفة ومطلية وأمشاط ملونة مصنوعة من عظم ظهر السلاحف على شعورهن السوداء المُزرقّة. عَبَر الصبي مع البغل الشارع وربطه ثم دخل إلى المقهى. كان عددٌ من الرجال يقفون عند البار وتوقفوا عن الكلام عندما دخل الصبي. مشى الصبي على الأرض الطينية المصقولة مارا

بكلب نائم فتح إحدى عينيه ونظر إليه، وقف الصبي عند البار ووضع يديه على سطحه المبلط. أومأ الساقي له، وقال (بالإسبانية): ما طلبُك.

ليس لدي نقود ولكني أريد مشروبا. سأقوم بإخراج البراز أو أمسح الأرض أو أفعل اي شيء.

نظر الساقي عبْر الغرفة إلى حيث كان رجلان يلعبان الدومينو على الطاولة وقال (بالإسبانية): جَـدِّي.

رفع الرجل الأكبر سناً بينهما رأسه.

قال (بالإسبانية): ماذا يقول الولد.

نظر الرجل العجوز إلى الصبي ثم استدار إلى لعبة الدومينو.

هز الساقي كتفيه استهجانا.

التفت الصبي إلى الرجل العجوز وقال: هل تتكلم الأمريكية؟

نظر الرجل العجوز بعيداً عن لعبته، وحدَّق بالصبي بدون أي تعبير.

أخبِره أنني ساعمل من أجل الحصول على مشروب. أنا لا أملك نقوداً.

دفع الرجل العجوز ذقنه وأصدر صوتا بلسانه كصوت الدجاج .

نظر الصبي إلى الساقي.

قَبَض الرجل العجوز يده ورفع إبهامه مشيرا إلى الأعلى وإصبعه الصغير يشير إلى الأسفل ثم أمال رأسه إلى الخلف وقَلَبَ المشروب

الروحي داخل حنجرته، وقال (بالإسبانية): يريد أن يتناول مشروبا ولا يستطيع الدفع.

كان الرجال عند البار يراقبون.

نظر الساقي إلى الصبي.

قال الرجل العجوز (بالإسبانية): يريد عملاً. من يعرف. واستدار إلى قطع الدومينو ولعب دوره بدون أي تفكير.

قال أحد الرجال الجالسين على البار (بالإسبانية): يُـريد أن يعمل. وانفجروا بالضحك.

على ماذا تضحكون؟ قال الصبي.

توقف الرجال عن الضحك، ونظر بعضهم إليه، والبعض الآخر زمّوا أفواههم وهزوا أكتافهم باستهجان. استدار الصبي إلى الساقي: لديك شيء يمكنني القيام به من أجل كأسين من المشروب. اللعنة، أنا أعرف ذلك جيدا.

قال أحد الرجال عند البار شيئا ما بالإسبانية. حملق الصبي بهم غاضبا. أخذوا يتغامزون ثم رفعوا كؤوسهم.

التفت مرة ثانية إلى الساقي. كانت عيناه غامقتين وضيقتين، قال: أكْنُس الأرض.

رمشَ الساقي.

خطا الصبي إلى الوراء وأخذ يقوم بحركات الكنس، كممثل في مسرحية إيمائية، جعلت الرجال في مرح صامت. قال الصبي: أكْنُس، وأشار إلى الأرض.

قال الساقي (بالإسبانية): إنها ليست قذرة.

أخذ يكنس ثانية، وقال: كَنْس، اللعنة.

هز الساقي كتفيه، وذهب الصبي إلى حافة البار وأحضر مكنسة وعاد بها. أخذ الصبي المكنسة وذهب إلى آخر الغرفة.

صالة المكان كبيرة. كَنَسَ الصبي الزوايا حيث تقف أشجار مزروعة في أوانٍ في الظلام. كَنَسَ حول المبصقات وحول اللاعبين الجالسين على الطاولة وكذلك حول الكلب. ثم كَنَسَ على طول الجهة الأمامية للبار، وعندما وصل إلى المكان الذي يقف فيه الثملون، انتصب واتكأ على المكنسة ونظر إليهم. تحدثوا فيم بينهم بصمت. في النهاية أخذ أحدهم كأسه من على البار ومشى بعيدا وتبعه الآخرون. كَنَسَ الصبي وتجاوزهم حتى وصل إلى البار.

ذهب الراقصون وتوقفت الموسيقى. كان هناك رجل يجلس عبر الشارع على مقعد مُضاء بإضاءةٍ معتمة آتية من ضوء باب المقهى. كان البغل يقف حيث ربطه. نقر بالمكنسة على الدرجات ورجع إلى الداخل وحمل المكنسة إلى الزاوية التي أحضرها منها الساقي. ثم وقف عند البار.

تجاهله الساقي.

طرقع الصبي أصابعه.

التفت الساقي ووضع إحدى يديه على وركه وزمَّ شفتيه.

ماذا عن ذلك المشروب الآن؟

تسمَّر الساقي.

أصدر الصبي الإشارات التي تعني الشُرب والتي صدرت عن الرجل العجوز. نفض الساقي منشفته عليه باستخفاف. وقال (بالإسبانية): انصرف. وقام بحركة تعني إطلاق النار بظاهر يده.

اكفهر وجه الصبي، وقال: أنت يا ابن العاهرة، وابتعد عن البار. لم تتغير تعابير وجه الساقي. وأخرج من تحت البار مسدسا حربيا قديما ذا زند مصوّن ودفع الزند إلى الوراء بمؤخرة يده. صدر صوت قرقعة الخشب القوي في الصمت، وقرقعة الكؤوس في كل الحانة. ومن ثم صوت جَرٍّ الكراسي التي دفعها اللاعبون إلى الوراء على الحائط.

تجمَّد الصبي في مكانه. وقال: أيها الرجل العجوز.

لم يُجب الرجل العجوز، وأطبق الصمت في المقهى والتفت الصبي ليقابله بعينيه.

قال الرجل العجوز (بالإسبانية): إنه ثمل.

راقب الصبي عيني الساقي.

لوّح الساقي بالمسدس باتجاه الباب.

تكلّم الرجل العجوز إلى الرجال في الغرفة بالإسبانية، ثم تكلّم إلى الساقي وارتدى قبعته وانصرف.

اكفهر وجه الساقي، وعندما أتى إلى حافة البار كان قد وضع المسدس من يده وحمل إسكابة(*) في إحدى يديه.

تراجع الصبي إلى منتصف الغرفة واتجه إليه الساقي بتثاقل، كرجل ذاهب إلى عمل روتيني، ولوَّح مرتين في وجه الصبي، فتنحى الصبي مرتين إلى اليمين، ثم خطا إلى الخلف. تجمد الساقي مكانه. دفع الصبي نفسه بشكل خفيف فوق البار والتقط المسدس. لم يتحرك أحد. مور جهاز الإطلاق على سطح البار وألقى الفتيل إلى الخارج ثم أعاد المسدس مرةً ثانية. اختار زوجاً من الزجاجات من الرفوف وراءه وتقدم إلى حافة البار حاملاً زجاجة في كل يد.

وقف الساقي في منتصف الغرفة. كان يتنفس بصعوبة والتفت متابعا حركات الصبي، عندما اقترب الصبي منه رفع الاسكابة. انحنى الصبي بخفة ومعه الزجاجتان وقام بمراوغة ثم كسر الزجاجة التي في يده اليمنى على رأس الرجل. وتناثر المشروب وانتشرت بقع الدم وانثنت ركبتا الرجل ودارت عيناه. كان الصبي قد ترك عنق الزجاجة، وقذف بالزجاجة الثانية إلى يده اليمنى كما يفعل قاطع طريق، حتى

(*) الإسكابة: سدادة ثقب البرميل.

قبل أن تصل إلى الأرض، وضرب الزجاجة الثانية بظاهر يده فوق جمجمة الساقي، ثم حشا البقايا المسننة في عينه أثناء سقوطه.

نظر الصبي حوله في الغرفة. كان بعض الرجال يحملون مسدسات في أحزمتهم، ولكن أحداً منهم لم يتحرك. قفز الصبي على البار وأخذ زجاجة أخرى ودسها تحت إبطه ثم خرج من الباب. كان الكلب قد ذهب وكذلك الرجل الذي كان على المقعد. حلَّ رباط البغل وقاده عبر الساحة.

* * *

أفاق في صحن كنيسة متهدمة وهو يرمش إلى الأعلى باتجاه السقف المقنطر والجدران العالية المختالة بلوحاتها الجصية الباهتة. كانت أرض الكنيسة قاتمة بسبب روث الطيور والمواشي والخراف الجاف. رفرف الحمَام من خلال دعامات الأضواء المغبرة وحامت ثلاثة صقور لتلتقط عظام جثة حيوان ميت في هيكل الكنيسة.

كان رأسه يؤلمه ولسانه متورماً من شدة العطش. جلس ونظر حوله. لقد وضع الزجاجة تحت سرجه فوجدها ورفعها ثم هزّها وسحب السدادة وشرب ثم جلس وعيناه مغلقتان، كانت حبات العرق تقطر من جبينه، فتح عينيه وشرب مرة ثانية. هبطت الصقور الواحد تلو الآخر وأخذت تهرول في غرفة المقدسات في الكنيسة. بعد برهة نهض وخرج ليبحث عن البغل.

لم يكن البغل في أي مكان على مدى البصر. شَغَلَ مقر الكنيسة مساحة ثمانية إلى عشرة آرات من الأرض المسيجة. إنها أرض قاحلة بمحاذاة غابة فيها بضعة أغنام وحمير. داخل الجدران الطينية للأرض المسيجة كانت توجد أماكن مسكونة بعائلات من المقيمين ونيران طهو قليلة ينبعث دخانها الرفيع نحو الشمس. مشى الصبي بجانب الكنيسة ودخل غرفة المقدسات. كانت الصقور تنتقل من مكان إلى آخر خلال القش والجبس فتبدو كطيور ضخمة. وتتلبد على القناطر ذات القبب الموجودة في الأعلى كتل من الفرو القاتم التي تتحرك وتهمس وتزقزق. وكانت في الغرفة طاولة خشبية وبضعة قدور فخارية. وعلى طول الجدار تمددت بقايا جثث كثيرة، إحداها كانت لطفل. تابع سيره عبْر غرفة المقدسات إلى داخل الكنيسة مرة ثانية وأحضر سرجه. شرب ما تبقى من المشروب في الزجاجة ووضع السرج على كتفه وخرج.

ظهرت على واجهة المبنى أشكال لجماعة من قديسين في محاريبهم كان قد أُطلق عليهم الرصاص من قِبل جنود أمريكيين كانوا يجربون بنادقهم. كانت الأشكال البشرية مقطوعة الآذان والأنوف ومزركشة بعلامات طلقات صَدِأت فوق الحجارة. وعُلِّقت الأبواب المحفورة والمزينة بالألواح على مفصلاتها، وحملت العذراء المحفورة في الحجر على ذراعيها طفلا مقطوع الرأس. وقف يَرْمش في حرارة الظهيرة ورأى آثار حوافر البغل . لقد كانت أضعف من أن تظهر في التراب. كانت قادمة من خارج باب الكنيسة واجتازت الساحة إلى البوابة على الحائط الشرقي. رفع السرج أكثر فوق كتفه ثم خرج وراء الأثر.

نهض كلب كان في الظل عند المدخل وهو يترنح ببطء إلى الخارج في الشمس إلى أن مرَّ الصبي فعاد يترنح راجعا. أخذ الصبي الطريق أسفل التلة باتجاه النهر، وكان شكله رثاً تماماً. دخل غابة جوز أمريكي وبلوط، ثم صعد الطريق، واستطاع أن يرى النهر أسفل منه. كان الرجال السود يغسلون عربة عند مخاضة النهر. نزل أسفل التلة ووقف عند حافة الماء، وبعد برهة نادى عليهم.

كانوا يُشبّعون أعمال الورنيش الأسود بالماء، ونهض أحدهم واستدار لينظر إليه. كانت الجياد تقف مغمورة حتى الركب في النهر المتدفق.

ماذا؟ صرخ الرجل الأسود.

هل رأيت بغلاً.

بغلاً؟

لقد أَضعتُ بغلاً. أعتقد أنه مرَّ من هذه الطريق .

مسح الرجل الأسود وجهه بظهر ذراعه. شيء ما نزلَ إلى الطريق قبل حوالي ساعة. أعتقد أنه ذهب في الطريق النازل نحو النهر. ربما كان بغلاً. لم يكن له ذيل ولا شعر لأقول لك. ولكن كان له أذنان طويلتان.

ابتسم الرجلان الأسودان الآخران. نظر الصبي أسفل النهر وبصق ثم ذهب على طول الطريق عبر الصفصاف والأراضي العشبية المنخفضة.

لقد وجده على بُعد مائة ياردة تقريباً في الطريق عن النهر. وكان مبتلاً حتى بطنه. رفع البغل نظره نحوه ثم عاد وأنزل رأسه داخل حشائش النهر المورقة. رمى الصبي السرج وأخذ الحبل المتدلي وربط الدابة ثم ركلها بفتور. تحرك البغل قليلا إلى الجانب وتابع الرعي. مد الصبي يده فوق رأسه، لقد فَقَدَ قبعته العجيبة في مكان ما. شق طريقه خلال الأشجار ووقف ينظر إلى دوامة الماء البارد، ثم غطس في النهر كمعمودي مُرشح بائس تماما.

* * *

-3-

السعي للانضمام إلى الجيش - مقابلة مع كابتن (وايت) - أفكاره- المعسكر- يقايض بغله - حانة في (لارديتو)- عضو في طائفة المينونايت- قُتل الرفيق.

* * *

كان يرقد عاريا تحت الشجرة وخِرقُهُ متناثرةٌ على الأغصان فوقه عندما كبحَ راكبٌ آخر، كان ينزل نحو النهر، حصانه وتوقف.

أدار راسه. من بين شجر الصفصاف كان بإمكانه رؤية أرجل الحصان. تدحرج على بطنه.

ترجَّل الرجل ووقف بجانب الحصان.

مدَّ يده وتناول مديته ذات المقبض المجدول.

هيه هناك، قال الراكب.

لم يسمع أي جواب. تحرك إلى الجانب ليرى بشكل أفضل من خلال الأغصان.

هيه هناك، أين أنت؟

ماذا تريد؟

أريد أن أتحدث إليك.

عن ماذا؟

يا للجحيم. أخرج. أنا أبيض ومسيحي.

كان الصبي يمد جسمه من خلال أشجار الصفصاف محاولا الحصول على سرواله. كان الحزام يتدلى فشدّه بقوة ولكن السروال كان معلقا على الغصن.

اللعنة، قال الرجل، إنك لست فوق الشجرة، أليس كذلك؟

لماذا لا تذهب في طريقك وتتركني وحدي بحق الجحيم.

أردت فقط التحدث إليك، لم أرِد أن أعكّر مزاجك.

لقد عكّرت مزاجي.

ألست الشخص الذي دقّ رأس ذلك المكسيكي مساء أمس؟ أنا لست رجل قانون.

من يريد أن يعرف؟

كابتن (وايت). يريد أن يضم ذلك الشخص إلى الجيش.

الجيش؟

نعم يا سيدي.

أي جيش؟

جماعة الكابتن (وايت). سنقوم بسحق المكسيكيين.

لقد انتهت الحرب.

يقول إنها لم تنته. أين أنت؟

نهض وسحب السروال إلى الأسفل من حيث علَّقَه ثم لبسه ولبس حذاءه ووضع السكين في فردة الحذاء اليمنى ثم خرج من بين أشجار الصفصاف وهو يسحب قميصه ليرتديه.

كان الرجل يجلس على العشب واضعا رِجلا فوق رِجل. كان مرتديا جلد غزال وقبعة عالية من الحرير الأسود المغبَّر، وكان يضع سيجارا مكسيكيا صغيرا بين أسنانه. عندما رأى ما الذي شق طريقه إلى الخارج من خلال الصفصاف، هزَّ رأسه.

وقال: يبدو أنك مررت بأوقاتٍ صعبة، أليس كذلك يابني؟

إنني فقط لم أَمُرُّ بأوقات جيدة.

هل أنت جاهز للذهاب إلى المكسيك؟

لم أفقد شيئا هناك.

إنها فرصتك لتحيا من جديد في العالم. من الأفضل أن تفعل شيئاً ما بطريقة أو بأخرى قبل أن تهوي إلى الحضيض.

وماذا يقدمون لك؟

كل رجل يحصل على حصان وعلى ذخيرة. وأظن أنه يمكننا إيجاد ملابس في حالتك هذه.

ليس لدي بندقية.

سنجد لك واحدة.

وماذا عن الأجور؟

يا للجحيم يا بني. لن تحتاج إلى أي أجر. يمكنك المحافظة على كل شيء تجده. سنذهب إلى المكسيك. إلى غنائم الحرب. لا يوجد رجل في الجماعة لا يصبح مالك أراضٍ. كم من الأراضي تملك أنت الآن؟

لا أعرف شيئا عن الجندية.

رمقه الرجل بعينه، وأخرج السيجار غير المشتعل من بين أسنانه وأدار رأسه وبصق ثم أعاده ثانية، وقال: من أين أنت؟

تينيسي.

تينيسي، حسنا، لا أشك، ولكن على ماذا يمكنك أن تطلق النار من البندقية.

جثم الصبي على العشب. نظر إلى حصان الرجل. كان الحصان مزوّداً بجلدٍ مُصنّع ذي حواف مشغولة بالفضة. كان له غرة بيضاء على وجهه وأربع قوائم بيضاء، وكان يقطع العشب الكثيف بقضمات كبيرة. من أين أنت، قال الصبي.

أنا موجود في (تكساس) منذ الثمانية والثلاثين . ولولا أنني قابلت كابتن (وايت) لما عرفت أين يمكن أن أكون اليوم. لقد كان شكلي مثيرا للشفقة أكثر مما أنت عليه، ولكنه أتى وبعثني إلى الحياة مثل ما حدث لـ(لازاروس)(*). وضع قدمي على طريق الاستقامة. كنت مدمنا على المشروب لدرجة أن جهنم لم تكن لتقبل بي. لقد وجد فيَّ شيئا ما يستحق الإنقاذ وأنا أراه فيك. ماذا تقول؟

لا أدري.

فقط تعال معي وقابل الكابتن.

اقتلع الصبي العشب . نظر إلى الحصان مرة ثانية، وقال: حسنا، لا أحسب أن في ذلك ضيراً.

ركبا خلال البلدة، وبدا المُجنِّد رائعاً فوق الحصان ذي الجوارب، والصبي خلفه على البغل وكأنه شيء قد غَنِمه. امتطيا خلال أزقَة ضيقة حيث يصدر من الأكواخ المبنيَّة بقضبان بخار من شدة الحر. كان التين الشوكي والعشب ينموان على الأسطح وتمشي عليها الماعز، وفي مكان ما بعيداً في مملكة الطين الحقيرة القذرة تلك قرعت أجراس الموت الصغيرة بصوت خافت. استدارا باتجاه شارع التجارة عبر الساحة الرئيسة بين مجموعة كبيرة من العربات ، وعبرا ساحة أخرى حيث يبيع الأولاد عنباً وتيناً على عربات خفيفة. جرَت بضعة كلاب

(*) لازاروس: رجل بعثه المسيح من الموت.

هزيلة أمامهما. ركبا عبر الساحة العسكرية ومرّا من الشارع الصغير الذي شرب فيه الفتى والبغل في الليلة السابقة. وكانت هناك تجمعات من النساء والفتيات على البئر، وأشكال متعددة من الجِرار الفخارية المغطاة بأغصان نبات الخوص تقف هنا وهناك. مروا ببيت صغير بداخله نساء ينتحبن وقد وقفت عند الباب عربة موتى صغيرة بجياد صبورة وساكنة لا تتحرك وسط الحر والذباب.

أقام الكابتن مقره في فندق موجود في ساحة حيث توجد أشجار، ومبنى مضلل صغير أخضر مطل على منظر رائع وفيه مقاعد . على البوابة الأمامية للفندق توجد بوابة حديدية تفتح على ممر ينتهي بفناء في الجهة الخلفية. بُيِّضَت الجدران ورُصِّعت بآجرّ ملون صغير ومزخرف. كان الجندي التابع للكابتن يرتدي حذاءً منقوشا بكعب عال يَقرَعُ بقسوة على الآجر وعلى الدرج الصاعد من الفناء إلى الغرف في الأدوار العليا. كانت تنمو في الفناء نباتات خضراء وقد رُويت منذ لحظات ويتصاعد منها بخار. مشى تابع الكابتن بخُطى واسعة على الشرفة الطويلة، وطَرَقَ بحدّة على الباب الموجود في نهايتها. صدر صوت يطلب منهما الدخول.

كان الكابتن جالساً على مكتب مصنوع من الخوص المجدوَّل يكتب رسائل. وقفوا بصحبة الجندي التابع للكابتن بقبعته السوداء التي يحملها بيديه. استمر الكابتن بالكتابة ولم يرفع نظره. في الخارج سمع الصبي امرأة تتحدث بالإسبانية، وفيما عدا ذلك لم يُسمع سوى صوت صرير قلم الكابتن.

عندما انتهى الكابتن وضع القلم ورفع نظره. نظر إلى تابعه ثم نظر إلى الصبي وبعد ذلك حنى رأسه ليقرأ ما كتبه. أومأ لنفسه وغبَّر الرسالة بالتراب الموجود داخل صندوق من العقيق ثم طواها. أخذ عود ثقاب من إحدى العلب الموجودة على الطاولة وأشعله ثم قرّبه من قضيب شمع الختم إلى أن تجمَّعت قطعة صغيرة نافرة على الورقة، هزَّ عود الثقاب ونفخ قليلاً على الورقة ثم طرق الخِتم بخَاتمه، ووضع الرسالة بين كتابين على مكتبه ومال إلى الوراء على كرسيه ونظر إلى الصبي مرة ثانية ثم أومأ ببطء ووقار، وقال: تفضلوا بالجلوس.

استراحوا على مقعد خشبي طويل مصنوع من الخشب القاتم. كان لدى تابع الكابتن مسدس كبير على حزامه، وعندما جلس ربط الحزام حوله بحيث استقر المسدس بين فخذيه، ووضع قبعته فوقه ثم استلقى إلى الوراء. لفَّ الصبي حذاءه واحداً خلف الآخر وجلس منتصبا.

دفع الكابتن كرسيه إلى الخلف ونهض وجاء إلى الجهة الأمامية للمكتب. وقف هناك حوالي دقيقة ثم رفع نفسه فوق المكتب وجلس تاركاً حذاءه متدليا. كان عنده شيب في شعره وفي شواربه ولكنه لم يكن مُسناً. قال: إذن أنت هو الرجل.

أي رجل؟ قال الصبي.

أي رجل (سيدي)؟ قال تابع الكابتن.

كم عمرك يا بني؟

تسعة عشر.

أومأ الكابتن برأسه. كان ينظر إلى الصبي بتفحص. ماذا حدث لك؟

ماذا؟

قل (سيدي)، قال المجنّد.

سيدي؟

قلت ماذا حدث لك؟

نظر الصبي إلى الرجل الجالس بجانبه، ونظر إلى نفسه ونظر إلى الكابتن مرة ثانية وقال: هاجمني لصوص.

لصوص، قال الكابتن.

أخذوا كل ما أملك . أخذوا ساعتي وكل شيء.

هل لديك بندقية؟

لا، ليس لدي.

أين كنت عندما سُرقت؟

لا أعلم. ليس للمكان اسم. كان في البرية فقط.

من أين كنت آتيا؟

كنت قادما من ناكا، ناكا...

ناكوجدوتشيز؟

نعم.

نعم (سيدي).

نعم سيدي.

كم كان عددهم؟

حملق الصبي به.

اللصوص، كم كان عدد اللصوص؟

سبعة أو ثمانية، أعتقد. ضُرِبْتُ على رأسي بقطعة خشبية.

نظر إليه الكابتن شزراً بعين واحدة. أكانوا مكسيكيين؟

بعضهم. مكسيكيون وزنوج. وكان بينهم رجل أبيض أو رجلان. كان معهم مجموعة من القطعان قاموا بسرقتها. لقد تركوا لي شيئا واحدا فقط هو قطعة سكين صغيرة وضعتها في حذائي.

أومأ الكابتن برأسه وطوى يديه بين ركبتيه، وقال: ما رأيك بالمعاهدة؟

نظر الصبي إلى الرجل الجالس بجانبه على المقعد. كان قد أغلق عينيه. نظر إلى إبهاميه، وقال: لا أعرف عنها شيئا.

أخشى أن هذه هي حال كثير من الأمريكيين، قال الكابتن. من أين أنت يا بني؟

تينيسي.

لم تكن مع المتطوعين في (مونتري) أليس كذلك؟

لا يا سيدي.

اعتقد أنهم أشجع مجموعة رجال يتعرضون لنيران العدو رأيتهم في حياتي. أظن أن معظم الرجال الذين نزفوا وماتوا في ساحة المعركة في شمالي المكسيك كانوا من تينيسي أكثر من أي ولاية أخرى. هل كنت تعرف ذلك؟

لا يا سيدي.

لقد تمت خيانتهم. قاتلوا وماتوا هناك في تلك الصحراء ثم خانتهم بلادهم.

جلس الصبي صامتا.

مال الكابتن إلى الأمام. لقد حاربنا من أجلها. فقدنا أصدقاء وإخوة هناك. بعدئذ، ويا ويحنا إذا لم نكن قد أعدناها. أعدناها إلى عصبة من البرابرة الذين سيعترف حتى أكثر الناس تحيزا لصالحهم بأن ليس لديهم أدنى فكرة عن الشرف والعدالة في أرض الرَّب أو عن الحكومة الجمهورية. شعب جبان لدرجة أنهم عبّروا عن إعجابهم لمدة مئة عام لقبائل من الهمجيين العراة. تخلوا عن مواشيهم ومحاصيلهم وأُغلقت المناجم وهُجرت كثير من القرى من أهلها. في حين استحوذت قبيلة من الوثنيين على الأرض ينهبون

ويسلبون ويقتلون بدون أية عقوبة. لم تُرفع يد في وجوههم. أي نوع من الناس أولئك؟ لم تقم قبائل الآباتشي حتى بإطلاق النار عليهم. هل تعلم ذلك؟ لقد قتلوهم بالحجارة. هزَّ الكابتن رأسه. بدا حزينا بسبب ما قاله.

هل تعلم أنه عندما أخذ الكولونيل (دونيفان) مدينة (تشيهواهوا) أنزل بالعدو أكثر من ألف إصابة ولم يخسر هو سوى رجل واحد، وهذا الرجل كان قد انتحر؟ بجيش من غير النظاميين وبدون أجر الذين كانوا يدعونه (بيل)، قطعوا الطريق إلى ساحة المعركة من (ميسوري) سيرا على الأقدام، وكان نصفهم عراة؟

لا يا سيدي.

مال الكابتن إلى الوراء ولف ذراعيه، وقال: إن من نتعامل معهم إنما هم عِرقٌ من الفاسدين والمنحلين. عِرقٌ من المهجنين، أفضل قليلا من الزنوج، ربما ليسوا أفضل. لا يوجد حكومة في المكسيك. يا للجحيم، لا يوجد إله في المكسيك، ولن يوجد أبداً. إننا نتعامل مع أناس غير قادرين بشكل جليّ على حُكْم أنفسهم. وهل تعرف ماذا يحدث مع الأشخاص الذين لا يستطيعون حُكْم أنفسهم؟ هذا صحيح. يأتي الآخرون ليتولوا الحكم عنهم.

يوجد حوالي أربعة عشر ألف مستوطن فرنسي في ولاية سونورا. لقد أعطوا أراضي مجاناً للاستيطان فيها. أعطوا معدات

ومواشي. يشجع المكسيكيون المثقفون هذا الأمر. (باريدز) يدعو الآن إلى الانفصال عن الحكومة المكسيكية. يفضلون أن يُحكَموا من المتملقين بدلا من اللصوص والمعتوهين. إن الكولونيل (كاراسكو) يطلب تدخلاً أمريكياً. وسيحصل على ذلك.

يقومون في الوقت الحالي في واشنطن بتشكيل لجنة لتأتي تأتي إلى هنا لرسم خطوط الحدود بين بلادنا وبين المكسيك. لا أعتقد أنه يوجد أي شك في أن (سونورا) ستصبح أخيرا مقاطعة تابعة للولايات المتحدة. و(غوايماز) ميناو أمريكي. سيتمكن الأمريكيون من الوصول إلى كاليفورنيا دون أن يضطروا إلى المرور عبر جمهوريتنا الشقيقة الغارقة في الظلام. وستتم حماية مواطنينا أخيرا من العصابات المشهورة بذبح الحناجر والذين يغزون باستمرار الطرق التي يضطر مواطنونا أن يسلكوها للسفر.

كان الكابتن يراقب الصبي، وبدا الصبي منزعجا. قال الكابتن: يا بني، علينا أن نكون أدوات التحرير في أراضي مظلمة ومضطربة. هذا صحيح. علينا أن نتقدم كرأس الحربة. لدينا الدعم الضمني من حاكم كاليفورنيا (بيرنت).

انحنى الكابتن إلى الأمام ووضع يديه على ركبتيه. سنكون نحن الذين نتقاسم الغنائم. ستكون هناك قطعة أرض لكل رجل من جماعتي. قطعة أرض خضراء رائعة، إحدى أجمل القطع في العالم. أرض غنية بالمعادن والذهب والفضة. ستكون أرضاً تفوق أفضل التوقعات.

أنت شاب، ولكني لا أخطئ فهمك، فأنا قلّما أخطئ في تقييم أي شخص. أعتقد أنك تريد أن تترك بصمتك في هذا العالم، هل أنا مخطئ؟

لا يا سيدي.

لا. لا أعتقد بأنك ذلك النوع من الشباب الذين يهجرون أرضا حارب الأمريكيون وماتوا من أجلها ضد قوة أجنبية. اصغِ إلى كلامي. إذا لم يتصرف الأمريكيون، فإن أشخاصا مثلك ومثلي من الذين يأخذون أمر بلادهم بجدية في حين يجلس أولئك المتخنثون في واشنطن على مؤخراتهم، إذا لم نتصرف فإن المكسيك – أعني كل الدولة- سترفع يوما ما علما أوروبيا، سواء بوجود (مبدأ مونرو)(*) أو بعدمه.

أصبح صوت الكابتن هادئاً وعميقاً. أمال رأسه إلى جهة واحدة وتفحَّص الصبي بشيء من الحنان. فرك الصبي كفيه على ركبتي بنطاله الجينز القذر، وألقى نظرة على الرجل بجانبه إلا أنه كان يبدو نائما.

ماذا عن السرج؟ قال الصبي.

السرج؟

نعم يا سيدي.

ليس لديك سرج؟

لا يا سيدي.

(*) مبدأ مونرو: مبدأ في السياسة الخارجية للولايات المتحدة أعلنه الرئيس مونرو في رسالته إلى الكونغرس (2 ديسمبر/ كانون الأول 1823) وقوامه أن الولايات المتحدة تُعارض كل تدخل أوروبي في شؤون نصف الكرة الغربي.

اعتقدت أن عندك حصاناً.

بغل.

فهمت.

عندي قطعة من غطاء قديم أضعه على ظهر البغل إلا أنه لم يتبق منه الكثير. كما لم يتبق الكثير من البغل. لقد قال لي إنني سأحصل على حصان وبندقية.

الرقيب (تراميل) قال ذلك؟

لم أعدْه أبداً بسرج ، قال السارجنت.

سنحضر لك سرجاً.

أخبرته أننا قد نجد له بعض الملابس أيها الكابتن.

صحيح، قد نكون غير نظاميين ولكن لا نريد أن نبدو مقصرين، أليس كذلك؟

لا يا سيدي.

ليس لدينا خيول مُروَّضة. قال السارجنت.

روِّضوا واحدا.

إن ذلك الفتى الجيد بترويض الخيول قد ترك الخدمة.

أعرف ذلك، أحضر واحداً آخر.

نعم سيدي. ربما يستطيع هذا الرجل ترويض الخيول، هل سبق وأن روَّضت حصانا من قبل؟

لا يا سيدي.

لا داعي لأن تدعوني بسيدي.

نعم سيدي.

أيها الرقيب، قال الكابتن ونزل بهدوء من فوق المكتب.

نعم يا سيدي.

وقِّع عقداً مع هذا الرجل.

* * *

كان المعسكر واقعا فوق النهر على حافة البلدة، وكان عبارة عن خيمة مرقَّعة من قماش العربات، وبضعة أكواخ مصنوعة من أغصان مقطعة، وخلفها يوجد سياج على شكل الرقم 8 مصنوع أيضا من الأغصان المقطعة حيث تقف بضعة مهور صغيرة مدهونة ومقطَّبة في الشمس.

أيها العريف، نادي السارجنت.

إنه ليس هنا.

نزل ومشى بخطى واسعة نحو الخيمة وهش ذبابة إلى الوراء. جلس الصبي على البغل، وكان هناك ثلاثة رجال يجلسون في ظل شجرة ويتفحصونه. مرحبا. قال أحدهم.

مرحباً.

أنت جديد؟

أظن.

هل قال الكابتن متى سنغادر جحر الحشرات هذا؟

لم يقل شيئا أبدا.

أتى الرقيب من الخيمة، وقال: أين هو؟

ذهب إلى المدينة.

ذهب إلى المدينة، قال الرقيب. تعال إلى هنا.

نهض الرجل من على الأرض وسار بتمهل بجانب الخيمة ثم وقف ويداه مسترخيتان على الجزء الأصغر من ظهره.

هذا الرجل هنا ليس لديه ملابس، قال الرقيب.

أومأ الرجل برأسه.

لقد أعطاه الكابتن قميصا وبعض النقود ليُصلح حذاءه. نريد أن نعطيه شيئا يمكن أن يمتطيه ونعطيه سرجاً.

سرج.

عليك أن تتمكن من بيع ذلك البغل مقابل مبلغ كاف لشراء دابة أخرى.

نظر الرجل إلى البغل واستدار ونظر شزراً إلى الرقيب ثم مال وبصق، ثم قال: ذلك البغل لن يباع بأكثر من عشرة دولارات.

فليُباع بقدر ما يُباع.

لقد قتلوا بقرة أخرى.

لا أريد أن أسمع عن ذلك.

لم أستطع أن أفعل شيئا معهم.

لن أخبر الكابتن. سيقتلع أعينهم حتى تخرج من مكانها وتقع على الأرض.

بصق الرجل مرة ثانية. حسنا، هذه هي الحقيقة الأكيدة على أية حال.

اهتم بذلك الرجل الآن. عليَّ أن أذهب.

حسنا.

لا يوجد أحد مريض، أليس كذلك؟

لا.

الحمد لله على ذلك.

امتطى السرج ولمس رقبة الحصان بخفة مع اللجام. نظر إلى الخلف وهز رأسه.

في المساء ذهب الصبي ومجَندان اثنان إلى البلدة. واستحم وحلق وارتدى بنطالاً أزرق من قماش (مضلع) والقميص القطني الذي أعطاه إياه الكابتن. فيما عدا الحذاء، فقد بدا كرجل جديد. امتطى صديقاه جياداً صغيرة ملونة كانت قبل أربعين يوما حيوانات برية في السهول تجفل وتعدو برشاقة وتطبق فكيها كالسلاحف.

انتظرْ حتى تحصل على واحد مثلها. قال العريف الثاني. لم تحصل على متعة مثلها من قبل.

هذه الجياد ممتازة. قال الآخر.

لقد بقي واحد أو اثنان هناك، وقد يعطونك أحدها.

نظر الصبي نحوهما من فوق بغله. امتطيا الجوادين على جانبيه كمرافقين وكان البغل يعدو ورأسه مرفوعا وعيناه تتحركان بعصبية. سيجعلون رأسك تلتصق بالأرض. قال العريف.

عبروا فوق جيادهم، ساحة مزدحمة بالعربات والمواشي، وبمهاجرين وتكساسيين ومكسيكيين وعبيد وهنود (ليبان) ومفوضين منتدبين عن (كارانكاواس) طوال القامة ومتزمتين. كانت وجوههم ملونة بالأزرق وأيديهم مغلقة بإحكام على مقابض رماحهم التي يصل طولها إلى ستة أقدام. إنهم مجرد همجيين عراة ذوي جلود مصبوغة وولع باللحوم البشرية. لقد بدت سيماهم عنيفة ووحشية حتى في هذا الحشد الخرافي. مرّ الجند ولجامات الخيول مشدودة ثم استداروا مارين بالمحكمة

على طول جدران السجن المرتفعة ذات الزجاج المحطم والمطمورة أعلى الطريق. في الساحة الرئيسة اجتمعت فرقة كانوا يقومون بضبط ودوزنة آلاتهم الموسيقية. اتجه راكبو الجياد نحو شارع (سالينا) مارّين بحانات مقامرة صغيرة ومقاهٍ، وكان يوجد في هذا الشارع عدد من صانعي أطقم الخيول وعِدَد الحرب المكسيكيين، وتجار وأصحاب دجاج الرهان، والإسكافيين وصانعي الأحذية في أكشاك صغيرة أو دكاكين من طين. كان العريف من تكساس ويتكلم قليلاً من الإسبانية وأراد أن يقايض البغل. والفتى الآخر كان من ميسوري. كانت معنوياتهما عالية. وكانا نظيفين ومُصَـففي الشعر ويرتديان قمصاناً نظيفة. كل منهما كان يتطلع إلى ليلة ثمالة، وربما ليلة مجامعة. وكم من الشباب عاد إلى منزله باردا وميتا بسبب ليالٍ وخططٍ كتلك.

قايضوا البغل وعتاده مقابل سرج من جلد المواشي صُنِع تكساس بدا كشجرة عارية مغطاة بجلد غير مدبوغ، فهو لم يكن جديدا ولكنه كان مناسبا. وكذلك مقابل لجام وشكيمة جديدين، ومقابل بطانية من الصوف المحبوك مصنوعة في (سالتيلو)، كانت مغبَّرة سواء أكانت جديدة أم لا، وأخيرا مقابل دولارين ونصف من القطع الذهبية. نظر التكساسي على هذه القطعة النقدية الصغيرة في كفٍّ الصبي وطلب المزيد من النقود، ولكن صانع أطقم الفرس هزَّ رأسه ورفع يديه بإشارة لحسم الأمر تماما.

ماذا عن حذائي؟ قال الصبي.

وحذاؤه، قال التكساسي. (بالإسبانية)

حذاء؟ (بالإسبانية)

نعم (بالإسبانية). وقام بحركات تعني خياطة.

نظر صانع أطقم الفرس إلى الحذاء. ضمَّ أصابعه بحركة صغيرة تدل على نفاد صبره، فخلع الصبي حذاءه ووقف حافي القدمين فوق الغبار.

عندما انتهى كل شيء، وقفوا في الشارع ونظروا إلى بعضهم البعض. كان الصبي يُعلّق أشياءه الجديدة على كتفه.

نظر العريف إلى الفتى القادم من ميسوري. هل لديك نقود يا (إيرل)؟

ولا حتى سنت من النحاس.

حسناً، ولا أنا. ربما علينا أن ندير مؤخراتنا ونعود إلى جحر البؤس والشقاء.

نَقل الصبي ثِقَل العِدَّة على كتفه، وقال: لدينا ربع إيجل(*) لنشرب به.

* * *

الوقت تقريباً عند الغسق في (لاريدتو). الخفافيش تطير مندفعة من مجاثمها في مبنى المحكمة وترتفع وتحوم، ويَعْبق الجو برائحة الفحم المحترق. يجثم الأولاد والكلاب بالقرب من الأروقة الموحلة، وديوك المصارعة ترفرف وتستقر على أغصان أشجار الفاكهة. ذهب هؤلاء

(*) إيجل: قطعة نقدية ذهبية أمريكية قيمتها عشرة دولارات.

الرفاق سيرا على الأقدام بجانب الجدار الطيني العاري. موسيقى الفرقة تصلهم بشكل خافت من الساحة. مروا بعربة ماء في الشارع وبفجوة في الجدار حيث يقوم رجل مُسنّ على ضوء الكير بضرب الحديد ليصنع منه أشكالا. ثم مروا بمدخل تجلس فيه فتاة صغيرة بجمال الورود.

أخيراً، وصلوا إلى باب خشبي كان مُركّباً بمفصلات على باب أكبر، أو بوابة، وكان عليهم جميعا أن يدوسوا فوق عتبة الباب التي ترتفع قدماً حيث أتلفت آلاف الأحذية الخشب لأن المئات من الحمقى كانوا يتعثرون أو يقعون أو يترنحون ثملين في الشارع. مروا في موازاة أغصان شجر في ساحة ريفية، وبعريشة عنب مُهملة حيث كان يتمايل طائر صغير في الشفق بين العُقد الكثيفة للعريشة غير المثمرة. دخلوا إلى الحانة حيث كانت المصابيح مضاءة وعبروا منحنين تحت عارضة خشبية منخفضة نحو البار.

كان في ذلك المكان رجل مضطرب من الطائفة المينونايت المسيحية، التفت ليتفحصهم. كان رجلا نحيلا يرتدي صدرة جلدية وقبعة سوداء ذات حافة مستقيمة وُضعت بشكل مربع فوق رأسه، وله خط رفيع من الشوارب. طلب المجندون كؤوسا من الويسكي وشربوها كلها ثم طلبوا المزيد. كانت تقام لعبة المَنْت على الطاولات التي بجانب الحائط، وكانت العاهرات على طاولة أخرى يتفحصن المجندين. وقف المجندون على جانب البار وأصابعهم الإبهام في أحزمتهم، راقبوا الغرفة وتحدثوا فيما بينهم عن الحملة بأصوات

مرتفعة. هزَّ المينونايت رأسه الكئيب ثم ارتشف مشروبه ودمدم: سيوقفونكم عند النهر.

نظر العريف الثاني من فوق رفيقيه: هل تتحدث إلي؟

عند النهر. إعلموا ذلك. سيسجنونكم جميعا بدون استثناء.

من سيفعل؟

الجيش الأمريكي، الجنرال (ويرث).

سيفعلون بحق الجحيم.

أرجو أن يفعلوا ذلك.

نظر إلى رفيقيه. وانحنى نحو المينونايت، وقال: ماذا يعني ذلك أيها الرجل العجوز؟

بما أنكم عبرتم النهر للقيام بعمل عسكري مُسلَّح فلن تتمكنوا من عبوره ثانية للعودة.

لا ننوي أن نعود. نحن ذاهبون إلى سونورا.

ما الذي يعنيك في ذلك أيها الرجل العجوز؟

راقب المينونايت الظلام المخيم أمامهم والذي كان ينعكس عليه من مرآة فوق البار. التفت إليهم. عيناه مبتلتان وتحدَّث ببطء. إن غَضب الرَّب يكمُن غافياً، لقد غفا لملايين السنين قبل أن يُخلَق الإنسان، والإنسان وحده هو الذي يستطيع أن يوقظه. إن جهنم لا

تمتلىء إلى النصف فقط. إسمعوني. إنكم تشنون حربا من عمل رجل مجنون على أرض أجنبية، ستوقظون أكثر من الكلاب.

لكنهم وبّخوا الرجل العجوز بقسوة وشتموه حتى نزل من على البار وهو يدمدم: كيف يمكن أن يكون غير ذلك؟

كيف تنتهي هذه الأمور. بالفوضى واللعنات والدم.

استمَروا بالشرب، وهبَّت الريح في الشارع ونزلت النجوم التي كانت في الأعلى إلى الغرب. سقط هؤلاء الشبان في الفاحشة، والكلمات التي قيلت لا يمكن تصحيحها. في الفجر انحنى الصبي والعريف فوق الفتى (الميسوري) وكان يُدعى (إيرل) ونطقا باسمه إلا أنه لم يرُد. كان مُلقىً على جانبه في رمال الساحة. كان الرجال قد ذهبوا وكذلك العاهرات. رجل عجوز كنس الأرض الطينية داخل الحانة.

كان الفتى ممددا وجمجمته مكسورة داخل بركة من الدم، ولم يعرف أحد من فعل ذلك. حضر شخص آخر ليكون معهم في الساحة. لقد كان المينونايت. كانت رياح دافئة تهُب، وحملت الرياح الشرقية ضوءا رماديا، وعششت الطيور بين عرائش العنب وبدأت تنشط وتصرخ.

ليست هناك بهجة في الحانة كتلك التي على الطريق المؤدي إليها، قال المينونايت. وكان يحمل قبعته بيديه، والآن وضعها فوق رأسه مرة ثانية ثم استدار وخرج من البوابة.

* * *

-4-

بداية الرحلة مع المغامرين العسكريين - على أرض غريبة - إطلاق النار على الظباء - مطارَدين بالكوليرا - ذئاب - تصليحات العربة - صحراء قفراء مترامية الأطراف - عواصف ليلية - آثار قطيع ذئاب باهتة - صلاة من أجل المطر - مسكن مهجور - الرجل العجوز - مدينة جديدة - قرية مهجورة - رعاة في السهول - التعرض لهجوم الـ(كومانشيز)

* * *

خمسة أيام مضت وعلى حصان الرجل الميت لحق براكي الجياد وبالعربات عبر الساحة إلى خارج البلدة على طريق منطقة منخفضة. ركبوا عبْر (كاستروفيل) حيث نبشت ذئاب قبور الموتى وبعثرت عظامهم. قطعوا نهر (فريو) ومن ثم (نيوسس) ثم غادروا طريق (بريسيديو) واستداروا شمالا مع مستطلعين يتقدمونهم وآخرين يتبعونهم من الخلف. اجتازوا (دل نورته) عند المساء وخاضوا في النهر الترابي الضحل إلى البرية العاصفة.

طلع الفجر عليهم وقد انتشروا في طابور طويل في السهل. في الوقت الذي كانت فيه العربات تئن والجياد تصهل. صوت حوافر مكتوم وواهن، وقعقعة المعدات، ورنين عِدَّة الحرب الخفيف المتواصل.

فيما عدا مجموعات متفرقة من الأشجار والتين الشوكي والقطع الصغيرة من الأعشاب المجدولة، فقد كانت الأرض جرداء، وكانت هناك جبال منخفضة إلى الجنوب وهي أيضا قاحلة. باتجاه الغرب كان الأفق يستلقي منبسطا وجليا كروح رصينة.

في الأيام الأولى لم يروا طرائد ولا طيوراً عدا الصقور. رأوا بعيدا قطعاناً من الأغنام أو الماعز تتجه على طول خط السماء المزخرف بوشاحات من الغبار. أكلوا لحم حمير برية كانوا قد أطلقوا عليها النار في السهول. حمل الرقيب في سرجه غِمد بندقية (ويسون) ثقيلة تعمل بواسطة فوهة إضافية وتطلق رصاصات ذات شكل مخروطي، وقد قتل بها الخنازير البرية الصغيرة في الغابة. وفيما بعد، عندما بدأوا في رؤية قطعان الظباء، كان يقف في الشفق والشمس غائبة عن الأرض ويثبِّت المنصب الثنائي بلولب داخل عقدة مُخاطَة على الجانب السفلي لماسورة البندقية ويقتل الحيوانات حيث تقف لترعى على مسافة نصف ميل. وتحمل البندقية مِهدافاً على جهاز التسديد ذا مقياس منزلق على الماسورة، حيث يمكنه أن يحدد المسافة ويقيس الرياح ثم يضبط المِهداف كما يفعل الشخص الذي يستخدم المُصغِّر (مايكروميتر). أما العريف فقد كان يستلقي مستنداً على كوعه ومعه منظار ويصرخ ليخبر بأن الطلقات كانت عالية أو منخفضة عندما يُخطئ الهدف. تنتظر العربة حتى يُطلِق ثلاث أو أربع طلقات، عندها يئز صوت الرصاص عبر الأرض الهادئة ويتدافع سائقو العربات مبتسمين في مقاعد عرباتهم. لم يُغمد الرقيب البندقية أبدا، ولكنه كان يقوم بتشحيم الماسورة.

امتطوا جيادهم وهم مسلحون جيدا. كل رجل معه بندقية، وعدد كبير منهم معهم مسدسات من نوعٍ (كولت) ذات ماسورة صغيرة وخمس طلقات. كان الكابتن يحمل زوجاً من مسدسات جنود سلاح الفرسان داخل أغمدة موضوعة على جزء من السرج بحيث يمكنهم الركوب من كلا الجانبين. كانت تلك المسدسات من إنتاج الولايات المتحدة وبترخيص من (كولت)، وقد اشتراها من أحد الهاربين من الجندية في إسطبل علف للخيل في (سولداد)، ودفع ثمانين دولارا من الذهب مقابل المسدسات والأغمدة والقوالب والدوارق التي نُقِلت بداخلها.

كانت البندقية التي حملها الصبي قد نُشر منها جزء وأعيد ثـقْب الماسورة حتى أصبحت خفيفة الوزن جدا، وكان قالبها صغيراً جدا مما اضطره لإلصاق الطلقات بجلد غزال. أطلق منها النار عدة مرات وكانت ترمي غالبا أينما تختار هي. كانت بجانبه على الجزء الأمامي المقوّس من السرج، لم يكن لديه غِمد. لقد كانت تُحمل بهذه الطريقة من قبل. يعلم الرَّب كم مر عليها من السنين، والزند الخشبي الأمامي قد اهترأ أكثر من الأسفل.

مع بداية الظلام عادت العربة وبها اللحم. كوَّم سائقو العربات فراش العربة بأغصان نبات المسكيت وأجذال الأشجار التي سحبوها من الأرض بواسطة الجياد، وأنزلوا خشب الوقود منها وبدأوا بتقطيع الظباء منزوعة الأحشاء على أرض العربة بواسطة سكاكين كبيرة وبلطات محمولة باليد وهم يضحكون ويقطّعون اللحم بصخب واهتياج دموي. إنه مشهد مضرج بالدماء في ضوء المصابيح المحمولة

بالأيدي. عند الظلام الكامل كانت رقاب الذبائح مائلة على النار لتنضج على البخار، وكان هناك حشد فوق الفحم معهم أعواد مقشَّرة متجمعين حيث توجد كتل اللحم مغروزة بأسياخ. أصوات قرقعة مطرات الجند ومزاح وفرح لا ينتهي. ناموا تلك الليلة في سهول باردة من أرض أجنبية. ستة وأربعون رجلا كانوا ملتفين داخل بطانياتهم تحت النجوم نفسها، وكذلك كانت ذئاب البراري بأصوات عويلها. ومع ذلك كان كل شيء حولهم متغيرا وغريبا جدا.

كانوا يتداركون ويبدأون رحلتهم كل يوم في الظلام قبل أن يبزغ الفجر، أكلوا اللحم البارد والكعك ولم يضرموا نارا. أشرقت الشمس بعمود من الأشعة أزاح إرهاق تلك الأيام الستة. كان هناك توافق في ملابسهم ولكنه كان أقل في قبعاتهم. وكانت الجياد الملونة قليلاً، تتحرك بخطوات قصيرة، بينما مجموعة من الذباب المراوغ والمشاكس، كانت تتقاتل باستمرار في عربة الصيد. كان الغبار المتصاعد من الحفلة يتبدد بسرعة ويضيع في اتساع ذلك المشهد الطبيعي. لم يبق غبار غير الذي أحدثه دكاني المعسكر الشاحب الذي لحق بهم إذ كان يجرى دون أن يكون مرئيا، ولم يترك حصانه الأعرج ولا عربته المكسورة أي أثر على تلك الأرض أو على أي أرض أخرى. بآلاف الحرائق في الغسق الأزرق المشوب بالرمادي حافظ على مخزن التموين، وهو تاجر عنيد وساخر ويصلُح لأن يتبع كل حملة أو يتعقب الرجال في جحورهم في تلك الأقاليم المبيَّضة التي ذهبوا إليها ليختبئوا من الرَّب. في ذلك اليوم وقع شخصان فريسة المرض ومات أحدهما قبل حلول

الظلام. في الصباح كان هناك رجل آخر مريض حلَّ مكانه. كان كلاهما مستلقيين بين أكياس الفول والأرز والقهوة في عربة التموين، ومغطيين ببطانيات لتحميهما من الشمس، وركبا في العربة المزدحمة والصاخبة فكانت لحومهما تلتصق بها وتُنتزع عن عظامهما فصاحا لكي يُتركا، بعدئذ ماتا. خرج الرجال في عتمة الصباح الباكر ليحفروا قبريهما بواسطة عظام ظبي حادة وغطوهما بالحجارة ثم عاودوا الركوب.

استمروا بالمسير وتوهجت الشمس في الشرق بأشعة باهتة ثم سال لون أغمق كالدم بإشعاعات مبهرة للبصر باتجاه السهل حيث تغطس الأرض ببطء باتجاه السماء على حافة الكون، وارتفعت قمة الشمس من لا شيء، حتى بدَّدت الحافة غير المرئية وقبعت منتفضة وحاقدة وراءها. كانت ظلال أصغر الأحجار تمتد كخطوط قلم الرصاص فوق الرمال وأشكال ظلال الرجال وجيادهم تتقدم طويلة أمامهم كجدائل من الغروب الذي ركبوا فيه، كمجسات تربطهم بالظلام الذي سيحلُّ قريبا. ركبوا ورؤوسهم مطأطأة، كأنهم بدون وجوه تحت قبعاتهم، وكأنهم جيش نائم خلال المسيرة العسكرية. عند منتصف النهار مات رجل آخر، فحملوه من العربة تاركا بقعا على الأكياس التي كان ممددا بينها، ودفنوه أيضا ثم تابعوا مسيرهم.

أتت الذئاب الآن لتتبعهم. ذئاب ضخمة شاحبة بعيون صفراء كانت تهرول أو تجثم في اللهب الوامض لتراقب أين ستكون وقفتهم المسائية. تحركوا ثانية. كانت الذئاب تقفز وتمشي بشكل جانبي وتسير

بتمهل بأنوفها الطويلة متجهة نحو الأرض. في المساء كانت أعينها تتحرك وتومض على طرف ضوء النار، وفي الصباح عندما امتطى الرجال جيادهم في الجو البارد، كانوا يسمعون صوت زمجرة الذئاب وفرقعة أفواههم وراءهم، من أجل فتات اللحم، أثناء وضعهم الخيمة في كيسها.

كانت العربات تُجَر خالية تتأرجح من جهة إلى أخرى كالكلاب، وكانت الرمال تطحنها. فذابت العجلات وكانت المكابح تدور حول محاورها وتقعقع. في المساء وضعوا مكابح إضافية داخل التجاويف وربطوها بقطع من الجلد الأخضر ودفعوا أوتادا بين حديد الإطارات وحواف العجلات المتشققة بالشمس. تابعوا مسيرتهم يتذبذبون، كانت آثار ثِقل العجلات غير المنطبقة تماماً على الأرض كآثار حية الأجراس على الرمال. تفككت الأوتاد ووقعت خلفهم. وبدأت العجلات تتكسر.

بعد عشرة أيام من انطلاقهم، وأربعة أموات، بدأوا رحلتهم عبر سهول من حجر الخفاف النقي حيث لا تنبت أشجار ولا أعشاب على مد البصر. أصدر الكابتن أمرا بالتوقف ونادى على المكسيكي الذي يعمل كدليل. تحدثا بالإشارة، كان المكسيكي يقوم بإشارات والكابتن يقوم بإشارات، وبعد برهة تحركوا مرة ثانية.

هذا يبدو لي كطريقٍ صاعدٍ إلى جهنم، قال رجل من الجنود العاديين.

ماذا يتوقع أن تأكل الخيول؟

اعتقد أن عليهم أن يكشطوا حبيبات الرمال مثل الدجاج ويستعدوا للذُرَة المقشرة عندما تأتي.

بعد يومين بدأوا بالمرور بعظام وملابس تخلص منها أصحابها. رأوا هياكل عظمية لبغال نصف مدفونة، وكانت العظام شديدة البياض ومصقولة، كانت تبدو متوهجة حتى في لهيب الحرّ هذا. رأوا سلالاً كبيرة وسروج تحميل وعظام رجال، كما رأوا بغلاً كاملاً، كانت الجثث الجافة والمسوَّدة قاسية كالحديد. تابعوا مسيرتهم. بدوا في الظهيرة كجيش سرابي عبر الصحراء. كانوا شاحبين جدا في الغبار. كأنهم ظلال لأشكالٍ بشرية مُسحت فوق لوح. قفزت الذئاب الأكثر شحوبا وتجمعت وانزلقت ورفعت أنوفها الماثلة في الهواء. في الليل أطعمت الخيول باليد من أكياس الطعام وسُقيت من الدلاء. لم يعد هناك مرض بعد ذلك. استلقى الناجون بهدوء داخل حفرة خالية، وأخذوا يراقبون النجوم البيضاء من شدّة الاتقاد وهي تسقط في الظلام. أو أنها نامت مع قلوبهم الغريبة التي تنبض في الرمال مثل المهاجرين المنهكين على وجه كوكب (أناريتا)، متشبثين بدوران مجهول في الليل. تابعوا المسيرة وحديد عجلات العربة أصبح مصقولا ولامعا مثل معدن الكروم. إلى الجنوب كانت سلسلة الجبال الزرقاء تقف بصورتها الباهتة على الرمال مثل انعكاسات في بحيرة، ولم يعد هناك ذئاب.

لقد اعتادوا أن يسافروا في الليل. صمتٌ مطبق فيما عدا صوت دحرجة العربات وصوت صفير تنفس الحيوانات. تحت ضوء القمر، بدوا كمجموعة من المسنين بشواربهم وحواجبهم الكثيفة بسبب ما تجمَّع عليها من التراب الأبيض. استمروا بمسيرتهم وكانت النجوم تتأرجح وتصنع أقواسا عبر القبة السماوية وتموت خلف الجبال السوداء. لقد أصبحوا يعرفون سماء الليل جيدا. العيون الغربية التي تفسر تراكيب هندسية أكثر من تلك الأسماء التي وضعها القدماء. امتطوا جيادهم مهتدين بالنجم القطبي في الدب الأكبرِ في حين كانت الجوزاء ترتفع في الجنوب الغربي كطائرة ورقية كهربائية. ظهرت الرمال زرقاء في ضوء القمر. دارت الإطارات الحديدية للعربة بين أشباح الركّاب في دوائر لامعة انحرفت ودارت بغموض مِلاحي مثل اسطرلاب صغير، وبقيت حوافر الجياد المصقولة تتشابك مثل عدد كبير من العيون تغمز من خلال الظلام. راقبوا العواصف بعيدا ولم يتمكنوا من سماعها، كان البرق الصامت يتوهج كالشراع، وسلسلة الجبال السوداء ترتعش ويبتلعها الظلام مرة ثانية. رأوا خيولاً برية تتسابق في السهول وتلحق ظلالها في الليل وتترك في ضوء القمر غباراً متطايراً على شكل بقع باهتة تدل أنها مرت من هنا.

هبَّت الرياح طوال الليل، وجعلهم الغبار الناعم يصكُّون أسنانهم. كان الرمل في كل شيء، كان يصرُّ في كل شيء يأكلونه. في الصباح بزغت الشمس الصفراء اللون متعبة من خلال ذرات الغبار

على عالم قاتم وبدون ملامح. كانت الحيوانات منهكة. توقفوا وأقاموا معسكرا خاليا بدون أخشاب أو ماء، وكانت المهور البائسة تربض وتئن مثل الكلاب.

في تلك الليلة مروا خلال إقليم مشحون ووحشي حيث تجري أشكال غريبة من النيران الزرقاء فوق حديد غطاءات الجياد المزركشة، وتدور عجلات العربة في أطواق من النار، وتأتي أشكال صغيرة من ضوء أزرق باهت لتربض في آذان الجياد وفي لحى الرجال. كان البرق يهتز طوال الليل كالشراع دون أن يُعرف مصدره في الغرب خلف سحابات منتصف الليل القزاعية، صانعا يوما متفائلا في الصحراء البعيدة، وكانت الجبال عند خط السماء المفاجىء مقفرة وسوداء وشاحبة مثل أرض لأناس آخرين هناك، لم تكن تضاريسها الحقيقية حجارة بل كانت خوفاً. تحرك الرعد من الجنوب الغربي وأضاء البرق الصحراء القاحلة المزرقّة كلها من حولهم. صوت رنين قوي امتد من الليل المطلق مثل مملكة شياطين استُدعيت أو أرض استُبدلت بأخرى ولم يترك لهم النهار أي أثر ولا حتى دخان ولا حطام ولاشيء أكثر من حلم مزعج.

توقفوا في الظلام لتتعافى الخيول، وبعض الرجال خبأوا أيديهم داخل العربات خوفاً من صاعقة برق، وقام رجل يدعى (هايوارد) بالصلاة من أجل أن تمطر السماء.

قال في صلاته: أيها الرَّب العظيم القادر. إذا لم يكن بعيدا جدا في مسار الأشياء في خطتك الأبدية، فهل تعتقد أنه يمكننا أن نحصل على قليل من المطر هنا.

صلّي، صاح بعضهم. صرخ وهو على ركبتيه من خلال الرعد والريح: يا إلهي نحن عطشى حتى أصابنا تشنج هنا. فقط بضعة نقاط من أجل رجال في البراري بعيدا جدا عن الوطن.

آمين. قال الرجال. وأمسكوا بجيادهم وتابعوا مسيرتهم.

خلال ساعة بردت الرياح وسقطت حبات من المطر بحجم حبة العنب فوقهم من خلال تلك العتمة الموحشة. كانوا يشمُّون رائحة الحجارة المبللة والرائحة اللطيفة للخيول والجلود المبتلة. تابعوا مسيرتهم.

تابعوا ركوبهم خلال حرارة النهار تُلحق بهم براميل ماء صغيرة وفارغة والخيول متهالكة، وفي المساء قامت هذه المجموعة من الرجال المختارين بملابسهم الرثة والبيض من كثرة التراب الذي يغطيهم، كأنهم مجموعة من الطحانين المسلحين والراكبين على جياد يتجولون هائمين بخبل، واصلوا طريقهم في الصحراء من خلال ممر جبلي في التلال الحجرية المنخفضة ونزولاً نحو أكواخ منعزلة، أكواخ بسيطة من الطين وقضبان القصب والأغصان، وإسطبلات وزرائب بدائية.

أسيجة من العظم كانت تحكم المآوي الصغيرة المغبَّرة، وكان الموت هو الميزة المهيمنة على المشهد. أسيجة غريبة صقلتها الرمال

والرياح، وبيَّضتها الشمس وشققتها مثل الخزف القديم، وفي جو جاف بُنّي حيث لا توجد أي حياة. مرت أشكال راكبي الخيول المتغضنة تجلجل على الأرض السمراء الجافة، وعلى الواجهات الطينية للكوخ، كانت الخيول ترتجف وتشم الماء. رفع الكابتن يده وتكلم الرقيب وترجل رجلان وتقدما نحو الكوخ بالبنادق. دفعا الباب المصنوع من الجلد غير المدبوغ بقوة ودخلا . وبعد بضعة دقائق ظهرا ثانية.

كان يتواجد أحدٌ ما هنا في مكان ما. هناك فحم ساخن.

تفحص الكابتن الموقع بنظره وبشيء من الاحتراس. ترَجَّـل عن حصانه بصبرِ شخصٍ معتاد على التعامل مع العَجْز، وعَبَر إلى الكوخ. عندما خرج ألقى نظرة شاملة أخرى على الأرض. تحركت الخيول وصلصلت وضربت الأرض بحوافرها. شدَّ الرجال اللجام المربوط على فك كل حصان إلى الأسفل وتحدثوا معهم بفظاظة.

رقيب.

نعم يا سيدي.

هؤلاء الناس لا يمكن أن يكونوا بعيدين. حاول أن تجدهم. وأن ترى إذا كان يوجد علف للحيوانات.

علف؟

علف.

وضع الرقيب يده على قربوس(*) السرج ونظر حوله في المكان الذي كانوا بداخله وهزَّ رأسه ثم ترجل.

مشوا عبر الكوخ إلى السياج في الخلف ثم خرجوا إلى الإسطبل. لم يكن هناك حيوانات ولا أي شيء سوى مربط خيل نصف مملوء بأعشاب جافة بشكل علف. خرجوا وعادوا إلى منخفض بين الحجارة حيث يركد فيه ماء، ويتدفق جدول رفيع فوق الرمال. كانت هناك آثار حوافر حول البركة وسماد جاف، وركضت بعض العصافير الصغيرة على طول حافة الجدول الصغير، غافلة عما حولها.

كان الرقيب يجثو على كعبيه، وقد نهض الآن وبصق، وقال: حسنا. هل يوجد أي اتجاه لا تستطيع رؤيته على بُعد عشرين ميلا؟

تفحص الجندون الخلاء من حولهم.

لا أعتقد أن الناس الذين كانوا هنا قد مشوا كل هذه المسافة.

شربوا وارتدّوا عائدين إلى الكوخ. وجُرَّت الخيول على طول الممر الضيق.

كان الكابتن يقف وإبهاماه في حزامه.

لا أستطيع أن أرى إلى أين وصلوا. قال الرقيب.

ماذا يوجد في السقيفة.

(*) قربوس: القسم المقوّس والمرتفع من السرج أمام المقعد وفي مؤخرِه.

بعض العلف القديم الجاف.

عبس الكابتن. لابد أن يكون لديهم تيس أو خنزير. شيء ما. دجاج.

بعد دقائق معدودة حضر رجلان يجران رجلاً عجوزاً من الإسطبل. كان مغطى بالتراب وقِشر الحنطة، ووضع إحدى ذراعيه على عينيه. سُحب حتى أقدام الكابتن وهو يئن وتمدد منبطحا مثل لفائف قطن أبيض. وضع يديه على أذنيه وكوعيه أمام عينيه كشخص نودي عليه ليشهد شيئا مرعبا. استدار الكابتن باشمئزاز. وَكَزَ الرقيب الرجل بحذائه، وقال: ماذا دهاه؟

إنه يبول على نفسه، أيها الرقيب. يبول على نفسه. أشار الكابتن على الرجل بقفازه.

نعم يا سيدي.

أبعدوه من هنا بحق الجحيم.

هل تريد أن يتحدث (كانديلاريو) إليه؟

إنه شخص أبله. أبعدوه عني.

جَرّوا الرجل العجوز بعيدا. بدأ يثرثر ولكن لم يسمعه أحد، وفي الصباح كان قد مات.

عسكروا في العراء بجانب البِركة، تفحَّص الطبيب البيطري البغال والمهور الذين فقدوا حدواتهم، وعملوا على إصلاح العربة على ضوء النار في ساعة متأخرة من الليل. بدأوا المسيرة في الفجر القرمزي حيث

تتصل السماء مع الأرض بسهل مشذّب. كانت هناك أرخبيلات من الغيوم السوداء وعالم الرمال الشاسع وأشجار صغيرة مجزوزة من الأعلى على أرض خالية حيث ترتعش تلك الجُزر الزرقاء، وبدت الأرض غامضة ومنحدرة بشكل مرعب وتتجه نحو مجموعة خفيفة من الورود ونحو الظلام الكامن خلف الفجر حتى أقصى مدى في ذلك المكان.

مرّوا في مناطق من الصخر الملوّن المرتفع عن قشرة الأرض في شقوق مسننة ورفوف من الصخر البركاني مرتفعة بشكل صدوع وطيات محدبة فوق بعضها البعض، ومنفصلة كأجذال أشجار عظيمة من الصخر، وصخور فلقها البرق، وينابيع صغيرة تتفجر بقوة في ثوران رائع جداً. عبروا في ممر مرتفع وعر من الصخر البنيّ المتساقط من قمم سلاسل الجبال نحو السهل كحطام جدران قديمة. هذه دلالات في كل مكان على ما صُنع بدون أيدي إنسان قبل وجود الإنسان أو أي شيء حيّ آخر.

بين الفينة والأخرى كانوا يمرون بآثار قرية، وعسكروا عند أسوار كنيسة عالية مبنية من الطين، وأشعلوا ناراً من الأغصان المتساقطة من سقف الكنيسة، في حين كانت طيور البوم تنعق من فوق الأقواس في الظلام.

في اليوم التالي رأوا عند خط السماء من جهة الجنوب غيوماً من الغبار امتدت عبر الأرض لعدة أميال. عاودوا الركوب وهم يراقبون الغبار حتى بدأ يقترب، فرفع الكابتن يده للتوقف ثم أخذ من سرجه منظار سلاح الفرسان القديم وفصله عن بعضه ثم ألقى نظرة شاملة

على المكان ببطء. جلس الرقيب وحصانه بجانبه وبعد برهة سلـّـمَهُ الكابتن المنظار.

يا للجحيم، يبدو كقطيع أو ما شابه.

أعتقد أنها خيول.

كم تقدّر بُعدها عنا؟

من الصعب تحديد ذلك.

أحضِر (كانديلاريو) إلى هنا.

التفت الرقيب وأشار إلى المكسيكي. عندما أتى أعطاه المنظار. رفع المكسيكي المنظار إلى عينيه وحدَّق، بعد ذلك أنزله وأخذ يراقب بعينيه المجردتين، ثم رفعه ونظر مرة ثانية. بعدئذ امتطى حصانه والمنظار معلّقٌ على صدرة كالصليب.

حسنا؟ قال الكابتن.

هزَّ رأسه .

ماذا يعني هذا بحق الجحيم؟ إنها ليست جواميس، أليس كذلك؟

لا،

أعتقد أنها خيول.

أعطني المنظار.

أعطاه المكسيكي المنظار، فنظر الكابتن به إلى الأفق مرة ثانية ثم طوى الأنبوب وأغلقه بمؤخرة يديه، وأعاده إلى حقيبته، ثم رفع يده وانطلقوا.

لقد كانوا قطعان ماشية وبغال وخيول. وكان هناك عدة آلاف من الرؤوس وكانت تمشي باتجاه المجموعة. في وقت متأخر من بعد الظهر بدا راكبو الجياد للعيان، حفنة من الهنود ذوي مظهر رث يجمعون القطيع من الأطراف بواسطة مهورهم الرشيقة. آخرون بقبعات، ربما كانوا مكسيكيين. عاد الرقيب إلى حيث كان الكابتن يمتطي حصانه.

ماذا تفهم من ذلك أيها الكابتن؟

أفهم أنهم جماعة من لصوص الماشية الهمجيين، هذا ما أفهمه، وأنت؟

يبدو لي الأمر كذلك.

نظر الكابتن بالمنظار وأخذ يراقب، ثم قال: أعتقد أنهم رأونا.

رأونا.

كم تتوقع عدد ممتطي الجياد ؟

دزينة، ربما.

نقر الكابتن على الأداة في يده التي يرتدي بها قفازا. لايبدون مهتمين، أليس كذلك؟

لا يا سيدي، لا يبدون.

ابتسم الكابتن بتجهم. قد نمارس بعض الرياضة هنا قبل أن ينقضي النهار.

بدأت طلائع القطعان تتقدم مارة بهم عبْر حاجز من الغبار الأصفر، قطعان مواشي ممشوقة وأضلاعها بارزة ولها قرون كبيرة، ولا يوجد بينها اثنان متشابهان. وبغال صغيرة هزيلة سوداء كالفحم كانت تتدافع وتلقي برؤوسها التي تشبه المطرقة إلى الخلف فوق ظهور البغال الأخرى. بعدئذ ظهرت قطعان أخرى وأخيرا الرعاة الذين يركبون جيادهم على جوانب القطيع ويبقونها بينهم وبين المجموعة. وأتى من خلفهم قطيع مكوَّن من عدة مئات من المهور. بحث الرقيب عن (كانديلاريو). استمرَّ بالرجوع إلى الخلف على طول رتل الرجال المسلحين، ولكن لم يجده. وَكَزَ حصانه من خلال الرتل وانطلق إلى الجانب البعيد منه. بدأت آخر مجموعة من سائقي المواشي بالقدوم عبر الغبار، وكان الكابتن يومئ ويصرخ. بدأت المهور تنحرف عن القطيع وكان سائقو القطيع يقطعون طريقهم باتجاه المجموعة المسلحة الذين قابلوهم في السهل. يمكنك الآن أن ترى من خلال الغبار الشارات الملونة على جلود المهور والأيدي والشموس الساطعة والطيور والأسماك وكل رسم كأنها طيف لعمل قديم تم ترتيبه فوق قطعة قماش. والآن يمكنك أيضا سماع أصوات حوافر بدون حدوات، وأنغام المزامير المصنوعة من عظام بشرية، بعض الذين كانوا ضمن

المجموعة بدأوا يرددون أقوالاً قديمة وآخرون بدأوا يتململون في حالة فوضى وارتباك عندما ظهرت من الجانب البعيد لتلك المهور قبيلة خرافية من حاملي الرماح ورماة الأقواس الذين يحملون التروس القديمة مع قطع من الزجاج المكسور الذي يشكّل آلاف الشموس التي تنعكس في أعين أعدائهم. جيش من المرعبين، أعدادهم بالمئات. نصفهم عراة أو مكسوون بزي يوناني أو توراتي أو يرتدون جلود حيوانات اختاروها من حلم مزعج، وملابس حريرية مبهرجة وقطع من ملابس لا تزال عليها آثار دم مالكيها السابقين. سترات جنود سلاح الفرسان الذين ذُبحوا، وسترات فرسان مزينة ومبهرجة، أحدهم بقبعة حريرية عالية، وآخر معه مظلة، وآخر بجوارب بيضاء وغطاء زفاف مبقع بالدم. بعضهم يرتدي غطاء رأس من ريش طائر الكركي أو خوذة من جلود الحيوانات غير المدبوغة والتي تحمل قرون ثور أو جاموس. وآخر يرتدي سترة ذات ذيل بالمقلوب وفيما عدا السترة كان عاريا. أحدهم يرتدي درع أحد الفاتحين الأسبان. كان درع الصدر منبعج عميقا بسبب ضربات عنيفة من القضبان الشائكة والسيوف التي صنعها في بلدٍ آخر رجالٌ أصبحت عظامهم الآن مجرد تراب. بعضهم لهم جدائل وصلوها بشعور وحوش أخرى حتى صارت تُجَرُّ على الأرض. وكانت آذان جيادهم وذيولها مشغولة مع قطع من القماش الملون بألوان مبهرجة. رأس حصان أحدهم كان ملونا كله باللون الأحمر القرمزي. ووجوه جميع مربيّ الخيول مبهرجة بشكل متنافر وملطخة بالطين كجماعة من مهرجين يمتطون جيادا، إنه صخب

الموت، الجميع يولولون بلغة بربرية ويمتطون الجياد كأنهم قبيلة جاءت من الجحيم، بل أكثر رعباً من أرض الصخور النارية التي يعتقد بها المسيحيون، كانوا يصرخون وينتحبون ويكتسون بالدخان كمخلوقات ضبابية في مناطق بعيدة، يعرفون أين تتجول العين وأين ترتجف الشفة ويسيل اللعاب.

يا إلهي، قال الرقيب.

حشد مجلجل من السهام مر من خلال المجموعة، فتعثر الرجال ووقعوا عن خيولهم. كانت الخيول تتراجع وتندفع وقبائل المنغول تتنقل على جانبي الجنود وتنقض عليهم برماحهم.

توقفت المجموعة الآن، وأطلقت الرصاصات الأولى وانتشر دخان البنادق الرمادي خلال الغبار في الوقت الذي قام فيه حاملو الرماح بتفريق صفوفهم. هوى حصان الصبي تحته وأطلق صهلة قوية. وكان قد أفرغ بندقيته والآن جلس على الأرض وتحسس جراب الطلقات. الرجل الذي بجانبه سقط وسهم يتدلى من رقبته. كان ينحني قليلا وكأنه في صلاة. حاول الوصول إلى حلقة رأس السهم الحديدية المضرجة بالدم، إلا أنه وجد أن سهما آخر كان قد استقر في صدره الوجل حتى نهايته وكان ميتا. في كل مكان كانت هنالك خيول على الأرض ورجال يزحفون ، ورأى رجلاً يحشو بندقيته في حين كان الدم يسيل من أذنيه، ورأى رجالا مسدساتهم مفككة ويحاولون تعديلها لتلائم حجرة الطلقات الاحتياطية المحشوة التي يحملونها

معهم، ورأى رجالاً يركعون وقد مالوا وعانقوا ظلالهم على الأرض. ورجالاً طُعنوا بالرماح وقد مُسكوا من شعورهم وسُلخت فروة رؤوسهم وهم واقفون. رأى خيول حرب تدوس الواقعين على الأرض، ومُهراً ذا وجه أبيض بعين واحدة داكنة يطل من خلال الغبار انقضَّ عليه بحركة مفاجئة مثل الكلب ثم مات. من بين الجرحى من كان يبدو أبلها ولا يفهم شيئا، ومنهم من كان شاحبا من خلال أقنعة التراب، وبعضهم لم يتمكنوا من تحريك أنفسهم أو كانوا يترنحون ويتكسرون فوق رماح المتوحشين. لقد كانوا يسوقون خيولا برية ذات رؤوس طويلة وأعين متقلبة وأسنان مهشمة وراكبين عراة مع مجموعات من الأسهم يمسكونها بفكوكهم، ودروعهم تومض في الغبار وعلى الأطراف البعيدة من صفوف الجند المُدمَّرة وأصوات المزامير المصنوعة من العظام البشرية يسقط الرجال من جوانب خيولهم وقد تعلّقت رِجلٌ واحدة بحزام السرج وانثنت سهامهم تحت رقاب المهور الممطوطة حتى طوَّقوا المجموعة وقطعوا صفوفهم إلى شطرين، ثم نهضوا مرة ثانية كشخصيات بيت الأشباح، بعضهم ذوو وجوه كالكوابيس وصدورهم ملونة، يهاجمون الساكسونيين المترجلين ويطعنونهم بالرماح ويضربونهم بالعصي ويقفزون من فوق جيادهم بسكاكين ويركضون على الأرض مهرولين بأرجل مقوسة غريبة كمخلوقات تحولت إلى أشكال ذات حركة عجيبة، يُجَرِّدون الأموات من ملابسهم ويقبضون عليهم من شعورهم ويمررون أنصال سكاكينهم على جماجم الأحياء والأموات على حد سواء، وينتزعون

الكثير من فروات الرؤوس المضرجة بالدم، ويقطِّعون الأجساد العارية إربا ويمزقون الأوصال والرؤوس، ويُخرجون أحشاء الجثث البيضاء الباردة، ويَحملون ملء أيديهم من الأحشاء والأعضاء التناسلية. بعض الهمجيين كان مكسوين تماما بالدم المتخثر وكأنهم كانوا قد تمرغوا فيه مثل الكلاب، وبعضهم سقط فوق المحتضرين واغتصبوهم وهم يصيحون بأصوات عالية على رفاقهم. أتت خيول الذين ماتوا متثاقلة من خلال الدخان والغبار وأخذت تدور بجلود ترفرف عليها وشعر أعناقها هائج وعيونها مبيَّضة من الخوف مثل عيون العميان، بعضها كانت الرماح تغطيها كالريش، وبعضها مطعونة برمح يخترقها وتتعثر وتتقيأ دما أثناء جرها العربات عبر أرض القتل تتوقف ثم تتحرك مجلجلة مرة أخرى. أوقف التراب نزيف دماء مسلوخي الرؤوس المبتلة والعارية التي عليها بقايا من الشعر تحت جروحها، والمحلوقة حتى العظم، وهم يرقدون الآن مثل رهبان مشوهين في غبار مستنقع دماء، وفي كل مكان كان المحتضرون يئنون ويهذرون، وكانت الخيول تستلقي وهي تزعق.

* * *

-5-

سير على غير هدى إلى (بولسون دي مابيمي) - (سبرول) - شجرة أطفال أموات - مشاهد من مذبحة - سوبيلوتس - المقتول في الكنيسة - ليلة بين الأموات - ذئاب- الغسالون على مخاضة النهر - سيراً على الأقدام باتجاه الغرب - سراب - مواجهة مع قُطّاع الطرق - هجوم الخفاش - حفر بئر - تقاطع طرق في الصحراء - العربة - موت (سبرول) - قيد الاعتقال - رأس الكابتن - ناجون - إلى (تشيهواهوا) - المدينة - السجن - (تودفين).

* * *

عند حلول الظلام نهض شخص بشكل عجيب من بين الأموات الذين ذبحوا للتو، وانسلّ مبتعدا في ضوء القمر. كانت الأرض التي كان ممدداً فوقها مشبّعة بالدم والبول من المثانات الفارغة للحيوانات. تقدّم وهو ملطخ وتنبعث منه رائحة كريهة مثل رائحة الدماء القوية التي أنتجتها الحرب نفسها. انتقل الهمجيون إلى أرض أعلى، وكان بإمكانه رؤية ضوء نيرانهم وسماعهم يغنون، غناءً كئيبا وغريبا، هناك حيث ذهبوا لشواء البغال. شق طريقه بين الوجوه الشاحبة ومقطعي الأوصال، بين الخيول التي تنتفض وترفس. اهتدى بالنجوم وانطلق إلى الجنوب سيراً على الأقدام. تشكّل الظلام بألف شكل هناك بين

الأشجار الصغيرة، وراقب الأرض التي أمامه. كوَّن ضوء النجوم والقمر المحاق ظلا باهتا لتجواله في ظلام الصحراء، وعلى طول التلال كانت الذئاب تعوي وتتحرك إلى الشمال نحو المذبوحين. مشى طوال الليل ومازال يستطيع رؤية النيران خلفه.

مع بزوغ ضوء النهار شق طريقه باتجاه مرتفعات من الصخور على بعد ميل عبر أرض الوادي. كان يتسلق بين الصخور الضخمة المتساقطة والمتناثرة عندما سمع صوتاً ينادي في مكان ما في الأرض الشاسعة. نظر عبر السهل ولكنه لم يَرَ أحدا. عندما صرخ الصوت مرة ثانية، التفت وجلس ليرتاح، وما هي إلا برهة حتى رأى شيئا ما يتحرك على طول المنحدر، كان شخصاً يتسلق باتجاهه بجهد فوق الجوانب المنحدرة، ويختار طريقه بحذر وينظر وراءه. رأى الصبي أنه لم يكن أي شيء يتبعه.

كان ذلك الشخص قد وضع ملاءة فوق كتفيه، وكمّ قميصه قد تمزق واسودَّت ذراعه بالدم الذي نزف منها، فحملها ملاصقة إلى جسده بيده الثانية. كان اسمه (سبرول).

ثمانية منهم هربوا. كان حصانه مصاباً بعدد من الأسهم وانهار تحته في الظلام، وتابع الباقون طريقهم وكان الكابتن من بينهم.

جلسا جنباً إلى جنب بين الصخور وراقبا النهار وهو يمتد على السهل أسفل منهم.

هل أنقذت شيئا من عتادك؟ سأل (سبرول).

بصق الصبي وهزَّ رأسه. نظر إلى (سبرول)، وقال:

ما مدى خطورة الإصابة في ذراعك؟

مدَّها إليه، وقال: لقد رأيت ما هو أسوأ.

جلسا ينظران إلى امتداد الرمال والصخور والرياح.

أي نوع من الهنود كانوا؟

لا أعرف.

سَعَلَ (سبرول) بشدَّة داخل قبضة يده. وشد ذراعه المضرجة بالدم إليه. وقال: اللعنة إن لم يكونوا مصدراً للحذر من قِبل المسيحيين.

استلقيا في ظل رف صخري حتى الظهيرة، ثم أخذا ينبشان مكانا في تراب الصخور البركانية الرمادية ليناما فيه. بعد الظهر، تقدَّما باتجاه الوادي مُتَتَبِّعين أثر الحرب. كانا صغيرين جدا ومشيا ببطء شديد في ذلك المكان الشاسع. عندما أتى المساء اتجها لاهثين نحو الحافة الصخرية مرة أخرى، وأشار (سبرول) إلى بقعة سوداء على سفح التلة القاحلة. كانت تبدو كسواد خلَّفته نيران قديمة. حجب الصبي عينيه. كانت أسوار الوادي الضيق ذات النتوءات الصخرية تتموج في الوهج كأنها مغطاة بثوب فضفاض.

من الممكن أن يكون ينبوعا صغيرا. قال (سبرول).

إنه طريق طويل إلى هناك.

حسنا، إذا رأيت ماءً أقرب دعنا نذهب إليه.

نظر الصبي إليه ثم تابعا المسير.

كان الموقع ممتدا على مرتفع وكانت طريقهما مختلطة بصخور ساقطة ورماد البراكين ونباتات تشبه الحراب إلى حد كبير. شجيرات صغيرة سوداء وزيتونية اللون ذبلت تحت الشمس. كانا يتعثران فوق أرض مجرى الماء الطينية المتشققة. استراحا ثم تابعا طريقهما.

كانت تسرب الماء يقع إلى الأعلى بين سلاسل الصخور، ويقطر الماء الضحل فوق الصخر الأسود الناعم، وكانت الأعشاب ذات الزهور الملونة والزنابق تتدلى في بستان صغير قريب. وكان الماء الذي وصل إلى أرض المجرى المائي هزيلا وقليلا جدا، فانحنيا كل منهما بدوره وشفاهه مزمومة نحو الحجر مثل الورعين على مقام أحد القديسين.

قضيا الليل في كهف مسطح قليلا فوق هذه البقعة. تبعثرت بقايا الرصاص الفارغ ومسننات على الأرض الحجرية، مع مغلفات البارود والعظام المصقولة وفحم نيران قديمة. تشاركا بالبطانية في البرد، وسعل (سبرول) بصمت في الظلام، وكانا ينهضان من وقت لآخر ويصعدان إلى الحجر لكي يشربا الماء. كانا قد رحلا قبل شروق الشمس. ووصلا إلى السهل مرة ثانية في الفجر.

تبعا الأرض الموطوءة التي غادرتها المجموعة المحاربة. وبعد الظهر مرّا ببغل ملقى كان قد طُعن برمح وتُرك ميتا ثم مرّا ببغل آخر.

أخذت الطريق تضيق من بين الصخور، وبعد وقت قصير وصلا إلى شجرة عُلِّق عليها أطفال رضع ميتون.

وقفا جنبا إلى جنب يترنحان في الحرّ. أولئك الضحايا الصغار، سبعة أو ثمانية منهم، خُرِمت ثقوب تحت فكوكهم وعُلِّقوا هكذا من حناجرهم بعِيدان نبات المسكيت ليحدقوا بلا عيون في السماء الصافية. كانوا صلعين وشاحبين ومنتفخين كأنهم يرقات لمخلوق غير معروف. مرَّ المنبوذان وهما يعرجان، ونظرا إلى الوراء. لاشيء يتحرك. بعد الظهر وصلا إلى قرية في السهل حيث مازال الدخان يرتفع من الحطام والجميع قد ماتوا. من بعيد كان المشهد يبدو كتنُّور متعفن من القرميد. وقفا خارج الأسوار لفترة طويلة يُصغيان إلى السكون قبل أن يدخلا.

مشيا ببطء عبر الشوارع الموحلة الصغيرة. كان هناك أغنام وماعز مذبوحة في حظائرها، وخنازير ميتة في الوحل. مرّا بأكواخ من الطين حيث تمدد أناس مقتولون في كل أوضاع الموت عند المدخل وعلى الأرض، كانوا عراة ومتورمين وأشكالهم غريبة. وجدا صحون طعام نصف مأكولة، وخرجت قطة وجلست تحت الشمس وأخذت تراقبهما بدون أي اهتمام، وتشابك الذباب في كل مكان في الهواء الساكن الحار.

في نهاية الشارع وصلا إلى ساحة فيها مقاعد خشبية وأشجار حيث احتشدت صقور في مآوٍ سوداء قذرة، وحصان ميت مُمدد في الساحة،

وكان بعض الدجاج يلتقط بمناقيرة رقعة من الطعام المسكوب عند المدخل. تمددت الأعمدة المتفحمة والدخان ينبعث منها حيث سقطت السقوف. كان حمار صغير يقف عند باب الكنيسة المفتوح.

جلسا على مقعد خشبي وحمل (سبرول) ذراعه المجروحة إلى صدره وتأرجح إلى الأمام والى الوراء وهو يرمش في ضوء الشمس.

ماذا تريد أن تفعل؟ قال الصبي.

أريد شربة ماء.

غير ذلك؟

لا أعرف.

تريد أن تقوم بمحاولة وتتجه عائدا؟

إلى تكساس؟

لا أعلم إلى أين غيرها.

لن ننجح أبدا.

حسناً قل أنت.

ليس لدي ما أقوله.

كان يسعل من جديد. أمسك صدره بيده السليمة وجلس كأنه يستعيد أنفاسه.

ماذا أصابك، برْد؟

عندي هُزال بسبب السل.

مرض السل؟

أومأ برأسه. لقد أتيت إلى هنا من أجل صحتي.

نظر الصبي إليه. هزَّ رأسه ونهض ثم مشى عبر الساحة باتجاه الكنيسة. كانت هناك صقور تجثم بين الخشب المحفور، والتقط حجرا ورماها به، إلا أنها لم تتحرك مطلقاً.

أصبحت الظلال أطول في الساحة، وتحركت حوامات من الغبار في الشوارع الطينية البنيّة. جثمت الطيور آكلة الجيف فوق قمم زوايا البيوت بأجنحتها المفرودة بوضعية تحذيرية وكأنها مطارنة صغار داكنة. رجع الصبي إلى المقعد الخشبي وسند إحدى قدميه واتكأ على ركبته. جلس (سبرول) كما هو، وما زال يحمل ذراعه، وقال:

ابن العاهرة، إنه يسبب لي التعاسة.

بصق الصبي ونظر إلى الشارع. من الأفضل لنا أن نبقى هنا الليلة.

أتظن أن كل شيء سيكون على ما يرام؟

مع من؟

ماذا لو عاد الهنود؟

يعودون لأجل ماذا؟

ماذا لو عادوا؟

لن يعودوا.

حمل ذراعه.

أتمنى لو أن لديك سكينا، قال الصبي.

وأنا أتمنى لو كانت معك.

يوجد هنا لحم لو أن الشخص كان لديه سكين.

لست جائعا.

أعتقد أن علينا أن نستكشف تلك البيوت ونرى ماذا يوجد فيها.

إذهب واستكشف.

نريد أن نجد مكانا ننام فيه.

نظر (سبرول) إليه، وقال: لا أحتاج أن أذهب إلى أي مكان.

حسناً، افعل ما يحلو لك.

سعل (سبرول) وبصق، وقال: سأفعل.

استدار الصبي واستمر بالسير نحو الشارع.

كانت المداخل منخفضة وكان عليه أن ينحني ليرى عتبة الباب بوضوح. دخل إلى الغرف الباردة ذات الأرض الترابية. لم يكن هناك أثاث ما عدا فرشات من القش للنوم، وصناديق الحبوب الخشبية. ذهب

من منزل إلى منزل. في إحدى الغرف كانت توجد عظام طَيْفٍ صغير سوداء ينبعث منها دخان. وفي غرفة أخرى رجل، كان لحمه المتفحم مسحوباً ومشدوداً، والعينان مطبوختين في جحريهما. كانت هناك فجوة في السور الطيني وبداخلها أشكال بشرية لقديسين مرتدين ملابس دُمى، وكانت الوجوه الخشبية البسيطة ملونة بألوان زاهية. فُصِلَت لوحات زيتية من مجلة قديمة وألصقت على الجدار، رسمة صغيرة للملكة، وورقة غجرية مرسوم عليها أربعة كؤوس. كان هناك عقد من الفلفل المجفف وبضع يقطينات، وقنينة زجاجية فيها طحالب. في الخارج كانت هناك ساحة جرداء وقذرة ومسيّجة بالأخشاب الشمعية الشائكة ذات الزهور القرمزية، وموقد فخاري دائري مجوّر فيه لبن متخثر يرتعش في الضوء الذي بداخله.

وجد جرة فخارية فيها فاصولياء وبعض قطع كعكة دقيق الذرة الجافة، أخذها وذهب إلى منزل في نهاية الشارع حيث كانت القطع المتفحمة الساقطة من السقف ما تزال تُدَخِّن، دَفّأ الطعام في الرماد وأكل. كان يجثم كهارب من الجندية يبحث عن بقايا طعام بين حطام المدينة التي هجرها.

عندما عاد إلى الساحة، كان (سبرول) قد ذهب. كل شيء حوله كان يقبع في الظل. عبَر الساحة وصعد الدرجات الحجرية إلى باب الكنيسة ودخل. كان (سبرول) يقف في الردهة. وقعت دعامات طويلة من الأضواء من النوافذ العالية على الحائط الغربي. لم يكن يوجد

مقاعد في الكنيسة، وكان على الأرض الحجرية أكوام من الجماجم والجثث العارية نصف المأكولة لحوالي أربعين روحاً كانوا قد تحصّنوا في بيت الرَّب هذا من الهمجيين. كان المتوحشون قد حفروا ثقوبا في السقف ورموهم بالسهام من الأعلى، فكانت الأرض مكسوة بقصبات الرماح حيث انتزعوها ليحصلوا على الملابس من الجثث. كانت مذابح الكنيسة قد سقطت، ونهب المعبد، وجُرّد إله المكسيكيين العظيم النائم من كأسه الذهبي. كانت رسومات القديسين الأوائل المعلَّقة داخل إطاراتها مائلة على الجدران وكأن زلزالاً قد زارها، والمسيح الميت الموضوع داخل نعش زجاجي سقط مكسورا على أرض هيكل الكنيسة.

كان القتلى مستلقين في بركة كبيرة من دمائهم المشتركة في العشاء الرباني. ووضعت كحلوى البودنغ وكانت مشطّبة كلها بآثار كلاب أو ذئاب وقد جفَّت وتشققت من الجوانب مثل الخزف الأرجواني اللون. امتد الدم على شكل ألسنة قاتمة على الأرض، وغطى الدم الحجارة المرصوفة ثم سال إلى الردهة حيث كانت الحجارة بشكل كوب بفعل وطئ أقدام الورعين وآبائهم من قبلهم، ثم شق طريقه إلى العتبات وأخذ يَقْطُر من الحجارة بين الآثار الحمراء الداكنة للحيوانات والطيور التي تقتات على لحوم الحيوانات الميتة.

التفت (سبرول) ونظر إلى الصبي وكأنه يعرف ما هي أفكاره، ولكن الصبي هزّ رأسه فقط. تسلق الذباب فوق جماجم الأموات المكوَّمة والمسلوخة الفروات، ومشى الذباب فوق كرات العيون المنكمشة.

تعال، قال الصبي.

عبرا الساحة في آخر النهار وذهبا باتجاه الشارع الضيق. عند المدخل تمدد طفل ميت وجثم صقران فوق جثته. هشّ (سبرول) بيده السليمة على الصقرين اللذين صفقا بأجنحتهما بفروغ صبر وهسهسا ورفرفا بفوضى ولكنهما لم يطيرا.

تابعا سيرهما في الصباح مع أول شعاع نور، في حين غادرت الذئاب من المداخل واختفت في ضباب الشوارع. ذهبا باتجاه الجنوب الغربي، من الطريق نفسه الذي أتى منه المتوحشون. مرّا بجدول رملي صغير وأشجار الحور القطني وثلاث عنزات. اجتازا مخاضة نهر حيث كانت تستلقي نساء ميتات في مكان الغسيل الخاص بهن.

لقد جاهدا طوال اليوم لعبور أرض ملعونة من الرماد الذي ينبعث منه دخان، وكانا يمران من وقت إلى آخر بأشكالٍ منتفخة لبغال أو خيول ميتة. عند المساء كانا قد شربا كل الماء الذي حملاه. ناما على الرمال واستيقظا في الصباح الباكر البارد، وتابعا سيرهما في أرض الرماد حتى أوشكا أن يغمى عليهما. بعد الظهر وصلا إلى عربة متبعين آثارها، كانت تميل على مقدمتها، وكانت عجلاتها الضخمة قد قُطِعت من جذوع أشجار الحور القطني، وثُبِّتت بألسنة على محاور العربة. زحفا تحتها وناما في ظلها حتى حلّ الظلام ثم تابعا سيرهما.

اختفت قشرة القمر التي كانت ظاهرة طوال النهار، فتابعا الطريق عبر الصحراء على ضوء النجوم، كانت مجموعة نجوم الثريا فوق

الرؤوس مباشرة وصغيرة جدا، ومجموعة الدب الأكبر تتحرك فوق الجبال نحو الشمال.

ذراعي تُنْتِن، قال (سبرول).

ماذا؟

قلت ذراعي تنتن.

تريدني أن أراها؟

لماذا؟ لا يمكنك فعل شيء بها.

حسنا، إفعل ما يحلو لك.

سأفعل. قال (سبرول).

تابعا سيرهما. سمعا مرتين في الليل صوت أفاعي البرية السامة تجلجل بين الأشجار الخفيضة وشعرا بالخوف. بحلول الفجر كانا يتسلقان بين الصخور المُشكَّلة من الصلصال والصخور البركانية تحت حائط طيَّة أمامية سوداء حيث كانت الأبراج تقف مثل تماثيل الأنبياء البازلتية، ومرّا على جانب الطريق بصليب خشبي صغير مدعّم بركام من الحجارة حيث التقى المسافرون مع الموت. تعرّج الطريق صعودا بين التلال وبذل المنبوذان جهدا على الطرق المتعرجة، مُسوَّدَيْن تحت الشمس، والتهبت كرات أعينهما، والأطياف الملونة تعدو عند الزوايا. صعدا من خلال النباتات الشوكية والصبّار حيث ترتجف الحجارة تحت الشمس. صخور فقط ولا يوجد ماء، وآثار على الرمال. بقيا يترقبان

لرؤية شيء ما أخضر يدل على وجود ماء، ولكن لم يكن هناك أي ماء. أكلا الذرة المحمصة بأصابعهما من داخل حقيبة، وتابعا طريقهما. خلال حرارة الظهيرة وحتى الغسق كانت السحالي تتمدد وجلود ذقونها منبسطة على الصخور الباردة وتحمي نفسها من العالم مع ابتسامات رفيعة وعيون تشبه الصحون الحجرية المتشققة.

بلغا قمة الجبل عند غروب الشمس، وكان بإمكانهما الرؤية لمسافة أميال. كانت بحيرة عميقة تقع أسفل منهما مع جبال زرقاء بعيدة تقف في امتداد الماء الشاسع حيث الرياح ساكنة، وطيف نسر يحلّق، وأشجار تومض في الحرارة ومدينة بعيدة بيضاء جدا مقابل التلال الزرقاء المعتمة. جلسا وراقبا. رأيا الشمس تسقط باتجاه الغرب تحت حافة الأرض المسننة، وشاهداها تلمع خلف الجبال، كما شاهدا سطح البحيرة يُعتم وطيف المدينة يتلاشى على سطحها. ناما بين الصخور ووجهاهما إلى الأعلى كرجال ميتين، وفي الصباح عندما نهضا لم يكن هناك مدينة ولا أشجار ولا بحيرة، فقط سهل قاحل مُغبَّر.

تأوه (سبرول) وانهار ساقطاً بين الصخور. نظر الصبي إليه. كانت هناك تقرُّحات حول شفته السفلى، وتورمت ذراعه من خلال قميصه الممزق، ونزٌّ شيء نتن من بين بقع الدم الغامقة. استدار ونظر عبر الوادي.

أحدهم قادم من بعيد، قال الصبي.

لم يُجب (سبرول). نظر إليه الصبي، وقال: أنا لا أكذب.

هنود، قال (سبرول)، أليس كذلك؟

لا أعرف. إنهم أبعد من أن أستطيع معرفة ذلك.

ماذا تنوي أن تفعل؟

لا أعرف.

ماذا حدث للبحيرة؟

لا أستطيع إخبارك.

لقد رآها كلانا.

الناس يرون ما يريدون أن يَرَوه.

إذن كيف لا أراها الآن؟ أنا متأكد مثل وجود جهنم أنني أريد أن أراها.

أطلَّ الصبي فوق السهل أسفل منه.

ماذا لو كانوا هنودا؟ قال (سبرول).

المرجح أنهم كذلك.

أين يمكننا الاختباء؟

بصق الصبي ريقه الجاف ومسح فمه بظاهر يده. خرجت سحلية من تحت الحجر وجثمت على أكواعها الصغيرة فوق تلك القطعة من الرغوة وشربتها كلها وعادت إلى الحجر مرة ثانية تاركة بقعة باهتة على الرمل تلاشت في الحال تقريبا.

انتظَرا طوال النهار. قام الصبي بالذهاب عدة مرات إلى الجدول للبحث عن الماء، إلا أنه لم يجد أي ماء. لم يكن أي شيء يتحرك في تلك الصحراء التي تُطهِّرَ فيها النفوس سوى الطيور آكلة اللحوم. عند وقت الأصيل المبكر تمكّنا من رؤية راكبي الجياد على الطريق المتعرج صاعِدين باتجاه سفح الجبل أسفل منهم. لقد كانوا مكسيكين.

كان (سبرول) يجلس ورجلاه ممدودتان أمامه، وقال: لقد كنت قلقا أن لا يتحمّل حذائي القديم ويبقى معي. رفع نظره، وقال: إذهب، أنج بنفسك. ولوّح بيده.

كانا يلزمان مكانهما تحت رف صخري في ظل ضيق. لم يُجب الصبي. خلال ساعة سمعا قعقعة الحوافر بين الصخور وخشخشة التروس، وكان أول حصان يدور حول قمة الصخر ويمر من خلال ممر في الجبل هو حصان الكابتن الكستنائي الضخم، وكان يحمل سرج الكابتن ولكنه لم يكن يحمل الكابتن. وقف اللاجئان على جانب الطريق. وبدا راكبو الخيول مُحترقين ومنهكين وكأنهم خرجوا من الشمس. امتطوا جيادهم وكأنهم بلا وزن نهائيا. كان هناك سبعة، أو ثمانية منهم. وكانوا يرتدون قبعات ذات حواف عريضة، وسترات جلدية، ويحملون بنادق فوق الجزء المقوس من سروجهم، وعندما مروا أومأ لهما القائد برأسه برزانة من على ظهر حصان الكابتن ولمس حافة قبعته ثم تابعوا طريقهم.

(سبرول) والصبي تتبعاهم بنظريهما. صرخ الصبي وبدأ (سبرول) يعرج بطريقة خرقاء وراء الخيول.

بدأ راكبو الخيول بالمشي بتثاقل والترنح مثل الثملين. كانت رؤوسهم تتدلى وقهقهاتهم تُحدث صدى بين الصخور ثم أداروا جيادهم وامتطوها وتفحصوا الهائمَيْن بابتسامة عريضة.

ماذا تريدان؟ صرخ القائد. (بالإسبانية)

ضحك راكبو الخيول على نحو متقطع وصفع بعضهم بعضا. وكزوا خيولهم لتتقدم ثم بدأوا يتحركون على غير هدى. التفت القائد إلى الرجلين المترجلين.

تبحثان عن الهنود؟ (بالإسبانية)

عند ذلك ترجَّل بضعة رجال وبدأوا يضمّون بعضهم بعضاً وينتحبون بلا خجل. نظر القائد إليهم وكشّر، كانت أسنانه بيضاء وكبيرة كأنها صُنِعت للعلف.

معتوهين، قال (سبرول). إنهم معتوهون.

رفع الصبي بصره نحو الكابتن، وقال: ماذا عن شُربة ماء؟

صحا الكابتن من ثمالته وعَلَت وجهه إمارات الأسى، وقال: ماء؟

ليس لدينا ماء، قال (سبرول).

ولكن يا صديقي كيف لا؟ المكان جاف جدا هنا.

مد يده خلفه دون أن يستدير، ومُرِرَت مطرة ماء جلدية بين راكبي الخيول حتى وصلت إلى يده. هزَّها وقدَّمها نحو الأسفل. سحب

الصبي السدادة وشرب ثم وقف يلهث وشرب مرة ثانية. مدَّ القائد نفسه إلى الأسفل وسدَّ المطرة . وقال: يكفي. (بالإسبانية)

استمر بتجرع الماء. لم يرَ أن وجه راكب الخيل قد أصبح قاتماً، وسحب من الركاب فردة حذاء واحدة إلى الخلف ثم ركل المطرة من بين يدي الصبي وتركه هناك لدقيقة متجمدا في حين ارتفعت المطرة في الهواء وانقلبت ولمعت قطرات الماء في الشمس قبل أن تسقط على الصخور. زحف (سبرول) وراءها وانتزعها من حيث وقعت وهي ترشح الماء وبدأ يشرب وهو ينظر من فوق الحافة. راقب الصبي وراكب الحصان بعضهما البعض. جلس (سبرول) يلهث ويسعل.

خطا الصبي فوق الصخور إلى الأمام وأخذ المطرة منه. أنزل القائد الحصان على ركبتيه وسحب سيفا من مكانه تحت رجله ثم انحنى إلى الأمام ومرره تحت رباط المطرة ورفعها. كان رأس السيف على بعد ثلاثة إنشات تقريبا من وجه الصبي، وانثنى رباط المطرة على سطحها. توقف الصبي ورفع الراكب المطرة بهدوء من يديه وتركها تنزلق على حد السيف لتستقر بجانبه. التفت إلى الرجال وابتسم وبدأوا من جديد يصيحون ويلكمون بعضهم البعض كالقرود.

أخذ يؤرجح السدادة من المكان الذي تعلّقت به بواسطة رباطها وأعادها إلى مكانها بكعب يده. أمال المطرة إلى الرجل خلفه ونظر إلى المسافرَيْن، وقال: لماذا لم تختبئا؟

منكم؟

مني.

كنا نشعر بالعطش.

عطش شديد، إيه؟

لم يجيبا. كان ينقر سطح السيف نقراً خفيفاً على قربوس سرجه وكان يبدو كأنه يشكّل كلمات في عقله. انحنى نحوهما قليلا. وقال: عندما ضاعت النعاج في الجبال، صاروا يبكون، كانت تأتي الأم أحيانا ويأتي الذئب أحيانا أخرى. ابتسم لهما ورفع السيف ثم أرجعه إلى المكان الذي أحضره منه، وأدار الحصان ببراعة وهرول به بين الجياد خلفه، وامتطى الرجال وتبعوه، وما لبث أن رحل الجميع.

جلس (سبرول) بدون حراك. نظر الصبي إليه ولكن (سبرول) أشاح بنظره بعيدا. لقد جُرح في أرض العدو بعيداً عن الوطن، وعلى الرغم من أن عينيه اعتادتا على الحجارة الغريبة من حوله، إلا أن الفراغ الكامن وراءها بدا وكأنه سيبتلع روحه. هبطا من الجبل، ومشيا فوق الصخور وأيديهما ممدودة أمامهما وظلالهما يتلويان على تضاريس الأرض المكسرة مثل مخلوقات تبحث عن هيئة خاصة بها. وصلا إلى أرض الوادي عند الغسق وتقدّما عبر الأرض الزرقاء الباردة، كانت الجبال إلى الغرب كصفّ من الصخور الخشنة الممتدة باتجاه الأرض، والأعشاب الجافة تطير وتلتف في الرياح التي هبت من اللامكان.

تابعا سيرهما في الظلام وناما كالكلاب على الرمال، وكانا نائمين هكذا عندما تحرك شيء أسود خارجا من الظلام وهبط على

صدر (سبرول). كانت الأصابع الرفيعة العظمية تُثبِّت الأجنحة الجلدية التي كانت تتوازن بها عندما تمشي فوقه. وجه مجعّد أفطس الأنف، صغير وشرير، وشفاه عارية ومتجعدة ذات ابتسامة مرعبة وأسنان زرقاء شاحبة في ضوء النجوم. انحنى عليه. وحفر في رقبته أخدودين ضيقين وطوى جناحيه عليه وبدأ يشرب من دمه.

كونه لم يكن مرتاحا بشكل كاف فقد استيقظ وإحدى يديه مرفوعة. زعق، فخاف الخفاش مصاص الدماء وجلس إلى الوراء على صدره، ثم قوَّم وضعه مرة ثانية وأصدر صوت هسهسة وطقطق بأسنانه.

كان الصبي مستيقظا وأمسك بحجر ولكن الخفاش وثب وطار مبتعدا في الظلام. كان (سبرول) يحك رقبته ويهذي بطريقة هستيرية، وعندما رأى الصبي يقف هناك وينظر إليه، رفع يديه المضرجتين بالدماء نحوه وكأنه يتهمه ثم صفعهما على أذنيه وصرخ صرخة يبدو أنه هو نفسه لم يسمعها، كأن هذا الغضب العاصف بسبب الألم الحاد أوقف نبض العالم. ولكن الصبي بصق فقط في عتمة الفراغ بينهما، وقال: أعرف صِنفك، الخلل الذي فيك سيبقى دائماً فيك.

* * *

في الصباح اجتازا جدولا جافا صعد الصبي فوقه باحثا عن بركة أو حفرة ولكن لم يجد شيئا من ذلك. اختار بالوعة في الجدول وشرع يحفر

فيها بهمة بواسطة عظمة، وبعد أن حفر حوالي قدمين في الرمال، أصبح الرمل رطبا، حفر أكثر قليلا وبدأ الماء ينزّ ببطء ليملأ الأخاديد التي أفرغها من الوحل بأصابعه. خلع قميصه وحشره داخل الرمل وراقبه حتى أصبح لونه داكنا، وراقب الماء يرتفع ببطء بين ثنيات القماش حتى أصبح فيه ما يقارب ملء كأس من الماء، بعد ذلك أنزل رأسه داخل الحفرة وشرب. ثم جلس وراقبه وهو يمتلئ مرة ثانية. وظل يفعل ذلك لمدة أكثر ساعة. بعد ذلك لبس القميص وعاد إلى الجدول.

لم يرغب (سبرول) بخلع قميصه. حاول أن يمصّ الماء، وما حصل عليه كان ملء فمه من الرمل، وقال: لماذا لم تدعني استخدم قميصك؟

كان الصبي يجلس القرفصاء على حصى الجدول الجاف، وقال: مُصّ قميصك أنت.

خلع قميصه. كان ملتصقا بالجلد وتدفق قيح أصفر. كانت ذراعه متورمة بحجم فخذه وكانت متوهجة بدون لون، وكانت ديدان صغيرة قد أزبدت في الجرح المفتوح. دفع القميص داخل الحفرة وانحنى وشرب.

في وقت الأصيل وصلا إلى مفترق طرق، ماذا يمكن أن يُدعى غير ذلك. كانت هناك آثار باهتة لعربة قَـدِمَت من الشمال واجتازا طريقهما واتجها نحو الجنوب. وقفا وأمعنا النظر في المشهد على أمل أن يجدا دليلاً في الخلاء. جلس (سبرول) حيث تقاطعت الآثار ونظر من الكهفين الكبيرين في جمجمته حيث ترقد عيناه، وقال إنه لن ينهض.

يوجد هناك بحيرة، قال الصبي.

لم ينظر هناك.

إنها توجد بعيدا وتومض. جوانبها محفوفة بملح. تفحّصها الصبي وتفحّص الطرق. بعد برهة أومأ باتجاه الجنوب. أعتقد أن هذا الطريق هنا هو المطروق أكثر في السفر.

هذا جيد، قال (سبرول). إمضِ في طريقك.

إفعل ما يحلو لك.

راقبه (سبرول) وهو ينطلق. وبعد برهة نهض ولحق به.

كانا قد مشيا ربما لمسافة ميلين عندما توقفا للاستراحة. كان (سبرول) يجلس ورجلاه إلى الخارج ويداه فوق حُجره، والصبي يجلس القرفصاء على بُعد قليل منه. كانا يطرفان بعيونهما وكانا ملتحيين وملابسهما الرثة قذرة.

هل يبدو هذا كرعد بالنسبة لك؟ قال (سبرول).

رفع الصبي رأسه.

إسمع.

نظر الصبي إلى السماء، كانت زرقاء باهتة، ولا توجد فيها علامات ما عدا المكان الذي كانت الشمس تتوهج فيه والذي كان يبدو كثقب ابيض.

أستطيع أن أشعر به في الأرض.

لا أشعر بشيء.

اسمع.

نهض الصبي ونظر حوله. كانت هناك حركة غبار خفيفة إلى الشمال. راقبها. لم ترتفع ولم تهب بعيدا.

لقد كانت عربة تقرقع بطريقة خرقاء فوق السهل. كان يقودها بغل صغير، ربما كان السائق نائما. عندما رأى الفارين أمامه أوقف البغل وبدأ يحثه على الرجوع، وتمكّـن من جعله يستدير ولكن في تلك اللحظة أمسك الصبي بالعِذار(*) المصنوع من الجلد غير المدبوغ. أتى (سبرول) وهو يعرج. أطلّ من مؤخرة العربة طفلان. كانا شاحبين من الغبار، كان شعرهما أبيض جدا ووجهاهما هزيلين. كانا يبدوان مثل أقزام الأساطير وهما يربضان هناك. عندما رأى السائق الصبي أمامه تقهقر إلى الوراء، وأطلقت المرأة الجالسة بجانبه صرخة وهي ترتجف بدأت تشير من أفق إلى آخر، ولكنه ألقى بنفسه في مقعد العربة وأتى (سبرول) يجرجر نفسه وراءه، واستلقيا يحدقان في غطاء العربة الساخن، في حين تراجع الرجل والمرأة إلى الزاوية وراقبا بعيون سوداء كعيون فئران الغابة، واستدارت العربة نحو الجنوب مرة ثانية بأصوات خشخشة وقعقعة عالية.

(*) العِذار: ما سال من اللجام على خد الفرس.

كانت هناك جرة ماء فخارية معلقة بسَيْر جلدي، أنزلها الصبي وشرب منها ثم أعطاها لـ(سبرول). بعد ذلك استعادها منه وشرب الباقي. استلقيا على أرض العربة بين جلود الحيوانات والملح المتناثر، وبعد برهة ناما.

كان الظلام قد حلَّ عندما دخلا البلدة. تَوَقُّفْ تأرجح العربة هو الذي أيقظهما. رفع الصبي نفسه ونظر إلى الخارج. رأى ضوء النجوم على شارع موحل. كانت العربة فارغة. تنفس البغل بجهد محدثا صوت صفير وداس على الآثار. بعد قليل أتى رجل من الظلال وقادهما في زقاق إلى داخل ساحة، وشدّ البغل إلى الوراء حتى أصبحت العربة بجانب حائط، ثم فك البغل وساقه بعيدا.

استلقى على ظهره في فِراش العربة. كان الجو باردا في الليل. استلقى وركبتاه مرفوعتان تحت قطعة من جلد حيوان كان لها رائحة عفن وبَول، كان ينام ويصحو طوال الليل، وكانت الكلاب تنبح بشكل متواصل، وفي الفجر كانت الديوك تصيح وسمع أصوات خيول على الطريق.

عند أول ضوء رمادي بدأ الذباب يقف عليه. لمس وجهه وأيقظه وكان يهشه بعيدا عنه. بعد قليل نهض.

كانوا في ساحة خالية جدرانها من طين، وكان هناك منزل مبني من القصب والصلصال. كانت الدجاجات تتنقل هنا وهناك وهي

تقاقي وتنبش التراب. أتى ولد صغير من المنزل وأنزل بنطاله ثم تغوّط في الساحة ونهض وعاد إلى الداخل مرة أخرى. نظر الصبي إلى (سبرول). كان يستلقي ووجهه يتجه نحو ألواح العربة. كان مغطى قليلا ببطانيته وكان الذباب يزحف فوقه. مد الصبي نفسه ليهزّه. كان بارداً ومتخشباً. ارتفع الذباب ثم عاد واستقر فوقه.

كان الصبي يقف بجانب العربة يبوّل عندما دخل الجنود الساحة ممتطين جيادهم. قبضوا عليه وربطوا يديه خلفه ثم نظروا داخل العربة وتحدثوا فيما بينهم ثم اقتادوه خارجا إلى الشارع.

لقد أخذ إلى مبنى من لبنات طينية ووُضع في غرفة فارغة. جلس على الأرض في حين كان فتى هائج معه بندقية (مسكيت) يراقبه. بعد قليل أتوا وأخذوه خارجا مرة أخرى.

اقتادوه عبر الشوارع الموحلة الضيقة وسمع صوت عزف بوق وكان الصوت يعلو تدريجياً. في البداية كان الأطفال يمشون معه، ثم أناس كبار، وأخيرا حشد من القرويين ذوي جلود سمراء وجميعهم يرتدون ملابس قطنية بيضاء كحُضور في مؤسسة اجتماعية، كانت النساء يضعن الشالات الطويلة الداكنة. بعضهن كنّ يظهرن صدورهن، ووجوههن مبقعة باللون الأحمر ويُدخِنَّ سيجاراً صغيراً. تضخمت أعدادهم، وكان الحرس الذين يحملون على أكتافهم بنادق قديمة يعبسون ويصرخون على المتدافعين، وتابعوا مسيرهم بجانب سور الكنيسة الطيني العالي، ثم إلى داخل الساحة.

كان هناك سوق خيري ، وعَرْض متنقل للأدوية، وسيرك بدائي. مروا بأقفاص متينة من أشجار الصفصاف أغلقت على أفاعي سامة، مع حيّات بلون أخضر فاقع من مناطق جنوبية، أو سحالي مكسوة بجلود محبحبة كالخرز وأفواهها مبتلة بالسم. كان هناك مجذوم هزيل يحمل ملء قبضة من الديدان الشريطية أخرجها من جرة ليراها الجميع وكان ينادي على أدويته أمامهم، كانوا يحتشدون أمام صيدلي بدائي آخر وبائعين ومُستجْدين، حتى وصل الجميع أخيرا أمام منصة حيث تقف زجاجة كبيرة مقششة مليئة بشراب المسكل المكسيكي. في هذا الإناء الذي يحتوي على شعر طافٍ وعيون تستدير إلى الأعلى في وجه شاحب، وُضع رأس بشري.

جرّوه إلى الأمام وهم يطلقون صيحات ويومئون بإشارات. كانوا يصرخون (بالإسبانية): انظروا، انظروا. وقف أمام الجرة، وأثاروا انتباهه نحوه وأداروه بحيث يكون الرأس مواجها له. كان رأس الكابتن (وايت)، من الحرب التي وقعت مؤخرا بين الوثنيين. نظر الصبي في عيني قائده الغائرتين فاقدتي البصر. ونظر إلى القرويين، ثم إلى الجنود، كانت عيونهم جميعا عليه. بصق ومسح فمه، وقال: إنه ليس من أقاربي.

* * *

وضعوه في زريبة قديمة من الحجر مع ثلاثة من اللاجئين ذوي المظهر الرث الذين كانوا مع البعثة. جلسوا قرب الحائط مذهولين ويرمشون أو يتجولون حول المكان على الآثار الجافة للبغال والخيول،

ويتقيأون ويتغوطون عندها، في حين كان الأولاد يصرخون عند المتراس. التقى صدفة مع فتى نحيف قادم من جورجيا. كنت مريضا كالكلب، قال الفتى. كنت خائفا أن أموت، ثم صرت خائفا أن لا أموت.

رأيت راكبا على صهوة حصان الكابتن في البلدة القريبة من هنا. أخبره الصبي.

آه، قال الجورجي. قتلوه وقتلوا (كلارك) وفتى آخر لم أعرف اسمه أبدا. لقد قدِمنا إلى البلدة وفي اليوم التالي مباشرة كانوا قد وضعونا في السجن المحلي. وكان ذلك الشخص نفسه ابن العاهرة مع الحرس يضحك ويشرب ويلعب الورق مع جماعته ليروا من سيحصل على حصان الكابتن، ومن سيحصل على مسدساته. أعتقد أنك رأيت رأس الكابتن.

لقد رأيته.

هذا أسوأ شيء رأيته في حياتي.

قام بعضهم بتخليله وحفظه منذ فترة طويلة. ومن حقهم أن يقوموا بتخليل رأسي بسبب رفقتي لذلك الأبله.

كانوا يتنقلون مع طلوع النهار من حائط إلى حائط ليحتموا من الشمس. أخبره الفتى الجورجي عن رفاقه المعروضين في السوق على البلاطات، كانوا باردين وميّتين. وكانت جثة الكابتن مقطوعة الرأس

في المَراغَة[*]، وقد أكلت الخنازير نصفها. رفع كعبه في الغبار وحفر مكاناً صغيراً ليستريح فيها. ينوون إرسالنا إلى مدينة تشيهواهوا. قال الفتى.

كيف عرفت؟

هذا ما قالوه، لا أعرف.

هذا ما قالوه من؟

البحار هناك. إنه يتحدث لغتهم قليلاً.

تأمل الصبي بالرجل الذي كان يتحدث عنه. هزّ رأسه وبصق بريق جاف.

كان الصبية الصغار يجلسون على الأسوار طوال النهار يراقبونهم بالتناوب ويثرثرون ويشيرون عليهم. كانوا يطوفون حول المكان ويحاولون التبول على النائمين في الظل، ولكن السجناء بقوا متيقظين. بعضهم رمى في البداية حجارة، ولكن الصبي التقط حجراً من التراب بحجم بيضة وأوقع به ولدا بدون صوت سوى صوت اصطدامه المكتوم بالأرض عند الطرف الآخر.

الآن لقد فعلتها، قال الجورجي.

نظر الصبي إليه.

(*) المَرَاغَة: مكان تتمرغ فيه الدواب.

سيكونون هنا بالسياط ولا أدري ماذا أكثر.

بصق الصبي . لن يأتوا إلى هنا ولن يضربونا بالسياط.

ولم يفعلوا. أحضرت امرأة لهم زبديات من الفاصولياء وكعكة دقيق الذرة محروقة على صحن من الفخار غير المشوي. بدت المرأة منهكة وابتسمت لهم، لقد قامت بتهريب بعض الحلوى لهم تحت شالها، وكانت هناك قطع من اللحم في قعر الزبديات التي أحضرتها من طاولتها الخاصة.

بعد ثلاثة أيام حُمّلوا على بغال صغيرة وانطلقوا إلى العاصمة كما تم إخبارهم.

* * *

ركبوا لمدة خمسة أيام عبر الصحراء والجبال وعبر قرى هنود حمر مغبرة حيث خرجت الجماهير لتراهم. كان مرافقوهم يرتدون بذلات مبهرجة أكلَ عليها الدهر وشرب، وكان السجناء يرتدون خِرقاً رثّة. وكانوا قد أعطوا بطانيات، في المساء كانوا يجثمون بجانب نيران الصحراء، وكانت جلودهم محترقة من تعرضهم للشمس، وكانوا هزيلين وملفوفين بتلك الشالات ذات الألوان الزاهية، ويبدون كأنهم أعقد ما صنع الرَّب من عمّال السُخرة. لم يكن الجنود يتكلمون الإنجليزية وكانوا يوجّهون تعليماتهم بإصدار أصوات نخر كصوت

الخنازير أو بالإشارات. كانوا مسلحين سلاحاً خفيفاً وكانوا خائفين أكثر من الهنود. ولفّوا تبغهم في قشور الذرة، وجلسوا بجانب النار بصمت وانصتوا إلى هدوء الليل. كان كلامهم، عندما يتكلمون، عن الساحرات الشريرات، أو أسوأ، وكانوا يبحثون، من بين الصرخات، عن صوت أو صيحة ما في الظلام ليست لحيوان حقيقي. "الناس يقولون إن الذئب الأميركي هو ساحر" (بالإسبانية).

الكثير يرى أن الساحر إنما هو ذئب أميركي (بالإسبانية).

وما يكون ذاك؟ (بالإسبانية).

لا شيء (بالإسبانية)

بومة. ليس أكثر (بالإسبانية).

ربما (بالإسبانية).

بينما كانوا يعبرون الممر في الجبال ونظروا إلى الأسفل نحو المدينة، أوقف قائد الحملة الخيول، وتكلم مع الرجل الذي خلفه، ونزل الرجل بدوره عن الحصان وأخذ سياطاً من جلد غير مدبوغ من كيس سرجه واقترب من السجناء وأشار لهم لكي يصالبوا معاصم أيديهم ويمدوها. وأراهم كيف يفعلون ذلك بيديه. وربط كلا منهم بهذه الوضعية ثم تابعوا طريقهم.

دخلوا المدينة في رتلين من الرجال القذرين الذين كانوا يُساقون كالقطيع عبر الشوارع المرصوفة، وصيحات من الخلف تحيي الجنود

الذين كانوا يبتسمون عندما وصلوا ويومئون برؤوسهم بين الورود وكؤوس الخمر المعروضة عليهم، ويقودون الباحثين عن الثروة المزقي الملابس إلى الساحة حيث كانت توجد نافورة يندفع منها الماء، ومتسكعون يستلقون على مقاعد منقوشة من الرخام الأبيض، ومروا بجانب قصر الحاكم وبجانب الكاتدرائية حيث تربض الصقور على طول السطح الترابي المُقام على أعمدة وفي مشكاة في واجهة المبنى المزخرفة، وبالقرب من رسومات المسيح والحواريين كانت الطيور تفرد أجنحتها بشكل غريب، ومن حولها كانت الجماجم الجافة للهنود الذين ذُبحوا مصفوفة على حبال وتتلاطم في الرياح، والشعور الطويلة المتلبدة كخيوط تشبه أشكالا بَحرية معيَّنة والجلود الجافة تصفع الحجارة.

مروا بالباحثين عن الصدقات عند باب الكنيسة وكفوفهم المتشققة ممدودة، وكان الأولاد المستجْدون المشوَّهون ذوو العيون الحزينة بثياب رثة ينامون في الظل والذباب يمشي على وجوههم غير الحالمة. وكانت بجانبهم قطع نحاسية في صحن تُصدر صوت طقطقة، وعيون العميان متغضنة وذابلة. كان الكتَبة ينحنون أمام العتبات ومعهم رِيَش الكتابة وزجاجات الحبر وصحون رمل، وكان المجذومون يئنون في الشوارع، وكلاب هزيلة كأنها مكوّنة بأكملها من العظام . كان هناك بائعو الطامال(*)، ونساء بوجوه داكنة ومسطحة مثل أرض

(*) الطامال: طعام مكسيكي من دقيق الذرة واللحم المفروم والفلفل الأحمر.

خشنة، وفوق نيران الفحم وُضِعت شرائح رفيعة سوداء من لحم غير معروف وكأن أحدا ما كان قد مضغه ثم بصقه. كان الأيتام الصغار في الخارج مثل أقزام غاضبة، وكان المخبولون والمدمنون الثملون يترنحون في أسواق العاصمة. مرّ الأسرى بأشلاء في أكشاك اللحم حيث رائحة الشمع تنبعث من رفوف من الأحشاء السوداء المعلّقة والذباب الذي يرفرف على قطع من اللحم الموجودة على ملاءات كبيرة حمراء، والتي أصبحت سوداء مع مرور الوقت. كانت هناك جماجم مسلوخة لأبقار وأغنام، وكانت العيون الزرقاء المتلبّدة تلمع بوحشية، وكانت هناك أجساد متيبسة لغزلان، وخنازير بريّة وبط وطيور السماني وببغاوات، كل الحيوانات البرية من جميع أنحاء البلاد كانت تتدلى رؤوسها المستديرة من الخطافات إلى الأسفل.

أُجبروا على الترجل عن الجياد وتم اقتيادهم سيرا على الأقدام من بين الحشد إلى درجات الحجر العتيقة وفوق عتبة الباب البالية كقطعة صابون، ثم خلال بوابة حديدية إلى قبو الخمور والمؤن البارد الطويل كالسجن ليأخذوا أماكنهم بين الأشباح والشهداء القدامى والوطنيين، في حين أغلقت البوابة خلفهم محدثة صوت قرقعة.

عندما اعتادت أعينهم على الظلام تمكنوا من رؤية أشكال بشرية تجلس القرفصاء بجانب الحائط. كانوا يتحركون ببطء في فرشات من القش وكأنهم فئران صغيرة أُقلِقت راحتها. وصوت شخير خفيف. في الخارج كان هناك صوت عربة تجلجل وصوت حوافر

الخيول الخافت في الشارع، ومن خلال الحجارة كان يُسمَع صوت طَرْق خافت من دكان الحداد في جزء آخر من البرج المحصّن. نظر الصبي حوله. كانت تتبعثر قطع مسودّة من فتيل الشمع هنا وهناك في بِـرك من الدهن القذر على الأرض الصخرية، وخيوط رفيعة من البصقات الجافة تتدلى من الجدران. كانت هنالك بضعة أسماء خُدِشت في أماكن أظهرها الضوء. جلس القرفصاء وفرك عينيه. مر أمامه شخص بالملابس الداخلية متجهاً نحو دلو في منتصف الغرفة، ووقف ثم تبول. استدار هذا الرجل وعاد في طريقه. كان طويلا وكان شعره يصل إلى كتفيه. بعثر القش ووقف ينظر إليه، وقال: أنت لا تعرفني، أليس كذلك؟

بصق الصبي ورمقه بنظرة حادة، وقال: أعرفك، أعرف جلدك حتى وأنت مختبئ في ساحة سفع الجلود.

* * *

-6-

في الشوارع - أسنان نحاسية - المراطقة - محارب قديم من الحرب الأخيرة - ميير - (دونيفان) - مقبرة (ليبان) - المنقبون عن الذهب - صيادو فرو الرؤوس - القاضي - تحرير من السجن

* * *

مع أول ضوء النهار، نهض رجال من القش وانحنوا فوق أوراكهم وتفحصوا القادمين الجدد بدون فضول. لقد كانوا نصف عراة ومَصّوا أسنانهم، كانوا يتنفسون بصوت مسموع وتحركوا ببطء وتدافعوا مثل القرود. ضوء خجول غسل نافذة صغيرة من الظلام، وصاح بائعون على بضائعهم مُبكّرين.

كان فطورهم عبارة عن زبديات من دقيق الذرة المحمصة البارد. وقد تم تثبيتهم بسلاسل وسحبهم إلى الشارع مصلصين ومتمايلين كالسكارى. كانوا مُراقبين طوال اليوم من منحرف شاذ له سِن ذهبي وكان يحمل سوطا مجدولا من جلد الحيوانات غير المدبوغ وكان يدفعهم لجمع الأوساخ وهم على ركبهم. من تحت عجلات عربات

البيع كانت تظهر أرجل المتسولين وهم يجرون أكياس النفايات. بعد الظهر جلسوا في ظل السور وتناولوا عشاءهم وراقبوا كلبين يتعلّقان ببعضهما في الشارع ويمشيان مشية جانبية.

كيف وجدت حياة المدينة؟ قال (تودفين).

لا أحبها، تستحق اللعنة حتى الآن.

إني أنتظر لكي أتمكّن من الاستمتاع فيها، ولكن لم يحدث ذلك حتى الآن.

راقَبوا المُشرف خِفية وهو يتَنَقل ويداه متشابكتان وراء ظهره، كانت قبعته تميل فوق إحدى عينيه. بصق الصبي.

لقد رأيته سابقاً، قال (تودفين).

رأيت مَنْ سابقاً.

أنت تعرف من. (براستيث) الصديق القديم.

تابع الصبي بنظره الشكل الذي كان يمشي بتؤدة.

أكثر قلقي هو أن شيئاً ما سيحدث له. أصلي كل يوم ليرعاه الرَّب.

وكيف تعتقد أنك ستخرج من هذه الورطة التي أنت فيها.

سنخرج منها. المكان هنا ليس مثل (كارسيل).

وما هي (كارسيل)؟

الإصلاحية الوطنية. يوجد هناك مهاجرون قدامى في السجن منذ العشرينيات.

راقب الصبي الكلاب.

بعد قليل عاد الحارس بجانب الحائط وهو يركل قدمي أي شخص نائم. كان الحارس الأصغر سنا يحمل بندقيته في وضع إطلاق النار، وكأنه يوجد انتفاضة بين هؤلاء المقيدين بالسلاسل التي تُحدث صلصلة. لنذهب، لنذهب. كان يصرخ (بالإسبانية). نهض المساجين وخرجوا بتثاقل إلى الشمس. كان هناك جرس صغير يقرع، وعربة آتية إلى الشارع. وقفوا على طول حافة الطريق وخلعوا قبعاتهم. مرّ حامل الراية وهو يقرع الجرس ثم مرت العربة. كانت توجد على طرفها عين ملونة ويجرها أربعة بغال، وكانت تنقل المُضيف إلى شخص ما. كان يترنح خلفهم راهب وهو يحمل تمثالاً. وكان الحراس يمشون بين المساجين وينزعون القبعات من فوق رؤوس القادمين الجدد ويضغطونها بأيديهم الملحدة.

عندما مرت العربة ارتدوا قبعاتهم مرة ثانية، وتابعوا طريقهم. وقف الكلاب ذيلاً إلى ذيل. كلبان آخران جلسا بعيدين عن بعضهما قليلاً وهما يربضان داخل جلودهما الفضفاضة، كانا هياكل كلاب بجلود بدون زغب وكانا يراقبان الكلبين المتقاربين بذيليهما ثم يراقبان المساجين وهم يبتعدون بأصوات الطرطقة إلى الشارع. كل شيء كان يومض قليلا في الجو الحار، هذه الأشكال الحيّة التي تشبه عجائب

ممسوخة. المظاهر الخارجية القاسية كان يُكَرَّر ذكرها من شخص لآخر بعد أن تختفي الأشياء نفسها من ذاكرة الإنسان.

* * *

رفع فرشة قش كانت بين (تودفين) ورجل آخر من كنتاكي، جندي حرب سابق. هذا الرجل أتى سعيا وراء حب لفتاة ذات عيون سوداء تركها وراءه منذ سنتين عندما صدر أمر من (دونيفان) بالانسحاب إلى الشرق نحو (سالتيلو) واضطر ضباط الجيش لأخذ مئات الفتيات المرتديات ملابس فتيان ليمشين وراء الجيش. والآن هو يقف في الشارع منعزلاً عن الناس ومقيدا بسلاسل، كان متواضعاً بشكل غريب، وكان يحدّق إلى الخارج من فوق رؤوس أهل البلدة، وفي المساء كان يخبرهم عن السنوات التي قضاها في الغرب، كان محاربا محبوبا، رجلاً كتوماً قليل الكلام. كان في (ميير) حيث حارب حتى سال الدم بالجالونات من مزاريب التصريف وفي الشوارع القذرة ومن أنابيب الوقود، وأخبرهم كيف كانت الأجراس الإسبانية القديمة الهشة تنفجر عندما تتم إصابتها، وكيف جلس مقابل حائط ورجله المحطمة ممدودة على الحجارة الكبيرة أمامه وينتبه إلى الهدوء المؤقت بين فترات إطلاق النار والذي بدأ يزداد حتى صار صمتا غريبا، وفي هذا الصمت ارتفع صوت فرقعة خافت حَسِبه صوت رعد حتى ظهرت

قنبلة مدفع عند الزاوية تتدحرج فوق الصخور كسلطانية مقلوبة واجتازت الشارع ثم اختفت عن الأنظار. أخبرهم كيف استحوذوا على مدينة (تشيهواهوا)، كان جيشاً من غير النظاميين الذين حاربوا بخرق رثة وبملابسهم الداخلية، وكيف كانت قنابل المدافع من النحاس الصلب، وكيف أتوا يثبون من خلال الحشائش مثل الشموس الهاربة، حتى الخيول تعلمت كيف تمشي مشية جانبية أو تباعد بين أرجلها، وكيف كانت نساء المدينة يركبن عربات الجياد ليصعدن فوق التلال ويتنزهن ويراقبن المعركة. وكيف كانوا في المساء عندما يجلسون بجانب النار يسمعون أنين المحتضرين في السهل ويرون عربة الموتى من مصباحها تتحرك بينهم مثل نعش قادم من موطن الأرواح.

كان عندهم ما يكفي من العتاد، قال الجندي السابق، ولكنهم لم يعرفوا كيف يحاربون. كانوا مرتبكين. هل سمعتم قصصا عن كيف وجدوهم مربوطين بسلاسل إلى طرف عربة المدفع مع أسلحتهم وفرق المدافع وكل شيء، ولكن إذا حدث ذلك فأنا لم أره أبدا. لقد أخذنا البارود الموجود في عدّة الأسلحة هناك. وفُتحت الأبواب عند تفجيرها. الناس هنا يبدون كفئران هزيلة. إنهم أكثر المكسيكيين شحوباً الذين يمكن أن تراهم في حياتك. الآلاف منهم نزلوا على الأرض وبدأوا يقبّلون أقدامنا وما أشبه. يا للجحيم، لقد حررهم (بيل). لم يكن يعلم ماذا فعلوا، طلب منهم فقط أن لا يسرقوا. بالطبع فقد سرقوا كل شيء وقعت عليه أيديهم. جَلَدَ اثنين منهم، وماتا

كلاهما، وفي اليوم التالي مباشرة هربت جماعة أخرى منهم مع بعض البغال، وقام (بيل) بإعدام أولئك الأغبياء. ومن كان يفعل مثلهم كان مصيره الموت. ولكني لم أعتقد أنني أنا نفسي سأكون هنا.

كانوا يجلسون واضعين رِجلاً فوق رِجل بجانب ضوء الشموع يأكلون من سلطانية فخار بأصابعهم. نظر الصبي إلى الأعلى، وأذكى النار تحت القدر.

وقال: ما هذا؟

لحم ثور ممتاز، يا بني. من مصارعة الثيران. ستحصل عليه ليلة الأحد.

يُفضَّل أن تستمر بالمضغ. لا تترك نفسك تضعف.

أخذ يمضغ. مضغ وأخبرهم عن المواجهة مع الـ(كومانشي)، كانوا يمضغون ويستمعون ويومئون.

أنا سعيد لأنني فوّت تلك الحفلة، قال الجندي السابق. إنهم أبناء عاهرات قساة جداً. سمعت عن فتى في (لانو) بالقرب من مستعمرات هولندية، قبضوا عليه وأخذوا حصانه وكل شيء. تركوه يمشي، رجلٌ عارٍ، وصل إلى (فريديريكسبيرغ) زاحفاً على يديه وركبتيه. هل تعلم ماذا فعلوا له؟ بعد حوالي ستة أيام قطعوا باطن أقدامه!

هز (تودفين) رأسه، وأومأ باتجاه الجندي، وأخبر الصبي: (غرانيرات) هنا يعرفهم. قاتلتهم، أليس كذلك يا (غراني)؟

لوّح الجندي بيده. أطلق النار على بعض سارقي الخيول، هذا كل شيء. باتجاه (سالتيلو)، لم تكن مسألة كبيرة. كان هناك كهف، لقد كانت مقبرة هنود (ليبان). لا بد أنه كان هناك آلاف الهنود يستقرون فيه. كانوا يرتدون أفضل ثيابهم وملاءاتهم وكل شيء، ومعهم سهامهم وسكاكينهم وأي شيء آخر، مثل السُبحات. أخذ المكسيكيون كل شيء منهم. عرّوهم تماما. أخذوا كل شيء. حملوا هنوداً برمتهم إلى بيوتهم ووضعوهم في الزاوية وكانوا جميعهم مرتدين أفضل ملابسهم، ولكنهم بدأوا يتفتتون عندما أُخرجوا من ذلك الكهف ولابد أنهم ذابوا. وأخيراً كان يوجد بعض الأمريكيين الذين دخلوا وسلخوا فروة رأس من بقي منهم، وحاولوا بيعها في (ديورانغو). لا أعرف إذا حالفهم أي حظ في ذلك أم لا. ظننت أن بعضاً من أولئك الهنود قد ماتوا منذ مائة سنة.

كان (تودفين) يُنشّف الدهن من صحنه بواسطة قطعة ملفوفة من كعكة التُرتيّة(*). رمق الصبي بنظرة حادة في ضوء الشمع، وقال: ماذا تعتقد أنه يمكننا أن نحضر لأسنان صاحب الأسنان النحاسية ليأكل؟

* * *

رأوا المغامرين الباحثين عن الذهب من الولايات المتحدة يسوقون بغالا عبر الشوارع في طريقهم إلى الجنوب عبر الجبال إلى

(*) كعكة الترتيّة: كعكة مسطحة مدوّرة من دقيق الذُّرة.

الساحل. إنهم الباحثون عن الذهب. منحلون فاسدون متجولون يتجون نحو الغرب مثل الطاعون الأحمر. كانوا يومئون أو يتحدثون إلى المساجين ويلقون التبغ والقطع النقدية بجانبهم في الشوارع.

رأوا فتيات ذوات عيون سوداء ووجوه ملونة يُدخِّنَّ سيجاراً صغيراً، ويتمشين متشابكات الأيدي وينظرنَّ إليهم بوقاحة. لقد رأوا الحاكم بنفسه منتصبا ومحترم الشكل في النافذة المكسوة بالحرير لعربة خفيفة ذات مقعد واحد تتقدم بصوت قرقعة من باب ساحة القصر المزدوج، ورأوا في أحد الأيام جماعة من البشر ذوي أشكال شريرة يمتطون عبر الشوارع مهورا هندية غير مُسَرَّجة وهم نصف ثملين، وملتحين وهمجيين، يرتدون جلود حيوانات مُخاطة بإحكام، ومسلحين بأسلحة من كل نوع، مسدسات ذات وزن هائل وسكاكين كبيرة بحجم السيوف وبنادق قصيرة ذات ماسورتين يمكنك إدخال إبهاميك بتجويفهما الداخلي. وكانت أغطية خيولهم المزركشة مصنوعة من جلود بشرية، ولجاماتهم محبوكة من شعر بشري ومزينة بأسنان بشرية، وكان الراكبون يرتدون كتَّافات أو عقود مصنوعة من آذان بشرية مسوَّدة وجافة. كانت الخيول تبدو مسلوخة الجلد وذات عيون وحشية، وبرادعها تشبه الكلاب الضارية، وكان في المجموعة أيضا عدد من المتوحشين أنصاف عراة يترنحون على السرج، خطيرين وقذرين وقساة، كأنهم جميعهم قادمون بزيارة من أرض همجيين حيث يتغذون هم وأمثالهم على اللحوم البشرية.

في المقدمة، امتطى القاضي حصانه، كان حجمه أضخم من المعتاد وشكله طفولي، ووجهه خال من الشعر. كانت وجنتاه متوردتين وكان يبتسم وينحني للسيدات رافعا قبعته القذرة، فتبدو قمة رأسه الضخمة بيضاء إلى حد يعمي الأبصار ومحددة بخط حولها وكأنه قد رُسم عليها. مرّ هو وجماعة الرعاع الذين تفوح منهم رائحة كريهة خلال الشوارع واتجهوا إلى قصر الحاكم حيث صفّق قائدهم للدخول، وكان رجلاً صغيراً ذا شعر أسود، ثم ركل الباب المصنوع من خشب البلوط بحذائه. فُتحت الأبواب على الفور ودخلوا على جيادهم، دخلوا جميعهم، وأغلقت الأبواب مرة ثانية.

أيها السادة، قال (تودفين)، أنا أؤكد لكم، اللعنة، أنني أعرف ما سيحدث.

في اليوم التالي، وقف القاضي مع مجموعة أخرى في الشارع يُدَّخن سيجاراً ويتأرجح إلى الوراء على كعبيه. كان ينتعل حذاءً مصنوعاً من جلد الماعز، وكان يتفحص المساجين حيث كانوا يركعون في الزقاق القذر ويلتقطون الأوساخ بأيديهم العارية. كان الصبي يراقب القاضي. عندما وقعت عينا القاضي عليه أخرج السيجار من بين أسنانه وابتسم. أو بدا وكأنه يبتسم. ثم عاود وضع السيجار بين أسنانه.

في المساء جمعهم (تودفين) وجلسوا جميعهم القرفصاء بجانب الحائط وتحدثوا همسا.

اسمه (غلانتون)، قال (تودفين). لقد وقّع عقداً مع (ترياس). عليهم أن يدفعوا له مائة دولار مقابل كل فروة رأس مسلوخ ، وألف دولار مقابل رأس (غوميز). أخبرته أنه يوجد ثلاثة منّا. أيها السادة، سنخرج من حفرة البُراز هذه.

ليس لدينا معدات.

إنه يعرف ذلك. قال إنه سيجد أشخاصاً مضمونين ويأخذ منهم جزءاً من حصصهم مقابل دَيْن. لذا لا تفشوا السرَّ بأنكم لستم قاتلي هنود، لأنني ادعيت أننا ثلاثة من أفضلهم.

بعد ثلاثة أيام امتطوا خيولهم بشكل رتل عبر الشوارع مع الحاكم وفرقته، كان الحاكم يمتطي فحلاً ذا لون رمادي باهت، والقتلة على مهور حرب صغيرة، يبتسمون وينحنون، والفتيات الجميلات سمراوات البشرة يُلقينَ الورود من النوافذ مع بعض القبلات الطائرة، وصبية صغار يركضون على الجوانب، والرجال الكبار يلوِّحون بقبعاتهم ويهتفون بابتهاج، وفي المؤخرة كان (تودفين) والصبي والجندي المتمرس، كانت أقدام الجندي مثنية داخل غطاء حصان يتدلى إلى الأرض تقريبا، كانت رجلاه طويلتين جدا، وأرجل الحصان قصيرتين جدا. عند طرف المدينة بجانب القناة الحجرية القديمة، باركهم الحاكم وشرب نخب صحتهم وتمنى لهم حظا جيدا خلال مراسم بسيطة، ثم شقوا طريقهم نحو الأرض الجرداء.

* * *

-7-

الجاكسونان الأسود والأبيض - اجتماع في الضواحي - مسدسات (ويتينيفيل) - محاكمة - القاضي بين المناظرين - هنود (ديلاوير) - رجل من الفانديمن - مزرعة - بلدة (كوراليتوس) - مزرعة - مشاهد من مذبحة - هوكس بوكس - تحديد للثروات - بدون عجلات فوق النهر الأسود - نزعة إجرام - بلدة (جانوس) - (غلانتون) يأخذ فروة رأس - (جاكسون) يغوي.

* * *

في هذه المجموعة ركب رجلان يدعيان (جاكسون)، أحدهما أبيض والثاني أسود، والاسم الأول لكليهما هو (جون). كان بينهما حقد وضغينة، عندما ركبا في الطريق تحت الجبال الجرداء، تراجع الرجل الأبيض جانبا وراء الرجل الآخر ليستظل بظله ويهمس له. والرجل الأسود كان يكبح حصانه أو يجعله ينطلق ليوقعه أرضا. كما لو أن الرجل الأبيض كان مؤذيا بطبيعته، فقد عثر بالصدفة على طقس شعائري ما في دمه العدائي أو روحه الشريرة والذي، وفقاً له، كان الشكل الذي يقف في الشمس ويحجب ضوءها عن تلك الأرض الصخرية يحمل بداخله شيئاً ما من الرجل نفسه، وبفعلته هذه فهو في خطر. ضحك الرجل الأبيض ودندن بأشياء له بدت مثل كلمات

الحب. راقب الجميع كيف ستسير الأمور معهما، ولكن أحدا منهم لم يطلب من أي منهما الكف عما يفعله، وعندما كان (غلانتون) ينظر إلى مؤخرة الرتل من وقت لآخر، كان يبدو أنه يفعل ذلك لمجرد التأكد من وجودهما بين جماعته، ثم يتابع طريقه.

في وقت مبكر من ذلك الصباح التقت المجموعة في الساحة خلف المنزل في ضواحي المدينة. حمل رجلان صندوق معدات من العربة مطبوع عليه حروف ورسوم، من مستودع أسلحة (باتون روج)، وفتح يهودي من بروسيا اسمه (سبيير) الصندوق بصعوبة ببلطة معدنية، وسلـّم طرداً مسطحا داخل ورقة جزار لونها بني، وكانت شفافة بسبب الدهن مثل ورق بضائع المخبز. فتح (غلانتون) الطرد وترك الورقة تقع على التراب. حمل في يده مسدسا بست طلقات ماسورته طويلة مرخصاً من (كولت). كان سلاحا جانبيا كبيرا صُنع لجنود الفرسان، وكان يحمل، على خراطيشه الطويلة، شاحن بندقية ويزن ما يقارب خمسة باوندات وهو محشو. تقذف هذه المسدسات كرات مخروطية تزن الواحدة منها نصف أونس تستطيع أن تخترق ست بوصات من الخشب الصلب، وكان يوجد أربع دزينات منه في كل محفظة. كان (سبيير) يهيئ علبة المعدات والقوارير والعدَّة، في حين كان القاضي (هولدن) يفتح لفة فيها مسدس آخر. تجمَّع الرجال حولهما. مسح (غلانتون) المواسير وحجيرات الطلقات ثم أخذ العلبة من (سبيير).

إن لها مِهدافاً قوياً، قال أحدهم.

وضع رصاصة ودفعها داخل حجيرة الطلقات بذراع الكبح المثبت في الجانب السفلي من الماسورة. عندما حشا جميع الحجيرات، أغلق عليها ونظر حوله. في تلك الساحة كان يوجد عدد من الأشياء الحيَّة غير التجار والمشترين. أول شيء وقع تحت نظر (غلانتون) كان قطة ظهرت في تلك اللحظة بالذات فوق حائط عالٍ من الجهة الأخرى بصمت كما يحط الطائر. استدارت لتختار طريقَها بين قطع الزجاج المكسور الحادة وجلست منتصبة فوق وحل أعمال البناء. سدد (غلانتون) المسدس الضخم في يد واحدة وسحب الزناد إلى الوراء. كان صوت الانفجار هائلا في ذلك الصمت المميت. بكل بساطة اختفت القطة. لم يكن هناك دم ولا صراخ، فقط تلاشت. رمق (سبيير) المكسيكيين بنظرة مضطربة. لقد كانوا يراقبون (غلانتون). سحب (غلانتون) الزناد مرة أخرى ثم أرجح المسدس. كانت هناك مجموعة من الطيور في زاوية الساحة، وكانت تلتقط طعامها في التراب الجاف، وتقف مضطربة، كانت رؤوسها في اتجاهات متنوعة. أصدر المسدس صوت هدير وانفجر أحد الطيور في غيمة من الريش. أطلق النار مرة ثانية. ولفَّ طائر آخر ووقع وهو يركل برجليه. طارت باقي الطيور وهي تصيح بصوت خافت، واستدار (غلانتون) وأطلق النار على تيس كان يقف وحنجرته ملتصقة بالحائط من الخوف، ووقع ميتا مثل الحجر في التراب، وأطلق النار على جرة ماء فخارية فتطايرت أجزاؤها وانتثر الماء الذي كان بداخلها مثل المطر، ثم رفع المسدس وأرجحه باتجاه المنزل فقرع الجرس الموجود في برجه الطيني فوق

السقف رنة مَهيبة انتشرت في الفراغ بعد ما توقفت أصداء إطلاق النار.

امتدت غيمة من دخان نار المسدس الرمادية فوق الساحة. عيَّر (غلانتون) الزناد على النصف ثم أدار حجيرة الطلقات وخفض الزناد مرة ثانية. ظهرت امرأة عند مدخل المنزل، وتحدث إليها أحد المكسيكيين ثم عادت إلى الداخل مرة أخرى.

نظر (غلانتون) إلى (هولدن) ثم نظر إلى (سبيير). ابتسم اليهودي بعصبية.

إنهم لا يستحقون خمسين دولارا.

بدا (سبيير) مكفهرا، وقال: ماذا تستحق حياتك؟

في تكساس تستحق خمسمائة دولار، ولكن عليك أن تخصم من السعر بقيمة حياتك.

السيد (ريدل) يعتقد أن هذا سعر عادل.

السيد (ريدل) ليس هو من سيدفع.

هو الذي سيدفع النقود.

قلَّب (غلانتون) المسدس في يده وتفحَّصه.

ظننت أنه تم الاتفاق على السعر. قال (سبيير).

لم يتم الاتفاق على أي شيء.

تم الاتفاق معهم للاشتراك في الحرب. لن تجد مثلهم أبدا.

لن يتم الاتفاق حتى تتبادل الأيادي نقودا.

دخلت مجموعة من الجنود من الشارع، عشرة أو دزينة منهم، وأسلحتهم بوضع الاستعداد.

ماذا يحدث هنا؟ (بالإسبانية)

نظر (غلانتون) إلى الجنود بدون اكتراث.

لا شيء (بالإسبانية)، قال (سبيير) كل شيء على ما يرام. (بالإسبانية)

حسناً؟ (بالإسبانية). كان الرقيب ينظر إلى الطيور النافقة والتيس.

ظهرت المرأة عند الباب مرة ثانية.

إنه جيد (بالإسبانية). قال (هولدن). مفاوض الحاكم (بالإسبانية).

نظر الرقيب إليهم ثم نظر إلى المرأة الواقفة عند الباب.

نحن أصدقاء السيد (ريدل) (بالإسبانية)، قال (سبيير).

انصرفوا (بالإسبانية)، قال (غلانتون). أنت ورجالك الزنوج الذين يشبهون نصف المؤخرة.

خطا الرقيب إلى الأمام واتخذ وضعية من بيده السلطة. بصق (غلانتون). كان القاضي قد اجتاز الفراغ الذي بينهما، وأخذ الرقيب جانبا وبدأ حواراً معه. وأتى الرقيب مُمْسَكاً من تحت إبطه، وتحدث

القاضي بحرارة وأومأ بروح عالية. جثم الجنود على التراب مع بنادقهم (المسكيت) وتفحَّصوا القاضي بدون أي تعبير.

لا تعطي ابن العاهرة هذا نقودا، قال (غلانتون).

ولكن القاضي كان يُحْضِـر الرجل للأمام من أجل عرض رسمي.

أقدم لك الرقيب (أغويلار). (بالإسبانية) صاح وهو يعانق المقاتل رث المظهر. مدَّ الرقيب يده بوقار. لقد شَغَلَت الفراغ ولفتت انتباه جميع من كانوا يقفون هناك مثل شيء يُقدَّم للحصول على تأييد، ثم تقدم (سبيير) إلى الأمام وأخذها.

يسرني لقاؤك (بالإسبانية).

وأنا أيضاً(بالإسبانية)، قال السارجنت.

رافقه القاضي من رجل إلى آخر في المجموعة، كان شكل الرقيب محترما والأمريكيون يتمتمون بكلام فاحش قذر، أو يهزون رؤوسهم بصمت. ربض الجنود على أعقابهم وراقبوا كل حركة في التمثيلية بالاهتمام نفسه البليد، وأخيراً توقف القاضي أمام الرجل الأسود.

ذلك الوجه الأسود الثائر. تفحَّصهُ وسحب الرقيب إلى الأمام ليراقبه بشكل أفضل ثم بدأ بمقدمة معقدة بالإسبانية. فقدَّم صورة وصفية للرقيب تُبيِّن سيرة صعبة للرجل الذي يقف أمامهم، كانت يداه ترسمان ببراعة مدهشة أشكال السبل المتنوعة السرية للسلطة المطلقة

الموجودة - كما أخبرهم سابقاً - مثل خيوط مسحوبة مع بعضها خلال ثقب حلقة. وأدلى أيضا، مراعاة لمشاعرهم، بإشارات إلى أبناء (حام)، قبائل إسرائيل التائهة، وبعض المقاطع لشعراء إغريقيين، وتأملات تتعلق بعلم الإنسان مثل تكاثر الأجناس في شتاتهم وعزلتهم بسبب قوة التغييرات الجيولوجية، وتقييم الميزات العرقية فيما يتعلق بالطقس والتأثيرات الجيولوجية. استمع الرقيب لذلك وأكثر باهتمام كبير، وعندما انتهى القاضي تقدَّم خطوة ومد يده.

تجاهله (جاكسون). نظر إلى القاضي.

ماذا أخبرته يا (هولدن)؟

لا ثهينه يا رجل.

ماذا أخبرته؟

اكفهر وجه الرقيب. أمسكه القاضي من كتفيه وانحنى وتكلم في أذنه، وأومأ الرقيب ورجع إلى الخلف وحيًا الرجل الأسود.

ماذا أخبرته يا هولدن؟

بأن المصافحة بالأيدي ليست عادة في بلدك.

قَبْلَ ذلك. ماذا قلت له قبل ذلك.

ابتسم القاضي، وقال: إنه من غير الضروري أن يكون الرؤساء هنا مستحوذين على الوقائع التي تهتم بقضيتهم، لأن ردة فعلهم ستتلاءم مع التاريخ بشكل مُطلق مع أو بدون إدراكهم. ولكنها

متناغمة مع عقائدهم بالمبدأ الصحيح لدرجة انه يمكن جعلهم يقومون بذلك عن طيب نفس بأن هذه الوقائع يجب أن تأتي من طرف ثالث مؤتمن. الرقيب (أغويلار) هو الطرف الثالث وأي ازدراء لمنصبه هو مجرد اعتبار ثانوي مقارنة بالاختلافات في البروتوكول المضبوط في جدول الأعمال الرسمي لحق تقرير المصير المُطلق. الكلمات هي الأشياء. الكلمات التي بحوزته لا يمكن حرمانه منها. إن سلطتهم تسمو فوق تجاهله لمدلولاتهم.

كان الرجل الأسود يتصبب عرقا. وكان وريد أسود على صدغه ينبض كالكهرباء. استمعت الجماعة إلى القاضي بصمت. بعضهم ابتسم. قهقه قاتلٌ غبي من ميسوري بصوت خافت وكأنه مصاب بالرَّبو. التفت القاضي مرة ثانية إلى الرقيب وتحدثا مع بعضهما واجتازا الطريق معا إلى العربة التي تقف في الساحة وأراه القاضي أحد المسدسات وشرح له طريقة عملها بصبر كبير. نهض رجال الرقيب ووقفوا ينتظرون. عند البوابة وضع القاضي بضعة قطع نقدية في كف (أغويلار)، وصافح باحترام كل مكلَّف رث المظهر وأثنى على وقفتهم العسكرية ثم خرجوا إلى الشارع.

عند ظُهر ذلك اليوم امتطوا جيادهم وكل واحد منهم مسلَّح بزوج من المسدسات.

* * *

عاد المرافقون في المساء وترجّل الرجال عن خيولهم لأول مرة في ذلك اليوم وأراحوا خيولهم في أرض منخفضة مستنقعية متناثرة ، وتباحث (غلانتون) مع المستطلعين. ثم ركبوا مرة ثانية حتى حلول الظلام وأقاموا معسكراً. جلس (تودفين) والصبي والجندي على مسافة قصيرة من النار. لم يكونوا يعلمون أنهم ألحقوا بتلك المجموعة مكان ثلاثة رجال ذبحوا في الصحراء. كانوا يراقبون هنود ديلاوير، الذين كانوا على شكل مجموعات من الأفراد، وكانوا هم أيضا يجلسون متباعدين وجاثمين على أعقابهم، كان أحدهم يطحن حبوب البنّ داخل جلد غزال بحجر في حين حملق الآخرون بالنار بعيون سوداء كسواد ماسورة البندقية. في تلك الليلة رأى الصبي أحدهم يفرز قطع الجمر الكامل الاشتعال بيده باحثا عن فحمة مناسبة لإشعال غليونه.

عند الصباح تقريباً وقبل أن يبزغ ضوء النهار سرَّجوا خيولهم بمجرد طلوع ضوء كاف يمكّنهم من الرؤية. في الفجر كانت الجبال الوعرة بلون أزرق صاف، وفي كل مكان طيور تغرّد، وعندما بزغت الشمس أدركت القمر في الغرب فكانا يقابلان بعضهما البعض عبر الأرض، كانت الشمس شديدة الاتقاد، والقمر نسخة باهتة عنها، كأنهما نهايتان لاسطوانة مشتركة طرفاها يحرقان عوالم بشكل يفوق كل التصورات. عندما وصل الرجال من خلال النباتات الشائكة، في رتلٍ وبصوت قرقعة الأسلحة الخافت، كانت الشمس تتسلق والقمر يغيب، وبدأت الخيول والبغال بالتعرق في الظل.

التقى (تودفين) مصادفة مع هارب من أرض (فانديمن) يدعى (باثكات) أتى إلى الغرب مشيا على الأقدام. كان من مواليد ويلز، وكان عنده ثلاثة أصابع فقط في يده اليمنى، وبضع أسنان في فمه. ربما رأى في (تودفين) رفيق هروب، مجرماً بدون آذان وموسوماً وقد اختار في الحياة بقدر ما اختار هو، وعرض المراهنة على جاكسون ضد جاكسون، من منهما سيقتل الآخر.

لا أعرف هذين الفتيين ، قال (تودفين).

كيف ستراهن، إذن؟

بصق (تودفين) بصمت إلى جانب واحد، ونظر إلى الرجل، وقال: لا أريد أن أراهن.

ألست رجل مقامرة؟

يعتمد على اللعبة.

الأسود مناسب للرهان، اختر من ترجح.

نظر (تودفين) إليه. كان عقد الآذان البشرية الذي يرتديه يبدو مثل خيط من التين الأسود المجفف. كان حجمه كبيراً ويبدو كمن سُلخ جلده، أحد جفنيه كان مرتخيا حيث قُطعت العضلات الصغيرة هناك بسكين، وكان يرتدي ملابس من جميع الطبقات الاجتماعية، الجيد مع الرديء. كان يرتدي حذاءً جيداً، ويحمل بندقية ضخمة محاطة بفضة، وتتدلى منها فردة حذاء مقطوعة، وكان قميصه من أسمال بالية وقبعته زنخة الرائحة.

لم يسبق وأن اصطدت أحد السكان الأصليين من قبل، قال (باثكات).

من قال هذا؟

أنا أعرف ذلك.

لم يُجب (تودفين).

ستجدهم مفعمين بالحياة.

هكذا سمعت.

ابتسم القادم من بلاد الفانديمن، وقال: لقد تغيَّر الكثير. عندما أتيت للمرة الأولى إلى هذه المنطقة كان يوجد فيها متوحشون في (سان سابا)، وكان من النادر رؤية رجال بيض. أتوا إلى معسكرنا وتقاسمنا طعامنا معهم، ولم يتمكنوا من رفع أبصارهم عن سكاكيننا. في اليوم التالي أحضروا قافلة كاملة من الخيول إلى المعسكر ليتاجروا بها. لم نعرف ماذا كانوا يريدون. كان لديهم سكاكينهم الخاصة. ولكن السبب كان، كما ترى، أنهم لم يروا عظاما منشورة تطهى من قبل.

نظر (تودفين) إلى جبهة الرجل، ولكن قبعته كانت مضغوطة حتى عينيه تقريبا. ابتسم الرجل وأزاح القبعة قليلا بإبهامه. فظهرت طُبعة لمطاط القبعة على جبهته وكأنها جرح، ولكن لم تكن هناك علامات أخرى غيرها. فقط على الجزء الداخلي من ساعده كان يوجد وشم لرقم كان (تودفين) يراه في حمام (بتشيهواهوا). ورآه مرة

ثانية عندما قطع جذع رجل كان مشوها ومعلَّقاً من كعبيه على فرع شجرة في صحارى (بيميريا آلتا) في خريف ذلك العام.

تابعوا طريقهم عبر نباتات التشولا والنوبال الشوكية القزمة، واجتازوا فجوة صخرية في الجبال وبين نبات الآرتيميسيا المزهرة والصبّار. ومروا في أرض سهلية من الأعشاب الصحراوية المنقَّطة. على المنحدرات كانت هناك جدران من الحجارة الرمادية التي تتبع خط الجبال حتى تستقر على السهل. لم يأخذوا استراحة عند الظهر ولا وقت القيلولة، وكان ضوء القمر الأبيض ينخفض في النهار الرحب داخل حَلْق الجبال إلى الشرق، وكانوا ما يزالون مُمتـَطين خيولهم عندما باغتهم الزوال، تاركين في السهل تحتهم آثار مهاجرين خائفين منقوشة بلون أزرق ومتحركين بصلصلتهم نحو الشمال.

قضوا الليل في زريبة في مزرعة حيث أبقى جميع الرجال نيران المراقبة مشتعلة طوال الليل على المصطبات والسطوح. قبل ذلك بإسبوعين قُتلت مجموعة من الفلاحين المحليين وقُطِّعوا إربا بمعازقهم، في حين قام هنود الآباتشي بالإحاطة بما أرادوا أن يأخذوه من المواشي ثم اختفوا في التلال. طلب (غلانتون) أن يُقتل تيس، وقد تم ذلك في الزريبة بينما كانت الخيول جافلة وترتجف، وفي ضوء النيران المتماوج جلس الرجال القرفصاء وقاموا بشواء اللحم وأكلوا بسكاكينهم، ثم مسحوا أصابعهم بشعورهم ثم استداروا للنوم على الأرض الصلصالية المشققة.

عند الغسق في اليوم الثالث وصلوا إلى بلدة (كوراليتوس)، كانت الخيول تمشي متثاقلة على الرماد المتصلب، وكانت الشمس تتوهج بلون أحمر في الدخان. كانت مداخن الصَّهر مصطفَّة مقابل السماء الرمادية وتشع أضواء الأفران تحت عتمة التلال. لقد أمطرت في النهار وانعكست أضواء نوافذ البيوت الطينية المنخفضة في برك الماء عبر الطريق الذي أغرقه الفيضان حيث تخرج خنازير تقطر ماء وتئن أمام الخيول المتقدمة مثل شياطين السمك المجدافي التي تسبح في مستنقع. كانت البيوت مزودة بفتحات للرمي وبمتاريس، وكان الهواء مليء بدخان الزرنيخ. خرج الناس لرؤية التكساسيين، نادوا عليهم، وكانوا يقفون بشكل مَهيب على طول الطريق وأقل شيء كانوا يفعلونه هو الإيماءات بنظرات رعب ونظرات دهشة.

عسكروا في الساحة، واسودَّت أشجار الحور القطني بنيران معسكرهم وأيقظت الطيور النائمة. ارتفعت ألسنة اللهب فوق البلدة البائسة إلى أقصى مدى حتى أن العميان ظهروا يترنحون وأيديهم ممدودة باتجاه ذلك اليوم الذي يستشعرونه بحدسهم. ركب (غلانتون) القاضي والأخوان (براون) جيادهم نحو مزرعة الجنرال (زولوجا) حيث استُقبلوا وقُدِّم لهم العشاء، ومرت الليلة بدون أحداث تـُذكر.

في الصباح وعندما سرَّجوا جيادهم وكانوا مجتمعين في الساحة ليغادروا، اقتربت منهم عائلة من السحرة المتجولين يلتمسون انتقالاً آمناً نحو بلدة (يانوس). نظر (غلانتون) إليهم من مكانِهِ في مقدمة الرَّتل. كانت بضائعهم مكوَّمة داخل سلال كبيرة مربوطة على

ظهور ثلاثة حمير صغيرة، وكانت العائلة مكونة من رجل وزوجته وشاب وبنت. كانوا يرتدون ملابس مهرجين مطرَّزة بنجوم وأهلّة بهتت ألوانها المبهرجة وشحبت بسبب تراب الطريق، وبدوا كأنهم مجموعة من المتجولين الذين ألقي بهم في هذه الأرض الشريرة. تقدم الرجل العجوز وأمسك بلجام حصان (غلانتون).

أبعد يديك عن الحصان، قال (غلانتون).

لم يكن الرجل يتكلم الإنجليزية ولكنه فعل ما طُـلب منه. وبدأ بعرض قضيته. وأومأ مشيرا إلى الخلف باتجاه الآخرين. راقبه (غلانتون)، من يعلم إذا كان قد سمع ما قاله أصلاً. استدار ونظر إلى الولد والمرأتين، ثم نظر مرة ثانية إلى الرجل.

وقال: ما أنتم؟

وجَّه الرجل أذنه نحو (غلانتون) ونظر إليه فاغراً فاهه.

قلت ما أنتم؟ هل تقدِّمون عرضاً؟

نظر إلى الوراء باتجاه الآخرين.

عَرْض، قال (غلانتون). مهرجون (بالإسبانية).

أشرق وجه الرجل ابتهاجا، وقال: نعم، نعم مهرجون.كلنا. (بالإسبانية).

التفت إلى الصبي: أحضر الكلاب! (بالإسبانية).

ركض الولد إلى أحد الحمير وبدأ يجرّ الصُــرَّر، ثم أتى ومعه زوج من الحيوانات الجرداء ذات الآذان التي تشبه آذان الخفاش، وأكبر قليلا من الجرذان، كان لونها بنياً شاحباً، وقذفهما في الهواء ثم أمسكهما بباطن يديه حيث بدءا بالرقص بجنون.

أنظر، أنظر! صاح الرجل(بالإسبانية). كان يبحث في جيوبه، وفي الحال كان يقذف بأربع كرات خشبية أمام حصان (غلانتون). صهل الحصان ورفع رأسه وانحنى (غلانتون) على السرج وبصق ثم مسح فمه بظاهر يده.

وقال: أليس ذلك رذاذ غائط.

كان الرجل يقذف بالكرات ويتلاعب بها وهو ينادي على المرأتين من فوق كتفه، وكانت الكلاب ترقص، والمرأتان تجهزان شيئا ما عندما تحدث (غلانتون) إلى الرجل.

لا تبدأ بالمزيد من هذا الهراء القذر. إذا أردت أن تركب معنا، عليك اتباعنا من الخلف. وأنا لا أعدُك بشيء. لنذهب (بالإسبانية).

تابع (غلانتون) طريقه، وتحركت الفرقة محدثة أصوات جلجلة، وركض المشعوذ هاتفا إلى المرأتين باتجاه الحمير، ووقف الصبي بعينين واسعتين والكلاب تحت ذراعه عندما تحدث (غلانتون) إلى الرجل. ركبوا من بين الحشد مجتازين أكواماً مخروطية من الخَبَث والنفايات. وقف بعض الرجال يدا بيد مثل العشاق، وكان ولد صغير يقود رجلا أعمى بواسطة حبل إلى مكان أفضل.

عند الظهر عبروا القاع الصخري لنهر (كاساس غراندس)، وتابعوا على أرض مرتفعة قليلاً فوق جدول هزيل مجتازين مكاناً مليئاً بالعظام البشرية حيث ذبَحَ الجنود المكسيكيون هنود الآباتشي الذين كانوا معسكرين، قبل بضعة سنين مضت. عظام لنساء وأطفال. انتشرت العظام والجماجم على الأرض المنبسطة لمسافة ميل. وكانت الأوصال الصغيرة والجماجم الخالية من الأسنان لأطفال رُضّع، كأنها عظام قرود صغيرة، ملقاة في المكان الذي ذبحوا فيه، وكانت هناك بقايا قديمة لسلال مغبَّرة وقدور مكسورة بين الحصى. تابعوا طريقهم. كان النهر يسير في ممر ضيق من الأشجار بلون أخضر فاقع باتجاه الجبال القاحلة. إلى الغرب كانت تقع قمم (كاركاج)، والى الشمال قمم جبال (أنيماس) وكانت معتمة وزرقاء.

أقاموا معسكرا في تلك الليلة على نجد تعصف به الرياح بين أشجار الصنوبر وأشجار العرعر. وتمايلت النيران مع الرياح في الظلام، وتسابقت سلسلة من الشرارات عبر الأشجار الخفيضة. أنزل المشعوذون بضائعهم عن الحمير وبدأوا بنصب خيمة رمادية كبيرة. كان قماش الخيمة منقوشا وكان يرفرف ويتمايل، ويرتفع شاهقا، ويتجه مع الرياح فيلُفهُم داخله. كانت البنت تستلقي على الأرض وتمسك بإحدى الزوايا. ثم بدأت تجرها عبر التراب. أخذ المشعوذ بعض السنادات الصغيرة. وكانت عينا المرأة مثبتة على الضوء. في حين كان أفراد المجموعة يراقبون الأشخاص الأربعة وهم متشبثون بقطعة القماش المتطايرة، مشوا على رؤوس أصابعهم بصمت إلى حيث لا

يصل ضوء النار داخل الصحراء العاصفة كأنهم متضرعون متشبثون بأذيال بعض الآلهة المتوحشة الغاضبة.

شاهد الحراس الخيمة وهي تتكوم بشكل مرعب في الظلام. وعندما عادت عائلة المشعوذين كانوا يتجادلون فيما بينهم، وذهب الرجل مرة ثانية إلى حافة ضوء النار وحدَّق في السواد الغاضب وتحدث إليه ولوَّح بقبضة يده، وما كان ليعود إلى أن أرسلت المرأة الولد ليحضره. جلس الآن ينظر إلى ألسنة اللهب في حين كانت العائلة تُفرِّغ حاجياتها. نظروا إليه بقلق. وكان (غلانتون) يراقبه، أيضا.

أيها الساحر، قال (غلانتون).

رفع الرجل بصره ووضع إصبعه على صدره.

أنت، قال (غلانتون).

نهض ومشى بتثاقل إلى الأمام. كان (غلانتون) يدخن سيجارا أسود رفيعا. ورفع بصره ونظر إلى المشعوذ.

هل تتنبأ بالحظ؟

تحركت عينا المشعوذ بحركة مرتجفة، وقال: ماذا؟ (بالإسبانية).

وضع (غلانتون) السيجار في فمه وقلَّد توزيع لعب الورق بيديه، وقال: البِصارَة . من أجل معرفة البَخت. (بالإسبانية)

رفع المشعوذ إحدى يديه بحركة مفاجئة، وقال: نعم، نعم، (بالإسبانية) وهو يهز رأسه بعنف. كل شيء، كل شيء (بالإسبانية).

ورفع إصبعا ثم استدار وشق طريقه إلى مجموعته النفيسة. عندما رجع كان يبتسم بدماثة ويتلاعب ببراعة بورق اللعب.

وصاح: تعالي، تعالي. (بالإسبانية)

لحقت المرأة به. جثم المشعوذ أمام (غلانتون) وتحدث معه بصوت منخفض. استدار ونظر إلى المرأة وخلط الورق ثم نهض وأخذ المرأة من يدها واقتادها بعيدا عن النار ثم أجلسها مقابل الظلام. رفعت تنورتها وهيأت نفسها، وأخذ الرجل منديلا وأغمض به عينيها.

وقال: حسناً. هل تستطيعين الرؤية ؟ (بالإسبانية)

لا.

لاشيء؟ (بالإسبانية)

لاشيء، قالت المرأة. (بالإسبانية)

حسناً، قال المشعوذ. (بالإسبانية).

التفت ومعه أوراق اللعب وتقدم نحو (غلانتون). جلست المرأة بدون حراك مثل الحجر. أشار (غلانتون) بعيدا.

وقال: الفرسان. (بالإسبانية).

استدار المشعوذ. وكان الرجل الأسود يجلس القرفصاء بجانب النار يراقب، وعندما فتح المشعوذ ورق اللعب بشكل مروحة، نهض الرجل الأسود واقترب.

رفع المشعوذ نظره إليه، وضم الورق ثم عاود فتحة كمروحة مرة ثانية، ومرَّ بيده اليسرى من فوق الورق، وقرَّبه من (جاكسون) الذي أخذ ورقة ونظر إليها.

قال المشعوذ: حسناً، حسناً. (بالإسبانية)، وأشار بإصبعه السبابة على شفتيه الرفيعتين يحثُ على الحذر، وأخذ الورقة واستدار بها. برزت الورقة لمرة واحدة بوضوح. ونظر إلى الجماعة الجالسين بالقرب من النار. كانوا يدخنون ويراقبون. قام بحركة مسح بطيئة بالورقة الظاهرة للعيان. كانت عليها صورة مهرج أبله وقطة، وصاح: الأحمق (بالإسبانية).

الأحمق، قالت المرأة. (بالإسبانية). رفعت ذقنها قليلا، وبدأت بغناء أغنية. جلس الرجل الأسود الذي سحب الورقة كمتَّهم أمام المحكمة. مرَّ بعينيه على الجماعة. جلس القاضي بعيدا عن النار عاري الصدر حتى خصره. كان هو نفسه يبدو كإله عظيم شاحب، وعندما قابلت عينا الرجل الأسود عينيه، ابتسم القاضي. توقفت المرأة عن الغناء، وخمدت النار بسبب الرياح.

مَن، مَن، صاح المشعوذ (بالإسبانية).

توقفت المرأة قليلا ثم قالت: الزنجي. (بالإسبانية).

الزنجي، صرخ المشعوذ. (بالإسبانية). واستدار بالورقة. كانت الريح تعصف بملابسه. رفعت المرأة صوتها وتكلمت مرة ثانية، واستدار عائداً إلى رفاقه.

ماذا قالت؟

التفت المشعوذ وكان يقوم بالانحناء للجماعة.

ماذا قالت؟ (توبن)؟

هزّ القسيس السابق رأسه. وثنيَّة، (بلاكي)، وثنيَّة. لا تهتم بها.

ماذا قالت أيها القاضي؟

ابتسم القاضي. كان يوجّه حياة البسطاء بإبهامه من ثنيات جلده الخالي من الشعر، والآن رفع يداً واحدة وضغط إبهامه وسبابته على بعضهما في إشارة إلى مَنْح البركات حتى قَذَفَ شيئا غير مرئي إلى داخل النار أمامه. ماذا قالت؟

ماذا قالت.

أعتقد أنها تعني أن مصيرك يكمن في مصائرنا جميعا.

وما هو ذلك المصير؟

ابتسم القاضي بلطف، كان حاجباه بثنياتهما يشبهان حواجب الدلفين. هل أنت رجل سكّير، يا (جاكي)؟

ليس أكثر من بعضهم.

أعتقد أنها تُحذرك من مشروب الرَّم اللعين. نصيحة حكيمة تماما، ماذا تعتقد أنت؟

ذلك ليس مصيراً.

بالضبط هكذا. القسيس على صواب.

عبس الرجل الأسود في وجه القاضي، إلا أن القاضي انحنى إلى الأمام وتفحّصه. لا تُقطّب حاجبيك السوداوين في وجهي، يا صديقي. كل شيء سيكون معروفا بالنسبة لك في النهاية. كما سيكون بالنسبة لكل رجل.

عدد من رجال الجماعة الجالسين هناك بدوا وكأنهم يَزِنُون كلمات القاضي، وبعضهم استدار لينظر إلى الرجل الأسود. كان يقف كوقفة رجل مُبجّل، وأخيراً خطا إلى الوراء من ضوء النار ونهض المشعوذ وقام بحركة بورق اللعب، فَرَدَهم كمروحة أمامه ثم تابع مجتازا أحذية الرجال ومعه الورق ظاهراً للجميع وكأنهم سيجدون الشخص المطلوب.

من، من، همس بينهم. (بالإسبانية).

كانوا جميعهم مشمئزين. عندما وصل أمام القاضي، كان القاضي يجلس وإحدى يديه مبسوطة فوق المنطقة الواسعة من بطنه، ورفع إصبعاً وأشار به، ثم قال:

(بلاساريوس) الشاب هناك.

ماذا؟ (بالإسبانية)

الشاب. (بالإسبانية)

الشاب، (بالإسبانية)، همَس المشعوذ. نظر حوله ببطء في جو من الغموض إلى أن وجد بعينيه الشخص المطلوب. تحرك بجانب المغامرين مُسَرِّعا خطواته. وقف أمام الصبي، جثم ومعه ورق اللعب، وباعد بين الورق بشكل مروحة، بحركة بطيئة الإيقاع مماثلة لحركة بعض الطيور عندما تنهمك بالمغازلة.

ورقة واحدة، ورقة واحدة، قال (بالإسبانية) وهو يتنفس مُصدراً صوت صفير.

نظر الصبي إلى الرجل ثم نظر إلى الجماعة حوله.

نعم، نعم. (بالإسبانية). قال المشعوذ وهو يقدّم أوراق اللعب.

أخذ ورقة. لم ير مثل هذه الأوراق من قبل، ومع ذلك بدت الورقة التي حملها مألوفة له. قلَّـبها وتفحّصها ثم أعادها.

أخذ المشعوذ يد الولد بيده وقلَبَ الورقة بحيث يتمكن من رؤيتها. ثم أخذ الورقة ورفعها.

وصاح: الأربعة الكُبا، (بالإسبانية).

رفعت المرأة رأسها. بدت كأنها تمثال معصوب العينين قد رُفع بحبل.

وقالت: الأربعة الكُبّا. (بالإسبانية)، حركت كتفيها. وهبَّت الريح بين ملابسها وشعرها.

مَن؟ (بالإسبانية)، صاح المشعوذ.

قالت: الرجل ...(بالإسبانية). الرجل الأكثر شباباً . الصبي.

الصبي، صاح المشعوذ (بالإسبانية). قلبَ الورقة للجميع كي يروها. جلست المرأة مثل مشترك أعمى في حوار بين (بواز) و(ياشين)، وكأنها مرسومة على أحد أوراق لعب المشعوذ التي لن يروها تخرج إلى النور، كانت أوراق لعب حقيقية وأنصاباً حقيقية. ونبؤات كاذبة للجميع. وبدأت المرأة تغني.

كان القاضي يضحك بصمت. انحنى قليلا ليرى الصبي بشكل أفضل. نظر الصبي إلى (توبين) والى (ديفيد بروان)، ثم نظر إلى (غلانتون) نفسه، ولكن لم يكن أي منهم يضحك.

كان المشعوذ راكعا أمامه ويراقبه بحدَّة غريبة، ثم تابع نظرة الصبي المُحدِّقة إلى القاضي والى الوراء. عندما نظر الصبي إليه، ابتسم ابتسامة خادعة.

اذهب بحق الجحيم عني، قال الصبي.

حنى المشعوذ أذنه إلى الأمام. إشارة معروفة وتناسب أية لغة. كانت أذنه غامقة ومشوهة، وكأنه بوضعها بهذه الطريقة قد جعلها تعاني من ضربات ليست قليلة، أو ربما كثرة الأخبار التي كان الرجال يخبرونه بها قد أتلفتها. تحدث الصبي إليه مرة ثانية، ولكن رجلا اسمه (تيت) من كنتاكي، والذي حارب مع جنود (ماكولوتش) كما حارب (توبين) وآخرون بينهم، انحنى وهمس للعرّاف الرث المظهر وقام بانحناءة خفيفة، وابتعد. كانت المرأة قد أوقفت غناءها. وقف المشعوذ

يهتزّ بفعل الريح واندفع من النار ذيل طويل ساخن فوق الأرض، وقال: من، من (بالإسبانية).

القائد (بالإسبانية)، قال القاضي.

بحثت عينا المشعوذ عن (غلانتون). كان يجلس بدون حراك. نظر المشعوذ إلى المرأة العجوز حيث كانت تجلس بعيدا، تواجه الظلام، وتترنح بشكل خفيف، وتسابق الظلام بخِرَقِها. رفع إصبعه إلى شفتيه وبسط ذراعيه بإشارة عدم تيقُّن وَشَك.

القائد (بالإسبانية)، همس القاضي.

استدار الرجل وذهب بجانب المجموعة التي عند النار، وَصَلَ أمام (غلانتون) وجلس القرفصاء ثم قدَّم أوراق اللعب ناشراً إياها بين يديه الاثنتين. فإذا نطق بكلمات، كانت كلماته تُخطف بعيداً ولا تُسمع. ابتسم (غلانتون)، كانت عيناه صغيرتين وهما تتجنبان حبيبات الرمل الواخزة. وضع إحدى يديه إلى الأمام ثم توقف لفترة وجيزة، ونظر إلى المشعوذ. ثم أخذ ورقة.

ضَّم المشعوذ مجموعة أوراق اللعب ودسها بين ملابسه. مد يده إلى الورقة التي كانت في يد (غلانتون). ربما لمَسَها وربما لم يلمسها. ولكن الورقة اختفت. كانت في يد (غلانتون)، والآن ليست في يده. انطلقت عينا المشعوذ وراءها إلى حيث ذهبت في الظلام. ربما رأى (غلانتون) وجه الورقة. ماذا كان من الممكن أن تعني بالنسبة له؟ وصل المشعوذ إلى ذلك المجنون العاري وراء ضوء النار، وأثناء قيامه

بذلك اختل توازنه ووقع إلى الأمام على (غلانتون) مُنشِئا لحظة غريبة من الاتصال الوثيق مع ذراعي الرجل الكبير على مقربة من القائد وكأنه يواسيه وهو على صدره الهزيل.

أخذ (غلانتون) يشتُم ويسبّ وقذفه بعيدا، وفي تلك اللحظة بدأت المرأة تغني.

نهض (غلانتون).

أخرِسها، قال (غلانتون).

العربة، العربة (بالإسبانية) صاحت العجوز الشمطاء. انقلبت عربة الحرب، الانتقام. رأيتها بدون دواليب فوق نهر مظلم. (بالإسبانية)

صاح (غلانتون) عليها، فتوقفت وكأنها سمعته، ولكن الأمر لم يكن كذلك. يبدو أنها اتخذت اتجاهاً جديداً في تنبؤاتها.

ضاعت، ضاعت العربة في الليل (بالإسبانية).

كانت البنت، الواقفة في تلك اللحظة عند الحافة في الظلام المدوّي، تُصَلِّبُ على نفسها بصمت. وكان الثرثار العجوز راكعا على ركبتيه في المكان الذي قُذف إليه، وهمس ضاعت، ضاعت (بالإسبانية).

سِحْر سيئ (بالإسبانية)، صاحت المرأة العجوز. أي رياح ، شديدة جداً... (بالإسبانية)

بحق الرّب اصمتي، قال (غلانتون) وهو يسحب مسدسه.

عربة الموتى، مليئة بالعظام، الشاب الذي .... (بالإسبانية)

تقدّم القاضي، مثل جِنّي ثقيلٌ وأخرق، عبْر النار وكانت ألسنة اللهب تتسلمه وكأنه، بطريقة ما، ينتمي لأحد عناصرها. وضع ذراعه حول (غلانتون). أحدهم نزع العُصابة عن عيني المرأة ، وانطلقت هي والمشعوذ بعيدا، وعندما عاد أفراد الجماعة إلى النوم، كانت النار الذاوية تهدر في مهب الريح وكأنها شيء حيّ. كان أولئك الأربعة مازالوا يجثمون عند حافة ضوء النار بين أشيائهم الغريبة ويراقبون كيف كانت ألسنة اللهب تهرب من الريح وكأنها تُسحَب بحوّامات في الخلاء هناك، بعض تلك الحوّامات في الصحراء كانت مناسبة لتجعل أي حركة للإنسان، وكذلك اعتقاداته، باطلة. كأنه يتحرك وراء الإرادة أو المصير، هو وحيواناته المفترسة وفخاخه، بورقة لعب أو فعليا تحت الوصاية نحو مصير آخر و مصير ثالث.

في الصباح عندما تابعوا طريقهم كان يوما شاحبا لم تُشرق فيه الشمس وخمدت الرياح في المساء ، والأشياء التي كانت في الليل موجودة، لم تعُد موجودة الآن. هرول المشعوذ بحِمَاره إلى بداية طريق الرتل والتقى مصادفة مع (غلانتون)، وتابعا طريقهما سويا، وكذلك كانا بعد الظهر عندما دخلت الجماعة بلدة (يانوس)

* * *

حصنٌ مسيَّجٌ مَبْنِيٌّ بكامله من الطين، وكنيسة طينية مرتفعة، وأبراج مراقبة من الطين، جميعها غُسلت بماء المطر وتحولت إلى كتل

انهارت لتصبح خراباً متعفّناً ليّناً. كان مجيء راكبي الخيول قد أشيع عنه بالكلاب الهجينة المريضة التي كانت تعوي بين حطام الأسوار.

تابعوا طريقهم بجانب الكنيسة حيث كانت أجراس ذات لون أخضر مُزْرَق بمرور الزمن، تتدلى من سارية بين الأضرحة الطينية القديمة. كان الأولاد ذوو العيون السوداء يراقبون من الأكواخ، والهواء عابقاً بالدخان المتصاعد من نيران الفحم، وبضع رجال مسنين يجلسون بصمت عند الممرات وتحوّل عدد من البيوت التي كانت تستخدم كزرائب إلى حطام . اقترب منهم رجل عجوز يترنح ومدَّ يده. صدقة قليلة (بالإسبانية) كان يتكلم مع الخيول المارَّة بصوت خفيض أجش. من أجل الرَّب . (بالإسبانية).

كان في الساحة رجلان من (ديلاوير) والمرافق الراكب (وبستر)، يجلسون على التراب مع امرأة ثملة وشاحبة بلون طين الأنابيب الأبيض. كانت امرأة عجوز شمطاء نصف عارية، وتحدّق في الأرض، لم ترفع نظرها حتى عندما وقفت الخيول حولها.

نظر (غلانتون) لحو الساحة. بدت البلدة فارغة. كانت هناك جماعة صغيرة من الجنود الذين احتلوا الحصن ولم يغادروه. كان التراب يتطاير في الشوارع. انحنى حصانه وتنشّق المرأة العجوز ثم هزَّ رأسه هزا عنيفا وارتجف، فربت (غلانتون) على رقبة الحصان ونزل عنه. كانت في كوخ اللحوم على بعد ثمانية أميال من النهر، قال (وبستر). إنها لا تستطيع المشي.

كم كان عدد الموجودين هناك؟

لقد قدَّرناهم بحوالي خمسة عشر أو عشرين. لم يكن لديهم مواشٍ ولا أي شيء. لا أدري ماذا كانت تفعل هناك.

عَبَر (غلانتون) من أمام حصانه ورمى اللجام وراء ظهره.

كن حذراً منها أيها الكابتن، فهي تعضّ.

رفعت عينيها حتى مستوى ركبتيه. دفع (غلانتون) حصانه إلى الوراء وأخذ أحد المسدسات الثقيلة من غمده وحشاه.

كن حذرا على نفسك.

تراجع عدد من الرجال إلى الوراء.

رفعت المرأة نظرها. لم تظهر في عينيها الهرمتين شجاعة أو خوف. أشار بيده اليسرى واستدارت هي لتتبع يده بنظرتها المحملقة، فوضع المسدس على رأسها وأطلق النار.

ملأ صوت الانفجار كل أرجاء تلك الساحة الصغيرة الحزينة. جفلت بعض الخيول وقفزت. لقد انفجر ثقب بحجم قبضة اليد على الجانب البعيد من رأس المرأة في قيء كبير من الدم ثم مالت ووقعت مذبوحة في دمائها بلا وسيلة شرعية لاسترداد حقها. كان (غلانتون) قد عيّر المسدس في وضع الصّلي(*) النصفي ونفض الفتيل المستهلك بإبهامه، وكان يُجهّز لإعادة حشو حجيرة الطلقات، وقال: (ماكجيل).

(*) الصَّلْيُ: رَدّ زند المسدس إلى الوراء استعداداً للرمي.

تقدّم المكسيكي، الوحيد من جنسه بين أفراد الجماعة، إلى الأمام. أحضر لنا وصل الاستلام .

استل من حزامه سكينا وتوجه إلى حيث ترقد المرأة العجوز وأمسك بشعرها ساحبا إياه إلى الأعلى ثم لفّه حول رسغه ومرر نصل السكين حول جمجمتها وانتزع الفروة.

نظر (غلانتون) إلى الرجال. كانوا يقفون وبعضهم ينظرون إلى المرأة العجوز، وبعضهم يقومون بالاعتناء بجيادهم ومعداتهم. كان المجندون فقط هم الذين يراقبون (غلانتون). حشا كرة رصاص في حجيرة الطلقات ثم رفع عينيه ونظر عبر الساحة. وقف المشعوذ وعائلته في صف واحد كشهود، وخلفهم عند واجهة المبنى الطينية الطويلة، أطلّت وجوه كانت تراقب من وراء الأبواب. وأغلقت النوافذ الخالية من الستائر أمام نظرات عينيه المتفحصة، وكأنها دمى متحركة في معرض. نزع كبسولة الرصاصة من الحجيرة ولقمها بالبارود ثم أدار المسدس الثقيل في يده وأعاده إلى الغمد فوق أكتاف الحصان ثم أخذ الغنيمة التي تقطُر دماً من (ماكجيل) وأدارها نحو الشمس على طريقة الشخص الذي يُقيِّم جلد حيوان غير مدبوغ، وبعد ذلك أعادها، وأخذ اللجام المَجرور على الأرض وقاد حصانه إلى الخارج عبر الساحة باتجاه الماء في مخاضة النهر.

أقاموا معسكراً في بستان الحور القطني عبر الجدول تماما خلف أسوار البلدة ، وعند حلول الظلام ساروا في مجموعات صغيرة خلال الشوارع العابقة بالدخان. كانت جماعة السيرك قد نصبت خيمة

صغيرة في الساحة الترابية، كما نصبت بضعة أعمدة وُضِعَ على قممها مشاعل من الزيت المحترق. كان المشعوذ يضرب على طبول مطوَّقة مصنوعة من القصدير وجلود الحيوانات غير المدبوغة ويصرخ بصوت يَخنّ معلنا عن برنامج الترفيه، في حين كانت المرأة تصيح: تقدم، تقدم، تقدم (بالإسبانية). وهي تُحرك يديها من حولها بإشارة لعظَمَة العرض. كان (تودفين) والصبي يراقبان بين المواطنين. وانحنى (باثكات) وتحدث إليهما.

أنظروا هناك يا شباب.

استدارا لينظرا إلى حيث أشار. وقف الرجل الأسود عاري الصدر حتى خصره خلف الخيمة، وعندما عاد المشعوذ حاملا مكنسة في يده، دفعته البنت فقفز من الخيمة ومشى بخطى واسعة متخذا أوضاعا غريبة تحت نور المشاعل الضعيف.

* * *

-8-

حانة أخرى، مرشد آخر - مونتي - قتال بالسلاح الأبيض- الزاوية الأكثر ظلاما في الحانة هي الأكثر وضوحاً - وقت الأصيل (بالإسبانية) - التوجه شمالاً - خيمة اللحوم - (غراني رات) - تحت قمم انيماس - مواجهة وقتل - ناسك آخر، فجر آخر.

* * *

توقفوا خارج الحانة وجهزوا قطعهم النقدية للمقامرة. أزاح (تودفين) جلد بقرة جاف عُلِّقَ مكان الباب، جانباً، ودخلوا مكاناً مظلماً بأكمله وبدون أية ملامح. تدلّى مصباح وحيد من منصة الصاري الموجودة على السقف، وفي الظلال كانت هناك أشكال بشرية معتمة تجلس وتدخّن. شقوا طريقهم عبر الغرفة باتجاه بار مصنوع من القرميد الفخاري. كان المكان يعبق برائحة دخان الخشب المحترق والعَرَق. وظهر أمامهم رجل صغير الحجم ونحيل ووضع يديه بطريقة رسمية فوق البلاط.

وقال: ما طلبُك، (بالإسبانية).

خلع (تودفين) قبعته ووضعها فوق البار، ومرر يده ذات الأظافر الطويلة خلال شعره.

ماذا لديك من مشروب يمكن أن يشربه المرء بمخاطرة أقل من إمكانية أن يصاب بالعمى أو أن يموت.

ماذا؟ (بالإسبانية).

وأمَالَ إبهامه إلى داخل فمه، وقال: ماذا لديك للشرب.

التفت الساقي ونظر خلفه على الأواني. بدا متشككاً في أن يجد أي شيء يوافق طلباتهم.

ميسكال؟ (مشروب مكسيكي مُسْكر)

هل يناسب الجميع؟

أرِنا إياه، قال (باثكات).

صبَّ الساقي كميات المشروب من جرة فخارية داخل ثلاث كؤوس من القصدير المنبعج، ودفعها بحذر إلى الأمام كقطع نقدية فوق لوح.

كم سعرها؟ (بالإسبانية)، قال (تودفين).

بدا الساقي خائفاً، وقال: ستة؟ (بالإسبانية)

ستة ماذا؟

رفع الرجل ستة أصابع.

مئات (بالإسبانية)، قال (باثكات).

وضع (تودفين) قطعاً نقدية نحاسية على البار وشرب كأسه حتى آخر قطرة، ودفع مرة ثانية. أشار إلى الكؤوس الثلاث بحركة متأرجحة من إصبعه. رفع الصبي كأسه وشرب حتى آخر رشفة وأنزله ثانية. كان المشروب زنِخاً ومُرّاً وفيه طعم زيتي خفيف. كان يقف كالباقين وظهره إلى البار، ونظر عبر الغرفة. كان يوجد على طاولة في الزاوية البعيدة رجال يلعبون الورق على ضوء شمعة واحدة من دهن الحيوان. وعلى طول الحائط المقابل كانت تجثم أشكال بشرية يبدو أنهم غير معتادين على النور، وكانوا يراقبون الأمريكيين بدون أي تعبير.

هناك لعبة" لكَ، قال (تودفين). إلعب مونتي (ضرب من لعب الورق) في الظلام مع مجموعة من الزنوج. رفع كأسه وشربها حتى القطرة الأخيرة ووضعها على البار، وعدَّ باقي القطع النقدية. ظهر رجل يمشي جارّاً قدميه باتجاههم، من الظلام. كان يحمل زجاجة تحت إبطه ووضعها مع كأسه على البلاط بحذر، وتحدث إلى الساقي، فأحضر له الساقي إبريقاً من الماء. أدار الإبريق بحيث تقف يد الإبريق على يمينه ثم نظر إلى الصبي. كان عجوزا ويضع قبعة ذات قمة مسطَّحة من نوع لم يَعُد يُشاهد في تلك البلدة، وكان يرتدي سروالاً من القطن الأبيض القذر وقميصاً. وبدا الصندل الذي ينتعله كسمكة اسودَّت وثُبِّتت في الأرض تحت قدميه.

وقال: أنت من تكساس؟

نظر الصبي إلى (تودفين).

أنت من تكساس، قال الرجل العجوز. كان قد فقد السُلاميّة الأولى من إصبعه السبابة، وكأنه يريهم ماذا حدث في تكساس، أو ربما قَصَدَ فقط أن يعُدَّ السنوات. أنزل يده واستدار إلى البار ثم صبَّ الخمر في الكأس وأخذ الجرة وصبَّ الماء بعده بكمية قليلة. شرب ووضع الكأس من يده ثم استدار إلى (تودفين). كان عنده سبلات شعر رفيعة بيضاء على ذقنه، مسحها بظاهر يده قبل أن ينظر إليه مرة ثانية.

أنت شاركت في الحرب. ضد الهمجيين. (بالإسبانية)

(تودفين) لم يفهم. كان يبدو كفارس جَلِف.

وضع الرجل العجوز بندقية وهمية على كتفيه وأصدر صوت ضجة بفمه. نظر إلى الأمريكيين. أنتم تقتلون الأباتشي، أليس كذلك؟

نظر (تودفين) إلى (باثكات)، وقال: ماذا يريد؟

مرر الفانديمي يده ذات الأصابع الثلاثة على فمه ولكنه لم يسمح بأية ملامسة، وقال: الرجل العجوز مُتخم أو مجنون.

سند (تودفين) كوعيه على بلاد سطح البار خلفه. ونظر إلى الرجل العجوز وبصق على الأرض، وقال: زنجي هارب مخبول، ألست كذلك؟

كان هناك صوت تأوه وأنين قادم من الجانب البعيد من الغرفة. نهض رجل ومشى بجانب الحائط ثم انحنى ليتكلم مع الآخرين. عاد

صوت الأنين مرة ثانية، ومرر الرجل العجوز يده أمام وجهه مرتين وقبّـل أطراف أصابعه ثم رفع بصره، وقال:

كم يدفعون لكم من النقود؟

لم يتكلم أحد.

أنت تقتل (غوميز)، يدفعون لك نقودا كثيرة.

تأوه الرجل الذي يقبع في الظلام عند الحائط البعيد مرة ثانية. وصاح: يا أم المسيح (بالإسبانية).

(غوميز)، (غوميز)، قال الرجل العجوز. حتى (غوميز). من يستطيع أن يحارب ضد الـ(تيخانوس)؟ إنهم جنود شجعان جدا. دم (غوميز) دم الناس .... (بالإسبانية).

رفع نظره، وقال: دم. هذا البلد نزف كثيرا من الدم. هذه المكسيك. هذه بلد عطشى. دماء آلف مسيح. لا شيء.

أومأ بإشارة نحو العالم القابع ما وراء الأرض التي ترقد بكاملها في الظلام، وتبدو كمذبح حجري ضخم ملوَّث. استدار وصبَّ الخمر ثم صبَّ مرة ثانية من جرة الماء، إنه رجل عجوز معتدل في معاقرة الخمر. شرب كأسه.

راقبه الصبي. راقبه وهو يشرب، راقبه وهو يمسح فمه. عندما استدار لم يتكلم مع الصبي ولا مع (تودفين)، ولكنه بدا وكأنه يخاطب كل من في الغرفة.

أصلّي للرَّب من أجل هذا البلد. أنا أقول ذلك لكم. إنني أصلّي. أنا لا أذهب إلى الكنيسة. ما الذي أحتاج قوله إلى تلك الدمى هناك؟ أنا أتحدث هنا.

أشار إلى صدره. عندما استدار إلى الأمريكيين، رَقّ صوته مرة ثانية، وقال: أنتم فرسان طيبون. أنتم تقتلون الهمجيين. لا يمكنهم الاختباء منكم. ولكن يوجد فارس أعتقد أن لا أحد يمكنه الاختباء منه. لقد كنت جنديا. إنه مثل الحلم. عندما تتحلل حتى العظام في الصحراء، فإن الأحلام تتحدث إليك، فأنت لن تصحو للأبد.

شرب كأسه حتى القطرة الأخيرة وأخذ الزجاجة ثم ذهب بخفة بصندله إلى داخل أبعد مكان معتم في الحانة. تأوه الرجل الذي عند الحائط مرة ثانية ونادى ربَّه. تحدث الفانديمي والساقي مع بعضهما، وأومأ الساقي إلى الظلام عند الزاوية وهز رأسه، تجرَّع الأمريكيون آخر كؤوس لهم ودفع (تودفين) الكؤوس باتجاه الساقي ثم خرجوا.

كان ذلك ابنه، قال (باثكات).

من كان؟

الشاب الذي في الزاوية المجروح بالسكين.

كان مجروحاً؟

أحد الشبان على الطاولة جرحه. كانوا يلعبون الورق وجرحه أحدهم.

لماذا لم يغادر؟

لقد سألته أنا السؤال نفسه.

ماذا قال؟

كان لديه سؤال لي. قال لي: إلى أين سأذهب؟

شقوا طريقهم خلال الشوارع المسوَّرة الضيقة باتجاه البوابة، ونيران المعسكر وراءهم. كان هناك صوت ينادي. كان يقول: العاشرة والنصف، الجو صحو (بالإسبانية). كان ذلك صوت الحارس أثناء جولاته، وقد مرَّ بهم بفانوسه وهو يعلن الوقت بهدوء.

* * *

عند عتمة ما قبل الفجر كانت الأصوات تَصِفُ المشهد القادم. أصوات العصافير على الأشجار بجانب النهر وصلصلة أطقم الخيول وأصوات تنفسها، والصوت الخفيف الذي تُصدِره أثناء علفها. في القرى المعتمة صاحت الديوك. كان الهواء يعبق برائحة الفحم ورائحة الخيول. وبدأ المعسكر يضُجُّ بالحركة. كل الذين كانوا يجلسون في الضوء هم من أولاد البلدة. لم يعلم أي من الرجال الذين ينهضون الآن كم مكثوا هناك في الظلام والسكون.

عندما امتطوا خيولهم عبر الساحة، كانت المرأة الهندية العجوز قد اختفت. وكان التراب قد قُلِّب مؤخرا. كانت مشاعل المشعوذ واضحة وسوداء فوق أعمدتها، وكانت النار باهتة أمام الخيمة المنصوبة.

نهضت امرأة كانت تقطع الخشب ووقفت تحمل الفأس بيديها الاثنتين عندما مرّوا بها.

عبروا معسكر الهنود المنهوب عند منتصف النهار، كانت شرائح اللحم المتفحِّمة تكسو الأشجار أو تتدلى من الأعمدة كغسيل أسود غريب. وكانت جلود الغزلان منشورة على الأرض، والعظام البيضاء أو المحمرَّة ملقاة فوق الصخور كأنها في مسلخ بدائي. أمالت الخيول آذانها وهرولت بسرعة. تابعوا الطريق. بعد ظهر ذلك اليوم لحق بهم (جاكسون) الأسود، وكان حصانه مرهقاً ومتورماً. استدار(غلانتون) على السرج وتفحَّصه بعينيه. ثم وكز حصانه فاندفع إلى الأمام واصطف الرجل الأسود ورفاق الطريق الشاحبون الذين كانوا معه، ثم انطلقوا جميعا كالسابق.

لم يفتقدوا الجندي السابق حتى ذلك المساء. شق القاضي طريقه عبر دخان نيران الطهو وجلس القرفصاء أمام (تودفين) والصبي، وقال:

ماذا حلَّ بـ(تشيمبرز)؟

أعتقد أنه رحل.

هل كان راكباً هذا الصباح؟

ليس معنا، لم يركب معنا أبداً.

حسب علمي أنك تتكلم بالنيابة عن مجموعتك.

بصق (تودفين). وبدا أنه يتكلم عن نفسه.

متى كانت آخر مرة رأيته فيها؟

رأيته مساء أمس.

ولكن ليس هذا الصباح؟

ليس هذا الصباح.

تفحَّصه القاضي.

يا للجحيم، قال (تودفين). اعتقدت أنك كنت تعرف أنه قد رحل. لم يكن صغيراً إلى الدرجة التي يمكن أن تفقده.

نظر القاضي إلى الصبي. ونظر إلى (تودفين) مرة ثانية. بعد ذلك نهض وعاد من حيث أتى.

في الصباح كان اثنان من هنود ديلاوير قد فارقوهم . تابعوا طريقهم. عند الظهيرة بدأوا بالصعود نحو الممر الجبلي في الجبال. صعدوا بين أعشاب الخزامى وتحت قمم (أنيماس). قطع ظل نسر قادم من ذلك المكان المرتفع والمليء بالصخور خط سير ممتطي الخيول في الأسفل، ونظروا إلى الأعلى ليحددوا الموقع الذي جاء منه في ذلك الفراغ الأزرق الكامل والشاسع. وصلوا منطقة أشجار البلوط، وعبروا الممر الجبلي بين أشجار الصنوبر العالية ثم تابعوا طريقهم عبر الجبال.

في المساء وصلوا إلى هضبةٍ مستوية السطح ومنحدرة الجوانب وتُشْرف على الأراضي الواقعة إلى الشمال بكاملها. كانت الشمس

تستلقي إلى الغرب وكأنها في مَحْرَقة حيث ارتفع صف من وطاويط الصحراء الصغيرة، والى الشمال على طول محيط الأرض كان التراب يتطاير في الصحراء وكأنه غبار أحدثته جيوش قادمة من بعيد . كانت الجبال المتجعدة كورق الجزار ترقد بطيَّات ظل حادة تحت الغسق الأزرق الممتد طويلا، وفي منتصف المسافة تومض طبقة مصقولة لبحيرة جافة، وكان قطيع من الغزلان يتجه شمالا عند نهاية الشفق، مسرعاً فوق السهل هربا من ذئاب كانت هي نفسها بلون تراب الصحراء.

نظر (غلانتون)، الجالس على حصانه، طويلا إلى هذا المنظر. كانت الأعشاب الجافة المتناثرة تتدافع بفعل الرياح مثل صدى الأرض الطويل لأصوات الرماح والحِراب في المواجهات التاريخية التي لم يُسجَّل أبداً مثلها. كانت السماء كلها تبدو مضطربة وأتى الليل مسرعاً فوق أرض المساء، وحلَّقت طيور رمادية وهي تصيح بصوت خافت على الشمس الهاربة. رَبَّتَ بلطفٍ على الحصان. ثم دخل هو وكذلك دخلوا جميعاً في هلاك الليل المثير للجدل.

في تلك الليلة أقاموا معسكرا على السهل الأمامي عند أسفل المنحدر حيث حدثت جريمة القتل التي تُوُقِّعَ حدوثها. كان الرجل الأبيض(جاكسون) ثملا في (يانوس)، وامتطى حصانه مُحْمَّر العينين وغاضبا خلال الجبال لمدة يومين. والآن يجلس أشعثاً بجانب النار وخالعاً حذاءه ويشرب مشروباً من إناء، محاطاً برفاقه وعواء الذئاب ورعاية الليل. كان جالساً هكذا عندما اقترب الرجل الأسود من النار وألقى بطانيته وجلس فوقها ثم شرع بإشعال غليونه.

كان هناك ناران في هذا المعسكر ولا توجد قوانين حقيقية أو ضمنية تُحدد من يستخدمهما. ولكن عندما نظر الرجل الأبيض إلى النار الأخرى، رأى أن ذلك الرجل من ديلاوير و(جون) و(ماكجيل) والرجال الجدد في المجموعة قد أخذوا عشاءهم إلى هناك، وبإشارة منه وتهديد غير واضح حذَّرَ الرجل الأسود ليبتعد.

عندها، وخلافا لتقديرات الرجال، كانت جميع المواثيق زائلة. نظر الرجل الأسود من فوق الجزء المقعَّر من غليونه. عند تلك النار كان هناك رجال تعْـكِس عيونهم ضوء النار فبدت كأنها جمرات مغروزة في جماجمهم، ورجال لا تبدو عيونهم كذلك. ولكن عيني الرجل الأسود بدتا كأنهما ممران طويلان ليَعبر فيهما الليل المجرَّد والمشوب مما يقبع في المؤخرة إلى ما سيأتي فيما بعد. كل رجل في هذه الجماعة يمكنه الجلوس حيث يناسبه، قال الرجل الأسود.

هزّ الرجل الأبيض رأسه وإحدى عينيه نصف مغمضة، وشفته مُرتخية. كان حزام مسدسه مُلقى على الأرض بشكل ملفوف. مدَّ نفسه وسحب المسدس ووضع الزناد عند الصَّلْي. نهض أربعة رجال وابتعدوا.

هل تعتزم أن تطلق النار علي؟ قال الرجل الأسود.

إذا لم تُبعد مؤخرتك السوداء عن النار سأقتلك وأجعلك كأموات المقبرة.

نظر إلى حيث يجلس(غلانتون). راقبه (غلانتون). وضع الغليون في فمه ونهض ثم أخذ البطانية ولفها على ذراعه.

هل هذا آخر كلام عندك؟

آخر كلام كقضاء الرَّب.

نظر الرجل الأسود مرة ثانية إلى (غلانتون) من خلال لهب النار ثم انصرف في الظلام. أعاد الرجل الأبيض المسدس إلى وضع الأمان ووضعه على الأرض أمامه. عاد رجلان من الأربعة إلى جانب النار ووقفا بعدم ارتياح. جلس (جاكسون) واضعاً رِجلاً فوق الأخرى، وإحدى يديه فوق حجره والثانية ممدودة فوق ركبته حاملاً بها سيجاراً أسود رفيعاً وصغيراً. أقرب رَجُـل إلى جانبه كان (توبين)، وعندما خرج الرجل الأسود من الظلام حاملاً معه مدّية كبيرة وكأنها أداة لأداء أحد الطقوس، بدأ (توبين) بالنهوض. رفع الرجل الأبيض بصره وهو ثمل، فتقدم الرجل الأسود وبضربة واحدة أطاح برأسه.

تدفق من ما تبقى من رقبته حبلان ثخينان من الدم الغامق وآخران رفيعان بدوا كثعابين تقوَّست وأخذت تهسهس داخل النار. تدحرج الرأس إلى اليسار حتى قدمي القسيس السابق حيث استقر بعينين مشدوهتين. هزَّ (توبين) رِجله بعنف بعيداً عنه ونهض ورجع إلى الوراء. توهجت النار واسوَّدت وارتفعت غيمة من الدخان الرمادي وخمدت أقواس الدم العمودية ببطء إلى أن بقيت الرقبة فقط تزْبُد بفقاقيع وكأنها تُطهى بالغلي البطيء، ثم سكنت هي الأخرى. كان جالساً كما كان من قبل ما عدا أنه صار بدون رأس، وغارقاً

بالدم، كان السيجار ما يزال بين أصابعه، وكان مائلاً نحو الظلام ومكوّنا كهوفاً من الدخان داخل ألسنة اللهب حيث فقد حياته.

نهض (غلانتون). وابتعد الرجال ولم يتفوه أحد بكلمة. عندما بدأوا سيرهم في الفجر كان الرجل مقطوع الرأس ما يزال جالسا مثل ناسك حافٍ مقتول مكسو بالرماد وقميص الرهبان. كان أحدهم قد أخذ مسدسه، ولكن حذاءه بقي حيث وضعه. تابعت الجماعة طريقها. ولم تمض ساعة على تقدمهم في السهل حتى هوجموا من (الآباتشي).

* * *

-9-

الكمين - الآباتشي الميت- أرض محفورة - بحيرة جصّية - (تريبيلونز) - خيول مصابة بالعمى الثلجي - عودة هنود (ديلاوير) - إثبات صحة وصية - حافلة أشباح - مناجم النحاس - المقيمون - حصان لدغه ثعبان - القاضي يجد دليلاً جيولوجياً - الولد الميت - أدلة مزيفة ومختلفة لأشياء مضت - صيادو الجواميس.

* * *

كانوا يجتازون الحافة الغربية من البحيرة الضحلة عندما أمر (غلانتون) بالوقوف. استدار ووضع إحدى يديه على القربوس الخشبي الخلفي للسرج ونظر باتجاه الشمس التي أشرقت للتو فوق الجبال الجرداء الصغيرة إلى الشرق. كانت أرض البحيرة ناعمة و غير متصدّعة بأية آثار، ووقفت الجبال بجُزُرها الزرقاء في الخلاء وكأنها معابد طافية. امتطى (تودفين) والصبي حصانيهما وحدّقا في ذلك القِفار مع الآخرين. خارج البحيرة ومع رياح الصباح بدا البحر البارد المتكسّر الذي جفّت مياهه منذ آلاف السنين، كأنه قطع فضة مختلطة ببعضها.

تبدو كأنها مجموعة من الكلاب. قال (تودفين).

تبدو كأنها إوز بالنسبة لي.

فجأة، أدار (باثكات) وأحد رجال (ديلاوير) حصانيهما وضرباهما بالسياط، وصرخا، استدار أفراد الجماعة وتحركوا بحركة دائرية وبدون نظام، ثم بدأوا يصطفون على خط واحد عند البحيرة قرب صف رفيع من الأشجار الخفيضة التي تحدد الشاطئ. كان الرجال يقفزون من فوق جيادهم ويقيِّدون أرجلها مباشرة بحلقات من الحبال الجاهزة. في الوقت الذي تم تأمين الخيول فيه وألقى الرجال بأنفسهم مع أسلحتهم الجاهزة للإطلاق على الأرض تحت شجيرات زيتية، بدأ راكبو الخيول يظهرون بعيدا عند حوض البحيرة، وارتفع خط رفيع من الأقواس التي كانت ترتجف وتتمايل في وهج الحرارة المتصاعد. عبروا من أمام الشمس واختفوا وحدا تلو الآخر، ثم ظهروا مرة ثانية وكانوا سودا في ضوء الشمس، ثم خرجوا من ذلك البحر المتلاشي كأنهم أشباح محترقة، وكانت أرجل الحيوانات تركل الزّبَد الذي لم يكن حقيقياً، ثم فُقدوا في ضوء الشمس، فُقدوا في البحيرة، وكانوا يومضون ويتحدثون مع بعضهم بكلام غير مفهوم. ثم تفرقوا مرة ثانية، كانوا يتزايدون بمستويات في تجسدات فظيعة، ثم بدأوا يندمجون، وظهرت فوقهم في سماء الفجر صورة جهنمية لحشدهم ضخمة ومقلوبة، وكانت أرجل الخيول طويلة بشكل لا يُصدق وتدوس على السحاب الرقيق العالي، والمحاربون المقاومون والمولولون الذين يتدلّون من خيولهم بأسلوب خيالي هائلين، وكانت الصيحات العالية والمتوحشة تُحمل عبر تلك الصحراء المسطحة القفراء وكأنها صيحات أرواح خرجت من نسيج سيئ الحبك لأشياء موجودة في العالم تحتهم.

سيتجهون إلى يمينهم. صاح (غلانتون)، وفي الوقت الذي تكلم به قاموا بذلك، مفضلين جهة أيديهم التي يحملون فيها أقواسهم. ارتفعت الأسهم إلى السماء، والشمس تضيء ريش الأسهم، وفجأة ومع اكتسابها سرعة ومرورها مُحَدّثة صفيرا بما يشبه طيران البط البري، أطلقت أول بندقية النار.

كان الصبي مستلقياً على بطنه ويحمل مسدساً من نوع (ووكر) بيديه الاثنتين مطلقا الرصاصات ببطء وحذر وكأنه يفعل ذلك في حلم. مر المحاربون على بُعد مائة قدم، كان هناك أربعون أو خمسون منهم، ثم تابعوا حتى حافة البحيرة وبدأوا يفقدون عزيمتهم ويتفرقون في السهول المكتظة بصمت ثم يتلاشون.

استلقى أفراد الجماعة تحت شجيرات الكريوسوت ليعيدوا حشو أسلحتهم. كان أحد الخيول مُسجّى على التراب ويتنفس بهدوء، والآخرون يحتملون ألم الأسهم الثاقبة بصبر لافت. أوقف (تيت) و(دوك إيرفنغ) حصانيهما ليعتنيا بهما. واستلقى الآخرون يراقبون البحيرة.

مشى (تودفين) و(غلانتون) والقاضي بخطى واسعة. التقطوا بندقية (مَسْكيت) فارغة وملفوفة بجلد حيوان غير مدبوغ ومثبتة إلى دعامة بواسطة مسامير صغيرة ذات رؤوس نحاسية بتصاميم متنوعة. نظر القاضي إلى الشمال على طول الشاطئ الشاحب للبحيرة الجافة حيث هرب الوثنيون. أعطى البندقية لـ(تودفين) ثم تابعوا طريقهم.

كان الرجل الميت مُلقى في مجرى النهر الترابي. كان عارياً إلا من حذاء جلدي وسروال داخلي مكسيكي فضفاض. أظهر الحذاء أصابعه وكأنه جزمة ممثلي التراجيديا الإغريقية، وكان له نعل من جلد المواشي وجزء علوي طويل وملفوف إلى الأسفل حتى الرُّكبتين ومربوط. كان التراب في مجرى النهر داكناً بسبب اختلاطه بالدم. وقفوا هناك في الحَرّ الساكن عند حافة البحيرة الجافة، ودفع (غلانتون) الرجل الميت بحذائه. انقلب وظَهَرَ وجهه الملون، كان التراب ملتصقاً بمقلة العين، والتصق التراب بالدهن الفاسد زَنِخْ الرائحة الذي لطِّخ به جذعه. وكان يمكن رؤية الثقب الذي أحدثته الطلقة الخارجة من بندقية (تودفين) في الضلع السفلي. كان شعر الرجل طويلاً وأسود ومُتلبِّداً بالتراب وينتشر فيه القمل. كانت هناك شَرْطات من الدهان الأبيض على الخدود، وشارات من الدهان فوق الأنف، وكانت الأصابع داكنة، وتحت العينين وعلى الذقن دهان أحمر. كان رجلاً مُسِنّاً ويحمل أثر جرح، من رمح، مندمل تماما فوق عظمة الورك، وجرحاً قديماً من سيف على الخد الأيسر والذي امتد إلى زاوية عينه. كانت هذه الجروح مزخرفة على طولها بصور رُسمت بالوشم، ربما بَهتت بفعل الزمن، ولكن بدون أي صلة بالصحراء المعروفة في الجوار.

انحنى القاضي وقطع بسكينه رباط حقيبة الحرب المصنوعة من جلد النمر والتي كان الرجل يحملها ثم فرّغها على التراب. كان فيها واقٍ للعيون مصنوع من جناح الغراب الأسود، ومجموعة من بذور الفواكه، وبضع صوّانات بنادق، وحفنة من كرات الرصاص. كما

كانت فيها حصوة من أحشاء أحد الحيوانات المتوحشة، هذه الحصوة هي ما قام القاضي بفحصه ووضعها في جيبه، ونثر باقي الأشياء الشخصية في كف يده وكأن هناك شيئا ما يجب قراءته. ثم مزّق سروال الرجل بسكينه. بجانب الأعضاء التناسلية الداكنة اللون، كانت توجد حقيبة صغيرة من الجلد مربوطه فقطعها القاضي ووضعها في جيب سترته. وأخيراً قبض على خصل الشعر السوداء وسحبها من التراب إلى الأعلى وقطع فروة الرأس. ثم نهض الجميع وعادوا تاركين الرجل ليتفحص بعينيه الجافتين ارتقاء الشمس الفاجع.

واصلوا سيرهم طوال النهار فوق نبات الغاستين المتناثر الذي ينمو مع نباتات من فصيلة رِجل الوزة والنجيل. في المساء وصلوا إلى أرض جوفاء كانت تصدر صوت رنينِ قوي تحت حوافر الخيول، التي كانت تمشي جانبيا وتدور عيونها كما تفعل حيوانات السيرك. في تلك الليلة وبينما هم مستلقون على تلك الأرض سمع كل منهم، وسمعوا جميعهم، دويّ سقوط الصخور الضعيف في مكان ما بعيداً أسفل منهم في الظلام المخيف داخل العالم.

في اليوم التالي اجتازوا بحيرة من الجصّ الناعم جدا لدرجةِ أن الخيول لم تترك عليها أي أثر. ارتدى راكبو الخيول أقنعة واقية حولَ أعينهم، وبعضهم عصبوا عيون خيولهم لحمايتها. الشمس المنعكسة من الحوض حرقت الأجزاء السفلية من وجوههم. وكانت ظلال الحصان والراكب، على حدٍّ سواء، ملوّنة باللون النيلي الصافي فوق الرمال الناعمة البيضاء. بعيداً في الصحراء إلى الشمال ارتفعت حوّامات الرمال

وهي تتمايل وكأنها تثقب الأرض، وقد قال بعضهم إنهم سمعوا عن رحَّالة حُملوا عاليا مثل الدراويش في هذه الحوامات وأُسقِطوا ليتحطَّموا وهم ينزفون دما فوق الصحراء، ربما لمراقبة الشيء الذي دمّرهم وهو يترنح متقدما مثل جِنيّ ثمل، ويحلل نفسه مرة ثانية إلى العناصر التي انبثق منها. خارج تلك الرياح الحوّامة لم يَصْدُر أي صوت، ربما صاح المهاجر المستلقي بعظامه المكسّرة، وربما غضب واهتاج بسبب معاناته، ولكن يغضب على ماذا؟ وإذا وجدَ المسافرون القادمون عظامه الداكنة الجافة بين التراب، فمن يستطيع أن يكتشف أداة هلاكه؟

في تلك الليلة جلسوا بجانب النار مثل الأشباح بلِحَاهم وملابسهم المغبّرة بالتراب، كأنهم عبدة نار في حالة نشوة. خمدت النار وفرّت جمرات صغيرة إلى السهل وزحف التراب في الظلام طوال الليل مثل جيوش من القمل في حالة تُنقُل من مكان إلى آخر. في المساء بدأت بعض الخيول بالصهيل، وعند بزوغ النهار وجدوا أن العديد من الخيل أُصيبت بالعمى الثلجي ويجب قتلها. عندما تابعوا مسيرهم كان المكسيكي الذي دعوه (ماكجيل) يمتطي الحصان الثالث خلال يوم ثالث. لم يستطع أن يحجب عيني الفرس التي كان يركبها قادماً من البحيرة الجافة ولم يضع كمامة لفمها كما توضع للكلاب، والحصان الذي يمتطيه الآن شرس، وما زال يوجد ثلاثة جياد في مربط الخيول البديلة.

في عصر ذلك اليوم لحق بهم رجلان من هنود (ديلاوير) كانا قد تخلفا عنهم عندما خرجوا من بلدة (يانوس)، وقضى الجميع المساء عند

بئر مياه معدنية. كان معهما حصان الجندي السابق، وكان ما يزال مسرَّجا. تقدم (غلانتون) إلى حيث يقف الحصان وأخذ اللجام المجرور على الأرض، وقاده إلى النار حيث أخرج البندقية من الغمد وأعطاها لـ(ديفيد بروان)، ثم بدأ بالبحث في محفظة مربوطة بالقربوس الخلفي للسرج وقذف حاجيات الجندي القليلة في النار. ثم فكَّ حزام السرج وأخرج المعدات الأخرى وكومها فوق ألسنة النار، وأخذت البطانيات والسرج والصوف الزيتي والجلد جميعها تُطلق دخاناً رمادياً عفناً.

بعد ذلك تابعوا طريقهم. كانوا يتجهون شمالا، ولمدة يومين كان رجلان من هنود (ديلاوير) يقرآن إشارات الدخان على القمم البعيدة، ثم توقفت إشارات الدخان ولم يبقَ أي منها. عندما دخلوا التل الواقع عند سفح الجبل، صادفوا عربة عمومية قديمة ومغبَّرة مربوطة بستة خيول وكانت ترعى العشب الجاف في الحظيرة بين الحيوانات الهزيلة.

توجه بعضهم نحو العربة فهزّت الخيول رؤوسها بعنف وجفلت وأخذت تهرول. ساقها راكبو الخيول بالقوّة إلى الحوض حتى أصبحت تدور مثل الخيول الورقية في مهب الريح، ولحقت بها العربة تصلصل بعجل واحد مكسور. خرج الرجل الأسود ولوّح بقبعته وأمرَهم بالتوقف ثم اقترب من الخيول المربوطة وهو يحمل قبعته وتكلم معها حيث وقفت ترتجف حتى استطاع أن يصل إلى الأجمة المجرورة على الأرض.

مرّ (غلانتون) بجانبه وفتح باب العربة. كان داخل العربة ممزقاً بشظايا خشب، ووقع رجل ميت منها وتدلى رأسه إلى الأسفل. كان هناك رجل آخر وولد صغير ملقيين في عربة الموت مع أسلحتهما ومتعفنين إلى درجة تكفي لهرب الصقور من عربة الأحشاء. أخذ (غلانتون) الأسلحة والذخيرة ووضعها في الخارج. تسلّق رجلان ظهر العربة حيث البضائع وقطعا الحبال والخرق البالية، وركلا صندوق الثياب، وعلبة الرسائل المصنوعة من جلد الحيوانات وكسروهما. قَطع (غلانتون) أربطة علبة الرسائل بسكينه وقلّبها على التراب. وبدأت الرسائل، المرسلة إلى كل جهة ماعدا إلى هذا المكان، بالانزلاق والاندفاع إلى أسفل الوادي. كان هناك عدد من الحقائب التي تحمل بطاقات بيانات وتحتوي على عينات من معادن خام، أفرغها على الأرض ثم ركل كتل المعدن الخام ونظر حوله. ونظر داخل العربة مرة ثانية ثم بصق واستدار وتفحّص الخيول. كانت خيولاً أمريكية كبيرة ولكنها استهلكت إلى أبعد حد. أمر بأن تُقطع الحبال التي تربط اثنين منها بالعربة ثم لوّح للرجل الأسود ليبتعد عن الحصان الذي يسير في المقدمة ثم حرّك قبعته أمام الخيول. بدأوا بالركض على أرض الوادي بدون انسجام ناشرين أطقمهم، وكانت العربة تتمايل على نوابضها الجلدية والرجل الميت يتدلى خارج الباب المتأرجح. بدأوا يتلاشون فوق السهل إلى الغرب، أولا أصواتهم ثم أشكالهم التي تحللت في الحرارة المنبعثة من التراب حتى أصبحوا هباء منثورا يصارع في ذلك القفر المهلوس، ثم تلاشوا تماما. تابع راكبو الخيول طريقهم.

طوال فترة ما بعد الظهر ركبوا بشكل رتل مُفرد عبر الجبال. حلـّق حولهم صقر رمادي صغير وكأنه يبحث عن رايتهم. ثم فرَّ هاربا فوق السهل بأجنحته الرفيعة. عند الغسق عبروا خلال مدن مبنيّة بالرمل الحجري مارِّين بجانب القلعة وأبراج المراقبة الملائمة للرياح، ومخازن القمح الحجرية في الظل وفي الضوء. ومرّوا بالطين المستخدم كسماد والطين النضيج وصخور النحاس المتصدعة، وعبروا منخفضات مشجّرة ثم تابعوا فوق قمة جبل مشرفة على فوهة بركان جرداء ومنعزلة حيث يرقد الحطام المهجور لمدينة (سانتا ريتا دل كوبري).

في هذا المكان أقاموا معسكرا بسيطا وبدون نار. وأرسلوا مستطلعين إلى المنخفض وخرج (غلانتون) عند الجُرف وجلس في الغسق يراقب الظلام وهو يتعمّق داخل الخليج ليرى إذا كان سيظهر أي ضوء هناك. عادت فرقة المستطلعين في الظلام، وفي العتمة التي تسبق الصباح امتطوا خيولهم وتابعوا طريقهم.

دخلوا الحفرة البركانية عند الفجر الرمادي وهم يركبون على شكل رتل ومروا عبر شوارع الطين الصفحي بين صفوف البيوت الطينية القديمة التي هُجرت منذ اثنتي عشرة سنة مضت عندما قطع (الآباتشي) طريق العربات القادم من مدينة (تشيهواهوا) ووضعوا الطريق تحت الحصار، فخرج المكسيكيون الذين يتضورون جوعا سيرا على الأقدام في رحلة طويلة إلى الجنوب، إلا أن أحدا منهم لم يصل. امتطى الأمريكيون خيولهم ومرّوا بمخلفات المعادن المصهورة والدبش

والأشكال الداكنة لمداخل المناجم، وعند الفجر مرّوا بجانب مَصاهر المعادن حيث تتكدس أكوام من المعادن الخام، وبعربات معالجة المعادن وعربات المعادن الخام ذات اللون الأبيض. وعند حلول الظلام مّروا بالأشكال الحديدية للآلات والماكينات المهجورة. اجتازوا غديرا حجريا وعبروا خلال الأرض المحفورة إلى مرتفع خفيف حيث يقع الحصن القديم، وهو مبنى ضخم مثلث الشكل مبني من الطين وله أبراج مستديرة من الزوايا. كان هناك باب واحد عند السور الشرقي، وعندما اقتربوا رأوا الدخان المتصاعد الذي شموّه في هواء الصباح.

ضرب (غلانتون) على الباب بقوة بهراوته المغطاة بجلد الحيوانات كمسافر في خان. غمر لون أزرق التلال المجاورة ووقفت أعلى القمم إلى الشمال في الشمس الرائعة في حين مازالت فوهة البركان تقبع في الظلام. اصطدم صدى طرقاته بالأسوار الحجرية الصلبة المتصدعة وارتدّ. امتطى الرجال خيولهم، و ركل (غلانتون) الباب. ثم صرخ:

أخرج إذا كنت أبيض.

من هناك؟ صاح صوت.

بصق (غلانتون).

قالوا: من هذا؟

افتحه، قال (غلانتون).

انتظر الجميع. صدر صوت سلاسل تُجر مصلصلة على الخشب. وسمع صرير الباب باتجاه الداخل ووقف رجل أمامهم بوضع استعداد حاملا بندقية. لمس (غلانتون) حصانه بركبته فرفع الحصان رأسه نحو الباب ودفعه بقوة فاتحا إياه ثم دخلوا منه.

في الضباب الرمادي داخل المجمع، ترجَّلوا عن خيولهم وربطوها. كانت تقف عدّة عربات شحن قديمة هنا وهناك، ونُهبت عجلات بعضها من قِبل المسافرين. كان هناك مشعل مُضاء في أحد مَرافق المجمع ويقف عدة رجال على الباب. اجتاز (غلانتون) المثلث. وتنحّى الرجال جانبا، وقالوا: لقد ظننا أنكم من الهنود.

كانوا أربعة رجال بقوا من أصل سبعة ذهبوا إلى الجبال ليُنَقِّبوا عن المعادن النفيسة. وقد احتُجزوا في الحصن لمدة ثلاثة أيام هاربين من الصحراء إلى الجنوب يتبعهم الهمجيون. كان أحد الرجال قد أُصيب برصاصة في صدره، وكان يرقد مستندا على الحائط في المرفَق. دخل (إيرفنغ) ونظر إليه، وقال: ماذا فعلتم له؟

لم نفعل شيئا.

ماذا تريدوني أن أفعل له؟

لم نطلب منك أن تفعل شيئا.

هذا جيد، قال (إيرفنغ). لأنه لا يوجد شيء يمكن فعله.

نظر إليهم. لقد كانوا موحلين وقذرين ونصف مجانين. كانوا يتسللون في الليل نحو الغدير من أجل الحصول على الخشب والماء، وكانوا يقتاتون على بغل ميت مُلقىً بدون أحشاء ومتعفّـن في الزاوية البعيدة من الساحة. أول شيء طلبوه كان الويسكي والشيء الثاني التبغ. كان عندهم حصانان فقط، أحدهما عضّـته أفعى في الصحراء وهو يقف في الجمع ورأسه متوّرم بشكل هائل وبشع وكأنه حصان أسطوري خارجٌ من مأساة إغريقية. لقد عضّه الثعبان على أنفه وجحظت عيناه إلى خارج الرأس المشوّه بمعاناة مرعبة، وكان الحصان يترنح ويئن متجها نحو خيول الجماعة برأسه المشوّه ويتأرجح ولعابه يسيل ونَـفَـسُه يصدر صوت صفير من الحبال الصوتية لحنجرته المخنوقة. كان الجلد فوق جسر أنفه مفتوحا بشق والعظم ظاهرا بلون أبيض قرنفلي وبدت أذناه مثل رقاقات ورقيّة مفتولة على طرفي رغيف من العجين مكسو بالشعر. بدأت الخيول الأمريكية تلف وتدور بفوضى وتتفرق عن بعضها بجانب الحائط عند اقترابه منها، وكان هو يتبعها متأرجحا بتهور، محدثة حالة اهتياج، وبدأت الخيول تدور حول الجمع. خرج حصان فحل مبرقش صغير، وهو حصان أحد الرجلين القادمين من ديلاوير، من مجموعة خيول الاحتياط، واصطدم بالحصان المشوّه مرتين ثم استدار وغرز أسنانه في رقبته، فصَدَر من حنجرة الحصان الهائج صوت جعل الرجال يهرعون إلى الباب.

لماذا لا تُطلقون النار على ذلك الشيء؟ قال (إيرفنغ).

قالوا: كلما مات أسرع كلما تعفّن أسرع.

بصق (إيرفنغ). تعتزمون أكله وهو ملدوغ من ثعبان؟

نظر بعضهم إلى بعض. لم يكونوا يعرفون.

هزّ (إيرفنغ) رأسه وخرج. نظر (غلانتون) والقاضي على المقيمين هناك، ونظر المقيمون إلى الأرض. كانت إحدى دعامات السقف نصف منهارة في الغرفة، وكانت الأرض مملوءة بالطين والدبش. في هذا الحطام بدأت الشمس تميل ورأى (غلانتون) ولدا يقبع في الزاوية، كان مكسيكيا أو نصف هجين، وربما كان في الثانية عشر من عمره. كان عاريا إلا من سروال داخلي قديم وصندل مُستعمل من جلد حيوان غير مُعالج. حملق الولد بـ(غلانتون) بغطرسة ممزوجة بخوف.

من هذا الولد؟ قال القاضي.

هزّوا أكتافهم باستهجان، ونظروا بعيدا.

بصق (غلانتون) وهزّ رأسه.

وضعوا حُرَّاساً فوق المبنى، ونزعوا سروج خيولهم وساقوها خارجاً للرعي، وأخذ القاضي أحد حيوانات التحميل وفرّغ السلال ثم خرج ليستكشف معامل المعادن. بعد الظهر، جلس في المجمع يُكسِّر عينات من المعدن الخام بواسطة فأس، كانت سيليكات الألمنيوم غنية بأوكسيد النحاس الأحمر وكتل من معدن طبيعي نفيس والتي ادّعى أنه قرأ عن مواقعها الأساسية في أخبار أصل الأرض، وارتجل محاضرة في الجيولوجيا لمجموعة صغيرة كانوا يومئون برؤوسهم ويبصقون. بعضهم

تلا عليه شيئا من الكتاب المقدس ليدحض كهونيته على مدى الدهر انطلاقا من حالة الكون قبل التكوّن، وبعضهم مُرتَدّ عن الدين ويقترح فرضيات. ابتسم القاضي، وقال:

الكتب تكذب.

الرَّب لا يكذب.

لا، قال القاضي. إنه لا يكذب. وهذه هي كلماته.

رفع قطعة غليظة من الحجر.

إنه يتحدث عن الصخور والأشجار، الهياكل العظمية للأشياء.

أومأ الرجال المقيمون بين بعضهم وما هي إلا لحظات حتى اعتقدوا أنه على صواب، هذا رجل علم، في كل تخميناته، وقد شجّع القاضي هذا الأمر حتى أصبحوا المهتدين المناسبين للعقيدة الجديدة، وعندئذ ضحك عليهم باعتبارهم أغبياء.

في ذلك المساء قسّم أفراد الجماعة الرئيسة أنفسهم تحت ضوء النجوم إلى أربعة أقسام على الأرض الصلصالية الجافة للمجمع. وقبل الصباح كان المطر قد أجبرهم على الدخول، وتجمّعوا بسرعة في المهاجع الطينية المظلمة بجانب السور الجنوبي. في أحد مرافق الحصن أوقدوا نارا على الأرض وارتفع الدخان من خلال السقف المنهار، وجلس (غلانتون) والقاضي ومساعدوهم بجانب اللهب يدخنون غلايينهم، في حين بقي الرجال المقيمون بعيدا على جانب واحد يمضغون التبغ الذي أعطي لهم ويبصقونه على الحائط. كان الولد

الهجين يراقبهم بعينيه السوداوين. إلى الغرب بين التلال الداكنة المنخفضة سمعوا عواء ذئب ارتاب منه المقيمون، وابتسم الصيادون فيما بينهم. في ليلة مليئة بصرخات ذئب أميركي التي تشبه عواء ابن آوى، وأصوات نعيب البوم، كان نباح ذلك الذئب العجوز هو الصوت الوحيد الذي عرفوه لأنه صدر من شكل يعرفونه، إنه ذئب لوبو وحيد، ربما عنده لون رمادي فوق أنفه، كان متدليا كدمّية من القمر وفمه الطويل يبربر.

أصبح الجو باردا في الليل ويعصف بالرياح والمطر وسرعان ما صمتت وحوش تلك البلدة. ووضع أحد الجياد وجهه الطويل المبتل على الباب، فرفع (غلانتون) بصره وتحدث إليه، فرفع الحصان رأسه ولفّ شفته وانسحب إلى المطر والظلام.

لاحظ الرجال المقيمون هذا الأمر كما لاحظوا كل شيء بأعينهم المتنقلة، واعتقد أحدهم أن ذلك لن يجعل من هذا الحصان حيوانا أنيسا. بصق (غلانتون) على النار ونظر إلى الرجل حيث جلس بدون حصان وبخِرَقه البالية، وهزّ رأسه لذلك الإبداع الرائع للحماقة بمظهرها وشكلها. خفّت الأمطار، وفي السكون قصف الرعد فوق الرؤوس مصدراً صوت رنين بين الصخور ثم هطلت الأمطار بشكل أعنف حتى أصبحت تصبُّ صبّا من خلال الفتحات المتفحّمة في السقف وتتبخر وتصدر أصوات هسهسة داخل النار. نهض أحد الرجال وجرّ النهايات المتعفنة لبعض الدعامات القديمة، وكوّمها فوق ألسنة النار. انتشر الدخان على ضوء العوارض المتدلية فوقهم، وبدأت

تسقط سيول صغيرة من الصلصال السائل من الطبقة العليا من السقف. خارج المجمع وتحت رقاقات الماء المتناثر في الفيضانات، بَسَط ضوء النار الساقط من الباب شريطا شاحبا فوق البحر الضحل والذي وقفت بجانبه خيول كأنها مشاهدون على جانب الطريق ينتظرون حدثا ما. من وقت لآخر كان ينهض أحد الرجال ويخرج، ويقع ظله بين الخيول التي ترفع وتخفض رؤوسها التي تـقـْطر ماءً وتضرب الأرض بحوافرها ثم تنتظر في المطر ثانية.

دخل الرجال الذين كانوا يقومون بالحراسة إلى الغرفة ووقف بجانب النار يجفف نفسه. ووقف الرجل الأسود في الباب لا هو في الداخل ولا هو في الخارج. أحدهم قال إن القاضي يقف عاريا من الجزء الأعلى من جسده، ويبدو شاحبا وضخما في ضوء البرق، ويمشي بخطوات واسعة حول المكان ويخطب في الناس على طريقة القصص الملحمية القديمة. راقب (غلانتون) النار بصمت، ولفّ الرجال أنفسهم ببطانياتهم فوق الأماكن الأكثر جفافا على الأرض، وما لبثوا أن غرقوا في النوم.

في الصباح كان المطر قد توقف، وتجمّعت المياه في برك في الساحة ورقد الحصان الملدوغ ميتا ورأسه المشوّه امتدّ في الوحل وتجمعت الحيوانات الأخرى في الزاوية الشمال شرقية تحت البرج ووقفت ووجهها نحو السور. في شمس نهار جديد بدت القمم إلى الشمال بيضاء بالثلج الذي غطاها وعندما دخل (تودفين) كانت الشمس قد

لامست الأسوار العلوية للمجمع للتو، ووقف القاضي هادئا في التبختـر اللطيف يخلل أسنانه بشوكة وكأنه قد أكل لتوه.

صباح الخير، قال القاضي.

صباح الخير، قال (تودفين).

يبدو أن الجو سيصبح صافيا.

لقد أصبح صافيا، قال (تودفين).

أدار القاضي رأسه ونظر نحو الكوبالت النقي الذي أصبح واضحا في النهار. كان هناك نسرٌ يعبر مدخل الحصن وكان رأسه وريش ذيله بلون أبيض ناصع.

إذن فقد أصبح صافياً، قال القاضي. إذن أصبح صافيا.

نهض الرجال المقيمون ووقفوا بجانب المعسكر وأعينهم تطـْـرف مثل الطيور. لقد اتفقوا فيما بينهم على مرافقة الجماعة، وعندما حضر (غلانتون) إلى الساحة وهو يقود حصانه، تقدّم منه الناطق باسم المجموعة وأخبره عن قرارهم. لم ينظر (غلانتون) إليه حتى. دخل إلى ثكنة الجنود وأخذ سرجه ومتاعه. في ذلك الوقت وجد أحدهم الولد.

كان يستلقي عارياً ووجهه إلى الأسفل في أحد المهاجع، وكان ينتشر على الأرض عدد كبير من العظام القديمة. كان مثل الآخرين قبله قد تعثر في مكانٍ بيئته مُعادية. تجمهر الرجال المقيمون ثم وقفوا حول الجثة بصمت. وفي الحال بدأوا يتحادثون بكلام فارغ عن

حسنات وفضائل الولد الميت. امتطى صيادو فروات الرؤوس خيولهم في المجمع وأداروا خيولهم نحو البوابة المفتوحة الآن إلى الشرق ليرحبوا بضوء النهار ويشرعوا برحلتهم. في الوقت الذي خرجوا فيه أتى الرجال ذوو القدَر المحتوم والمحاصرون في ذلك المكان يجرون الولد إلى الخارج وألقوه في الوحل. كانت رقبته مكسورة وتدلى رأسه إلى الأسفل ثم ارتفع فجأة بطريقة غريبة عندما تركوه على الأرض. كانت صورة التلال خلف حفرة المنجم تنعكس بلون رمادي في برك ماء المطر في الساحة، وكان البغل الذي أكل بعضه ملقىً في الوحل ومؤخرته قد فُـقدت فبدا كأنه شيء قادم من لوحة حجرية للحرب المروّعة. داخل ثكنة جنود، والتي ليس لها أبواب، كان الرجل الذي أطلق عليه الرصاص ينشد ترانيم كنائسية ثم يلعن الرَّب بالتناوب. وقف المقيمون حول الولد الميت وأيديهم القذرة التي يحملون بها البنادق في وضع استراحة وكأنهم حراس شرف ذو ملابس رثة. كان (غلانتون) قد أعطاهم نصف رطل من بارود البنادق وبعض الفتيل وقطعاً قليلة من الرصاص، وعندما خرج أفراد المجموعة نظر بعضهم إليهم، كان ثلاثة منهم يقفون هناك بدون أي تعبير. لم يرفع أي منهم يده مودعا. كان الرجل المحتضر بجانب الرماد يغني، وعندما ركبوا خيولهم إلى الخارج سمعوا الترانيم التي عرفوها في طفولتهم، سمعوها وهم يصعدون باتجاه الغدير ثم خلال أشجار العرعر الخفيضة والتي مازالت مبتلة من المطر. غنّى الرجل المحتضر بوضوح كبير ورغبة، وربما سار

راكبو الخيول المتجهون إلى داخل البلاد ببطء ليسمعوه لفترة أطول، فقد كانوا هم أنفسهم لهم ذلك المزاج نفسه.

* * *

ركبوا في ذلك اليوم خلال تلال منخفضة وجرداء إلا من بعض الشجيرات دائمة الخضرة. في كل مكان من هذه الأرض الرحبة كانت الغزلان تقفز وتتفرق، والصيادون قتلوا الكثير منها من فوق سروجهم وأفرغوا أحشاءها وحمّلوها ، وعند المساء كانوا قد اكتسبوا حاشية هي نصف دزينة من الذئاب متنوعة الأشكال والألوان كانت تهرول خلفهم برتل واحد، وراقبوها من فوق أكتافهم للتأكد من أن كل واحد منهم يتبع من مكانه.

عند الغسق توقفوا وأشعلوا نارا وقاموا بشوي الغزال. كان الليل يطوقهم ولم تكن هناك نجوم. إلى الشمال كانوا يستطيعون رؤية نيران أخرى تشتعل حمراء وكئيبة على طول سلاسل الجبال غير المرئية. تناولوا طعامهم ثم تابعوا طريقهم مخلّفين وراءهم النار على الأرض، وأثناء صعودهم باتجاه الجبال بدت النار كأنها تُغيّر مكانها، الآن هنا، وبعد قليل هناك، تنسحب بعيداً، أو تنتقل بدون سبب لتكون على جانبهم أثناء تحركهم، مثل الوهج المستنقعي أو السراب الذي يظهر متأخراً على الطريق وراءهم، والذي يراه الجميع ولا يستطيع أن يتحدث عنه أحد. إنه شيء خادع فالأشياء المضيئة يمكن أن تُظهر نفسها

كذلك بالتفكير اللاحق بها، وبخدعة بارعة لبعض الأجزاء الثابتة في الرحلة المُنجزة للتو يمكن أن ترسل الرجال إلى مصائر مخادعة.

عندما صعدوا تلك الليلة فوق هضبة مسطحة منحدرة الجوانب، شاهدوا مجموعة من راكبي الخيول يشبهونهم كثيرا في هيئاتهم تتقدم نحوهم في صورة مظلمة من الشمال أتمها ضوء البرق الجاف المتقطع.

توقف (غلانتون) الممتطي حصانه، وتوقفت المجموعة وراءه. واستمر راكبو الخيول الصامتون بالسير، وعندما أصبحوا على بعد مائة ياردة توقفوا هم أيضا وجلس الجميع في تأمل صامت في هذه المواجهة.

من أنتم؟ صاح (غلانتون).

أصدقاء، نحن أصدقاء. (بالإسبانية).

كان أفراد كل مجموعة يَعدُّون أفراد المجموعة الأخرى.

من أين تأتون؟ (بالإسبانية). صاح الغرباء.

إلى أين تذهب؟ (بالإسبانية). صاح القاضي.

كانوا صيادو جواميس من الشمال، وكانت خيول التحميل الخاصة بهم محمّلة باللحم المجفف. وكانوا يرتدون ملابس من الجلود المُخاطة بأربطة من أجسام البهائم، وامتطوا خيولهم بطريقة من لا يترجل عن حصانه إلا ما ندر. كانوا يحملون رماحاً يصطادون فيها الجاموس البري في السهول، وهذه الأسلحة كانت مغطاة بالريش

وبقطعة قماش ملوّنة، وقد حمل بعضهم أسهما وبعضهم الآخر حمل بندقية الغدّارة التي ُزيّنت ماسورتها بشُرّابات. كان اللحم المجفف ملفوفاً بجلود حيوانات، وفيما عدا بعض الأسلحة القليلة معهم، فقد كانوا محرومين من الوسائل المتحضرة مثل أولئك الأكثر وحشية على تلك الأرض.

تفاوضوا بدون الترجل عن خيولهم، ثم أشعل صيادو الجواميس سجائرهم، وقالوا إنهم كانوا قاصدين الأسواق في (ميسيللا). كان من الممكن أن يتاجر الأمريكيون مقابل اللحوم ولكنهم لا يحملون بضائع تعادل اللحوم، وكان تنظيم المقايضة غريباً عليهم. وبذلك انقسمت الفرقتان في تلك الليلة فوق السهل. وكل فرقة ذهبت في الاتجاه الذي أتت منه الفرقة الأخرى. ومثل ما يجب على جميع المسافرين أن يفعلوا، فإنهم يتبعون الاتجاه المعاكس دون إيقاف رحلات الرجال الآخرين.

* * *

-10-

توبين - مناوشة في (ليتل كولورادو) - الـ(كاتاباسيز) - كيف أتى الرجل المتعلم - (غلانتون) والقاضي - وجهة سير جديدة - القاضي والوطاويط - (غوانو) - الفارّون من الخدمة - الملح الصخري والفحم - الـ(مالبيز) - آثار حوافر - البركان - الكبريت - القالب - مذبحة السكان الأصليين.

*　　*　　*

في الأيام التالية، تلاشت آثار الـ(جيلينوس) كلها، وتعمّـقوا أكثر داخل الجبال. ثم جثموا بصمت بجانب نيران أخشاب الهضاب الطافية والشاحبة مثل العظام، في حين كانت ألسنة اللهب تتعرج مع رياح الليل ويتصاعد منها ذلك الدخان الحجري. جلس الصبي وساقاه متصالبتان وهو يُصلح رباطاً بمثقاب استعاره من القسيس السابق (توبين)، وكان ذلك الذي لا يرتدي عباءة الراهب ينظر إليه بارتياب وهو يعمل.

هل قمت بذلك سابقاً؟ قال (توبين).

مسح الصبي أنفه بضربة من كمّه المشحّم ثم أدار القطعة في حجره. وقال: لم أفعل.

حسناً لديك البراعة. أكثر مني. هناك قليل من الإنصاف في هِبات الرَّب.

رفع الصبي نظره إليه ثم انكب على عمله مرة ثانية.

هو كذلك، قال القسيس السابق. انظر حولك. تفحّص القاضي. لقد تفحّصته أنا.

يبدو أنه لا يروق لك، حسناً. ولكن الرجل له لمسة على أي شيء. لم أره ينكب على عمل قَط ولم يُثبت أنه بارع فيه.

سحب الصبي الخيط المُزَيَّتْ من خلال الجلد وشدّه بإحكام.

إنه يتكلم الهولندية، قال القسيس السابق.

الهولندية؟

نعم.

نظر الصبي إلى القسيس السابق، وانحنى فوق ما يصلحه.

إنه يتكلمها لأنني سمعته وهو يتكلم بها. لقد قطعنا الطريق على مجموعة من المهاجرين المجانين عند (إللانو) وتحدث قائدهم باللغة الهولندية كأننا كنا جميعنا على أرض هولندية، وردّ عليه القاضي مباشرة. ثم أتى (غلانتون) مترجلاً عن حصانه. لم يكن أحدٌ منّا يعلم أنه يتكلمها. سألناه أين تعلمها هل تعرف ماذا قال؟

ماذا قال؟

قال من رجل هولندي.

بصق القسيس السابق. لم أكن لأتعلمها من عشرة رجال هولنديين. ماذا عنك؟

هزّ الصبي رأسه.

لا، قال (توبين). إن عطايا الرَّب ذي القُدرة تُـقدَّر وتُوزّع في ميزان غريب عليه هو نفسه. إنه حساب غير عادل ولا أشك في ذلك، ولكن علينا أن نكون أول من يُسلِّم به، وعليك ترك سر ذلك التساؤل عنده.

من؟

الرَّب، الرَّب. هزّ القسيس السابق رأسه ونظر عبر النار نحو القاضي. ذلك الشيء الضخم عديم الشعر. لا تستطيع النظر إليه إلا وتشعر أنه قادر على التفوق في الرقص على الشيطان نفسه،الآن هل تستطيع؟ يا إلهي إن الرجل راقص، ولن تستطيع أن تضاهيه في ذلك. ويعزف على الكمان. إنه أعظم عازف كمان سمعته، الأعظم. يستطيع تتبُع الأثر، والرمي بالبندقية، وركوب الخيل، وتتبع أثر غزال. لقد ذهب إلى كل أنحاء العالم. جلس هو والحاكم حتى وقت الفطور، كان ذلك في باريس ثم في لندن، إنه يتكلم خمس لغات، عليك أن تسمعه يتكلمها. الحاكم نفسه رجل متعلم، ولكن القاضي ...

هزّ القسيس السابق رأسه. آه، ربما هذه هي طريقة الرَّب ليبيّن كم هي كثيرة الأشياء التي يضعها في المتعلمين. ماذا يمكن أن يعني ذلك لمن يعرف كل شيء؟ إنه حُب غير مألوف للمألوف، ويضع الرَّب حكمته الإلهية في أضعف خلقه بحيث يتكلم صوت الرَّب بشكل أعمق من خلال تلك المخلوقات التي تعيش هي نفسها في صمت.

راقب الصبي وقال:

دع الأمور تسير كما هي عليه، الرَّب يضع سرّه في أضعف خلقه.

اعتقد الصبي أنه يقصد الطيور أو الأشياء التي تزحف، ولكن القسيس السابق، الذي كان يراقب، ورأسه مائل قليلا، قال: ليس لكل إنسان يُمنحُ ذلك الصوت.

بصق الصبي في النار وانكب على عمله، وقال:

لم أسمع أي صوت.

عندما يتوقف، قال (توبين)، ستعرف أنك كنت تسمعه طوال حياتك.

هل هذا صحيح؟

نعم.

قَلَبَ الصبي قطعة الجلد على حجره. وراقبه القسيس السابق.

في المساء، قال (توبين)، عندما ترعى الخيول وينام الجميع، من يسمع صوت الخيول وهي ترعى؟

لا يسمعها أحد إذا كانت نائمة.

نعم، وإذا توقفت عن الرعي، من يستيقظ؟

كل رجل.

نعم، قال القسيس السابق، كل رجل.

رفع الصبي نظره. والقاضي؟ هل يتحدث الصوت إليه؟

القاضي، قال (توبين)، ولم يُجب.

لقد رأيته من قبل، قال الصبي. في ناكوجدوتشيز.

ابتسم (توبين). كل رجل في المجموعة يدّعي أنه قابل ذلك الوغد صاحب الروح السوداء في مكان مختلف.

فرك (توبين) لحيته بظاهر يده. لقد أنقذنا جميعا. علي أن أردَّ له ذلك. لقد قدِمنا من (ليتل كولورادو) ولم يكن معنا ولا رطل من البارود في المجموعة. رطل... لم يكن لدينا بالكاد درهم. كان هناك على صخرة في وسط أعظم صحراء تتمنى رؤيتها. جثم فوق هذه الصخرة كرجل ينتظر عربة. ظنّه (براون) سراباً. كان من الممكن أن يطلق عليه الرصاص وأن يصيبه من أول مرة لو أراد ذلك.

كيف حدث أن كنتم بدون بارود؟

أطلقناه كله على الهمجيين. استكنّا لمدة تسعة أيام في كهف، وفقدنا معظم الخيول. لقد كنا ثمانية وثلاثين رجلا عندما غادرنا مدينة تشيهواهوا، وكنا أربعة عشر عندما وجدَنا القاضي. منهكون على نحو مميت، وهاربون، عرف كل رجل منّا أنه في تلك الأرض المهجورة في مكان ما، زقاق مسدود أو ربما كومة من الحجارة، هناك سنُجرُّ إلى مواجهة نكون فيها ببنادق فارغة. القاضي. أعطى للشيطان مهمته.

أمسك الصبي المسمار الصغير بإحدى يديه، والمثقاب في الثانية. وراقب القسيس السابق.

كنا في السهل طوال الليل، وصعدنا قليلا في اليوم التالي. كان الهنديان من ديلاوير يدعوان بين الفينة والأخرى إلى التوقف وينزلان على الأرض للتنصت. لم يكن هناك مكان نهرب إليه ولا مكان نختبئ فيه. لم أعرف ماذا كانا يريدان أن يسمعا. لقد كنا نعلم أن الزنوج الدمويين موجودون هناك، وكان ذلك بالنسبة لي يُعتبر معلومة كافية، ولا أريد المزيد. لقد كنا نتوقع أن شروق الشمس ذلك اليوم سيكون الأخير بالنسبة لنا. كنا نراقب الطريق خلفنا، لا أعلم إلى أي مدى يمكنك الرؤيا. خمسة عشر، عشرون ميلاً.

بعدئذ، عند وقت الزوال في ذلك اليوم التقينا مصادفة بالقاضي فوق صخرته هناك في البرية لوحده. نعم، ولم يكن هناك صخور غير تلك. قال (إيرفنغ) إنه أحضرها معه. وقلتُ إنها مجرد صخرة ليحدد بها موقعه في الخلاء حيث لا يوجد شيء البتة. لقد كان معه ذات البندقية التي تراها معه الآن. مغطاة بالكامل بفضة ألمانية، والاسم

الذي أطلقه عليها مسجل بسلك فضي موجود أسفل قطعة الدلالة باللاتينية: (وفي أركاديا(*) أنا) إشارة إلى طبيعتها المهلكة. من المألوف بالنسبة للمرء أن يسمّي بندقيته. لقد سمعت أسماء مثل "الشفاه الحلوة"، و"أصغ من القبور" وكل أنواع أسماء السيدات. اسمه كان الأول والوحيد الذي رأيته في حياتي باقتباس من الأدب الكلاسيكي.

كان يجلس هناك. بدون حصان. فقط هو، وأرجله متصالبة، كان مبتسما عندما وصلنا. وكأنه كان يتوقع وصولنا. كان معه حقيبة قديمة من قماش القنّب ومِجْزاعة صوف فوق أحد كتفيه. كان في الحقيبة زوج من المسدسات وتشكيلة جيدة من النقود الذهبية والفضية. لم يكن لديه مطرة. لقد كان مثل... لا يمكنك أن تكتشف من أين أتى. قال إنه كان مع مجموعة في عربة ثم نزل منها ليمضي وحده.

أراد (ديفي) أن يتركه هناك. ولكن ذلك لم يكن ليتلاءم مع سمعته الحسنة، وذلك لا يتلاءم معها الآن أيضا. تفحّصه (غلانتون). كان يوما شاقا حتى لمجرد تخمين ماذا سيفعل بذلك الشخص على تلك الأرض. أنا لا أعرف حتى هذا اليوم. كان لديهم تجارة سريّة. بعض الاتفاقيات المرعبة. تأمل، سترى أنني على صواب. كان الأمر يتطلب آخر حصانَي تحميل لدينا، وقطع الأربطة وترك المَحافظ تستقر حيث وقعت، وامتطى القاضي حصاناً، ومشى مع (غلانتون) جنباً إلى

(*) أركاديا: منطقة جبلية في بلاد اليونان اشتُهرت بأنها موئل الرعاة البسطاء القانعين بما قُسِم لهم. موطن مسرّة وسكينة: نعيم.

جنب، وما لبثا أن بدءا يتحادثان كأخوين. لقد امتطى القاضي ذلك الحصان بدون سرج مثل الهنود وركب عليه وقبضته وبندقيته موضوعتان أعلى كاهل الحصان ثم نظر حوله بأعظم ارتياح في العالم، وكأن كل شيء انتهى كما خَطط له، وكأنه من غير الممكن أن يكون يومه أفضل من ذلك.

لم نكن قد ابتعدنا كثيرا قبل أن يُقحمنا في طريق جديد إلى الشرق بحوالي تسع خانات على البوصلة. أشار إلى سلسلة جبال تبعد ربما ثلاثين ميلا، وانطلقنا نحو تلك الجبال دون أن يسأل أي منّا عن السبب. في ذلك الوقت أعطاه (غلانتون) تفاصيل الحالة التي وضع نفسه فيها، ولكن إذا كان يشعر بالقلق من كونه بدون سلاح في البريّة وأن نصف الآباتشي يلحقون بهم، فهذا الأمر احتفظ به كله لنفسه.

كان القسيس السابق قد توقف قليلا ليعيد إشعال غليونه، ومدّ نفسه نحو النار ليحضر قطعة فحم كما فعل المستطلعون الحمر، ثم أعادها إلى النار وكأن لها مكاناً مناسباً هناك.

الآن، ماذا تعتقد أنه كان هناك في الجبال التي توجهنا إليها؟ وكيف عرف عن ذلك؟ كيف وجدها؟ وكيف استفاد منها؟

كان يبدو أن (توبين) قد صاغ تلك الأسئلة لنفسه. كان ينظر إلى النار ويدخّن غليونه، وقال: حقاً كيف.

وصلنا إلى سفح الهضبة مبكرين ذلك المساء وتابعنا حتى الغدير وواصلنا الطريق، أعتقد حتى منتصف الليل، وأقمنا معسكراً بدون

ماء ولا أخشاب. في الصباح رأيناهم في السهل إلى الشمال ربما على بعد عشرة أميال. كانوا يمتطون خيولهم كل أربعة رجال وكل ستة جنباً إلى جنب، ولم تكن تنقصهم المؤونة ولم يكونوا في عجلة.

بقي القاضي مستيقظاً طوال الليل، حسبما قاله الحرس. يراقب الوطاويط. كان يصعد إلى جانب الجبل ويدوّن ملاحظاتٍ في دفتر صغير ثم يعاود النزول. لم يكن ليشعر بابتهاج أكثر مما هو فيه. فرّ رجلان في الليل وهذا قَلَّصَ عددنا إلى اثني عشر رجلاً، وثلاثة عشر مع القاضي. لقد تفحّصت القاضي بأفضل ما يمكن، بين الفينة والأخرى. كان يبدو مجنونا الآن ، ولا يبدو كذلك بعد قليل. أما (غلانتون) فقد كنت أعرف دائما أنه مجنون.

غادرنا مع أول ضوء للنهار نحو طريق مشجّر قليلاً. كنا على المنحدر الشمالي، وكانت أشجار الصفصاف وشجر جار الماء والكرز تنمو من الصخر، مجرد أشجار صغيرة. كان القاضي يتوقف ليجمع النباتات لدراستها ثم يلحق بنا. حقيقة لم أر ما يماثلها، وكان الهمجيون طوال الوقت على مرأى واضح أسفل منّا. وواصلنا الركوب إلى ذلك الحوض. يا إلهي لقد أحدثْتُ تشنجا في رقبتي، فلم أستطع أن أبعد عينيَّ عنهم، كانوا يبدون مئة شخص إذا كانوا شخصاً واحداً.

وصلنا إلى أرض صلبة مليئة بشجر العرعر، وتابعنا طريقنا. لم يحاولوا وضع مقتفي الآثار التابعين لهم موضع المسؤولية. لقد ركبنا طوال ذلك اليوم. لم نعد نرى أياً من الهمجيين، فقد أصبحوا تحت

جانب الجبل المحجوب، وكانوا في مكان ما على المنحدر أسفل منا. بمجرد أن حلّ الغسق وكانت الوطاويط تُحلّق حول القاضي، قام بتغيير طريق سيرنا مرة ثانية. واصل السير وهو يحمل قبعته وينظر إلى الأعلى على الحيوانات الصغيرة. انقسمنا وافترقنا عند أشجار العرعر ثم توقفنا لنعيد تجمُّعنا ولتستعيد الخيول قوتها. جلسنا في مكان قريب في الظلام، ولم ينبس أحد ببنت شفة. عندما عاد القاضي تهامس مع (غلانتون) فيما بينهما ثم تحركّنا من جديد.

قُدْنا الخيول في الظلام. لم يكن يوجد ممر، فقط منحدر من الصخور الوعرة. عندما وصلنا إلى كهف، ظن بعض الرجال أنه يقصد أن يجعلنا نختبىء هناك، وبأنه هو، في الحقيقة، كان سخيفاً تماماً. ولكن كان من أجل النِّتْر(*). تصوَّر. تركنا كل ما نملك على مدخل ذلك الكهف وملأنا محافظنا وسلالنا بقاذورات الكهف، وغادرنا عند انبلاج الفجر. عندما وصلنا قمة المرتفع فوق ذلك المكان ونظرنا إلى الخلف، كان هناك عدد كبير من الوطاويط تدفقت من داخل الكهف، الآلاف من تلك المخلوقات، واستمرت بالتدفق هكذا لمدة ساعة أو أكثر إلى أن لم نعد نرى أيا منها.

أما القاضي، فقد تركناه على طريق مرتفع، عند جدولٍ مياهه صافية وضحلة. هو وواحد من هنود ديلاوير. أخبرنا أن ندور حول الجبل ونعود إلى ذلك المكان خلال ثمانٍ وأربعون ساعة. أنزلنا

(*) النِّتْر: نترات البوتاسيوم أو الصوديوم.

الصناديق على الأرض وأخذنا الحصانين معنا، وبدأ هو والرجل من ديلاوير بجر السلال والحقائب فوق ذلك الجدول الضحل. راقبته وهو يذهب وقلت إن عيني لن تقعا على ذلك الرجل مرة ثانية.

نظر (توبين) إلى الصبي وتابع، أبدا في هذا العالم. اعتقدت أن (غلانتون) سيتركه. واصلنا طريقنا. في اليوم التالي عند الجانب البعيد للجبل قابلنا الفتيين اللذين هربا منّا. كانا معلّقين بالمقلوب على شجرة. وكانا مسلوخي الجلد. وأستطيع أن أقول لك إن ذلك يؤثر على مظهر الرجل بشكل قليل جدا. لكن إذا كان الهمجيون لم يخمّنوا بعد، فقد عرفوا الآن بالتأكيد أننا لا نملك أي بارود.

لم نمتطِ الخيول. فقط سُقناها، وأبعدناها عن الصخور، وأمسكنا أنوفها عندما كانت تستنشق. ولكن في هذين اليومين كان القاضي يُصفّي السّماد بماء الجدول ونشارة الخشب ويُرسّبه خارجا وبَنَى تنوراً من الصلصال وحرق فيه فحماً، كان يُطفئ النار في النهار ويعيد إشعالها مرة ثانية عندما يحلّ الظلام. عندما عُدنا وجدناه هو والرجل من دويلار يجلسان في الجدول عاريين تماما، في البداية بدا أنهما ثملان، ولكن مِن ماذا، لا أحد يستطيع أن يُخمّن. كان سفح الجبل كله مغطى بهنود الآباتشي، وهناك كان هو. وعندما رآنا نهض وذهب إلى شجر الصفصاف وعاد بحقيبتين، كان يوجد في إحداهما حوالي ثمانية باوندات من كريستال الملح الصخري النقي، وفي الثانية حوالي ثلاثة باوندات من فحم شجر جار الماء. كان قد طحن الفحم في داخل صخرة مجوّفة حتى أصبح مسحوقا. كان يمكنك عمل حبر منه. أغلق

الحقائب وربطها بحبال، ثم وضعها فوق قربوس سرج (غلانتون)، بعد ذلك لبس هو والهندي ملابسهما، وقد كنت مسرورا بذلك لأنني لم أرَ في حياتي رجلا بالغا بدون شعر على جسمه، و يزن أربعة وعشرين حجراً(*)، وهذا ما كان عليه سابقاً وهو عليه الآن. وأنا متأكدٌ من ذلك، فقد قمت بـِعَّدِّ القطع على القضيب ورأيتها بعيني الصاحيتين عند ميزان المواشي في مدينة تشيهواهوا في ذلك الشهر نفسه وتلك السنة نفسها.

نزلنا من الجبل بدون مستطلعين، ولا أي شيء. فقط بدون تردد. كنا نتوق بشكل شديد للنوم. كان الظلام قد حلّ عندما وصلنا إلى السهل. فاجتمعنا وقمنا بعدّ الأفراد ثم واصلنا السير، كان القمر هلالا وكان يكبر، وكنّا نحن مثل راكبي خيول السيرك، بدون صوت، والخيول كأنها تسير على قشر بيض. لم نكن نعرف بأي طريقة أين يمكن أن يكون الهمجيون. آخر دليل حصلنا عليه عن وجودهم في الجوار كان الفتيان المسلوخان على الشجرة. انطلقنا باتجاه الغرب عبر الصحراء ونحن مرهقون حتى الموت. كان (دوك إيرفنغ) أمامي وكان النور ساطعا جدا لدرجة يمكنني أن أعدّ فيها عدد شعرات رأسه.

تابعنا السير طوال الليل، وباقتراب النهار عند نزول القمر، صادفنا مجموعة من الذئاب. انتشرت ثم عادت، ولم يعد يُسمع لها صوت، ولا شيء أكثر من الدخان وراءها، ثم اندفعت وشكّلت ثلاثة

(*) الحجر: وحدة وزن بريطانية تعادل 14 باونداً.

أرباع دائرة وأحاطت بالخيول. كانت واضحة مثل النحاس، وأخذنا نضربها ونجرحها بقيود خيولنا، وكانت تنسل وتمر، لم يكن يمكنك سماعها على أرض الحوض القاسية، فقط تسمع صوت تنفسها أو عندما كانت تزمجر أو تتذمر أو تبرز أسنانها. توقف (غلانتون)، ودارت تلك الحيوانات حول المكان وركضت بعيدا ثم عادت. اثنان من هنود ديلاوير رجعا إلى الخلف نحو اليسار قليلاً - أشخاص أشجع مني - وبالتأكيد وجدوا القنيص. لقد كان ذكر ظبي صغير قُتِل حديثا، في الليلة الماضية. كان قد أُكل نصفه، هجمنا عليه بسكاكيننا وأخذنا باقي اللحم معنا وأكلناه نيّئا من السرج، وكان أول لحم نراه منذ ستة أيام. كنا مستميتين لذلك اللحم. تجوّلنا على الجبل بحثا عن حبوب الصنوبر مثل الدببة، وكنا سعداء لإيجاد اللحم. تركنا ما هو أكثر من العظام قليلا لذئاب اللوبو، ذلك أنني لا أُطلق النار على ذئب أبدا، وأعرف رجالاً عندهم الشعور نفسه.

خلال كل ذلك الوقت بالكاد تكلم القاضي كلمة. عند الفجر كنا على حافة (الماليبز) الشاسعة، وكان فضيلته يأخذ موقعا على بعض صخور الحمم البركانية هناك، وبدأ بإلقاء خطبة علينا. كانت مثل عظة في كنيسة، ولكنها كانت خطبة لم يسمع بها أي رجل منا من قبل. خلف (الماليبز) كانت هناك قمة بركان، وفي ضوء الشمس كانت تتلوّن بعدة ألوان، وكانت هناك طيور سوداء صغيرة تحلّق خلال الرياح وكانت الرياح تصفع بجزاعة القاضي القديمة بجانبه، وأشار إلى الجبل الصلب المنعزل وتخلى عن خطبته، ولا أعلم لأي غاية، لم أعلم عندئذ ولا أعلم

الآن، ثم ختم بإخبارنا أن أمَّنا الأرض، كما قال، مدورة مثل البيضة وتحتوي على كل الأشياء الخيّرة بداخلها. ثم استدار وقاد الحصان الذي كان يمتطيه عبر تلك الأرض ذات النفايات الزجاجية السوداء، الغادرة بالإنسان والحيوان على حد سواء، ونحن خلفه مثل التابعين لدين جديد.

توقف القسيس السابق فجأة ونفض غليونة المُطفأ على كعب حذائه، ونظر إلى القاضي على الطريق حيث جلس وجذعه عار مقابل النار، كما هي عادته. استدار وحدَّق بالصبي.

الـ(مالبيز). إنها متاهة. تكون راكضا على قُنَّة(*) جبل صغيرة وإذ بصدوع منحدرة توقفك ولا تتجرأ بالقفز عنها. الجوانب من الزجاج الأسود الحاذ وصخور الصوّان الحادّة في الأسفل. قُدنا الخيول بكل حذر وكانت حوافرها ما تزال تنزف . تمزّقت أحذيتنا إلى قطع. عند التسلُّق فوق تلك الصفائح المجـوفة القديمة يمكنك أن تشاهد بوضوح كيف تكوَّنت الأشياء في ذلك المكان، انصهرت الصخور وتركبت مجعّدة فوق بعضها مثل حلوى البودنغ، وثُقبت الأرض حتى لُبّها المنصهر. حيث يوجد، كما يعرف أي شخص، مركز جهنم. فالأرض عبارة عن كرة في الخلاء، والحقيقة أنه لا يوجد أعلى ولا أسفل لها، ويوجد رجال في هذه المجموعة يجلسون بجانبي قد شاهدوا آثار حوافر مشقوقة في الصخر ورشيقة مثل آثار ظبية صغيرة أثناء انطلاقها، ولكن

(*) قُنَّة: نتوء خارج من الجبل وداخل في البحر.

لماذا تمشي ظبية صغيرة فوق صخور منصهرة؟ أنا لم أستطلع الأمر من الكتاب المقدَّس، ولكن يبدو أنه كان هناك مرتكبو آثام، شياطين رديئو السمعة لدرجة أن النار قذفتهم إلى الخارج مرة أخرى، واستطيع أن أرى بوضوح في الزمن الغابر كيف كانت الشياطين الصغيرة بمذاريها التي قاومت ذلك القيء الملتهب لكي تنقذ تلك الأرواح التي بسبب بليّة طفيفة قُذفوا من اللعنة إلى الرفوف الخارجية للعالم. نعم. إنها عقيدة، ليس أكثر. ولكن في مكان ما في نظام الأشياء لابد أن يُلامِس هذا العالم العالم الآخر. هناك شيء ما قد وَضَعَ علامات الحوافر الصغيرة على سيل الحمم البركانية لأنني رأيتها بنفسي.

كان القاضي يبدو وكأنه لم يرفع نظره عن ذلك المخروط الخامد حيث يرتفع من الصحراء مثل القرحة التناسلية الصلبة. حذونا حذوه بوقار كطيور البوم، ثم استدار ونظر إلى الوراء وضحك عندما رأى وجوهنا. عند سفح الجبل تقدَّمنا كثيرا وأرسلنا رجلين ليتابعا المسير مع حصانين. رأيتهما يذهبان. أحدهما عند هذه النار الليلة، ورأيته يسوق الحصانين بعيدا فوق أرض النفايات كرجل ذي قَدَر مشؤوم.

ولم نكن نحن أنفسنا ذوو قَدَر مشؤوم، لا أعتقد. عندما رفعت نظري كان قد وصل للتو إلى الجانب المنحدر والى السفح. كان القاضي هناك، حقيبته فوق كتفه وبندقيته بدل عصا تسلق الجبال. وهكذا ذهبنا جميعا. وما إن وصلنا منتصف الطريق إلى الأعلى حتى رأينا الهمجيين في السهل. واصلنا الصعود. اعتقدت أنه عند حدوث

الأسوأ سنُلقي بأنفسنا داخل فوهة البركان أفضل من أن نُـؤخذ من قِبَـل أولئك الشياطين الشريرين. تابعنا الصعود وأعتقد أن النهار كان قد انتصف عندما وصلنا إلى القمة. وكنا مرهقين. لم يكن الهمجيون على بعد أكثر من عشرة أميال. نظرت إلى الرجال حولي، وبالتأكيد لم يبدوا كثيري العدد. لقد جُرِّد منهم الوقار. كانوا جميعا طيبي القلوب، من قبل والآن، وما كنت أُحب أن أراهم هكذا، وكنت أعتقد أن القاضي أرسل بيننا بدل اللعنة. ولكنه أثبت أنني كنت على خطأ. وفي الوقت الذي أثبتَ فيه ذلك، فأنا بين رأيين مرة ثانية الآن.

كان أول الواصلين إلى حافة القمة المخروطية بسبب حجمه، ووقف يحدّق حوله وكأنما أتى من أجل المنظر. ثم جلس وأخذ يَقشُر الصخر بسكينه. وانتشرنا واحداً فواحداً بدون اتساق، وكان يجلس وظهره إلى تلك الحفرة العميقة وكان يُكسِّر الحجر إلى قطع صغيرة، ونادى علينا لنفعل مثله. كان كبريت. الكثير من الكبريت حول حواف الفوهة البركانية، مضيء وأصفر يلمع هنا وهناك مع قشور بسيطة من السيليكا، ولكن الأكثر كان ذروراً نقية من الكبريت. حرَّرنا الكبريت بتكسيره وقطَّعناه ناعما بسكاكيننا حتى حصلنا على ما يقارب رطلين اثنين منه، ثم أخذ القاضي الحقائب وذهب إلى مكان في الصخر، بشكل الكوب، وأفرغ الفحم والنتر وحركهما بيده ثم صبَّ الكبريت فيه.

لم أكن أعرف إلا أن المطلوب منَّا هو أن ننزف دما فيه مثل البنائين الأحرار، ولكن الأمر لم يكن كذلك. قام بمزجهما جافَّيْن

بيديه، وخلال فترة قصيرة كان الهمجيون قد وصلوا إلى السهل ويزحفون قريبا منا، وعندما استدرت كان القاضي واقفا، ابن الجنيَّة العظيم الأجرد من الشعر، وأخرج عضوه التناسلي وتبوّل فوق الخليط بإفراط كبير، ورفع إحدى يديه وصاح ينادينا لنفعل مثله.

لقد كنا جميعا أنصاف مجانين، على أي حال. اصطففنا. الرجال من ديلاوير والجميع. كل رجل ماعدا (غلانتون) الذي كان لافتاً للنظر. سحبنا أعضاءنا الذكرية على الخليط وتبوّلنا، وكان القاضي جاثياً على ركبتيه يعجن الخليط بيديه العاريتين، وكان البول يتناثر حوله وهو يصيح بنا لنتبوّل. تبوّلوا يا رجال، تبوّلوا من أجل صالحكم، ألا ترون أصحاب الجلود الحمراء هناك، ويضحك قليلا ثم يمزج تلك الكتلة الكبيرة بشكل عجينة سوداء كريهة الرائحة، كأنها برائحتها النتنة خليط شيطان وهو نفسه ليس بصانع معجنات شرير لعين، لا أعتقد. ثم بدأ يسوّيها على الصخور المواجهة للجنوب، وينشرها طبقات رقيقة بنصل سكينه وينظر إلى الشمس بعين واحدة، وهو ملطَّخ بالسواد ورائحته نتنة من رائحة البول والكبريت، وكان يبتسم ويستخدم السكين ببراعة مدهشة وكأنه يفعل ذلك كل يوم في حياته. عندما انتهى جلس إلى الوراء ومسح يديه على صدره ثم راقب الهمجيين، وكذلك فعلنا نحن جميعا.

في ذلك الوقت كانوا قد وصلوا إلى الـ(مالبيز)، وكان عندهم مُقتفي آثار يَتتبَّعُنا في كل خطوة على الصخر الأجرد، ويتراجع عند

كل قمة لا يظهر ما وراءها وينادي على الآخرين. لا أعرف ماذا كان يتبع. الرائحة ربما. وسرعان ما سمعناهم يتحدثون هناك، ثم رأونا.

حسناً، الرَّب وحده في عظمته يعرف ما كانوا يفكرون به. كانوا منتشرين حول الصخور البركانية، وأشار أحدهم ونظر الجميع إلى الأعلى. لقد صُعقوا بدون شك لرؤية أحد عشر رجلا يجثمون على قمة حافة جزيرة حلقيّة شديدة الحرارة مثل طيور أخطأت في طيرانها. كانوا يتفاوضون ونحن نراقب لنرى إذا ما كانوا سيبعثون رسولا منهم وراء الخيول، ولكنهم لم يفعلوا. لقد تغلَّب طمعهم على كل شيء آخر، وبدأوا من قاعدة قمة البركان، وزحفوا فوق الصخور البركانية ليروا من سيكون الأول.

أعتقد أنه كان لدينا حوالي ساعة. راقبنا الهمجيين وراقبنا القالب النتن الذي صنعه القاضي وهو يجفُّ على الصخور، وراقبنا غيمة تتجه إلى الشمس. وتخلَّينا واحدا تلو الآخر عن مراقبة الصخور أو الهمجيين، لأن الغيمة كانت تبدو أنها ستحجب الشمس وتأخذ الجزء الأفضل من الساعة الباقية عندما تجتاز الشمس، وتلك كانت الساعة الأخيرة التي نملكها. حسنا، كان القاضي جالساً يدوّن في دفتره الصغير، ورأى الغيمة مثل كل رجل فوضع الدفتر جانبا وأخذ يراقب الغيمة وفعلنا جميعنا الشيء نفسه. لم يتكلم أي منّا. لم يكن أحد يَلعن أو أحد يُصلّي، فقط كنّا نراقب. وحجبت تلك الغيمة زاوية من الشمس واستمرت بالمرور حتى لم يَعدْ يسقط فوقنا أي ظل، وأخذ

القاضي دفتره وتابع تدوين ملاحظاته كما كان يفعل من قبل. كنت أراقبه، ثم تسلَّقتُ وفحصتُ قطعة من تلك المادة بيدي. كانت تنبعثُ منها حرارة. مشيتُ بجانب الحافة وكان الهمجيون يصعدون من كل مكان وذلك لعدم وجود طريق مُفضَّل على ذلك المنحدر الوعر المليء بالحصى. بحثت عن حجارة بأي حجم لألقيها إلى الأسفل ولكن لم يكن يوجد ما هو أكبر من قبضة اليد، فقط حصوات صغيرة وصفائح خشنة. نظرت إلى (غلانتون) وكان يراقب القاضي، وبدا كأن حواسه قد سُرقت.

حسنا، أغلق القاضي دفتره الصغير وأخذ سترته الجلدية وبَسَطها على المكان الذي يشبه قليلا شكل الكوب، وطلب منّا أن نحضر المادّة إليه. أخرِجت كل سكين وذهبنا لكشطها والقاضي يُحذِّرنا من إشعال أي نار بجانبها. ثم كوّمناها داخل القميص وبدأ بتقطيعها وطحنها بسكينه، وصاح: كابتن (غلانتون).

كابتن (غلانتون). هل تصدّق؟ كابتن (غلانتون) إحشو بندقيتك وتعال لنرى أي نوع من الأشياء لدينا هنا.

أتى (غلانتون) حاملا بندقيته وأفرغ الشاحن وحشا الماسورتين ثم دفع كرتين داخل حجيرة الطلقات ثم أغلق الشاحن وتقدم نحو الحافة. ولكن هذه لم تكن طريقة القاضي أبدا.

أسفل فوهة ذلك الشيء، قال القاضي. ولم يجادل (غلانتون) في ذلك. نزل إلى منحدر الحافة الداخلية إلى حيث توجد نهاية ذلك

المسرب المرعب وحمل بندقيته بعيدا فوقه وسددها إلى الأسفل ودفع زند البندقية وأطلق النار.

لم تكن لتَسْمَع مثل ذلك الصوت منذ فترة طويلة. لقد سبب لي قلقاً. أطلق من الماسورتين ونظر إلينا ونظر إلى القاضي. لوّح القاضي فقط واستمر بالطحن ثم دعانا جميعا لنملأ قروننا وقواريرنا سروجنا، وقد فعلنا واحداً تلو الآخر ونحن ندور بجانبه مثل أعضاء كنيسة. وعندما حصل كل منّا على حصة، ملأ هو دورقه وأخرج مسدساته وجهَّز الفتيل. كان رئيس الهمجيين على بعد ليس أكثر من ثُـمن ميل على المنحدر. لقد كنا مستعدين لمهاجمتهم، ولكن القاضي لم يوافق. وأطلق النار من مسدسيِّه داخل فوهة البركان مباعدا بين الطلقات، وأفرغ الحجيرات العشر ودعانا للبقاء في الخلف بعيدا عن مدى الرؤية، في حين قام هو بإعادة حشو مسدسيه. كل إطلاق النار هذا أوقف الهمجيين، بدون شك، لفترة من الوقت، حيث أنهم كانوا على الأرجح يظنون أننا بدون بارود كُلّية. ثم صعد القاضي إلى الحافة ومعه قميص من قماش الكتّان الأبيض الجيد أخرجه من حقيبته ولوّح به للهنود الحمر ونادى عليهم بالإسبانية.

حسنا، كان ذلك سيملأ عينيك بالدموع. كان يصيح: جميعهم ماتوا إلا أنا. إرحموني. "كلهم ماتوا. كلهم" (بالإسبانية). ملوحاً بالقميص. يا إلهي، لقد جعلهم يَنْبَحون مثل الكلاب على المنحدر. التفتَ إلينا القاضي بابتسامته تلك، وقال: أيها السادة. كان ذلك كل ما قاله. كان المسدسان مدسوسَيْن في حزامه من الخلف. ثم سحبهما

كل واحد في يد. كان قادرا على استخدام يديه الاثنتين بنفس البراعة مثل العنكبوت. كان يستطيع أن يكتب كل مرة بيًّـد، وقد رأيته يفعل ذلك. وبدأ بقتل الهنود. لم نكن بحاجة إلى دعوة أخرى. يا إلهي، لقد كانت مجزرة. عند أول إطلاق للنار قَتلّنا حوالي إثني عشر، ولم نتوقف. وقبل أن يصل آخر زنجي بائس إلى أسفل المنحدر، كان ثمانية وخمسون منهم مقتولين بين الحصى. كانوا ينزلقون على المنحدر مثلما ينزلق قشر الحنطة عبر القادوس(*)، بعضهم ينقلب إلى هذه الناحية وبعضهم إلى تلك، وقد شكّلوا سلسلة حول قاعدة الجبل. قمنا بسند مواسير بنادقنا على حجر الكبريت وأطلقنا تسع طلقات أخرى على الصخور البركانية حيث هربوا. كان موقفاً رهيباً. سقط المحاربون. آخر واحد منهم قُتل كان على بعد جزء من الميل من فوهات البنادق، وقد قـُتل أثناء هروبه. لقد كان إطلاق نارٍ قاسياً في كل مكان بدون أي طلقة خطأ في العملية بذلك البارود الغريب.

التفت القسيس السابق ونظر إلى الصبي. لقد كان ذلك القاضي كما رأيته لأول مرة في حياتي. نعم. إنه شيء جدير بالدراسة.

نظر الصبي إلى (توبين)، وقال: بماذا كان قاضٍ؟

بماذا كان قاضٍ.

نظر (توبين) بعيدا عبر النار، وقال: آه أيها الولد، اصمت الآن. سيسمعك الرجل. إن لديه أذاناً كآذان الثعلب.

(*) القادوس: وعاء قمعي الشكل لتلقيم الطاحون أو الآلة بالقمح أو الفحم.

-11-

نحو الجبال - (إيفريم) العجوز - هندي (ديلاوير) مخمولاً - البحث- إثبات صحة وصية أخرى - في ممرضيق - الدمار - (كيت سيل) - الـ(سوليريت) - عروض وأشياء - القاضي يسرد قصة - بغل ضائع - حُفر (ميسكال) - مشهد في الليل مع القمر والبراعم والقاضي - القرية - (غلانتون) في ترويض الحيوانات - الطريق إلى الخارج.

* * *

واصلوا ركوبهم نحو الجبال، وقادتهم الطريق إلى غابات الصنوبر العالية، رياح تعصف بالأشجار، وزقزقة عصافير وحيدة. وانزلقت البغال التي كانت حوافرها بدون حدوات على الطريق المتعرج بين العشب الجاف وأوراق الصنوبر الإبريّة. وفي النهير الأزرق على منحدرات الشمال، كانت هناك بقايا ثلج. تابعوا طريقهم عبر طرق جبلية متعرجة بين أشجار الحور الرجراج المنعزلة حيث تستقر الأوراق الساقطة مثل أقراص ذهبية صغيرة في الطريق الأسود الكئيب. كانت الأوراق تنتقل من مكان إلى آخر بملايين الرقاقات المتلألئة باتجاه الأراضي الضيقة الشاحبة، أخذ (غلانتون) واحدة منها وقَلبَها من ساقها مثل مروحة بالغة الصِّغر ثم حملها وتركها تسقط، ولم يُخف عليه درجة كمالها. ركبوا خلال طريق ضيق حيث تتراكب الأوراق مع

الثلج، وعند غروب الشمس عبروا مرتفعاً يصل بين قمتين حيث تنطلق طيور الحمام البري مع الريح كالصاروخ من خلال الفجوة على بُعد بضعة أقدام من الأرض، وتنحرف بين الأفراس على نحو جامح، ثم تسقط في الخليج الأزرق في الأسفل. واصلوا الطريق في غابات شجر التَّنُّوب المعتمة، وكانت الأفراس الإسبانية الصغيرة تستنشق الهواء الرقيق، وعند الغسق تماما بينما كان حصان (غلانتون) يتسلق فوق جذع شجرة ساقط ظهر دب أشقر هزيل عند الطرف البعيد للأرض المنخفضة حيث كان يأكل، ونظر إليهم بعينين قاتمتين مثل عيني الخنزير.

تقهقر حصان (غلانتون)، وبسط (غلانتون) نفسه بجانب كتف الحصان وسحب مسدسه. أحد رجال ديلاوير كان وراءه، وكان الحصان الذي يمتطيه يسقط إلى الوراء وهو يحاول أن يعيده ضاربا إياه بقبضته المغلقة بشكل كرة على رأسه، وكان خَطْم(*) الدب الطويل يتأرجح نحوهم في حركة مفصلية مدوِّخة، كان مندهشا فوق التصورات، وكانت تتدلى من فكيه قطعة لحم صُبغت شرائحها بدم أحمر. أطلق (غلانتون) الرصاص، وضربت الرصاصة الدب في صدره فمَالَ الدب بأنين غريب وأمسك بالرجل القادم من ديلاوير ورفعه عن الحصان. أطلق (غلانتون) الرصاص مرة ثانية على الفرو الكثيف المحيط برقبة وأكتاف الدب أثناء استدارته وكان الرجل المتدلي من فكيّ الدب ينظر تحته إلى خد الوحش وفكه الأسفل وإحدى يديه

(*) خَطْم: أنف الحيوان وفكاه الناتئان.

حول رقبة الدب مثل مخبول يقوم بحركة جريئة تدل على صداقة حميمة. في جميع أرجاء الغابة كان يسمع صخب صرخات ودوي ضربات الرجال على الخيول التي تصيح بخضوع. ضغط (غلانتون) الزناد للمرة الثالثة بينما كان الدب يترنح والهندي يتدلى من فمه مثل الدمية ومرّ فوقه في بحر من شعر عسلي اللون وملطخ بالدم وله رائحة لحم فاسد، ورائحة المخلوق كثيف الشعر نفسه. ازداد الرمي أكثر فأكثر، كرة معدنية صغيرة تئزُّ بصوت ينخفض متحركة نحو الطريق المطوّقة البعيدة إلى الغرب فوقهم. عدة طلقات بندقية دوّت وقفز الوحش برعبٍ إلى داخل الغابة مع رهينته وضاع بين الأشجار القاتمة.

اقتفى هنود ديلاوير آثار الحيوان لمدة ثلاثة أيام بينما كانت الجماعة تواصل سيرها. في اليوم الأول، تبعوا الدم وشاهدوا أين استراح ذلك الشيء وأين توقفت الجروح عن نزف الدم. وفي اليوم التالي تبعوا آثار الجرّ على الأرض عبر المادة العضوية المتعفنة فوق تربة الغابة العلوية، وفي اليوم الذي تلا تبعوا الآثار الباهتة جدا على الهضبة الصخرية المرتفعة، وبعد ذلك لا شيء. فقدوا أي إشارة حتى حلّ الظلام حيث ناموا على حجر الصوان الوعر، وفي اليوم التالي نهضوا وبحثوا في جميع أنحاء البرية والبلدة الحجرية إلى الشمال. لقد حمل الدب معه قريبهم مثل وحوش قصص الخيال وابتلعتهما الأرض إلى ما وراء نطاق الافتداء أو تأجيل حكم الإعدام. أوقفوا خيولهم وعادوا. لم يكن أي شيء يتحرك في تلك البرية المرتفعة ماعدا الرياح. لم يتفوهوا بكلمة. لقد كانوا رجالاً من زمن آخر، فهم يحملون أسماءً

مسيحية، وعاشوا كل حياتهم في البرية كما كان آباؤهم من قبلهم. لقد تعلموا الحرب بشن الحروب، إنهم الأجيال التي انحدرت من الشاطئ الشرقي عبر القارة، من الرماد في (غاندن هوتن) إلى البراري وعبر الجدول المتدفق إلى أراضي الدم في الغرب. إذا كان في العالم الكثير من الغموض، فإنه في ذلك العالم بلا حدود، لأنه عالم بلا مقاييس أو قيود، وكان يحتوي على مخلوقات مرعبة ورجال من ألوان أخرى وأحياء لم تقع عين إنسان على مثلها، ومع ذلك لم يكن غريباً، لا شيء فيه غريب أكثر من غرابة قلوبهم التي في داخلهم، مهما احتوى من الوحشية ومهما احتوى من الوحوش.

اقتفوا أثر الجماعة مبكراً في اليوم التالي وعند حلول مساء اليوم الذي بعده لحقوا بهم. كان حصان المحارب يقف مسرَّجاً في المربط كما تركوه، فأخذوا الحقائب وتقاسموا ممتلكاته فيما بينهم، ولم يُذكر اسم ذلك الشخص مرة ثانية أبدا. في المساء جاء القاضي إلى جانب النار وجلس معهم ثم سألهم وصنع خارطة على الأرض ثم أمعن النظر فيها. ثم نهض وداس عليها بحذائه، وفي الصباح امتطى الجميع خيولهم كما حدث من قبل.

قادهم طريقهم الآن عبر شجر البلوط القزم والبلوط الأخضر وفوق أرض حجرية حيث تقف أشجار سوداء انغرست جذورها في شقوق المنحدرات. واصلوا طريقهم خلال ضوء الشمس وبين الحشائش المرتفعة، وفي وقت متأخر من بعد الظهر صادفوا جُرفاً كان يبدو وكأنه يحفُّ العالم المعروف. أسفل منهم في الضوء الباهت كانت

سهول (سان أوغستين) مستكينة وتمتد بعيدا إلى الشمال الشرقي، والأرض تطفو ساكنة بتحدُّب طويل تحت طيف بعيد من الدخان ينبعث من ترسبات فحم تحت الأرض تحترق هناك منذ آلاف السنين. اختارت الخيول طريقها على جانب الحافة بحذر وألقى الراكبون نظرات متنوعة إلى تلك الأرض القديمة الجرداء.

في الأيام التالية امتطوا خيولهم عبر أراضٍ يُمكن للحجارة فيها أن تطهو اللحم من يديك وحيث لا يوجد شيء سوى الحجارة. تابعوا مسيرهم في صف منتظم ضيق على طول طريق يتناثر فيه روث الماعز المدوّر الشكل، وكانوا يركبون وقد أداروا وجوههم عن السور الصخري والهواء الحارق كهواء موقد الخبيز. كانت أشكال الرجال راكبي الخيول السوداء الماثلة مطبوعة على الصخر بوضوح قاس ولا يمكن تغييره مثل أشكال قادرة على انتهاك معاهدتها مع الجسد الذي كوَّنها واستمرت تلقائيا فوق الصخر الأجرد بدون صلة بالشمس أو الإنسان أو الرَّب.

نزلوا من تلك الأرض خلال ممر ضيق، وهم يُصدرون أصوات صلصلة فوق الحجارة، وفي مناطق ضحلة من الأنهار ذات ظل أزرق بارد. وكانت هناك في الرمال الجافة لأرض الجدول عظام قديمة وأشكال محطَّمة لفخار ملوّن، وعلى الصخور فوقهم حُفرت برموز هيروغليفية رسومات لخيول وأسد أمريكي وسلحفاة وفرسان إسبانيين يضعون خوذات ويحملون تروساً محتقرين الصخر والصمت والزمن نفسه. كان مغروزا في الشقوق والصدوع، مئات الأقدام فوقهم،

أعشاش من القش والمطروحات من المياه المعدنية القديمة الآتية من الأعلى. كان راكبو الخيول يسمعون دمدمة الرعد في مناطق يتعذر تقدير بُعدِها، واستمروا بمراقبة السماء الضيقة فوق رؤوسهم لأي سواد يَدُلُّ على إمكانية سقوط مطر يشق طريقه في جوانب الوادي المضغوطة على بعضها، وكانت صخور أرض النهر الراكد البيضاء الجافة مدوّرة وناعمة مثل بيض الأسرار.

في تلك الليلة عسكروا عند حطام حضارة قديمة عميقا في الجبال الصخرية، حيث يوجد وادٍ صغير مع جدول من الماء الصافي وحشائش خصبة. كانت المساكن المبنيَّة من الطين والحجر مسوّرة بجدار تحت جُرف معلـّق، وكان الوادي قد تشكّل بسبب جدول مائي قديم، والرمال الليّنة على أرض الوادي تتناثر في كل مكان مع قطع من الخزف وقطع صغيرة متفحّمة من الخشب وكانت قد شُطِّبت مراراً بآثار غزلان وحيوانات أخرى.

مشى القاضي في الحطام عند الغسق، كانت الغرف القديمة ما تزال سوداء بفعل دخان الخشب. وكانت حجار الصوان القديمة والخزف المُكسّر بين الرماد وأكواز الذرة الصغيرة الجافة. واستندت بعض السلالم الخشبية المتعفنة إلى حيطان المسكن. تجوّل بين حطام غرف واسعة كانت تؤدَّى فيها الطقوس الدينية، والتقط بعض الأشياء التي صنعها السكان وجلس على حائط عالٍ وبقي يرسم داخل دفتره حتى بَهَت الضوء.

ارتفع القمر بدراً فوق الوادي وكان الصمت مُطبِقاً في الوادي الصغير. ربما كانت ظلالهم هي التي تُبعِد الذئاب الأميركية عن حدود معسكرهم إذ لم يكن يصدر صوت منهم أو من الرياح أو من الطيور في ذلك المكان، ما عدا صوت الغدير الصغير وهو يتدفق فوق الرمال في الظلام تحت ضوء نيرانهم.

كان القاضي يقوم بطلعات قصيرة بين الحجارة في الممر الضيق الذي اجتازوه، والآن عند النار بَسَط جزء من غطاء العربة على الأرض وكان يفرز الأشياء التي وجدها ويرتبها أمامه. وضع على حِجره الدفتر الجلدي، ثم بدأ يرفع كل قطعة، حجر صوان أو قطعة مكسورة من إناء خزفي أو أداة أو عظمة، ويرسمها بشكل أنيق في الدفتر. كان يرسم بسهولة مُكتسبة بالممارسة، وبدون تجعيد ذلك الجبين الأصلع أو زم تلك الشفاه الطفولية بشكل غريب. كانت أصابعه ترسم الصورة المنطبعة في ذهنه لسلّة قديمة مجدولة من الصفصاف على قطعة من طين الخزف ووضعها في دفتره بظلال جميلة من ضربات منتظمة بقلمه الرصاص. إنه رسّام كما أنه يتقن أشياء أخرى، يقوم بالعمل بشكل ملائم. كان يرفع بصره بين الفينة والأخرى لينظر إلى النار أو إلى رفاقه في الحرب أو إلى الليل المنعزل. أخيرا وضع أمامه قطعة من بذلة مدرّعة، كانت قد صُنعت في دكان في توليدو قبل ثلاثة قرون، من غطاء من الفولاذ المكسّر والمغطى بالعفن. لقد رسم القاضي لهذه القطعة صورة جانبية بالرسم المنظوري، مبيّناً جميع الأبعاد في رسمه المتقن وواضعاً ملاحظات هامشية.

كان (غلانتون) يراقبه. عندما انتهى رفع القطعة الصغيرة وقلّبها في يديه وتفحّصها مرة ثانية ثم سحقها بشكل كرة من القصدير وألقى بها في النار. ثم جمع باقي الأشياء التي من صنع الإنسان وألقى بها أيضا في النار ونفض غطاء العربة وطواه ووضعه بين أشيائه مع دفتر الملاحظات. جلس ويداه مضمومتان على حجره وكان يبدو راضيا أكثر عن العالم، وكأن مشورته كانت مطلوبة عندما خُلِق ذلك العالم.

كان رجل من تينيسي اسمه (وبستر) يراقبه، وسأل القاضي عما يعتزم فعله بتلك الملاحظات والرسوم، فابتسم القاضي وقال إن قصده هو محو وحذف تلك الأشياء من ذاكرة الإنسان. ابتسم (وبستر) وضحك القاضي. نظر (وبستر) إليه بتمعن وإحدى عينيه نصف مغمضة وقال: حسناً، لقد كنت رساماً في مكان ما وتلك الرسومات تشبه إلى حد بعيد الأصل، ولكن لا يمكن لأي إنسان أن يضع العالم كله في دفتر. فليس كل ما رُسم في الدفتر يكون كذلك.

أحسنت قولاً يا (ماركوس)، قال القاضي.

ولكن لا ترسمني، قال (وبستر)، فأنا لا أريد أن أكون في دفترك.

في دفتري أو في أي دفتر آخر، قال القاضي. ما هو موجود لا يختلف عما هو مدوَّن باختصار في الكتاب، كيف يكون ذلك؟ سيكون كتاباً مزيفاً، والكتاب المزيف ليس كتابا على الإطلاق.

أنت متكلم بالألغاز مرعب، ولن أدخل في مباراة بالكلمات معك، فيما عدا ذلك أخرج إبريقي الخزفي من دفترك لأنني لا أريد، ربما، أن يراه الغرباء.

ابتسم القاضي. سواء في دفتري أم لا، فكل إنسان يسكن إنسانا آخر وبالتبادل، ويستمر الأمر هكذا في تعقيد لا نهائي للوجود والشهادة إلى أقصى حافة للعالم.

سأكون شاهد نفسي، قال (وبستر)، ولكن بدأ الباقون الآن يؤيدونه، فمن يريد أن يرى صورته الدموية على أية حال، وكان هناك قتال على وشك أن ينشب في الحشد الكبير الذي ينتظر كشف النقاب عنه وربما استطاعوا دهن الصورة بالقطران والريش مما يُنقِص من قيمة المقال نفسه. إلى أن رفع القاضي يده داعيا إلى الصفح وأخبرهم أن مشاعر (وبستر) كانت من نوع مختلف وليست نابعة من باطل نهائيا، وأنه رسم يوما ما صورة شخصية لعجوز مُعتدّ بنفسه، وبدون قصد، قيّد الرجل بصورة شبيهه. فهو لم يستطع النوم من الخوف من أن عدواً قد يحصل على الصورة ويشوهها ويطمسها، وكذلك كانت الصورة الشخصية التي لم يرد أن تتجعد ولا أي شيء يلمسها، وقام برحلة عبر الصحراء وهو يحملها إلى حيث سمع أين يمكن أن يجد القاضي وتوسل إليه طالباً نصيحته عن كيف يمكنه المحافظة على ذلك الشيء، فأخذه القاضي عميقا داخل الجبال ودفنا الصورة في أرض الكهف حيث توجد في مكان يعرف القاضي كل شيء عنه.

عندما انتهى من سرد ذلك، بصق (وبستر) ومسح فمه ثم نظر إلى القاضي مرة ثانية، وقال: هذا الرجل ليس أكثر من مُلحد جاهل همجي.

هو كذلك. قال القاضي.

لا أحب ذلك لنفسي.

ممتاز، قال القاضي، باسطاً نفسه نحو حقيبته. إذن فأنت لا اعتراض لديك بأن تُرسم؟

لن أجلس من أجل رسمة، قال (وبستر). ولكن ليس كما قلتَ.

صمت الجميع. ونهض أحدهم ليذكي النار، وارتفع القمر وأصبح أصغر فوق المساكن المدمَّرة، وتألق الجدول الصغير المطرّز فوق الرمال على أرض الوادي لامعا مثل معدن مصبوب في قالب متموج، وفيما عدا الصوت الذي كان يُصدره، لم يكن هناك صوت آخر.

أي نوع من الهنود كان هنا، أيها القاضي؟

رفع القاضي بصره.

هنود ميتون، أعتقد، ماذا عنك أيها القاضي؟

ليسوا ميتين تماماً، قال القاضي.

كانوا عمال بناء عابرين، أعتقد ذلك. وهؤلاء الزنوج في الجوار الآن ليسوا من أي نوع.

ليسوا ميتين تماماً، قال القاضي، ثم أخبرهم قصة أخرى وكانت هذه هي القصة:

في المنطقة الغربية لجبال أليغينيز وقبل بضعة سنين مضت كانت ما تزال أرضاً برية، وكان هناك رجل عنده محل لعدة الحصان على جانب طريق فيدرالي. كان يعمل بذلك العمل لأن تلك كانت مهنته، إلا أنه كان يحصل على القليل منه بسبب قلة المسافرين في ذلك المكان. ولم يمض وقت حتى اعتاد أن يرتدي مثل الهنود ويقف في مكان يبعد عدة أميال فوق محلّه وينتظر هناك على جانب الطريق ليسأل أياً كان من القادمين من ذلك الطريق إذا كان بإمكانهم إعطاؤه بعض النقود. في ذلك الوقت لم يؤذِ أي شخص.

في أحد الأيام مر رجل وتقدّم صانع العدّة من وراء شجرته بريشه وسُبحته، وطلب من ذلك الرجل بعض القطع النقدية. كان شاباً، ورفض طلبه، فقد عرف أن صانع العدّة هو رجل أبيض وتحدّث إليه بطريقة جعلت صانع العدّة يشعر بالخجل، وقام بدعوة الشاب إلى مسكنه على بعد عدة أميال على الطريق.

كان الصانع يسكن في منزل مكسو بلحاء الشجر بناه بنفسه، وكان عنده زوجة وطفلان، كانوا جميعهم يعتقدون أن الرجل العجوز مجنون وينتظرون فرصة مواتية للهروب منه ومن ذلك المكان الموحش الذي أحضرهم إليه. لذلك فقد رحّبوا بالضيف، وأعطته المرأة عشاءه. ولكن أثناء تناوله الطعام بدأ الرجل العجوز مرة ثانية محاولة تملقه من أجل

المال وقال إنهم فقراء كما هم فعلا، وكان المسافر يستمع إليه ثم أخرج قطعتين نقديتين لم يرَ الرجل العجوز مثلهما من قبل، وأخذ العجوز القطعتين وتمعّن فيهما ثم أراهما لابنه. أنهى الغريب طعامه وقال للرجل العجوز إن بإمكانه الاحتفاظ بهاتين القطعتين النقديتين.

ولكن الجحود كان مألوفا أكثر مما تعتقدون، فلم يكن الرجل العجوز راضيا وبدأ بالسؤال إذا كان بالإمكان أن يحصل على قطعة نقدية أخرى لزوجته. فدفع المسافر صحنه من أمامه واستدار على كرسيه وألقى على الرجل العجوز محاضرة، وفي تلك المحاضرة كان الرجل العجوز قد سمع أشياء كان يعرفها سابقا ولكنه نسيها، وسمع أشياء جديدة تنسجم معها. وختم المسافر كلامه بإخبار الرجل العجوز بأنه خسارة للرَّب وللإنسانية على حدٍ سواء، وسيبقى كذلك إلى أن يُحب أخاه كما يُحب نفسه وأن يكون عبئا على نفسه في الحاجة في مكان مهجور في هذا العالم.

وفيما كان يُنهي خطابه مرّ على الطريق زنجي يجر عربة نقل الموتى في جنازة لشخص من جنسه، وكان النعش مدهونا باللون الزهري، والزنجي مرتديا ملابس ملونة بكل الألوان مثل مهرج الكرنفال، وأشار الشاب إلى الزنجي المار في الطريق وقال حتى الزنجي الأسود...

هنا توقف القاضي. كان ينظر إلى النار ورفع رأسه ونظر حوله. كان قصته أشبه بسرد أو تلاوة. لم يفقد سياق قصته. وابتسم للمستمعين حوله.

قال حتى الزنجي الأسود المجنون لم يكن أقل من رجل بين الرجال. ثم وقف ابن الرجل العجوز، وبدأ بإلقاء خطبة هو نفسه، مشيراً إلى الطريق وداعياً إلى فسح طريق للزنجي. لقد استخدم تلك الكلمات. بأنه يجب فسح طريق. بالطبع في ذلك الوقت كان الزنجي وعربة نقل الموتى قد مرّا ولم يعد من الممكن رؤيتهما.

وهكذا ندِمَ الرجل العجوز من جديد وأقسم بأن الولد كان على صواب، واندهشت المرأة التي كانت جالسة بجانب النار من كل ما سمعته، وعندما أعلن الضيف أن الوقت قد حان لرحيله، ترقرقت عيناها بالدموع وجاءت البنت الصغيرة وتعلّقت بملابسه.

عرض عليه الرجل العجوز مرافقته إلى الخارج على الطريق لكي يودِّعه في رحلته وليخبره أي طريق يجب أن يسلك وأي طريق يجب أن لا يسلك، لأنه من النادر وجود إشارات على الطريق في هذا الجزء من العالم.

أثناء سيرهما تحدثا عن الحياة في مثل ذلك المكان الموحش حيث أشخاص مثلك نراهم ولكن لمرة واحدة ولا نراهم ثانية أبداً، وعندها كانوا قد وصلوا إلى مفترق الطريق، وهنا أخبر المسافر الرجل العجوز بأنه مشى معه مسافة كافية وشكره وافترقا عن بعضهما ومضى الغريب في طريقه. ولكن يبدو أن صانع العدّة لم يكن يحتمل معاناة فقدان صحبته، فنادى عليه وذهب معه مرة ثانية مسافة قصيرة على الطريق. وبعد قليل وصلا إلى مكان كان الطريق فيه قد أظلم داخل

غابة عميقة، وفي هذا المكان قتل الرجل العجوز المسافر. قتله بحجر ثم أخذ ملابسه وأخذ ساعته ونقوده ودفنه في قبر ضحل بجانب الطريق. ثم ذهب إلى المنزل.

في الطريق مزّق الملابس التي كان يرتديها وأدمى نفسه بحجر صوان وأخبر زوجته أنهما هوجما من لصوص وأن المسافر الشاب قد قُتل وأنه هو فقط الذي استطاع الهروب. بدأت المرأة تبكي، وبعد برهة جعلته يأخذها إلى ذلك المكان وأخذت معها من زهر الرَّبيع البري الذي ينمو بكثرة هناك، ووضعته على الحجارة، وبقيت تذهب هناك عدة مرات إلى أن أصبحت مُسنّة.

عاش صانع العدّة إلى أن كبر ابنه ولم يؤذ أحداً ثانية. وعندما كان يرقد محتضرا، نادى ابنه وأخبره عما فعله. وقال له الابن أنه سيسامحه إذا كان قد فعل ذلك مضطراً، فقال الرجل العجوز إنه فعله مضطراً، ثم مات.

إلا أن الولد لم يكن آسفاً لأنه كان يغار من الرجل الميت، وقبل أن يغادر زار ذلك المكان ورمى الحجارة بعيدًا ونبش العظام وبعثرها في الغابة ثم انصرف. لقد غادر إلى الغرب، وأصبح هو نفسه قاتل رجال.

في ذلك الوقت كانت المرأة ما تزال على قيد الحياة، ولم تكن تعرف شيئا مما حدث واعتقدت أن بعض الحيوانات البرية قد نبشت القبر وبعثرت العظام. ربما أنها لم تجد كل العظام ، ولكن ما وجدته منها أعادته إلى القبر وغطّتها وكوّمت الحجارة فوقها وحملت الزهور

إلى ذلك المكان كما كانت تفعل في السابق. عندما أصبحت امرأة عجوزا كانت تخبر الناس أن المدفون هناك هو ابنها، وربما كان هو في ذلك الوقت.

هنا رفع القاضي بصره وابتسم. كان الصمت مطبقاً، ثم بدأ الجميع بالصياح في الوقت نفسه بكل أشكال الاستنكار.

لم يكن صانع عدّة خيل، كان صانع أحذية، وكان قد بُرّئ من جميع تلك التُّهم. صاح أحدهم.

وصاح آخر: لم يسكن في مكان موحش، كان عنده دكان في وسط كمبرلاند ميريلاند.

لم يعرف أحد من أين أتت العظام. والمرأة العجوز كانت مجنونة، وهي معروفة بذلك.

لقد كان ذلك أخي في التابوت، وقد كان موسيقياً راقصاً من سنسيناتي أوهايو، وكان قد رُمي بالرصاص حتى الموت من أجل امرأة.

ومحتجّون آخرون حتى رفع القاضي يديه الاثنتين طالباً الهدوء، وقال: انتظروا الآن. يوجد ُملحق للقصة. كانت هناك عروس شابّة تنتظر ذلك المسافر الذي نعرف عظامه، وكانت تحمل طفلا في رحمها هو ابن المسافر. الآن هذا الابن الذي كان وجود والده في العالم تاريخياً وتأملياً حتى قبل أن يدخله الابن، يواجه مشكلة صعبة. كان يحمل طوال حياته وهم الكمال الذي لن يستطيع تحقيقه أبدا. لقد حرم

الأب الميت ابنه من إرثه. لأن الولد مخوّل بموت أبيه وهو الوريث لهذا الموت أكثر من تركته. لن يسمع عن الطرق الحقيرة السخيفة التي تُحدد طبْع الإنسان في الحياة. لن يراه يكافح بحماقة تصرفاته. لا. إن العالم الذي ورثه يقدِّم له إشارة مضللة. إنه منهار أمام حاكم قاس، ولن يجد طريقه أبداً.

ما ينطبق على رجل واحد، قال القاضي، ينطبق على كثيرين. كان يُطلَق على الناس الذين عاشوا ذات مرة هنا (أناساتزي). القدماء. لقد هجروا تلك المناطق، هزمهم القحط أو المرض أو عصابات النهب والسلب، هجروا تلك المناطق منذ عصور، ولا توجد لهم أي ذكرى. إنهم إشاعات وأشباح في هذه الأرض، وهم مبجّلون كثيرا. الأدوات والفن والأبنية، كلها أشياء تشترك في الحكم على السلالات الأخيرة. ومع ذلك لا يوجد لهم شيء يتشبثون به. لقد رحل القدماء مثل الأشباح، والهمجيون يجولون في تلك الوديان يُصاحِبهم صوت ضحكات القدماء. كانوا يربضون في أكواخهم البسيطة في الظلام مُنصتين إلى الخطر ينزّ من بين الصخور. إن تعاقب الأحداث من الأعلى إلى الأدنى واضحة جميعها في الحطام والغموض وبقايا ثورة مجهولة. ها هم الآباء الميتون. لقد دُفنت أرواحهم في الصخر. إنها ترقد فوق الأرض الوزن نفسه ونفس وكُليّة الوجود نفسها. فكل من يصنع مأوى من الأعشاب ويختبئ فيه سيكون قد شارك بروحه في المصير العام للمخلوقات وسيستقر في الطين الأولي

ونادرا ما يكون مع صرخة. ولكن من يبني في الصخر فإنه يحاول تغيير بناء الكون، وهكذا كان الأمر مع أولئك البنائين بصرف النظر كم تبدو أعمالهم بدائية بالنسبة لنا.

لم يتكلم أحد. جلس القاضي نصف عارٍ يتعرّق مع أن الطقس كان باردا طوال الليل. أخيرا، رفع القسيس السابق (توبين) بصره، وقال:

هذا يصعقني، لا يتساوى أي من الأبناء في الظروف. إذن ما هي الطريقة لتربية الطفل؟

عندما يكونون صغار السن يجب وضعهم لفترة مع كلاب متوحشة. يجب أن يبدأوا محاولة حلّ الأحجية من خلال أدلتهم المناسبة، أحد الأبواب الثلاثة لا يُخفي وراءه أسوداً متوحشة. يجب جعلهم يركضون عراة في الصحراء حتى... ....

توقّف الآن، قال (توبين). لقد ُطرح السؤال بكل جديّة.

والجواب، قال القاضي. إذا قصد الرّب أن يتدخّل في انحراف الجنس البشري، ألم يكن ليفعل ذلك الآن؟ الذئاب يغربلون أنفسهم، يا رجل. أي مخلوقات أخرى تستطيع أن تفعل ذلك؟ وهل جنس البشر ليس أكثر ضراوة بعد؟ إن نظام العالم هو أن تكون بُرْعماً ثم تصبح وردة ثم تموت، ولكن في مشاكل الرجال لا يوجد ضعف، ووقت الظُهر في تعبيرهم يشير إلى بداية الليل. وروح الرجل تكون

متعبة عند ذروة إنجازه. منتصف النهار هو هي فجأة عتمته ومساء يومه. إنه يحب الألعاب؟ دعوه يلعب من أجل الرهان. هذا كما ترون هنا، تلك البقايا أدهشت قبائل الهمجيين، ألا تعتقدون أن ذلك سيحدث مرة ثانية؟ نعم. وثالثة. مع شعوب أخرى وأبناء آخرين.

نظر القاضي حوله. كان جالساً أمام النار عارياً إلا من بنطاله القصير وهو ويضع راحتي يديه على ركبتيه. كانت عيناه مثل شقوق ضيقة فارغة. لم يضمر أحد من الجماعة أي فكرة حول ما يُلمِّح إليه هذا الموقف. ومع ذلك كان يبدو مثل تمثال بطريقة جلوسه مما جعلهم يصبحون أكثر حذرا وتحدثوا باحتراس فيما بينهم، وكأنهم لا يريدون إيقاظ شيء ما والذي من الأفضل أن يُترك نائما.

* * *

في المساء التالي عندما ركبوا خيولهم نحو الحافة الغربية، فقدوا أحد البغال. لقد انزلق إلى الأسفل على حافة سور الوادي مع محتويات السلال منفجراً بدون صوت في الهواء الحار والجاف، ووقع في ضوء الشمس وفي الظل، وهو يدور في ذلك الخلاء الموحش حتى اختفى عن الأنظار في منخفض من الفراغ الأزرق البارد الذي مَسَحَهُ للأبد من ذاكرة عقل أي مخلوق حيّ مهما كان. امتطى (غلانتون) حصانه وتمعّن في الجزء العميق الصلب أسفل منه. حلّق غراب كبير من الجُرف بعيدا نحو الأسفل ليدور وينعب. في الضوء الشديد ظهر السور الحجري العمودي بمحيط متعرج غريب، وراكبو الخيول على

ذلك النتوء الجبلي بدوا صغارا جدا حتى بالنسبة لأنفسهم. نظر (غلانتون) إلى الأعلى لفترة وجيزة، وكأنه يوجد شيء ما يتحقّق منه في السماء الرائعة التي تشبه الخزف الصيني، ثم وكز حصانه وواصل طريقه.

عند عبورهم الهضبة المرتفعة في الأيام التالية، صادفوا حُفراً محترقة في الأرض حيث كان الهنود يطهون الصبّار، ومرّوا بغابات الصبّار الأمريكي أو الباهرة الأمريكية بسيقان مزهرة هائلة ترتفع أربعين قدما في هواء الصحراء. في كل يوم يسرِّجون خيولهم كانوا ينظرون إلى الجبال الشاحبة إلى الشمال وإلى الغرب للبحث عن أثر لدخان. لم يكن يوجد أيّ منه. يكون المستطلعون قد ذهبوا في ذلك الحين، خرجوا في الظلام قبل بزوغ الشمس، ولن يعودوا حتى الليل، مُقدّرين موقع المعسكر في ذلك القفر المترامي الأطراف بواسطة ضوء النجوم الشاحب، أو في الظلام الدامس حيث تجلس المجموعة بين الصخور بدون نار أو خبز أو صديق حميم كانوا مثل قرود مربوطين. جلسوا القرفصاء بصمت يأكلون اللحم النيء الذي اصطاده هنود ديلاوير في السهل بالسهام، وناموا بين العظام. ارتفع القمر الذي يشبه الفَلَقة فوق الأشكال السوداء للجبال مُعْتِماً النجوم الشرقية، وبجانب سلسلة التلال القريبة كانت البراعم البيضاء لنبات اليُكة المُزهر تتحرك في الرياح، وفي الليل كانت الوطاويط تأتي من مكان تحت الأرض في موقع ما من العالم لتقف على أجنحة جلدية مثل الطيور الطنانة القاتمة الشيطانية، وتتغذى على تلك الأزهار، وفي مكان أبعد على طول

السلاسل الجبلية، ومرتفع قليلا على نتوء من الحجر الرملي، كان القاضي يجلس القرفصاء، كان شاحباً وعارياً. رفع يده فرفرفت الوطاويط بارتباك، ثم أنزلها وجلس كما كان من قبل وما لبثت أن عاودت الأكل مرة ثانية.

* * *

لم يتراجع (غلانتون)، كانت تقديراته المتعلقة بالعدو تأخذ بالحسبان جميع الحيل. تحدث عن الكمائن. حتى هو بكل كبريائه واعتداده بنفسه لم يستطع أن يُصدّق أن مجموعة من تسعة عشر رجلا تمكّنوا من إخلاء منطقة مساحتها تعادل عشرة آلاف ميل مربع من كل إنسان حيّ فيها. بعد يومين، عندما عاد الكشافة في منتصف العصر وأعلنوا أنهم وجدوا قرى الآباتشي مهجورة، لم يدخلها. عسكروا فوق التلة، وصنعوا ناراً خادعة، واستلقوا طوال الليل مع بنادقهم فوق تلك الأرض البور. في الصباح امتطوا الخيول ونزلوا إلى الوادي الموحش الذي تتناثر فيه أكواخ من الأعشاب وبقايا نيران الطهو. ترجلوا عن خيولهم وتنقلوا بين الملاجئ ذات البناء الضعيف سهل الكسر من الشجيرات والأعشاب الملتصقة بالأرض والمحنية من الأعلى لتشكّل كوخا مدوَّراً بقيت فوقه بضعة خرق رثة من جلود الحيوانات أو الملاءات القديمة. كانت العظام متناثرة على الأرض وشظايا من حجار الصوان وحجار الكوارتزيت. ووجدوا قطعا من قدور وسلال قديمة وهاوّن حجري مكسور وأغلفة حبوب مسكيت

جافة، و دمية من القش لطفل، وقيثارة بدائية ذات وتر واحد كانت قد هُشمت، وقطعة من عقد من بزور البطيخ الجافة.

كان يصل ارتفاع أبواب الكوخ إلى الخصر وتواجه الشرق، وكانت الملاجئ مرتفعة بشكل كاف لأن يقف فيها الشخص. وآخِر كوخ رآه (غلانتون) و (ديفيد براون) كان يحرسه كلب كبير ووحشي. سحب (براون) مسدسه من حزامه ولكن (غلانتون) أوقفه. نزل على ركبة واحدة وتكلم مع الحيوان. كان يجثم بجانب الحائط الخلفي لمسكن مصنوع من الطين والواح الخشب، وكشّر عن أسنانه وأرجح رأسه من جانب إلى جانب، والأذنان مسطحتان على جانبي رأسه.

سيعضّك، قال (براون).

أعطني قطعة من اللحم المُقدّد.

وجثم وهو يتحدث إلى الكلب. كان الكلب يراقبه.

لن تجعل من ابن الكلبة ذلك إنساناً، قال (براون).

استطيع أن أجعل إنساناً من أي شيء يأكل. أعطني قطعة من اللحم المجفف.

عندما عاد (براون) ومعه قطعة اللحم المجفف، كان الكلب ينظر حوله بقلق. وعندما انطلقوا من الوادي نحو الغرب، كان الكلب يهرول بعَرْجَة بسيطة عند حوافر حصان (غلانتون).

اتّبعوا طريقاً صخرياً قديماً إلى خارج الوادي ومن خلال ممر مرتفع، وكانت البغال تتسلق الرفوف الصخرية بجهد مثل الماعز. ساق (غلانتون) حصانه ونادى على الآخرين، ثم باغتهم الظلام وقضوا المساء في ذلك المكان مصطفّين بجانب صدع في سور الممر. ثم قادهم وهم يلعنون إلى الأعلى خلال ظلام دامس، ولكن الطريق أصبح ضيقا جدا والمشي فيه غير آمن أبدا مما اضطرهم للوقوف. عاد هنود ديلاوير سيرا على الأقدام تاركين خيولهم أعلى الممر، وهدّدَ (غلانتون) بقتل كل من يهاجمهم في ذلك المكان.

قضوا الليل وكل رجلٍ عند أقدام حصانه حيث يقف في الممر بين مرتفع عمودي ومنخفض عمودي. جلس (غلانتون) عند رأس الطابور ومسدساته موضوعة أمامه. وراقب الكلب. في الصباح نهضوا وواصلوا السير، مسترجعين المستطلعين الآخرين وخيولهم من قمة الممر ثم أرسلوهم مرة ثانية. تابعوا طريقهم خلال الجبال طوال ذلك اليوم، وإذا كان (غلانتون) قد نام، فلم يره أحد يفعل ذلك.

قدّر هنود ديلاوير أن القرية فارغة منذ عشرة أيام وأن الـ(جيلينوس) قد ارتحلوا بجماعات صغيرة من كل مَخْرَج. لم يكن هناك أثر يتتبعونه. وتابعت المجموعة طريقها من خلال الجبال في رتل واحد. كان المستطلعون قد ذهبوا لمدة يومين. في اليوم الثالث، دخلوا مع خيولهم إلى معسكر لا يوجد فيه شيء سوى الدمار. في ذلك الصباح رأوا نيراناً فوق تلّة رفيعة زرقاء على بُعد خمسين ميلا إلى الجنوب.

* * *

-12-

اجتياز الحدود - عواصف - ثلج وبرق - المغامرون المذبوحون - السَّمْت - مواعيد - مجلس الحرب - ذبح الـ(جالينيوس) - موت (جوان ميغيل) - الميت في البحيرة - الزعيم - طفل آباتشي - في الصحراء - نيران الليل - الحربة - عملية جراحية - القاضي يأخذ فروة رأس- الثري - مدينة غاليجو - مدينة تشيهواهوا

* * *

لمدة أسبوعين تاليين كانوا يواصلون طريقهم في الليل، لم يكونوا يوقدون نارا. وكانوا قد نزعوا الحدوات عن أرجل خيولهم وملأوا ثقوب المسامير بالصلصال، وأولئك الذين مازال معهم تبغ كانوا يستخدمون حقائبهم ليبصقوا فيها، ونام الجميع في الكهوف وعلى حجارة جرداء. ركبوا خيولهم عند آثار ترَجُّلهم عنها، ودفنوا بُرازهم كما تفعل القطط، ولم يتكلموا إلا ما ندر. عند اجتيازهم تلك السلاسل الصخرية الجرداء في المساء بدوا بعيدين جدا وبدون ممتلكات. كانوا مثل فرقة قُدّر عليها الخروج إلى لعنة ما قديمة. مثل شيء يظهر من الظلام بصرير الجلد وصلصلة المعدن.

قاموا بذبح خيول التحميل وقدّدوا اللحم وتقاسموه ثم رحلوا عبر رؤوس الجبال الموحشة فوق سهول كربونات الصودا الشاسعة مع الرعد الجاف إلى الجنوب وعويل الضوء. وتحت القمر الأحدب كانت ظلال الخيول وراكبو الخيول تمتد فوق الأرض المكسوّة بالثلج المُزرق، ومع كل ومضة برق واقتراب العاصفة كانت تلك الأشكال نفسها تتراجع خلفهم بزيادة مخيفة في الحجم وكأنها مظهر ثالث لوجودهم قد طُرِق بفأس، وكان يبدو أسود وموحشاً على الأرض الجرداء. واصلوا طريقهم. واصلوا كرجال وظّفوا لغاية أصلها يعود إلى أسلاف لهم، مثل إرث الدم لأمر أساسي وبعيد. بالرغم من أن كل رجل بينهم متفـرِّد بذاته، إلا أن اتحادهم صنع شيئا لم يكن يوجد من قبل، وفي روح ذلك التكتل العرقي كان يوجد ضياع بالكاد يُمكن إدراكه أكثر من تلك الأقاليم البيضاء على الخرائط القديمة حيث تعيش وحوش ولاشيء آخر من العالم المعروف ماعدا الرياح الافتراضية.

اجتازوا (دل نورته) وتابعوا إلى الجنوب إلى أرض أكثر عدائية. جلسوا القرفصاء طوال اليوم تحت ظل الأكاسيا الشحيح، وأمعنوا النظر إلى ذلك العالم المرهِق. وقفت شياطين من الغـُبار في الأفق كدخان نار بعيدة، ولكن لم يكن هناك أي من الأشياء الحيّة. نظروا إلى الشمس، وعند الغسق واصلوا طريقهم فوق السهل الذي بدأ يبرد حيث كانت السماء الغربية بلون الدم. عند بئر صحراوية ترجّلوا وشربوا مع خيولهم فكاً بجانب فك، ثم عاودوا امتطاء الخيول وتابعوا السير. كانت ذئاب الصحراء الصغيرة تعوي في الظلام، وكان كلب

(غلانتون) يهرول تحت بطن الحصان، وأقدامه المستديرة تلتصق بالضبط بين الحوافر.

في الليل أصابهم وابل من البَرَد الرهيب من السماء الخالية من الفراغات، وجفلت الخيول وتأوهت، وترجّل الرجال وجلسوا على الأرض وهم يحملون سروجهم فوق رؤوسهم، في حين كان وابل المطر يقفز في التراب كبيض شفاف مُزج كيميائياً ينبثق من ظلام الصحراء. عندما أعادوا سروج خيولهم وامتطوها مشوا لمسافة أميال خلال ثلوج مليئة بالحصى، في حين ارتفع القمر المُرشد مثل عين قطة عمياء فوق حافة العالم. في الليل اجتازوا أضواء قرية على السهل ولكنهم لم يغيّروا خط سيرهم.

عند الصباح رأوا نيراناً في الأفق. أرسل (غلانتون) هنود ديلاوير. في ذلك الوقت كان نجم الفجر قد سطع باهتا في الشرق. عندما عاد هنود ديلاوير جلسوا مع (غلانتون) والقاضي والأخوين (براون) وتحدثوا وأومأوا بإشارات، ثم امتطى الجميع خيولهم وتابعوا السير.

خمس عربات كان ينبعث منها دخان حريق مُطفأ على أرض الصحراء، وترجّل الرجال ثم تنقلوا بصمت بين جثث الموتى من الباحثين عن الذهب، أولئك المهاجرين المجهولين بين الصخور بجروحهم الرهيبة، وأحشائهم الخارجة من جنوبهم والذين تنتصب من جذوعهم العارية قصبات أسهم. كان بعضهم يبدون رجالاً من لحاهم ولكن الجروح الغريبة بين أرجلهم كانت تبدو مثل العادة الشهرية، ولم

تكن توجد أعضاء ذكرية حيث أنها قـُطعت وعُلّقت متدلية من أفواههم، وكانت قاتمة وغريبة الشكل. لقد استلقوا بفروات رؤوسهم ذات الدم الجاف يحدّقون إلى الأعلى بعيون قرود تنظر إلى الشمس التي ترتفع الآن إلى الشرق.

لم تكن العربات أكثر من قطع جمر مُغلّفة بأشكال متفحمة لأطواق تثبيت العجلات الحديدية ولإطارات، وكانت محاور العجلات المتوهجة تهتز عميقا داخل الفحم. جثم راكبو الخيول عند النار وغلوا ماءً ثم شربوا قهوة وقاموا بشوي اللحم، بعد ذلك استلقوا ليناموا بين الأموات.

عندما انطلقت الجماعة في المساء، تابعوا الطريق إلى الجنوب كما فعلوا من قبل. كانت آثار القتلة تتجه نحو الغرب، ولكنهم كانوا رجالاً بيضاً ينهبون المسافرين في ذلك القفر، وموّهوا أعمالهم هذه لتبدو وكأنها من فعل الهمجيين. أفكار غامضة عن الحظ والقـدَر كانت تشغل بال هؤلاء الرجال المتورطين بسلسلة من الأحداث المتلاحقة. لقد انتهت آثار المغامرين الباحثين عن الذهب بالرماد، كما قلنا، وعند نقطة التقاء القوة الموجِّهة تلك في ذلك القفر حيث القلوب والمغامرة لشعب واحد صغير ابتُلعت وماتت من قِبل شعب آخر. سأل القسيس السابق، إذا كان البعض لا يرى يد الرَّب المُتَهكِّم تقود بأي قسوة وأي مفارقة تطابقاً مهلكاً إلى ذلك الحد. كان إرسال شهود في طريق ثالث مختلف تماماً يمكن أيضاً أن يُستدعى للشهادة أمام القضاء في ما يتجاوز المصادفة، ومع ذلك فإن القاضي، الذي تقدم

بحصانه حتى أصبح جنباً إلى جنب مع المشاهدين، قال إن هذا وضّح الطبيعة الحقيقية للشاهد وإن قرابته لم تكن شيئا ثالثا بل الأول، إذ ماذا يمكن قوله عن حادث لم يُلاحظ؟

واصل هنود ديلاوير التقدم عند الغسق، وقاد المكسيكي (ماكجيل) الطابور، مترجلا بين الفينة والأخرى عن حصانه ليستلقي منبطحاً على بطنه وكان يرصد راكبي الخيول في الصحراء أمامهم ثم يعاود امتطاء حصانه ثانية بدون إيقاف فرسه أو إيقاف المجموعة التي تتبعه. كانوا يتنقلون مثل مهاجرين تحت نجم ينساق برفق، وعكست آثارهم على الأرض حركة الأرض نفسها. إلى الغرب وقفت أكوام الغيوم فوق الجبال مثل الغطاء القاتم لقبة السماء ذاتها، وضوء النجوم يصل إلى المجرات المعلقة في الهالة الواسعة فوق رؤوس راكبي الخيول.

بعد يومين عاد هنود ديلاوير من استطلاع الفجر وبَلَّغوا أن الـ(جيلينوس) أقاموا معسكرا على طول شاطئ بحيرة ضحلة إلى الجنوب قبل أقل من أربع ساعات، ومعهم نساؤهم وأطفالهم وأعدادهم كثيرة. عندما نهض (غلانتون) من هذا المجلس، خرج إلى الصحراء وحده ووقف لفترة طويلة ينظر إلى ما بعد ظلام الفجر نحو الأراضي الممتدة.

قاموا بإصلاح أسلحتهم والعناية بها، أخرجوا الطلقات من مسدساتهم ثم أعادوا حشوها. كانوا يتحدثون بأصوات منخفضة بين

بعضهم بالرغم من أن الصحراء حولهم تمتد مثل صحن ضخم قاحل يرتعش بلطف في الحرارة. بعد الظهر، قام بعضهم بقيادة الخيول إلى الماء ثم إعادتها ثانية، ومع حلول الظلام تعقب (غلانتون) ومساعدوه هنود ديلاوير ليستطلعوا موقع العدو.

قاموا بدق عصا في الأرض على مرتفع شمال المعسكر، وعندما انتقلت زاوية مجموعة نجوم الدب نحو درجة الميل تلك، قام (تودفين) والرجل من (فانديمن) بتحريك المجموعة، وامتطوا خيولهم نحو الجنوب وراء الآخرين الواقعين في حبال شِرْكِ المصير الأكثر قسوة.

وصلوا إلى الطرف الشرقي للبحيرة عند الساعات الباردة قبل الفجر واستداروا على طول الشاطئ. كان الماء شديد السواد، وعلى طول الشاطئ امتدت بقايا زَبَد، وكان يمكنهم سماع البط يهذر بعيداً فوق البحيرة. كان جمر نيران المعسكر ملقىً تحتهم بانحناء لطيف مثل أضواء مرفأ بعيد. أمامهم على ذلك الشاطئ الموحش امتطى راكب مرتحل وحده حصانه. كان أحد هنود ديلاوير، أدار حصانه بدون كلام وتبعه الجميع بين الأشجار إلى الصحراء.

ربض أفراد الجماعة في موقع لأشجار الصفصاف على بعد نصف ميل من نيران العدو. لفّعوا رؤوس خيولهم بملاءات، ووقفت الحيوانات المغطاة رؤوسها خلفهم متيبّسة بشكل شعائري. ترجّل راكبو الخيول الجدد وربطوا خيولهم وجلسوا على الأرض في حين كان (غلانتون) يخاطبهم.

لدينا ساعة وربما أكثر. عندما ندخل يذهب كل رجل إلى مهمته. لا تتركوا كلباً على قيد الحياة إذا تمكنتم من ذلك.

كم يبلغ عددهم هناك يا (جون)؟

هل تعلمت الهمس في مَنْشرة؟

يوجد حولنا ما يكفي من الخطر، قال القاضي.

لا تهدروا البارود والطلقات على أي شيء لا يمكنه إطلاق النار. إذا لم نقتل كل قذر كريه هنا فسنحتاج لأن نـُجلد بالسياط ونـُرسل إلى الوطن.

كان هذا امتداد مجلسهم. كانت الساعة التالية ساعة طويلة. قادوا الخيول معصوبة الأعين ووقفوا ينظرون فوق المخيم ولكنهم كانوا يراقبون الأفق إلى الشرق. صاح عصفور، واستدار (غلانتون) ونزع عُصابة حصانه مثل الصياد الذي يستعين بالباز في الصباح. هبت الرياح ورفع الحصان رأسه وتنشق الهواء. وفعل باقي الرجال الشيء نفسه. بقيت الملاءات حيث وقعت. امتطوا الخيول والمسدسات في أيديهم، وهراوات من جلود الحيوانات وحجارة النهر رُبطت حول معاصمهم مثل أدوات لعبة فروسية بدائية. استدار (غلانتون) إلى الخلف ونظر إليهم ثم وكز حصانه.

عندما أخذت الخيول تهرول فوق شاطئ الملح الأبيض، نهض رجل عجوز من بين الأشجار حيث كان يجثو واستدار ليواجههم. الكلاب التي كانت تتنازع من أجل برازه هجمت وهي تنبح. بدأ البط

يرتفع من البحيرة فُرادى وجماعات. قام أحدهم بضرب الرجل بهراوة وأسقطه أرضاً، ووضع راكبو الخيول ناخسات المهماز على خيولهم واصطفوا متجهين إلى المعسكر وراء الكلاب وهراواتهم تلفّ، والكلاب تنبح في مشهد لصيد جهنمي، اندفع الرجال نحو المخيم حيث يوجد أكثر من ألف شخص يستلقون نائمين ووجوههم إلى الأعلى.

قادَ (غلانتون) حصانه مباشرة نحو أول كوخ هندي ساحقاً الساكنين تحت الأقدام. كان يَخْرجُ أشخاص زاحفون من المداخل المنخفضة. دخل الغزاة إلى القرية بجميع الخيول واستداروا ثم رجعوا. قفز محارب في طريقهم وسدد سهما، فقتله (غلانتون). ركض ثلاثة آخرون فقتل أول اثنين منهم بطلقات أطلقت بتتابع قريب لدرجة أنهما سقطا في الوقت نفسه، أما الثالث فبدا ممزقا إلى أجزاء وهو يهرب، حيث أطلقت عليه دزينة من الطلقات.

في أقل من دقيقة أصبح الذبح عاما. نساء يصرخن وأطفال عراة ورجل عجوز ترنح مقبلاً ملوّحاً بزوج من السراويل البيضاء. كان راكبو الخيول يتنقلون بينهم ويذبحونهم بالهراوات أو بالسكاكين. مائة كلب مربوط كانوا ينبحون وكلاب آخرون كانوا يتسابقون بجنون وهلع بين الأكواخ ويندفعون بعنف على بعضهم وعلى الكلاب المربوطة. ولم يتوقف هذا الجنون والصراخ أو يتلاشى منذ أول لحظة دخل فيها الغزاة القرية. في ذلك الوقت كان عدد من الأكواخ يحترق

وصف طويل من اللاجئين بدأوا يتدفقون شمالا على طول الشاطئ ينتحبون بجنون، وراكبو الخيول بينهم مثل رعاة المواشي الذين بدأوا أولاً بضرب البطيئين بالهراوات.

عندما رجع (غلانتون) ومساعدوه خلال القرية، كان الناس يتراكضون تحت حوافر الجياد، وكانت الخيول تندفع بسرعة، وبعض الرجال يتنقلون سيرا على الأقدام بين الأكواخ يحملون مشاعل ويجرّون الضحايا، الذين كان الدم يغطيهم ويقطر منهم، إلى الخارج، وكانوا يضربون المحتضرين ضربات متتالية ويقطعون رؤوس السائلين الرحمة. كان في المعسكر عدد من الخدم المكسيكيين، وهؤلاء الخدم ركضوا إلى الأمام وهم يصرخون بالإسبانية، وكانوا يُـقتلون بالضرب على الرأس أو رميا بالرصاص، وظهر أحد هنود ديلاوير من الدخان ومعه طفلان عاريان يتدلى من كل يد واحد منهما وقرفص فوق كومة من ركام من الحجارة وأرجحهما ماسكا إياهما من الكعب بالتناوب وسحق رأسيهما على الحجارة حيث انفجرت أدمغتهما من خلال نافوخيهما بفيض من الدم، وجاء الناس المحترقون يصرخون باهتياج كالكلاب المسعورة، فضربهم راكبو الخيول بسكاكينهم الضخمة الشنيعة، وركضت امرأة شابة وحضنت الأرجل الأمامية المغطاة بالدم لحصان الحرب لـ(غلانتون).

في ذلك الوقت، خرجت فرقة من المحاربين تمتطي جياداً من بين قطيع الجياد المنتشرة، واندفعوا إلى القرية وهم يصدرون صوت

خشخشة من السهام بين الأكواخ المحترقة. سحب (غلانتون) بندقيته من غمدها وقتل حصانيْ المقدمة ثم أعادها إلى غمدها وسحب مسدسه وبدأ بإطلاق النار من بين أذني حصانه الحقيقيتين. تخبَّط الهنود المتطون خيولهم بين الخيول الواقعة على الأرض وهي ترفس وصاروا يدورون بدون نظام ثم قُتلوا بالرصاص واحدا بعد الآخر حتى هرب الإثنا عشر ناجياً من بينهم واتجهوا إلى البحيرة مجتازين صف اللاجئين المتأوهين واختفوا في ركام رماد الصودا.

أدار (غلانتون) حصانه. واستلقى الأموات مغتسلين في المياه الضحلة مثل ضحايا كارثة في البحر وكانوا منتشرين على طول شاطئ الملح الأمامي في فوضى من الدم والأحشاء. كان راكبو الخيول يَجُرون الجثث من مياه البحيرة الملوثة بالدم، والرغوة التي ترتفع على الشاطئ بشكل خفيف كانت بلون زهري فاتح في الضوء البازغ. تنقلوا بين الأموات يحصدون خصل الشعر السوداء الطويلة بسكاكينهم ويتركون ضحاياهم بجماجم مسلوخة وغريبة في غشاء مغطى بالدم. أتت الخيول الفالتة من مكان قطعان الخيول البديلة تمشي إلى الشاطئ كريه الرائحة واختفت في الدخان، وبعد برهة عادت تمشي بتثاقل. كان الرجال يحتشدون في المياه الحمراء يضربون على غير هدى ضربات متتالية على الأموات، وبعضهم رقد مقترنا بجثث لنساء شابّات ومضروبات بالهراوات ميتات أو يحتضرن على الشاطئ. أحد هنود ديلاوير مرّ ومعه مجموعة من الرؤوس كبائع غريب يقصد السوق،

وكان الشعر ملفوفاً على معصمه والرؤوس تتدلى وتدور مع بعضها. كان (غلانتون) يعرف أن كل دقيقة على هذه الأرض يجب أن تُناقش فيما بعد في الصحراء وركب بين الرجال وحثّهم على الاستمرار.

برز (ماكجيل) من فرقعة النيران ووقف يحدّق بكآبة في المنظر حوله. كان قد طُعن برمح اخترق جسده وكان يمسك مقبضه الذي يظهر أمامه. كان قد صُنع من ساق السوتول وقمة سيف فروسية قديم مربوطة إلى المقبض، وكانت خارجة من أسفل ظهره ومنحنية. خرج الصبي بصعوبة وجهد من الماء واقترب منه، وجلس المكسيكي بحذر على التراب.

ابتعدْ عنه، قال (غلانتون).

استدار (ماكجيل) لينظر إلى (غلانتون)، وبينما هو يفعل ذلك سدّد (غلانتون) مسدسه وأطلق عليه النار في رأسه، وأعاد المسدس إلى قِرابه، وسَنَدَ بندقيته بشكل عمودي على السرج وأمسكها بركبته بينما كان يُوَزِّع البارود في ماسورتيها. صرخ أحدهم يناديه. ارتجف الحصان وتراجع إلى الخلف فتحدث (غلانتون) إلى حصانه برقة وحشا رصاصتين ثم دفعهما إلى حجيرة الطلقات. كان يراقب صعوداً نحو الشمال حيث كانت جماعة من راكبي الخيول من الآباتشي قد اجتمعوا قبالة السماء.

كانوا على بعد ربع ميل، ربما، وكان عددهم خمسة أو ستة. كانت صرخاتهم خافتة ويائسة. جَـلب (غلانتون) البندقية عند ثنية ذراعه

وسدَّ أحد مخزنيها ولفَّ الاسطوانتين ثم سدَّ الآخر. لم يرفع نظره عن جماعة الآباتشي. نزل (وبستر) عن حصانه وسحب بندقيته ودسَّ قضيب التنظيف من خلال الأنابيب المعدنية وجلس على ركبة واحدة واضعاً قضيب التنظيف على التراب بشكل عمودي، وسند الجزء الأمامي من جذع البندقية على قبضة يده التي يمسكها بها. كان للبندقية زندان فقام بتلقيم الخلفي منهما ثم وضع وجهه مقابل القطعة التي يسند عليها خدّه. وقد خمّن سرعة الرياح واعتمد على وجود الشمس على الجانب من المشهد الفضي الذي أمامه، فرفع البندقية عاليا وأطلق الرصاص. جلس (غلانتون) بدون حِراك. كانت الطلقة فاترة وخامدة في ذلك الخلاء، وتبدد الدخان الرمادي. كان قائد الجماعة عند المرتفع ممتطيا حصانه. تأرجح على الجانبين ببطء ثم وقع على الأرض.

هتف (غلانتون) واندفع إلى الأمام. وتبعه أربعة رجال. ترجّل المحاربون على المرتفع عن خيولهم وقاموا برفع الرجل الساقط على الأرض. استدار (غلانتون) على السرج دون أن يرفع نظره عن الهنود وقدَّم بندقيته إلى أقرب رجل. هذا الرجل كان (سام تيت) الذي أخذ البندقية وشدّ لجام حصانه كثيراً حتى كاد يرميه. تابع (غلانتون) وثلاثة رجال السير، وسحب (تيت) مِدَكَّ البندقية ليسندها وجثا على الأرض ثم أطلق النار. ترنح الحصان الذي يحمل الزعيم المصاب، وأخذ يعدو. أدار الماسورتين ثم أطلق الطلقة الثانية فضربت في

الأرض. وكبح الآباتشي عنان خيولهم وهم يصرخون بصيحات حادّة. انحنى (غلانتون) إلى الأمام وهمس في أذن حصانه. رفع الهنود قائدهم على حصان جديد وركبوا كل اثنين مع بعضهما ثم ضربوا خيولهم وانطلقوا مرة ثانية. كان (غلانتون) قد سحب مسدسه وأشار به للرجال خلفه، فأوقف أحدهم حصانه وقفز على الأرض وتسطّح على بطنه ثم سحب مسدسه وجهزّه للإطلاق وسحب رافعة الطلقات ودسّها في التراب حاملاً المسدس بيديه الاثنتين وذقنه مدفونة في الأرض وسدّد من خلال المِهداف. كانت الخيول على بُعد مائتي ياردة وتتحرك بسرعة. مع الطلقة الثانية وثب الحصان الذي يحمل القائد، وقام راكب قريب منه بمدّ نفسه والإمساك باللجام. كانوا يحاولون أخذ القائد من فوق الحصان المصاب عندما انهار الحصان.

كان (غلانتون) أول من وصل إلى الرجل المحتضر، وركع وهو يضع ذلك الرأس الغريب الهمجي بين فخذيه مثل مُمَرّض أجنبي مضرَّج بالدم وتحدَّى الهمجيين بمسدسه. أخذوا يدورون في السهل ويهزّون أقواسهم ورموا عدة سهام عليه ثم استداروا وابتعدوا. تدفق الدم من صدر الرجل، وأدار عينيه التائهتين إلى الأعلى، وظهرت عليهما غشاوة شبه زجاجية، ثم تقطّعت العروق الشعرية فيهما. في هاتين البِركتين القاتمتين استقرت صورة شمس صغيرة رائعة.

امتطى حصانه عائداً إلى المعسكر في مقدمة صف رجاله الصغير، ورأس الزعيم المعلَّق من شعره يتدلى من حزامه. كان الرجال يعلّقون

فروات الرؤوس على قطع من السَيْر الجلدي، وبعض الأموات كانوا مستلقين وقد قُطعت شرائح من جلود ظهورهم لتستخدم في صنع الأحزمة وأطقم الخيول. كان المكسيكي الميت (ماكجيل) قد سُلِخت فروة رأسه، وكانت الجماجم المضرجة بالدم قد بدأت تسْوَدُّ في الشمس. كانت معظم الأكواخ الهندية قد احترقت تماما، ولأنه وُجدت بعض القطع النقدية الذهبية، فقد قام بضعة رجال بركل رماد الأكواخ المتفحمة. كان (غلانتون) يلعنهم آخذاً رمحاً ورافعا رأس الزعيم فوقه حيث أومأ ونظر بخُبث، كان يبدو كرأس كرنفالي، ثم ركب وعاد منادياً ليجمعوا الخيول البديلة ويغادروا. عندما أدار حصانه رأى القاضي يجلس على الأرض. كان القاضي قد خلع قبعته وكان يشرب ماء من قِربة جلدية. ورفع بصره ناظراً إلى (غلانتون).

إنه ليس هو.

ماذا ليس هو؟

أومأ القاضي، ذلك.

أدار (غلانتون) مقبض الرمح. تأرجح الرأس بخصل شعره الطويلة السوداء وانقلب ليظهر الوجه.

ماذا تعتقد أن يكون إذا لم يكن هو؟

هزّ القاضي رأسه. إنه ليس (غوميز). وأومأ باتجاه ذلك الشيء. ذلك السيد دمه نقي. إن (غوميز) مكسيكي.

إنه ليس مكسيكياً تماما.

لا يمكن أن يكون مكسيكيا تماما. مثل أن يكون هجينا تماما. ولكن هذا ليس (غوميز)، لأنني رأيت (غوميز) وهذا ليس هو.

الا يمكن أن يحسبُه الناس أنه هو؟

لا.

نظر (غلانتون) نحو الشمال. ونظر إلى الأسفل على القاضي، وقال: لم تر كلبي، أليس كذلك؟

هزّ القاضي رأسه. هل تنوي أن تسوق هذا القطيع؟

إلى أن أجبرَ على تركه.

قد يكون ذلك قريبا.

قد يكون.

كم تعتقد سيأخذ أولئك الجَلِفون ليعيدوا جمع شملهم؟

بصق (غلانتون). لم يكن ذلك سؤالا، ولم يُجب عليه. وقال: أين حصانك؟

ذهب.

حسناً، إذا كنت ترغب بالركوب معنا فمن الأفضل لك أن تحصل على حصان آخر. ونظر إلى الرأس على سارية الرمح، وقال: لقد كان ذلك النوع اللعين من الزعماء. ووكز الحصان بكعبه ليتقدم،

ثم تابع مسيره على طول حافة البحيرة. كان هنود ديلاوير يخوضون في البحيرة يتحسسون الجثث الغارقة بأقدامهم. جلس هناك للحظة ثم أدار حصانه وانطلق خلال المخيم المنهوب. تابع طريقه بحذر ومسدسه على فخذه. وتبع الآثار القادمة من الصحراء حيث انطلقوا. عندما عاد كان معه فروة رأس الرجل العجوز الذي ظهر في البداية بين الأشجار عند الفجر.

خلال ساعة كانوا قد امتطوا خيولهم واتجهوا إلى الجنوب مخلفين وراءهم على شاطئ البحيرة المنكوب أرضاً مخضّبة بدماء القتلى والملح والرماد، ويسوقون أمامهم خمسمائة حصان وبغل. ركب القاضي حصاناً على رأس الرتل حاملاً السرج، وكان أمامه ولد أسمر غريب مغطى بالرماد. كان جزء من شعره قد احترق، وركب الحصان بصمت ورزانة، وهو يراقب الأرض تتقدم أمامه بعينين كبيرتين سوداوين كالمعتوه. وتحول لون راكبي الخيول إلى الأسود في الشمس بسبب الدماء التي كانت تغطي ملابسهم ووجوههم، ثم بدأ لونهم يبهت مع ارتفاع الغبار والتراب إلى أن اتخذوا لون الأرض التي مرّوا بها.

واصلوا طريقهم طوال النهار، وكان (غلانتون) يرافق مؤخرة الرتل. عند الظهيرة لحق الكلب بهم. كان صدره قاتماً من الدم، فحمله (غلانتون) على قربوس سرجه حتى يستطيع أن يتعافى. في وقت الأصيل الطويل كان الكلب يهرول في ظل الحصان، وعند ظهور الشفق كان يهرول بعيداً في السهل حيث انزلقت الظلال الطويلة للخيول فوق الأجمة كأرجل عنكبوت.

في ذلك الوقت كان هناك خط رفيع من الغبار إلى الشمال وتابعوا السير في الظلام، وترجّل هنود ديلاوير وانبطحوا أرضاً واضعين آذانهم على الأرض، ثم عاودوا الركوب وانطلق الجميع من جديد.

عندما توقفوا أمر (غلانتون) بإشعال نار والعناية بالجرحى. إحدى الأفراس كانت قد ولدت مهرا في الصحراء، وهذا المخلوق الضعيف عُلّق مباشرة على عصا الشواء فوق الفحم في حين قام هنود ديلاوير بتمرير يقطينة تحتوي على الحليب المتخثر من معدة الفرس فيما بينهم. من فوق مرتفع طفيف إلى الغرب من المعسكر بدت نيران العدو للعيان على بعد عشرة أميال إلى الشمال. جلس أفراد المجموعة القرفصاء وهم يرتدون جلود الحيوانات المتيبسة بالدم، ويَعُدّون فروات الرؤوس ويربطونها على السواري، وكانت الشعور السوداء المزرقّة متلبدة ومضرجة بالدم. مشى (ديفيد براون) بين أولئك الجزارين الشرسين وهم يجثون أمام اللهب، ولكنه لم يجد بينهم جرّاحاً. كان مصاباً برمح مغروز بريشه في فخذه، ولم يجرؤ أحد على لمسه. على الأقل (دوك إيرفنغ) لأن (براون) كان يدعوه الحانوتي والحلاق، وبقي كل منهما بعيدا عن الآخر.

يا شباب، قال (براون)، كنت سأطبب نفسي بنفسي ولكن لا أستطيع أن أمسك بإحكام.

رفع القاضي نظره إليه وابتسم.

هل تعالجها يا (هولدن)؟

لا يا (ديفي) لن أفعل. ولكن سأقول لك ماذا سأفعل.

ما ذلك؟

سأكتب بوليصة تأمين على حياتك ضد كل حادث ما عدا الشنق.

عليك اللعنة إذن.

قهقه القاضي. وحملق فيه (براون). أما من أحد فيكم ينقذ الرجل؟

لم يتكلم أحد.

قال: اللعنة عليكم جميعا، إذن.

جلس ومدّ رجله على الأرض ونظر إليها، لقد أصبحت تنزف أكثر من قبل. أمسك قبضة الرمح وضغط عليه بقوة. تصبب العرق من جبهته. حمل رجله وهو يَشْتُم بصوت منخفض. بعضهم كان يراقب والبعض الآخر لم يفعل. نهض الصبي، وقال: سأحاول معها.

ولد طيب. قال (براون).

أحضر سرجه ليتكئ عليه. وأدار رجله نحو النار من أجل الضوء، وطوى حزامه وحمله ثم هسهس للولد الراكع هناك، أمسِكْها بقوة أيها الولد. وَفرَدَها بشكل مستقيم. ثم أمسك الحزام بين أسنانه واستلق على ظهره.

أمسك الصبي قبضة الرمح القريبة من فخذ الرجل بإحكام وضغط إلى الأمام بكل وزنه. أمسك (براون) بالأرض على جانبيه وارتد رأسه إلى الوراء ولمعت أسنانه المبتلة في ضوء النار. أمسك الصبي بالقبضة من جديد وضغط بقوة مرة ثانية. انتفخت العروق في رقبة الرجل وأصبحت تشبه الحبال ولعن شجاعة الولد. في المحاولة الرابعة ظهر رأس الرمح من خلال لحم فخذه، وتدفق الدم على الأرض. جلس الصبي على كعبيه ومرر كمّ قميصه على حواجبه.

ترك (براون) الحزام يسقط من بين أسنانه، وقال: هل انتهى كل شيء؟

نعم.

ورأس الرمح؟ هل هو رأس الرمح؟ تكلم أيها الرجل.

سحب الصبي سكينه وقطع رأس السهم المضرج بالدم ببراعة وأعطاه له. حمله (براون) باتجاه ضوء النار وابتسم. كان رأس الرمح من النحاس المطروق وكان مائلاً بأربطته المشبعة بالدم عند المقبض الذي يحمله.

ولد جريء. لا يزال عليك أن تجعل من غصن الشجرة منشار عظام. اسحبه الآن. سحب الصبي الرمح من رِجل الرَجل بلـُطف فانحنى الرجل على الأرض بحركة نسائية مثيرة وصَفَرَ بخشونة من بين أسنانه. استلقى هناك لبرهة ثم جلس وأخذ الرمح من الصبي ورماه في النار ثم نهض وذهب ليجهز سريره.

عندما عاد الصبي إلى بطانيته، مال إليه القسيس السابق وهمس في أذنه، قائلا:

غبي. لن يُحبّك الرَّب للأبد.

استدار الصبي لينظر إليه.

ألا تعلم أنه كان من الممكن أن يأخذك معه؟ كان من الممكن أن يأخذك أيها الولد. مثلما تُـؤخذ العروس إلى مذبح الكنيسة.

* * *

نهضوا وتحركوا في وقت ما بعد منتصف الليل. أمر (غلانتون) بإشعال النيران ثم امتطوا خيولهم وألسنة اللهب تضيء الأرض بكاملها حولهم، وأشكال ظلال أشجار الصحراء تتمايل على التراب والرجال يدوسون على ظلالهم الرفيعة المتماوجة إلى أن عبروا جميعهم داخل الظلام الذي صاروا جزءاً منه.

كانت الخيول والبغال تتجول بعيداً في الصحراء، وقاموا بجمعها لمسافة أميال إلى الجنوب ثم ساقوها. حدّد برق الصيف مجهول المصدر موقع سلاسل الجبال التي أظلمها الليل عند حافة العالم، وكانت الخيول نصف البريّة في السهل أمامهم تهرول في ضوء مصباح مُزّرق كجياد تُحشد وهي ترتعش كأنها خارجة من الهاوية.

في الفجر الضبابي، كان أفراد الجماعة يمتطون خيولهم، وكانوا قذرين ومضرجين بالدماء ويرتدون جلوداً وفراءً بالية، وكانوا يبدون أقل كجيش منتصر وأكثر كحراس المؤخرة لجيش محطّم من الغزاة يتراجع من جانب إلى آخر في أوج من الفوضى والليل الهَرِمْ، كانت الخيول تتعثر، والرجال نائمين على سروجهم. كشف اليوم البازغ نفس الريف الوعر حولهم. والدخان المتصاعد من نيران الليلة السابقة، ارتفع رفيعاً وساكناً نحو الشمال. وغبار العدو الباهت الذين كانوا سيتعقبونهم إلى بوابات المدينة، لا يبدو أقرب، ومشوا بتثاقل في الحرّ المتزايد وهم يسوقون الخيول ضعيفة الأجساد أمامهم.

عند منتصف النهار شربوا من أخدود مياه راكدة سبق وأن مر بداخله حوالي ثلاثمائة حيوان، وقام راكبو الخيول بإخراج الخيول من الماء ثم ترجّلوا ليشربوا من قبعاتهم ثم امتطوا مرة أخرى ونزلوا في قاع الجدول الجاف وهم يصدرون أصوات صلصلة فوق الأرض الصخرية والحجارة الجافة والجلاميد، ومرة ثانية على تربة الصحراء الحمراء والترابية. كانت الجبال الراسية حولهم مزروعة بطبقة رقيقة من نبات الأوكوتيللو ونبات السوتول والصبّار المزهرة مثل مشهد دائم التغيُّر على أرض حارّة. عند الغسق أرسلوا رجالاً على خيولهم إلى الغرب ليشعلوا نيراناً في البراري، وجلس أفراد المجموعة في الظلام وناموا في حين كانت الوطاويط تحلـّق فوق الرؤوس بين النجوم. عندما واصلوا السير في الصباح، كان ما يزال هناك ظلام وكانت

الخيول تقريباً بدأت تفقد وعيها. في النهار وجدوا أن الهمجيين تقدموا باتجاههم. خاضوا أول معركة لهم في فجر اليوم التالي، وقاتلوهم وهم هاربون لمدة ثمانية أيام بلياليها على السهول وبين الصخور في الجبال ومن الأسوار ومن على مصاطب وسطوح الممتلكات والمزارع المهجورة، ولم يخسروا رجلاً واحداً.

في الليلة الثالثة جلسوا في غرفة من الحصن ذات جدران قديمة من الطين المتساقط، وكانت نيران العدو لا تبعُد أكثر من ميل في الصحراء. جلس القاضي مع الولد الآباتشي أمام النار، وكان يراقب كل شيء بعينين مثل التوت الأسود، وقد لعب معه بعض الرجال وجعلوه يضحك وأعطوه لحماً مقدّداً، وجلس يمضغ ويراقب بارتباك الأشخاص الذين يمرون من فوقه. غطّوه ببطانية، وفي الصباح كان القاضي يؤرجحه على ركبته في حين كان الرجال يسرجون خيولهم. رآه (تودفين) مع الطفل عندما مرّ حاملاً سرجه، ولكن عندما عاد بعد عشر دقائق يسوق حصانه، كان الطفل ميتاً وقد سلخ القاضي فروة رأسه. وضع (تودفين) فوهة مسدسه على القبة الهائلة لرأس القاضي.

لعنك الرَّب، يا (هولدن).

إما أن تطلق النار أو تُبعد ذلك عني. إفعل ذلك الآن.

وضع (تودفين) المسدس في حزامه. ابتسم القاضي ومسح فروة الرأس ببنطاله ونهض وانصرف. بعد عشر دقائق أخرى كانوا يمتطون خيولهم في السهل مرة ثانية في هروب كامل من الآباتشي.

بعد ظهر اليوم الخامس كانوا يعبرون حوضاً جافاً سيراً على الأقدام، ويسوقون الخيول أمامهم، وكان الهنود في الخلف على بعد طلقة بندقية يصرخون عليهم بالإسبانية. ومن وقت لآخر كان أحد أفراد المجموعة يترجل ببندقية وعصا التنظيف فيرتعش الهنود بُجبْن مثل طائر السماني، ساحبين خيولهم حولهم ليقفوا وراءهم. وكانت تنتصب إلى الشرق الجدران البيضاء للمبنى الرئيس في مزرعة، وترتفع منه الأشجار الهزيلة الخضراء القاسية مثل مشهد في الديوراما(*). بعد ساعة كانوا يسوقون الخيول - ربما أصبحوا الآن مائة رأس- على جانب تلك الجدران نزولاً في ممر متعرجٍ باتجاه النبع. خرج شاب يمتطي حصاناً ورحّب بهم بشكل رسمي باللغة الإسبانية. لم يرُدَّ أحد منهم. نظر الراكب الشاب إلى الأسفل على طول الجدول حيث كانت تمتد الحقول التي تحتوي على تِرع وحيث يقف العاملون بملابسهم البيضاء المغبّرة باتزان ومعهم مجارفهم بين القطن والذرة المرتفعة إلى مستوى الخصر. ثم نظر إلى الشمال الغربي. كان الآباتشي، سبعون أو ثمانون منهم، يقتربون مارّين بأول صفٍّ من الأكواخ، ويسيرون أرتالاً على طول الممر في ظل الأشجار.

وكان العاملون في الحقول قد رأوهم في الوقت نفسه تقريباً، ورموا أدواتهم منهم وبدأوا يركضون، كان بعضهم يصيحون وبعضهم يضعون أيديهم فوق رؤوسهم. نظر الشاب (دون) إلى الأمريكان ثم إلى الهمجيين

(*) الديوراما: مشهد يُنظر إليه من ثقب في حجرة مظلمة.

الذين كانوا يقتربون. صاح بشيء ما بالإسبانية. ساقَ الأمريكيون الخيول خارج النبع واستمروا من خلال أشجار الحور القطني. آخر شيء رأوه منه هو أنه سحب مسدسه من حذائه والتفت ليواجه الهنود.

في ذلك المساء قادوا الآباتشي عبر بلدة (غاليجو)، في شارع قذر تعسعس فيه خنازير وكلاب بائسة عديمة الشعر. كان يبدو مهجوراً. كانت الذرة الغضّة في الحقول على جانب الطريق قد غُسلت بالمطر مؤخراً وانتصبت بيضاء ومضيئة، ومبيّضة حتى أصبحت شفافة في الشمس. ركبوا معظم الليل، وفي اليوم التالي كان الهنود ما يزالون هناك.

قاتلوهم مرة ثانية في (اينسينيلاس) وقاتلوهم في الممرات الجافة باتجاه (إل ساوز) وخلف سفوح التلال من حيث يستطيعون رؤية أبراج كنيسة المدينة إلى الجنوب. في الواحد والعشرين من يوليو/ تموز لعام 1849، انطلق راكبو الخيول إلى داخل مدينة تشيهواهوا حيث استُقبلوا كأبطال، وهم يقودون الخيول الملونة أمامهم خلال التراب في الشوارع في هرج من الأسنان والعيون المبيضّة. ركض الأولاد الصغار بين الحوافر، وكان المنتصرون يبتسمون بملابسهم الرثة الملطخة بالدم خلال القاذورات والغبار والدم المتكتل وهم يحملون رؤوس العدو المجففة على السواري من خلال فانتازيا الموسيقى والورود تلك.

* * *

-13-

الحمّامات - التجّار - غنائم الحرب - الوليمة - ثلاثي - الحفلة الراقصة - شمال - مدينة كويامه - الحدود - أحواض هيوكو - مذبحة تيغواس - كارتيزال - نبع صحراوي - الكثيب - استجواب يتعلق بأسنان - ناكوري- الحانة - مواجهة يائسة - داخل الجبال - رماح محمولة - مناوشة - ملاحقة الناجين - سهول تشيهواهوا - ذبح الجنود - دفن - تشيهواهوا - باتجاه الغرب

* * *

ازداد العدد في تقدمهم براكبي خيول جُدد، وأولاد يركبون على ظهور بغال، ورجال كبار في السن بقبعات ذات طيّة ومفوّض مسؤول عن الغنائم من الخيول والبغال نقلهم عبر الشوارع الضيقة إلى حلبة مصارعة الثيران حيث يمكن الاحتفاظ بها هناك. وكان رجال الحملة ذوو الملابس الرثة يندفعون، بعضهم يحمل كؤوسا كثيرة دُفعت إليهم بإلحاح، ويلوّحون بقبعاتهم العفنة للسيدات المتجمعات على الشرفات، ويرفعون الرؤوس المتمايلة ذات النظرات الغريبة الضجرة نصف المغلقة في ملامح قد جفّت، كانوا جميعهم قد طُوّقوا بالمواطنين، وكأنهم طليعة جيش من بعض ذوي المظهر الرث لانتفاضة أعلن عنها سابقاً بزوج من قارعي الطبول، أحدهما غبي والثاني عاري القدمين، وبعازف

بوق كان يتقدم بمشية عسكرية وإحدى يديه مرفوعة فوق رأسه بإشارة عسكرية ويعزف لحناً عسكرياً. بهذه الطريقة مرّوا خلال بوابات قصر الحاكم المحروسة، فوق العتبات الحجرية البالية إلى الساحة حيث الحوافر الممسوحة لخيول المرتزقة التي تهبط بدون حدوات فوق حجارة الرصف بصوت قرقعة غريب يشبه صوت السلحفاة.

مئات من المشاهدين احتشدوا عندما كانت فروات الرؤوس الجافة تُحصى فوق الحجارة. كان الجنود يُبعدون الحشد إلى الوراء، وكانت الفتيات الصغيرات يراقبن الأمريكيين بعيون كبيرة سوداء، والأولاد يزحفون ليلمسوا الغنائم الرهيبة. كان هناك مائة وثماني وعشرون فروة رأس وثمانية رؤوس، وجاء نائب الحاكم وحاشيته إلى الساحة ليرحبوا بهم ويُبدوا الإعجاب بعملهم. لقد وُعِدوا باستلام كامل المكافأة ذهباً عند العشاء الذي سيُقام على شرَفهم ذلك المساء في فندق (ريدل وستيفنس) وبهذا أطلق الأمريكيون هتافات ابتهاج، وامتطوا خيولهم مرة ثانية. كانت النساء المسنّات يرتدين الشالات السوداء الطويلة ويركضن لتقبيل حواف قمصانهم كريهة الرائحة، ويرفعن أيديهن السوداء الصغيرة ليباركوها. دفع راكبو الخيول خيولهم الهزيلة بين الجماهير الصاخبة ثم دخلوا الشارع.

انتقلوا إلى الحمّامات العامة حيث نزلوا واحدا تلو الآخر في الماء، كل واحد منهم أكثر شحوباً من الذي سبقه، وجميعهم عليهم وشم، أو علامة، أو جرح مُخاط، وندوب جروح كبيرة مجعّدة يعلم الرَّب أين وأي جراحين غير متمدنين أحدوثها على صدورهم وبطونهم وتبدو

مثل آثار دودة ضخمة لها ألف رِجل، بعضهم كان مشوّها بأصابع مقطوعة أو عيون مقلوعة، وطُبعت على جباههم وأذرعهم أحرف وأرقام وكأنهم أصناف تتطلب جَرْداً. تراجع المواطنون من كلا الجنسين إلى جانب الجدران وشاهدوا الماء يتحوّل إلى عصيدة خفيفة من الدم والأوساخ، ولم يتمكّن أحد منهم من رفع بصره عن القاضي الذي كان آخر من تعرّى من ملابسه وهو يمشي حول الحمّامات واضعاً سيجاراً في فمه في جو ملكي، فاحصاً الماء بإصبع واحد من رِجله وكان إصبعه صغيراً بشكل مدهش. كان يُشعُّ مثل القمر، وكان شاحباً جداً ولا تُرى أي شعرة في أي مكان على ذلك الجسد الضخم، ولا في أي شق، لا في فتحات أنفه الكبيرة، ولا على صدره ولا في أذنيه ولا خصلة شعر فوق عينيه ولا على جفونه. وبدت القبة الهائلة اللامعة لجمجمته العارية مثل طاقية حمّام سُحبت فوق جلد وجهه ورقبته المختلف والذي أصبح أسمر اللون. عندما أنزل ذلك العملاق الهائل نفسه في الحمّام، ارتفع الماء بشكل محسوس وعندما غمر نفسه حتى عينيه، نظر حوله ببهجة كبيرة، وتجعّدت عيناه قليلا وكأنه كان يبتسم تحت الماء كبقرة بحر شاحبة ومنتفخة تطفو في مستنقع في حين كان السيجار المشتعل خلف أذنه الصغيرة يبعث دخاناً رقيقاً فوق مستوى خط الماء.

في ذلك الحين كان التجار قد نشروا بضائعهم على طول رصيف الآجر الفخاري خلفهم، من بدلات مصنوعة من قماش أوروبي، وفساتين وقمصان من الحرير الملون وقبعات من وبر القندس، وأحذية

من الجلد الإسباني الجيد، وعِصي ذات رؤوس فضية، وسياط الركوب، وسروج ذات مساند فضية، وغلايين منقوشة، ومسدسات صغيرة، ومجموعة من سيوف توليدو ذات مقابض عاجيّة وأنصال مزينة بشكل جميل، وكان الحلاقون يجهزون الكراسي لاستقبالهم، وهم يصيحون بأسماء أصحاب العمل المشهورين الذين يخدمون عندهم، وكل أولئك المقاولون يؤكدون توفر ظروف ائتمانية للمجموعة بأسخى الشروط.

عندما اجتازوا الساحة مرتدين ملابسهم الجديدة، بعضهم بأكمام سترات بالكاد تصل إلى أكواعهم، وكانت فروات الرؤوس قد عُلِّقت حول النقوش الشبكيّة المعدنية للمبنى كزينة لاحتفال همجي، ورُفعت الرؤوس المقطوعة على سواري فوق أعمدة المصابيح حيث يتأملون الآن، بأعينهم المحفورة والجامدة، الجلود الجافة لأقاربهم وأسلافهم المربوطين على واجهة مبنى الكاتدرائية الحجرية محدثة صوت طقطقة بفعل الرياح. أخيراً، عندما أُضيئت المصابيح بدت الرؤوس تحت الوهج الخفيف للأضواء العالية مثل أقنعة مأساوية، وخلال أيام ستصبح مرقطة بالأبيض ومليئة تماما بالحراشف بسبب روث الطيور التي تجثم فوقها.

*   *   *

(إنجل ترياس)، الحاكم، كان قد أُرسل إلى الخارج وهو شاب يافع ليتلقى العلم وكان مُطَّلعاً كثيراً على الأدب والفن الكلاسيكي،

وكان طالب لغات. كان أيضا رجلاً بين الرجال، ويبدو أن المحاربين الذين استأجرهم لحماية الولاية قد أثاروا بداخله شيئاً ما. عندما دعا نائب الحاكم (غلانتون) ورجاله لتناول العشاء، أجاب (غلانتون) أنه ورجاله لا يتناولون الطعام بشكل منفصل. تجاوز النائب الملاحظة بابتسامة وكذلك فعل (ترياس). وصلوا بشكل جيد، حالقين ومقصرين شعرهم ونظيفين بملابسهم وأحذيتهم الجديدة، وظهر هنود ديلاوير غريبين، بسيطين ومتقشفين بمعاطفهم التقليدية. اجتمعوا كلهم حول الطاولة المُعدّة من أجلهم. قُدِّم السيجار وصُبَّت كؤوس الشري (خمر إسباني)، والحاكم واقفا عند رأس الطاولة يحتفي بهم، ويعطي أوامره لموظفي التشريفات بالعناية بكل احتياجاتهم. قام الجنود على خدمتهم، كانوا يُحضرون كؤوساً إضافية، ويصبّون الخمر، ويشعلون السيجار بقداحة ذات حامل فضي خُصص فقط لهذه الغاية. كان القاضي آخر الواصلين، وكان مرتدياً بدلة مُهندمة من الكتان غير المبيّض، صُنعت له بعد ظهر ذلك اليوم نفسه. وقد استُهلك في صنعها أثواب كاملة من القماش وفِرق من الخياطين كذلك، وحُشرت قدماه في حذاء جميل من جلد الجدي الرمادي المُلمّع، وهو يحمل في يديه قبعة بنما صُنعت بوصل قبعتين أصغر من النوع نفسه مع بعضهما، واحتاج ذلك عملاً مضنياً لكي لا يظهر مكان الوصل إلا بصعوبة شديدة.

كان (ترياس) قد جلس في مكانه عندما ظهر القاضي، ولكن بمجرد أن رآه الحاكم عاد ووقف من جديد وتصافحا بحرارة، وأجلسه الحاكم على يمينه، ومباشرة بدءا التحدث بلغة لا يتكلمها أحد في تلك

الغرفة إلا بعض النعوت النابية القليلة التي تسللت من الشمال. جلس القسيس السابق مقابل الصبي ورفع حاجبيه وأشار إلى رأس الطاولة بحركة متأرجحة من عينيه. جلس الصبي الذي كان يرتدي أول ياقة مُنشّاة يمتلكها وأول ربطة عنق، صامتاً مثل دميّة خياط على تلك الطاولة.

في ذلك الحين كانت الطاولة قد امتلأت بالطعام، وأحضرت الصحون على عربات خاصة، وفيها لحوم سمك وطيور وبقر، ولحوم بريّة من الريف وخنّوص(*) مشوي على طبق كبير وأطباق خزفية عميقة من المقبلات وكعكات المربى ومرطبات وزجاجات خمر وبراندي من كروم عنب (إلباسو). وشُرِبَ نخب الوطن، ورفع مساعدو الحاكم كؤوسهم لأجل (واشنطن) و(فرانكلين)، وتجاوب الأمريكيون يتجاوبون معهم ويستذكرون المزيد من أبطال بلادهم. متجاهلين معنى الدبلوماسية، وحيث لم يذكروا أي اسم من عظماء الجمهورية الشقيقة. وانغمسوا بالأكل واستمروا هكذا حتى نفد كل ما على الطاولة أولاً ثم اتجهوا إلى موضع حفظ اللحوم والتموين الخاص بالقصر واستهلكوه أيضا. بُعث الرُّسل إلى المدينة لإحضار المزيد، ولكنه كان يتلاشى مباشرة، ويُرسل المزيد، إلى أن سدَّ طباخ (ريدل) الباب بجسده، وأغرق الجنود القائمون بالخدمة الصواني بالحلويات والمعجنات، وجلود اللحم المقلية، وقطع جبن- وكل ما استطاعوا إيجاده - ووضعوه على الطاولة.

(*) خنّوص: صغير الخنزير.

وضع الحاكم كأسه على الطاولة ونهض ليتحدث بلغته الإنجليزية ذات الجمل المنمَّقة، ولكن المرتزقة الجشعين المتنفخين الذين يتجشأون كانوا ينظرون حولهم بخبث ويطلبون المزيد من الشراب، وبعضهم لم يتوقف عن الصياح بالنَخب، والآن وصل انحلالهم الأخلاقي إلى شرب نخب العاهرات من مدن جنوبية مختلفة. استُقبل أمين الصندوق بالهتاف والصفير ورفرفة الأعلام. تولى (غلانتون) أمر الحقائب القماشية المختومة بخاتم الولاية الملكي، وقاطع الحاكم ثم نهض وأفرغ الذهب على الطاولة بين العظام والقشور وبرك الشراب المُراق ثم وزّع كومة الذهب بنصل سكينه بحيث أخذ كل رجل حصته المحددة بدون مراسم أكثر من ذلك. وبدأت فرقة موسيقية بعزف لحن حزين في إحدى زوايا الصالة، وأول من نهض كان القاضي الذي واكب العازفين وآلاتهم إلى قاعة الرقص حيث جلس عدد من النساء اللواتي استُـدعين بجانب الجدران على مقاعد خشبية، وكنَّ يلوحن لأنفسهن بمراوح بدون ارتباك ظاهر.

دخل الأمريكيون إلى قاعة الرقص فُرادى وأزواجا ومجموعات، دُفعت الكراسي لتستقر حيث وقعت. أضيئت المصابيح حول القاعة كلها بعاكساتها الصغيرة جداً، احتشد المحتفلون مشكّلين ظلالاً متعارضة مع بعضها. وقف صائدو فروات الرؤوس يبتسمون للسيدات، وأشكالهم فظّة بملابسهم المنكمشة، ويصكّون أسنانهم وهم مسلحون بسكاكين ومسدسات، ويبدون مجانين من عيونهم. تحدث القاضي مع أعضاء الفرقة وسرعان ما بدأوا بعزف لحن الرقصة الرُّباعية، ونتيجة ذلك بدأ

التمايل والرقص بينما رافق القاضي الدمث المتودد للنساء أول سيدة للرقص ثم واحدة ثانية من النساء بخطوات قام بها بلطافة وسهولة. عند منتصف الليل أعفى الحاكم نفسه وبدا أعضاء الفرقة الموسيقية ينسلّون خارجين. وقف عازف قيثارة أعمى من عازفي الشوارع خائفاً عند طاولة الوليمة بين العظام والأطباق الكبيرة، وتسللت مجموعة من العاهرات إلى قاعة الرقص. ساد إطلاق الرصاص من المسدسات ، ونزل السيد (ريدل)، الذي كان القنصل الأمريكي بالوكالة في المدينة، ليحتج على المعربدين ولكنه أوقِف. اندلع القتال. تبعثرت المفروشات، وقام رجال بالتلويح بأرجل الكراسي وحوامل الشمع. أمسك باثنتين من العاهرات وهوجمتا بنَضَد الطاولة (البوفيه) ووقعتا على الأرض فيما يشبه تحطم لكؤوس البراندي. خرج (جاكسون)، ساحباً مسدسيه، يترنح إلى الشارع ويقسم بأن يقتل ابن العاهرة، ذلك الرجل الأبيض طويل الأرجل. عند الفجر استلقت تلك الأشكال المخمورة فاقدة الحس تشْخر على الأرض بين رُقع الدم الجاف. واستلقى (باثكات) وعازف القيثارة نائمين على طاولة الوليمة وذراعاهما متشابكتان. تسللت عائلة من اللصوص على أطراف أصابعهم بين الحطام وأفرغوا جيوب النائمين، وكانت بقايا النار التي أتت على جزء كبير من أثاث الفندق تدّخن في الشارع أمام الباب.

هذه المشاهد ومشاهد أخرى شبيهة كانت تتكرر ليلة بعد ليلة. وقام المواطنون بتقديم خطاب إلى الحاكم، ولكنه كان مثل صبي المشعوذ الذي يمكنه أن يَستفزّ العفريت كي يفعل ما يريد منه، ولكنه لا

يستطيع بأي طريقة إيقافه مرة ثانية. أصبحت الحمّامات مواخيراً، وطُرد الخدم. وامتلأت النافورة ذات الحجارة البيضاء الموجودة في الساحة بالرجال العراة الثملين أثناء الليل. كانت الحانات تـُخلى وكأن ناراً شبّت فيها بمجرد ظهور أي اثنين من المجموعة، ووجد الأمريكيون أنفسهم في حانات أشباح والمشروب على الطاولات والسيجار ما يزال مشتعلا في منافض الرماد الفخاريّة. كانت الخيول تُمتطى في الداخل وفي الخارج، وعندما بدأ الذهب بالتناقص، وجد أصحاب المحلات أنفسهم مثقلين بديون مكتوبة على ورق الجزارين بلغة أجنبية مقابل جميع البضائع على الرفوف. بدأت المحلات بالإغلاق. وظهرت كتابات وخربشات بالفحم على الحيطان البيضاء. "الهنود أفضل" (بالإسبانية). خلت الشوارع في المساء من المشاة، وحُمِّلت فتيات المدينة الصغيرات على متن سفن ولم يَعُدْ أحد يراهن بعد ذلك.

في الخامس عشر من أغسطس/آب امتطوا خيولهم وخرجوا. وبعد أسبوع أشاع تجار مواشي أنهم يحاصرون بلدة (كويامي) على بُعد ثمانين ميلا في الشمال الشرقي.

* * *

كانت قرية (كويامي) لبضع سنين تدفع أتاوات سنوية يجمعها (غوميز) وعصابته. عندما دخل (غلانتون) ورجاله اعتُبروا كالقديسين. ركضت النساء بجانب خيولهم ليلمسن أحذيتهم، وقـُدِّمت الهدايا من كل نوع بإلحاح إليهم حتى كان كل رجل يمتطي حصانه وهو يحتضن

البطيخ والفطائر ودجاجاً مربوطاً جُمع في مقدمة سرجه. عندما خرجوا على أحصنتهم بعد ثلاثة أيام، كانت الشوارع فارغة، ولم يتبعهم إلى البوابات ولا حتى كلب واحد.

رحلوا باتجاه الشمال الشرقي إلى حيث تقع بلدة (بريسيديو) على حدود تكساس، وقادوا الخيول لتعبر في النهر ثم امتطوها وهم يقطرون ماءً خلال الشوارع. في هذه الأرض كان (غلانتون) مطلوباً القبض عليه. خرج لوحده إلى الصحراء وامتطى حصانه ثم نظر هو والحصان والكلب عبر الأرض المغطاة بالنباتات البرية وتلال حبوب الفلفل غير المثمرة والجبال والريف المنبسط المُشَّجر والسهل الممتد خلفه حيث توجد على بُعد أربعمائة ميل إلى الشرق الزوجة والطفل اللذان لن يراهما مرة ثانية. استطال ظله أمامه على مُغتسل الرمل الموصوص. لن يلحق به. خلع قبعته تاركا هواء المساء يُبرِّده، وأخيرا وضعها مرة ثانية وأدار حصانه ورجع.

تجوّلوا على الأرض المتاخمة للحدود لمدة أسابيع باحثين عن أثر للآباتشي. تنقلوا منتشرين على تلك الأرض المنبسطة، أدواتٌ قَدَرِيّة للتمزيق الفعلي، خارجين من العالم الذي واجهوه تاركين ما قد كان، وما لن يكون أبداً شبيها بما كان، محطماً على الأرض خلفهم. طيوف فرسان، شاحبون بالتراب، مجهولون في وطيس إطلاق النار من فتحات الشرفات. وفوق ذلك بدوا مجازفين تماماً، وبدائيين، وجنود احتياط، ومجردين من النظام. مثل مخلوقات صُنِعَت بالكامل من الحجارة، ووضعت بدون تسمية، وبدون أن يُنزعوا عن أطيافهم،

للتجول كوحوش ضارية وذات قدر مشؤوم وصامتة مثل أسطورة الغرغون(*) يمشون بتثاقل في الصحارى الوحشية لـ(غوندوانالاند) في زمن قبل أن تكون المُسمَّيات، وكل واحد كان الكل.

قتلوا حيوانات بريّة من أجل لحومها وأخذوا ما يحتاجونه وحَفِظوه بطريقة تخزين المؤن التي أخذوها عن القرى والمزارع التي مرّوا فيها. في مساء أحد الأيام وفي مدى رؤية بلدة (إلباسو) نظروا بعيداً نحو الشمال حيث يقضي الـ(جيلينوس) الشتاء وعرفوا أنهم لن يذهبوا إلى هناك. عسكروا تلك الليلة عند أحواض (هويكو)، وهي مجموعة أحواض من الحجارة الطبيعية في الصحراء. كانت الحجارة المحيطة بكل مكان مَحْمي مغطاة برسوم قديمة، وحالاً كان القاضي بينها ينسخ تلك الرسومات المحددة في دفتره ليأخذها معه. كانت رسومات عن رجال وحيوانات وعن الصيد، وكانت هناك طيور غريبة وخرائط سرية وغامضة، كما كانت هناك رسوم أحادية الرؤيا لتبرير كل خوف عند الإنسان والأشياء التي بداخله. من هذه القوالب المطبوعة - بعضها كان زاهيا بالألوان - كان هناك المئات، ومع ذلك مشى القاضي بينها بكل ثقة، راسماً تماماً الصور التي يريدها. عندما انتهى وكان ما يزال هناك ضوء، رجع إلى رف حجري معيّن وجلس لبرهة وتمعّن بالعمل هناك مرة ثانية. ثم نهض وبقطعة صخر صواني غير نقي مكسورة كشط إحدى التصاميم، دون أن يترك فيها أي أثر،

(*) أسطورة الغورغون: ثلاث أخوات في الميثيولوجيا الإغريقية مكسوات الرؤوس بالأفاعي بدلاً من الشعر، كان كل من ينظر إليهن يتحوّل إلى حجر.

فقط مكان وعر من الحجر الذي كانت عليه. ثم أخذ دفتره ورجع إلى المعسكر.

في الصباح اتجهوا إلى الجنوب. لم يتحدثوا إلا قليلا، ولم يتشاجروا فيما بينهم. خلال ثلاثة أيام صادفوا مجموعة (تيغواس) المسالمة المخيمين عند النهر وذبحوهم ولم يتركوا منهم أحداً.

في مساء ذلك اليوم جثوا حول النار التي كانت تهسهس بقطرات المطر الرقيقة الساقطة، لعبوا وتسامروا وكأن مصير السكان الأصليين كان أكيداً بواسطة قوة مختلفة تماماً. وكأن مصائر كهذه تُوقّع حدوثها في ذلك الصخر ذاته لأولئك الذين لديهم عيون لتقرأ. لم يحاول أي رجل أن يُقدّم حتى دفاعاً واهناً. تشاور (تودفين) والصبي مع بعضهما، وعندما انطلقا في ظهيرة اليوم التالي هرولاً بحصانيهما بجانب (باتكات). تابعوا طريقهم بصمت. أولاد العاهرات لم يضايقوا أحداً، قال (تودفين). نظر الرجل القادم من (فانديمن) إليه. ونظر إلى الأحرف الموشومة المزرقّة على جبهته والى الشعر السبط (غير المجعّد) والمُدهن الذي يتدلى من جمجمته عديمة الآذان. ونظر إلى عقد الأسنان الذهبية على صدره.

واصلوا طريقهم.

اقتربوا من الخيم الكبيرة البائسة في ضوء النهار الطويل الذي بدأ يتضاءل، وتقدّموا باتجاه الريح على طول الضفة الجنوبية للنهر حيث شمّوا رائحة دخان خشب نيران الطهي. عندما نَبَحت أول الكلاب،

نخز (غلانتون) حصانه ليتقدّم إلى الأمام، وخرجوا من بين الأشجار وعَبْر الشجيرات الخفيضة، ورقاب الخيول منحنية من بين الغبار، وشرهة مثل كلاب الصيد، وراكبو الخيول يضربونهم بالسياط ليتقدموا نحو ضوء الشمس حيث تبدو أشكال النساء، اللواتي نهضن من أعمالهن، جامدة وصلبة كصورة ظلّية لمدة دقيقة قبل أن يُصدِّقن تماما حقيقة هذا الغبار الشيطاني الذي يَتجه نحوهن بصوت يعلو. وقفن صامتات وعاريات الأقدام ومكسوات بقطن الريف غير المبيّض. كنَّ يمسكن مغارف طبخ وأطفالا عراة. عند أول إطلاق نار تعثرت دزينة منهن وسقطوا.

بدأ الباقون بالركض، وصار كبار السن يهزون أيديهم بعنف، والأولاد يترنحون ويرمشون في ضوء نار الرصاص. بضعة شباب ركضوا بأسهم مسحوبة وقُتلوا، ثم أصبح راكبو الخيول في كل أنحاء القرية يدوسون الأكواخ المصنوعة من الحشائش ويضربون بالهراوات أصحاب الأكواخ الذين يصرخون.

بعد الظلام بفترة طويلة وعندما أصبح القمر مرتفعاً، عادت جماعة من النساء اللواتي كن عند النهر يجففن السمك إلى القرية وتجولن وهن يولولن بين الحطام. بعض النيران مازالت تبعث دخاناً على الأرض، والكلاب تهرب من بين الجثث. وركعت امرأة عجوز عند الحجارة المتفحّمة أمام بابها ودسّت شجيرة داخل الفحم ونفخت على اللهب الصادر من الرماد وبدأت بتعديل القدور المقلوبة. كل من حولها من الأموات يرقدون وجماجمهم المسلوخة كأنها غشاء فيه ورم

مُزرق ومبلل، أو مثل شمام متلألئ يبرد فوق تلة على القمر. في الأيام التي تلت، تشققت رسوم الدم السوداء الهشة وتكسرت وانجرفت بعيداً حيث تُمحى كل آثار دمار أولئك الناس في بضعة دورات حول الشمس. وستنثر رياح الصحراء الملح على خرابهم ولن يبقى شيء، لا شبح ولا كاتب، ليخبر أي مهاجر خلال مروره أن أناساً عاشوا في هذا المكان وأنهم ماتوا فيه.

دخل الأمريكيون بلدة (كاريتزال) متأخرين بعد ظهر اليوم التالي، وزُينت خيولهم بفروات رؤوس الـ(تيغواس) الكريهة الرائحة. تحولت هذه البلدة تقريبا إلى حُطام. بقيت عدة بيوت خالية، وكان الحصن ينهار عائداً إلى الأرض التي ارتفع منها، وبدا الساكنون أنفسهم خالين من أي تعبير بسبب الرعب القديم. كانوا يراقبون مرور ذلك الأسطول المضرّج بالدم خلال شوارعهم بعيون سوداء وكئيبة. بدا راكبو الخيول وكأنهم قدِموا من عالم خرافي وخلّفوا وراءهم وصمة فساد كالصورة التِّلْويَّة(*) في العين، والهواء الذي عكَّروه صار متغيّرا ومشوشاً. مروا بجانب الجدران المحطمة للمقبرة حيث سُند الأموات في المحاريب وفُرشت الأرض بالعظام والجماجم والقدور المكسرة كبناء أثري. وظهر أناس آخرون ذوو مظاهر رثة في الشوارع المغبّرة وراءهم ووقفوا ينظرون إلى الخلف.

(*) الصورة التِّلْويَّة: إحساس بصري عادة يحدث بعد أن يكون المنبّه الخارجي الذي سبَّبه قد كفَّ عن العمل.

في تلك الليلة عسكروا عند نبع ماء حار أعلى تلة وسط الآثار القديمة للأبنية الإسبانية، ثم تعرّوا ونزلوا في الماء كمساعدي كهنة في قدّاس، بينما كانت ديدان بيضاء كبيرة تزحف بعيداً على التراب. عندما انطلقوا في الصباح كان ما يزال هناك بعض الظلام ، وظهر البرق بسلاسل متقطعة بعيداً إلى الجنوب، وصامتاً، والجبال المتقطعة بدت زرقاء وقاحلة في الخلاء. طلع النهار على منبسط من الصحراء ينبعث منه دخان معتم بسبب الغيوم حيث استطاع راكبو الخيول أن يُحصُوا خمس عواصف منفصلة متباعدة فوق شواطئ الأرض المدوّرة. كانوا يمرون فوق تراب نقي، وكانت الخيول تلهث بشدّة مما اضطر الرجال إلى الترجل عنها وسياقتها، صاعدين على كثيب شديد الانحدار حيث نسف الريح الزجاج البركاني الخفيف من سطح الأرض كالزَّبَد في أمواج البحر، وتجمّع الرمل وتشكّل بشكل المحار المروحي ولم يكن يوجد شيء هناك ما عدا بعض العظام المصقولة والمُلقاة عشوائيا. كانوا طوال اليوم بين الكثبان، وفي المساء عند نزولهم من آخر تلة رملية منخفضة إلى السهل في الأسفل بين الأشواك المتصالبة كانوا جميعهم رجالاً وحيوانات عطشى ومنهكين. وحلّقت النسور وهي تصيح من فوق بغل ميت وانطلقت باتجاه الغرب نحو أشعة الشمس في حين كانوا يسوقون الخيول إلى السهل.

بعد ليلتين عسكروا في العراء عند ممر في الجبال واستطاعوا أن يروا الأضواء البعيدة للمدينة أسفل منهم. جثوا بجانب سلسلة جبال من الطين الصَّفحي عند فجوة الجدار التي تواجه الريح في حين كانت

النار تتأرجح مع الريح كحركة المنشار، وراقبوا المصابيح تهتز في الأرض الزرقاء في الليل على بُعد ثلاثين ميلاً. عَبَر القاضي أمامهم في الظلام. وتدحرجت شرارات من النار مع الريح. وجلس مكانه بين الصفائح المتداخلة من الصخر الصلصالي، وجلسوا مثل مخلوقات من العصر القديم يراقبون المصابيح البعيدة وهي تُطفأ واحداً تلو الآخر، إلى أن تقلَّصت المدينة على السهل إلى نواة صغيرة من الضوء والتي كان من الممكن أن تكون شجرة تحترق أو مخيماً منعزلاً لمسافرين أو ربما لا توجد نار على الإطلاق.

* * *

عندما خرجوا من خلال البوابات الخشبية العالية لقصر الحاكم، كان يقف هناك جنديان يعدُّونهم وتقدّما إلى الأمام وأخذا حصان (تودفين) من العِذار. مرّ (غلانتون) بجانبه عن اليمين ممتطيا حصانه وتابع طريقه. وأخذ (تودفين) موقف سيطرة.

(غلانتون)!

أصدر راكبو الخيول أصوات صلصلة على الشوارع. ومن خلف الأبواب تماما نظر (غلانتون) إلى الوراء. كان الجنود يتحدثون إلى (تودفين) بالإسبانية وكان أحدهما يحمل بندقية معه.

لم يتعرض لي أحد، قال (غلانتون).

سأقتل هذين الغبيين حيث يقفان.

بصق(غلانتون). نظر إلى الشارع ونظر إلى (تودفين). ثم ترجّل وقاد حصانه عائدا إلى الساحة، وقال: لنذهب (بالإسبانية). ورفع بصره إلى (تودفين). ترجل عن حصانك.

واصلوا السير خارج البلدة تحت المرافقة بعد يومين. أكثر من مائة جندي يرافقونهم على طول الطريق، وكانوا غير مرتاحين بملابسهم وأسلحتهم المتنوعة، يحْرِفون خيولهم ويضربونها بأحذيتهم ليتجهوا إلى مخاضة النهر حيث توقفت خيول الأمريكيين لتشرب. عند سفح التلة وفوق القناة كبحوا خيولهم ووقفوا في جانب واحد، وشكّل الأمريكيون رتلاً وشقوا طريقهم ملتفّين خلال الصخور والصبّار وتلاشوا بين الظلال ثم اختفوا.

اتجهوا إلى الغرب في الجبال. ومرّوا خلال قرى صغيرة رافعين قبعاتهم للناس الذين سيذبحوهم قبل أن ينتهي الشهر. مرّوا بقرى طينيّة صغيرة تمتد مثل بلاد ضربها الطاعون بجثث تتعفن في الحقول ومواشٍ لم يُرحّلها الهنود معهم تتجول ساعة تشاء ولا يوجد من يرعاها أو يسوقها، وقرى عديدة خالية تماما من سكانها الذكور حيث جثى الأطفال والنساء برعب في أكواخهم مُنصتين إلى أن تلاشت آخر ضربة حافر بعيداً.

كانت هناك في بلدة (ناكوري) حانة حيث ترجّل أفراد المجموعة واحتشدوا عند المدخل وجلسوا على الطاولات. تبرّع (توبين) بحراسة

الخيول. ووقف يراقب أعلى وأسفل الشارع. لم ُيعرْه أحد أي اهتمام. هؤلاء الناس رأوا الكثير من الأمريكيين، قوافل منهم ذوو مظاهر رثة ومنهكون غادروا بلدتهم قبل أشهر، ونصفهم أصيب بالخبل من فداحة جرائمهم بوجودهم على هذه الصحراء الشاسعة المشبعة بالدم، يصادرون الطعام واللحوم أو يطلقون العنان لميل كامن في الاغتصاب بين فتيات البلدة داكنات العيون. مرت الآن ساعة تقريبا على منتصف النهار، وكان عدد من العمال والتجار يعبرون الشارع باتجاه الحانة. عندما مرّوا بحصان (غلانتون) نهض كلب (غلانتون) وانتصب بعدوانية. انحرفوا قليلا ثم واصلوا سيرهم. في نفس اللحظة عَـبرت الساحة مجموعة من كلاب القرية، خمسة أو ستة منهم، وأعينهم نحو كلب (غلانتون). وبينما كانوا يفعلون ذلك مرّ مشعوذ يقود جنازة وانعطف عند الزاوية إلى الشارع آخذاً سهماً نارياً من بين الأسهم الكثيرة تحت ذراعه ورفعه نحو السيجارة في فمه ثم قذفه في الساحة حيث انفجر. جفلت جماعة الكلاب وتقهقرت إلى الوراء ماعدا اثنين تابعا طريقهما في الشارع. من بين الخيول المكسيكية المربوطة عند حاجز أمام الحانة حرّك بعضها إحدى أرجلها الخلفية فجأة، وباقي الجياد تحركت بعصبية. لم يرفع كلب (غلانتون) بصره عن الرجال المتجهين إلى الباب. ولم تُحرك أي من الخيول الأمريكية حتى أذناً. تنحى الكلبان اللذان عبرا الشارع أمام موكب الجنازة بعيداً عن رفس الخيول وتقدما نحو الحانة. وانفجر سهمان ناريان آخران في الشارع

وسرعان ما ظهر باقي الموكب للعيان، كان عازف كمان وعازف بوق يعزفان لحناً سريعاً ومفعماً بالحياة. انحشرت الكلاب بين موكب الجنازة وبين خيول المرتزقة فتوقفوا وبسطوا آذانهم وبدأوا يمشون جانبيا ويهرولون. أخيراً اندفعوا فجأة إلى الشارع خلف حاملي النعش. هذه التفاصيل كانت بديلاً أفضل للعمال من دخولهم إلى الحانة. استداروا ووقفوا وظهورهم إلى الباب حاملين قبعاتهم إلى صدورهم. مرّ حاملو النعش وعلى أكتافهم تابوت واستطاع المشاهدون رؤية وجه كئيب لامرأة شابة في ثوب دفنها بين الورود يتأرجح كقطعة خشب. وأتى وراءها كفنها المصنوع من جلد حيوان مسوّد بسُخام المصابيح، ويحمله حمّالون يرتدون ملابس داكنة، ويبدو مثل قارب جلدي قديم. تقدّم في المؤخرة مجموعة من النواحين، بعض الرجال يشربون، والنساء بشالاتهن السوداء المغبّرة قاومن ذرف الدموع من عيونهن التي تشبه الثقوب في حوض النهر، ونظر الأولاد الحاملون للزهور بخجل إلى المشاهدين أثناء مرورهم بجانبهم.

داخل الحانة لم يلبث أن جلس الأمريكيون على الكراسي حتى سمعوا دمدمة بإهانة من طاولة قريبة مما جعل ثلاثة أو أربعة منهم يهبّون واقفين على أقدامهم. خاطب الصبي الجالسين على الطاولة بلغته الإسبانية البائسة وسأل مَن مِن أولئك الثملين البائسين قد تفوّه بذلك. وقبل أن يعترف أي منهم انفجر أول سهم ناري للجنازة في الشارع كما هو شائع، واتجه جميع أفراد المجموعة الأميركيين نحو الباب.

نهض أحد الرجال الثملين عن الطاولة على قدميه ومعه سكين وذهب وراءهم مترنحا. ناداه أصدقاؤه، ولكنه لوّح لهم مُبتعداً.

كان (جون دورسي) و(هندرسون سميث)، فتيان من ميسوري، أول من خرج إلى الشارع، ثم تبعهم (تشارلي براون) والقاضي. تمكّن القاضي من الرؤية من فوق رؤوسهم ثم رفع إحدى يديه لأولئك الذين يقفون خلفه. كان التابوت قد مرّ للتو. وانحنى عازف الكمان وعازف البوق انحناءات بسيطة الواحد للآخر، وأظهرت خطواتهما اللون العسكري من اللحن الذي يعزفانه. إنها جنازة، قال القاضي. في الوقت الذي تكلم فيه كان الرجل الثمل ومعه السكين يترنح عند المدخل وأغمد نصل السكين في ظهر رجل يدعى (غريملي). لم ير أحد ذلك سوى القاضي. وضع (غريملي) إحدى يديه على الإطار الخشبي للباب، وقال: لقد قُتلت. سحب القاضي مسدس حزامه وسدده من فوق رؤوس الرجال وأطلق النار على الرجل الثمل في منتصف جبهته.

كان الأمريكيون خارج الباب ينظرون جميعهم إلى ماسورة مسدس القاضي عندما أطلق الرصاص ومعظمهم انحنى إلى الأرض. تدحرج (دورسي) مبتعداً ثم نهض واصطدم بالعمّال الذين كانوا يؤدون احترامهم للموكب الذي كان ماراً. كانوا يضعون قبعاتهم عندما أطلق القاضي الرصاص. سقط الرجل المقتول إلى الخلف داخل الحانة والدم يتدفق من رأسه. عندما استدار (غريملي) استطاعوا رؤية المقبض الخشبي يظهر من قميصه المضرج بالدم.

ظهرت سكاكين أخرى في المشهد. وتصارع (دورسي) مع المكسيكيين بالأيدي، وسحب (هندرسون سميث) مِدْيته الضخمة وقطَعَ بها يد أحد الرجال نصف قَطْعة، ووقف الرجل والدم الشرياني الغامق يتناثر بين أصابعه وهو يحاول أن يمسك الجرح ليغلقه. رفع القاضي (دورسي) على قدميه وعادا نحو الحانة والمكسيكيون يقومون بمراوغتهم ويطعنون بسكاكينهم نحوهم. من الداخل كان يأتي صوت إطلاق نار متواصل وامتلأ إطار الباب بالدخان. استدار القاضي نحو الباب وداس على الجثث الكثيرة المنتشرة هناك. وفي الداخل أزّت المسدسات الضخمة بدون انقطاع، وتناثر المكسيكيون العشرون الذين كانوا في الغرفة هنا وهناك وبكل وضع، وقد مزقهم الرصاص إلى قطع بين الكراسي والطاولات المقلوبة، وقُذفت الشظايا الطرية من الخشب، وامتلأت الجدران بالثقوب في كل مكان بفعل الطلقات المخروطية. اتجه الناجون نحو ضوء النهار عند المدخل، فقابل أول واحد منهم القاضي وحاول طعنه بسكينه. ولكن القاضي كان مثل القطة حيث قفز إلى جانب الرجل وقبض على ذراعه وكسرها ورفع الرجل إلى الأعلى من شعره، ووضعه مقابل الحائط وابتسم له، ولكن الرجل بدأ ينزف من أذنيه وتدفق الدم بين أصابع القاضي وفوق يديه، وعندما حرره القاضي كان هناك شيء ما في رأسه وانزلق على الأرض ولم ينهض. وقوبل أولئك الذين كانوا وراءه بضرب متواصل من نيران المسدسات، وازدحم المدخل بالجثث والمحتضرين في الوقت الذي أطبق

فيه الصمت داخل الغرفة. وقف القاضي وظهره إلى الحائط. واندفع الدخان مثل الضباب وتجمّدت الأشكال المحتجبة بالدخان. في وسط الغرفة كان (تودفين) والصبي يقفان ظهرا إلى ظهر ومسدساتهما في وضع مُياسرة(*) مثل المبارزين. دخل القاضي من الباب وصرخ عبر الجثث المتكدسة للقسيس السابق حيث كان يقف بين الخيول ومسدساته مسحوبة.

الهاربون أيها القِس، الهاربون.

لم يكونوا ليطلقوا الرصاص على الرجال علناً في بلدة كبيرة كهذه، ولكن لم يكن هناك مفر مِن فعل ذلك. كان ثلاثة رجال يركضون نحو أسفل الشارع، واثنان آخران يعدوان عبر الساحة. ولم يكن هناك أحد غيرهم. تقدم (توبين) من بين الخيول وسدد المسدس الكبير بكلتا يديه وبدأ بإطلاق النار، كان المسدس يرتج ثم ينسحب إلى الخلف والرجال الذين يركضون يتهاوون ويقعون ورؤوسهم في المقدمة. أطلق النار على الاثنين اللذين في الساحة ثم تأرجح وأطلق النار على الراكضين في الشارع. آخر رجل سقط عند مدخل مبنى. واستدار (توبين) وسحب المسدس الآخر من حزامه وتقدّم إلى الجانب الآخر للحصان ونظر إلى أعلى الشارع وعبَر الساحة بحثا عن أي إشارة لحركة هناك أو بين المباني. ابتعد القاضي عن مدخل الباب إلى

(*) المُياسرة: الوضع الذي يكون عليه المسدس حين يُحمل بالعرض وماسورته قرب الكتف اليسرى.

داخل الحانة حيث وقف الأمريكيون ينظرون إلى بعضهم البعض وإلى الجثث بشيء من التعجّب. نظروا إلى (غلانتون). قطعت نظراته الغرفة المليئة بالدخان. كانت قبعته موضوعة على الطاولة. مشى عبْر الغرفة وأحضرها ثم وضعها فوق رأسه وعدّلها. نظر حوله. كان الرجال يملأون الحجيرات الفارغة في مسدساتهم. شَعْر، أيها الفتيان، قال (غلانتون). حبل المشنقة لم يَلُف على هذه المهنة بعد.

عندما غادروا الحانة بعد عشر دقائق كانت الشوارع قد هُجرت. سلخوا فروات رؤوس جميع الجثث وسحبوها على الأرض التي كانت من الطين الجاف وأصبحت الآن طيناً بلون الخمر. كان هناك ثمانية وعشرون مكسيكيا داخل الحانة وثمانية آخرون في الشارع بمن فيهم الخمسة الذين قتلهم القِس السابق. امتطوا خيولهم. جلس (غريملي) مرتخيا على جنبه بجانب حائط المبنى الطيني. لم يرفع بصره إلى الأعلى. كان يحمل مسدسه في حجره وينظر إلى الشارع، واستداروا وتابعوا طريقهم عند الجانب الشمالي من الساحة ثم اختفوا.

مضت ثلاثون دقيقة قبل أن يظهر أي شخص في الشارع. وتكلّموا بالهمس. وعندما اقتربوا من الحانة ظهر أحد الرجال من الداخل عند المدخل مثل شبح لعْين. كان قد سُلخت فروة رأسه والدم يتدفق إلى داخل عينيه، وكان ُيغلق ثقباً كبيراً في صدره حيث يظهر َزَبد زهري اللون يخرج ويدخل مع حركة تنفسه. وضع أحد المواطنين يديه على كتفه، وقال:

إلى أين تذهب؟ (بالإسبانية)

إلى المنزل. (بالإسبانية)، قال الرجل.

* * *

كانت البلدة التالية على بُعد مسيرة يومين داخل سلاسل الجبال. لم يعرفوا أبداً ماذا كانت تُسمى، وفيها مجموعة من الأكواخ الغائصة في الطين على النجد القاحل. عندما دخلوها ركض الناس أمامهم مثل لعبة كرّ وفرّ. أثارت صرخاتهم لبعضهم البعض أو ربما ضعفهم الواضح شيئا ما داخل (غلانتون). راقبه (براون). وكز حصانه ليتقدّم وسحب مسدسه، وأخضِعت هذه القرية الصغيرة المُخدَّرة حالاً لمجزرة صاخبة. العديد من الناس كانوا يركضون نحو الكنيسة حيث ركعوا وهم يتشبثون بالمذبح، وسُحبوا من ذلك الملجأ وهم يولولون واحداً تلو الآخر، وذبحوا واحدا تلو الآخر وسُـلخت فروات رؤوسهم على أرض هيكل الكنيسة. عندما مرّ راكبو الخيول من تلك القرية نفسها بعد أربعة أيام كان الأموات ما يزالون في الشوارع، وكانت الصقور والخنازير تقتات عليهم. راقبتهم الطيور والحيوانات في صمت كالكومبارس في حلم عندما مرّ بهم أفراد المجموعة. ولمّا اختفى آخر فرد منهم بدأوا يقتاتون مرة ثانية.

انطلقوا خلال الجبال بدون استراحة. مشوا على ممر ضيق خلال غابات الصنوبر السوداء في النهار وفي الظلام وفي سُـكون إلا من

قرقعة مسمار صغير وصوت تنفس الخيول. استلقت محارة رقيقة من القمر مقلوبة فوق القمم الوعرة. دخلوا إلى بلدة جبلية بالضبط قبل بزوغ النهار حيث لم يكن هناك لا مصباح ولا حارس ولا كلب. وجلسوا في الفجر الرمادي بجانب حائط ينتظرون ضوء النهار. صاح الديك. وانصفع باب. وخرجت امرأة عجوز باتجاه الممر الضيق بعد جدران حظيرة الخنازير الوسخة، وعبر السَّديم حاملة زوجاً من الجرات. نهضوا. كان الطقس بارداً وظهرت أنفاسهم حولهم كسحابة من دخان. أنزلوا القوائم من السياج وساقوا الخيول خارجه. صعدوا في الشارع. وتوقفوا. وأخذت الخيول تمشي جانبيا وتضرب الأرض من البرد. كبح (غلانتون) حصانه وسحب مسدسه.

مرّت مجموعة من الجنود يمتطون خيولهم من وراء الحائط عند الطرف الشمالي من القرية واستداروا إلى داخل الشارع. كانوا يلبسون قبعات عسكرية عالية مزدانة بريشة ووجوههم مغطاة بصفائح معدنية، وكان شعر الخيول مزيناً بالريش، وكانوا يرتدون سترات خضراء أطرافها محدّدة باللون القرمزي وأوشحة قرمزية، ومسلحين برماح وبنادق، وخيولهم المغطاة بأغطية مزركشة جميلة، دخلت الشارع تمشي مشية جانبية وتقفز، كانوا فرسانا يمتطون خيولاً، وجميعهم شبان جذابون. نظر أفراد المجموعة إلى (غلانتون). أدخل مسدسه في قِرابه وسحب البندقية. رفع كابتن حاملي الرماح سيفاً وحيد الحد ومعقوفاً ليوقف الرتل. في اللحظة التالية امتلأت الشوارع بدخان البنادق وسقطت دزينة من الجنود على الأرض إما ميتون أو محتضرون.

تقهقرت الخيول وصهلت ووقعت إلى الوراء فوق بعضها، وصار الرجال بدون خيول ونهضوا يصارعون للإمساك بها. مَزَّقت الطلقة الثانية صفوفهم. ووقعوا في ارتباك وحيرة. سحب الأمريكيون مسدساتهم ووكزوا خيولهم لتتقدم في الشارع.

كان الكابتن المكسيكي ينزف من جرح برصاصة في الصدر ووقف على الرِكاب ليستلم المسؤولية بسيفه. رماه (غلانتون) برصاصة في رأسه ودفعه بقدمه من فوق حصانه وأطلق الرصاص على التوالي على ثلاثة رجال خلفه. التقط جندي على الأرض رمحاً وركض باتجاه (غلانتون) ولكن أحد راكبي الخيول انحنى إلى الأسفل خارج ذلك التجمهر الوحشي وقطع حنجرته وتابع طريقه. في رطوبة الصباح تعلـَّق الدخان الكبريتي فوق الشارع كغطاء رمادي، ووقع حاملو الرماح المبهرجين بالألوان تحت الخيول في ذلك الضباب الخطِر كالجنود المذبوحين في حلم فاغري العيون ومتخشبين وصامتين.

بعض الحراس في المؤخرة تدبروا إدارة خيولهم إلى الخلف وانطلقوا إلى أعلى الشارع، وكان الأمريكيون يضربون الخيول التي لا تحمل فرساناً بمواسير بنادقهم، والخيول تندفع وتدور، والرِكاب ترتد إلى الخارج، وتصهل بصوت عال بأفواهها الطويلة وتدوس الجثث تحت حوافرها. ضربوهم مرة أخرى وحثـّوا خيولهم لتعبر الشارع حيث بدأ يضيق وانطلقوا إلى الجبل وأطلقوا الرصاص خلف حاملي الرماح الفارّين وهم ينطلقون مسرعين أعلى الطريق ويصدرون صوت قرقعة بالحجارة الصغيرة.

أرسل (غلانتون) مجموعة من خمسة رجال ليلحقوا بهم، ورجع هو والقاضي و(بانكات). التقوا ببقية المجموعة ورجعوا ثم اتجهوا إلى الأسفل وسلبوا ما في الجثث حيث ترقد في الشارع مثل أعضاء فرقة موسيقية ميتين، وحطموا بنادقهم على جدران البيوت وكسروا سيوفهم ورماحهم. وعندما بدأوا في الخروج التقوا بالخمسة عائدين. ترك حاملو الرماح الطريق وتبعثروا في الغابات. بعد ليلتين وهم معسكرين على هضبة منعزلة شديدة التحدّر نظروا فوق السهل الأوسط الشاسع واستطاعوا أن يروا بقعة ضوء بعيداً في الصحراء مثل انعكاس نجم منفرد في بركة من الظلام المُطلق.

تشاوروا فيما بينهم. وعلى الطاولة الحجرية غير المصقولة تلوّت ألسنة لهب نيرانهم وتمعّنوا في الظلام الدامس أسفل منهم حيث سقط بعيداً مثل وجه العالم الشفاف المشقق.

كم تعتقد أنهم يبعدون؟ قال (غلانتون).

هزّ (هولدن) رأسه. قد يكونون على بُعد مسيرة نصف يوم منّا. عددهم ليس أكثر من اثني عشر أو أربعة عشر. لن يرسلوا رجالاً يتقدمونهم.

كم نبعد عن مدينة تشيهواهوا؟

أربعة أيام. ثلاثة. أين (ديفي)؟

استدار (غلانتون). كم هي المسافة إلى تشيهواهوا يا (ديفيد)؟

وقف (براون) وظهره إلى النار. وأومأ برأسه. إذا كانوا أولئك هم فسيكونون هناك في ثلاثة أيام. أتعتقد أن بإمكاننا أن ندركهم؟

لا أعلم. ممكن أن يعتمد ذلك على ما إذا كانوا يتوقعون أننا سنكون وراءهم.

استدار (غلانتون) وبصق في النار. رفع القاضي ذراعاً شاحبة عارية وتعقب شيئاً ما في ندبة عليه بإصبعه، وقال: إذا تمكّنا من الخروج من هذا الجبل عند بزوغ ضوء النهار، أعتقد أنه يمكننا أن نباغتهم. وإلا فمن الأفضل أن نتوجه إلى (سونورا).

قد يكونون من (سونورا).

إذن من الأفضل أن نذهب ونقتلهم.

يمكننا أخذ فروات الرؤوس تلك إلى (أوريس).

مسّت النار الأرض مسّاً خفيفاً، ثم عادت وارتفعت مرة ثانية. من الأفضل لنا أن نذهب ونقتلهم، قال القاضي.

عند الفجر امتطوا خيولهم وانطلقوا فوق السهل، كما قال القاضي، وفي تلك الليلة تمكّنوا من رؤية نيران المكسيكيين منعكسة في السماء إلى الشرق خلف منعطف الأرض. واصلوا طريقهم طوال اليوم التالي وطوال الليل، يهتزون ويترنحون مثل جماعة من المصابين بالشلل التشنجي وهم نائمون فوق سروجهم. في صباح اليوم الثالث

استطاعوا رؤية راكبي الخيول أمامهم على السهل بشكل ظلال مقابل الشمس، وفي المساء استطاعوا أن يُحصوا أعدادهم وهم يبذلون جهداً كبيراً فوق ذلك القفر الأصم المهجور. عندما ارتفعت الشمس بدت جدران المدينة شاحبة ورقيقة في الضوء المرتفع على بُعد عشرين ميلاً إلى الشرق. وكانوا جالسين على خيولهم. كان حاملو الرماح خارج الطريق على بعد عدة أميال إلى الجنوب منهم. لم يكن عندهم سبب للوقوف ولا أمل فيه أكثر من الاستمرار بالركوب. وفي الوقت الذي كانوا يواصلون فيه طريقهم، تابع الأمريكيون تقدمهم مرة ثانية.

لفترة من الوقت تابعوا المسير بشكل متواز تقريباً نحو بوابات المدينة، وأفراد الفريقين ذوو المظاهر الرثة وملوَّثون بالدماء. دعاهم (غلانتون) للاستسلام ولكنهم واصلوا المسير. سحب بندقيته. كانوا يمشون بتثاقل على جانب الطريق مثل المخبولين. أوقف حصانه الذي وقف وأرجله متباعدة وخواصره تلهث، وسدد (غلانتون) البندقية وأطلق النار.

معظمهم لم يَعد معه أي سلاح. كان هناك تسعة منهم، توقفوا واستداروا ثم صوبوا رماحهم عبر تلك الأرض المتقطّعة بالحجارة والشجيرات وقُتِلوا جميعا في ظرف دقيقة واحدة.

أمسكت الخيول وسِيقت إلى الطريق ومُزقت السروج وأغطيتها المزركشة. عُريت الجثث وحُرقت ملابسهم وأسلحتهم بالإضافة إلى

السروج وباقي العدّة، وحفر الأمريكيون حفرة في الطريق ودفنوهم في قبر جماعي، وبدت الجثث العارية بالجروح التي عليها كضحايا تجارب عمليات جراحية ألقوا في حفرة يحدّقون دون رؤية في سماء الصحراء في الوقت الذي اندفعت فيه الأوساخ والقاذورات فوقهم. داسوا فوق تلك البقعة بخيولهم حتى بدت شبيهة جداً بأرض الطريق مرة ثانية. جُرَّت زُنْد المسدسات والسيوف وحلقات السروج (الِركاب) من رماد النار وحُملت بعيداً ثم دُفنت في مكان منفصل، وأُجبرت الخيول التي أصبحت بدون فرسان على الشرود في الصحراء، وفي المساء حَمَلت الرياح الرماد بعيداً، وعصفت الريح في الليل ونَفَخَت آخر القِطع المنبعث منها دخان وحُملت آخر الشرارات الهشة الهاربة في الهواء كشرارات تسقط في ظلام العالم أجمعه.

دخلوا المدينة منهكين وقذرين ورائحتهم تفوح بدم المواطنين الذين كانوا قد تعاقدوا على حمايتهم. تدلَّت فروات رؤوس القرويين المذبوحين من نوافذ منزل الحاكم، وعُوقب الموالون فأُفرغت الخزينة وهُجرت (سوسيداد) وألغيت المكافآت. في خلال أسبوع من خروجهم من المدينة أُعلن عن ثمانية آلاف بيزو ثمنا لرأس (غلانتون). امتطوا خيولهم إلى الشمال قاصدين (إل باسو)، ولكن حتى قبل أن تختفي المدينة عن أنظارهم، أداروا خيولهم البائسة إلى الغرب واتجهوا، مفتونين ومغرمين إلى حد بعيد بزوال الشمس الأحمر لذلك اليوم، نحو أراضي المساء وجحيم الشمس البعيد.

* * *

-14-

عواصف جبلية - أرض محروقة، أرض مهجورة (بالإسبانية) - (جيسس ماريا) - النُزل - أصحاب المحلات - قبو حفظ الخمور - عازف الكمان - القسيس - الأرواح (بالإسبانية) - الموكب - قبض الأرواح (بالإسبانية) - نوبة (غلانتون) - كلاب للبيع - القاضي يُشعوذ - الراية - إطلاق نار - هجرة جماعية - القيادة (بالإسبانية) - دم وزئبق - في مخاضة النهر - جاكسون يُسترجع - الغابة - طبيب أعشاب - القاضي يجمع عينات - وجهة النظر في عمله كعالم - (آوريس) - الجماهير - المتسولون (بالإسبانية) - الفاندانغو (رقصة إسبانية) - كلاب منبوذون - (غلانتون) والقاضي

* * *

على طول الطريق نحو الشمال سَحَبت الأمطار أجزاء لولبية لنباتات متسلقة سوداء من السحابات الرعدية مثل آثار من ضوء أسود يسقط في كأس كبيرة، وفي الليل استطاعوا أن يسمعوا صوت قرع المطر على بعد أميال في البراري. صعدوا خلال ممر صخري وأظهر البرق شكل الجبال المرتعشة البعيدة ودوّى على الصخور حولها، وخيوط نار زرقاء بالقرب من الخيول تشبه عناصر متوهجة لا يمكن تشتيتها. أضواء نيران معادن مصهورة ناعمة كانت تقترب من حديد عِدّة الحرب، وسالت أضواء زرقاء وسائلة على مواسير البنادق.

جفلت الأرانب الكبيرة المجنونة وتوقفت في الوهج الأزرق، وفي الأعلى وبين الجروف التي ُتصدر أصوات رنين جثمت الصقور تداعبها بريشها أو فتحت عيونها الصفراء على صوت الرعد الذي يهزّ الأرض. واصلوا طريقهم لأيام تحت المطر، وركبوا تحت المطر والبَـرَد، ثم ركبوا تحت المطر مرة ثانية. في هذه العاصفة عبروا السهل الغارق في الفيضان وأشكال أقدام الخيول منعكسة في الماء بين الغيوم والجبال، وتقدم راكبو الخيول مرتخين، ومتشككين بحق في المدن المومضة على الشاطئ البعيد للبحر الذي مشوا عليه بشكل عجيب. تسلّقوا عبر الأراضي العشبية الممتدة حيث جفلت العصافير الصغيرة وزقزقت في الرياح، ونهضت الصقور بصعوبة من بين العظام بأجنحة تهدر بصوت هووب هووب كلعبة طفل تتدلى من خيط، وفي غروب الشمس الأحمر تمتد صفحات الماء على السهل أسفل منهم كأنها فيضان من الدم.

اجتازوا مَرْجاً على أرض مرتفعة مفروشة بالأزهار البرية، مساحات شاسعة من زهرة الشيخ والزينيَّة وزهور الجنتيانا ذات اللون البنفسجي الغامق والمعرشات البرية لزهرة نجمة الصباح الزرقاء، والسهل الواسع من البراعم الصغيرة التي تمتد إلى الأمام مثل نسيج قطني مخطط إلى أبعد أطراف الأرض المسننة الزرقاء المغطاة بطيف رقيق من الضباب وطبقات صلبة مرتفعة من العدم كمؤخرة حيوانات بحرية في فجر ديفوني(*). بدأت تمطر ثانية، وواصلوا طريقهم متدلين تحت

(*) ديفوني: نسبة إلى ديفونشاير في إنكلترا.

سترات واقية من المطر مقطوعة من جلود حيوانات دهنية نصف مُعالجة، ويضعون قلنسوات من تلك الجلود البدائية تحت المطر الرمادي الجارف، وكأنهم أمناء طائفة غامضة بُعثوا للهداية بين وحوش الأرض أنفسهم. بدت الأرض أمامهم غائمة جدا ومظلمة. واصلوا طريقهم خلال الشفق الطويل وغروب الشمس ولم يسطع أي قمر، وإلى الغرب ارتعدت الجبال مرة بعد مرة بأشكال مضطربة ثم توهجت في ظلام نهائي. وهسهس المطر في أرض الليل الأسود. صعدوا إلى سفوح التلال بين أشجار الصنوبر والصخور الجرداء، ومرّوا خلال أشجار العرعر والصنوبر والصبّار الكبير النادر والسيقان المرتفعة لنبات اليُكة ببراعمه الباهتة ساكنة وغريبة بين النباتات دائمة الخضرة.

عند المساء اتبعوا سيلاً جبلياً في ممر وعر مليء بالصخور المكسوة بالطحالب، ومرّوا تحت كهوف مظلمة حيث يقطر الماء وينتشر وله طعم معدني، ورأوا الخيوط الفضية للشلالات تنقسم فوق سطح الهضاب شديدة التحدّر التي ظهرت كعلامات وعجائب في السماء، وكانت خلفية مَنْشَئِها مظلمة جداً. عبروا خلال الغابة المعتمة وخلال منطقة من الحجارة المشققة حيث صخور الجلمود الكبيرة مقسومة نصفين وسطوحها مصقولة وغير منتظمة، وعلى المنحدرات ذات الأرض المليئة بالحديد توجد ممرات قديمة أحدثتها النيران والعظام المتفحمة لأشجار تشوّهت بفعل العواصف الجبلية. في اليوم التالي بدأوا يقابلون نبات الإيلكْس والبلوط، وغابات الخشب الصلب الشبيهة جدا بتلك التي غادروها في شبابهم. في الجيوب على

المنحدرات الشمالية انتشر البَرَد متداخلاً ببعضه مثل القشور بين أوراق الأشجار، وكانت الليالي باردة. تجوّلوا في الأراضي المرتفعة أعمق داخل الجبال، هناك حيث اتخذت العواصف عرائنها، كانت منطقة مُتقدَة وذات قعقعة متواصلة حيث يجري اللهب الأبيض فوق القمم، وتحمل الأرض رائحة حريق الصوان المُكسّر. في المساء دعتهم الذئاب في الغابات المظلمة من العالم السفلي وكأنها أصدقاء الإنسان، وترنح كلب (غلانتون) وهو يئن بين مفاصل أرجل الخيول المتصلة.

بعد تسعة أيام من خروجهم من تشيهواهوا مرّوا خلال ممر في الجبال وبدأوا بالنزول بواسطة ممر وعر ينعطف بجانب واجهة جُرف صخري صلب على مسافة ألف قدم فوق السحاب. وكان يُرى من الجُرف جبل صخري هائل فوقهم. اختاروا طريقهم نحو الأسفل وساروا برتل واحد. مرّوا خلال نفق محفور في الصخر، وعلى الجانب الآخر على بعد أميال أسفل منهم في الممر الضيق تقع سقوف أكواخ البلدة.

نزلوا بواسطة ممرات صخرية متعرجة وعبر أحواض الجداول حيث يوجد سمك السلمون المرقط بزعانفه الباهتة والذي تمعّن بأنوف الخيول التي تشرب من الجدول. ارتفعت صفائح من الضباب ذي الرائحة والطعم المعدني من الممر الضيق وعبر من فوقهم وانتقل إلى الغابة. وكزوا خيولهم وتقدموا في مخاضة الجدول، وفي الساعة الثالثة من بعد الظهر حيث كانت تمطر رذاذا، دخلوا بلدة (جيسس ماريا) الحجرية القديمة.

أصدروا صوت طرقعة على الحصى المغسول بماء المطر والمليء بأوراق الأشجار، وعبروا جسراً حجرياً ثم صعدوا في الشارع تحت قطرات الماء النازل من حواف السطوح البارزة للمباني ذات الشرفات وبمحاذاة سيل جبلي يمر في البلدة. كانت طواحين المعادن الخام موجودة على الصخور المصقولة في النهر، والتلال فوق البلدة كانت تحتوي على أنفاق في كل مكان، ومشقوقة بالانجرافات والآثار. أخذت عدة كلاب مبللة تنبح عند دخولهم، وكانت جاثمة عند المداخل. استداروا نحو شارع ضيق وتوقفوا يقطرون من المطر أمام باب خان.

دق (غلانتون) على الباب، ففُتح وخرج ولد صغير. ظهرت امرأة ونظرت إليهم ثم عادت إلى الداخل. أخيراً حضر رجل وفتح البوابة. كان ثملاً قليلاً وأمسك الباب بينما كان راكبو الخيول يمرون خلاله واحداً تلو الآخر إلى الساحة المغمورة بالماء ثم أُغلق الباب وراءهم.

في الصباح كان المطر قد توقف، وظهروا في الشوارع ممزقي الملابس ورائحتهم كريهة، ومزينين بأعضاء بشرية مثل آكلي لحوم البشر. كانوا يحملون مسدسات ضخمة في أحزمتهم، وكانت الجلود الفاسدة التي يلبسونها ملطخة بالدم والدخان وسُخام البنادق. غربت الشمس ووقفت المرأة العجوز عند رُكبهم تحمل دلواً وخرقة وتغسل الحجارة أمام أبواب الدكان، واستدارت ثم نظرت إليهم، ورتَّب أصحاب المحلات بضائعهم وأومأوا إليهم بتحية "صباح الخير" حَذِرة. كانوا زبائن غرباء وسط تلك التجارة. وقفوا يطرفون بعيونهم أمام المداخل حيث تدلت أقفاص مصنوعة من أغصان الأملود فيها

عصافير الدوري، وببغاوات خضراء تقف على رجل واحدة وتنعق بتوتر. وكانت هناك سلاسل من الفواكه المجففة والفلفل، وعناقيد من صفائح القصدير تتدلى مثل المداخن، كما كانت هناك جلود خنازير مملوءة بالبَلْكَة(*) وتتأرجح مثل الإوزات المنفوخة في ساحة شراء الحيوانات الأليفة. أرسلوا في طلب كؤوس. وظهر عازف كمان وجثا على عتبة الباب الحجرية وبدأ يعزف لحناً شعبياً شرقياً، ولم يستطع أحد من الذاهبين إلى أعمالهم الصباحية أن يرفع بصره عن أولئك العمالقة الشاحبين كريهي الرائحة.

عند الظهيرة وجدوا قبواً للخمور يديره شخص اسمه(فرانك كارول)، وهو حانة رديئة السمعة، كانت يوماً ما إسطبلاً، أبوابها مفتوحة نحو الشارع لتسمح بدخول الضوء الوحيد في الحانة. لحق عازف الكمان بهم ويبدو عليه حزن شديد وأخذ موقعه خارج الباب حيث يستطيع أن يرى الغرباء يشربون ويطقطقون بنقودهم الإسبانية الذهبية على الطاولة. كان هناك رجل عجوز عند المدخل يجلس في الشمس ويتكئ حاملا بوقاً من قرن تيس باتجاه الضجيج في الداخل، وأومأ بإشارة موافقة بشكل مستمر بالرغم من أنه لم ُينطق بكلمة بأي لغة عنده معرفة بها.

تفحّص القاضي العازف بدقة ودعاه وقذف قطعة نقود رنّت على الحجارة. أخذها عازف الكمان بسرعة إلى الضوء وكأنها قد

(*) البَلْكَة: شراب مُسْكِر يصنع في المكسيك من عصير الصبّار الأمريكي.

تكون غير نافعة، ثم دسها بين ملابسه ووضع آلته الموسيقية تحت ذقنه وعزف لحناً قديماً كان معروفاً بين مشعوذي إسبانيا قبل مائتي عام. دخل القاضي إلى الممر المُضاء بأشعة الشمس، وقام بتنفيذ سلسلة من الخطوات على الحجارة بدقة غريبة، وبدا هو وعازف الكمان كموسيقيين غريبين التقيا بالصدفة في بلدة من القرون الوسطى. رفع القاضي قبعته وانحنى لسيدتين كانتا تنعطفان إلى شارع جانبي لتتجنبا المرور أمام الحانة ودار على قدميه الأنيقتين وصبَّ البُلكة من كأسه داخل بوق الرجل العجوز. وبسرعة سدّ الرجل العجوز البوق بكرة إصبعه الإبهام وحمل البوق بحذر أمامه بينما كان ينكش أذنه بإصبعه ثم شرب ما في البوق.

عندما حلّ الظلام كانت الشوارع مليئة بالثملين المخبولين يترنحون ويلعنون ويقرعون أجراس الكنيسة بطلقات الرصاص لتعطي لحنا زائفا مُلحداً، إلى أن أتى القسيس يحمل أمامه المسيح المصلوب وينصحهم بأنشودة مغناة بمقاطع لاتينية. ضُرب هذا الرجل في الطريق ونُـخس بشكل فاحش وقذفوا عليه القطع النقدية الذهبية وهو يتشبث بتمثال المسيح. عندما نهض ترفّع عن أخذ القطع النقدية إلى أن ركض صِبْية صغار لجمعها، ثم أمرهم أن يحضروها إليه بينما كان المتوحشون يصيحون ويشربون نخبه.

انتقل المشاهدون بعيداً، وخلت الشوارع. بعض الأمريكيين تجولوا داخل ماء الغدير البارد وكانوا ينثرونه حولهم ثم خرجوا وهم يقطرون ماء إلى الشارع ووقفوا عابسين يدخنون وغامضين كسِفْر

الرؤيا في الضوء الساقط الخافت. كان الليل بارداً، ومشوا بتثاقل والماء يتبخر عنهم خلال البلدة المرصوفة بالحصى كوحوش كتاب قصص خرافية، وبدأت السماء تمطر من جديد.

في اليوم التالي كان عيد الأرواح، وكان هناك استعراض في الشوارع، وحَمَلَت العربات المجرورة بالخيول تمثالاً بسيطاً للمسيح داخل نعش ملطخ وقديم. تبعهم مساعدو القسيس في مجموعة، ومشى القسيس في المقدمة يقرع جرساً صغيراً. وسار في الخلف راهب حافي القدمين ومكسو بالأسود حاملاً صولجاناً من الأعشاب. تأرجح المسيح، وكان عبارة عن تمثال بائس مصنوع من القش برأس وقدمين منقوشين. كان يرتدي تاجا من ورد الجبل البري، حاجباه عبارة عن نقاط ملونة من الدم، وعلى خديه المصنوعتين من الخشب القديم الجاف توجد دموع زرقاء. ركع القرويون وباركوا أنفسهم وبعضهم تقدم إلى الأمام ولمسوا الثوب الذي يلبسه التمثال وقبّـلوا أطراف أصابعه. دار الاستعراض بحزن وجلس الأطفال الصغار عند المداخل يأكلون فطائر ويراقبون الاستعراض والمطر في الشوارع.

جلس القاضي وحده في الحانة. وراقب هو الآخر المطر، كانت عيناه تبدوان صغيرتين في وجهه الكبير الأجرد. ملأ جيوبه بحلوى صغيرة بشكل إشارة الموت (الجمجمة والعظمتين)، وجلس بجانب الباب وقدّم تلك الحلوى إلى الأطفال المارين على الناصية تحت حواف السطوح البارزة، ولكنهم كانوا يجفلون ويبتعدون مثل الخيول الصغيرة.

في المساء نزلت مجموعات من أهل البلدة من المقبرة على جانب التلة، وفي وقت متأخر في الظلام ظهروا مرة ثانية وعادوا على ضوء الشموع أو ضوء المشاعل في طريقهم إلى الكنيسة للصلاة. لم يفلت أحد من براثن الأمريكيين المخبولين من السُكْر، وكان هؤلاء الضيوف الملطخون بالسُخام يرفعون قبعاتهم بشكل أخرق ويترنحون ويبتسمون ويقومون بإيحاءات داعرة للفتيات الشابّات. أغلق (كارول) حانته الحقيرة عند الغسق، ولكنه عاد وفتحها ليحمي الأبواب من التحطم. في بعض الأوقات من الليل كانت تصل فرقة من راكبي الخيول القاصدين كاليفورنيا، وكل رجل منهم يمشي مرتخياً من شدة الإرهاق. ومع ذلك يعاودون امتطاء خيولهم خلال ساعة وينصرفون. وعند منتصف الليل حيث يُشاع أن أرواح الأموات تحوم هنا وهناك، كان صيادو فروات الرؤوس ما يزالون يولولون في الشوارع ويفرغون مسدساتهم بالرغم من المطر أو الموت، واستمر هذا الوضع على نحو متقطع حتى الفجر.

عند ظهر اليوم التالي أُصيب (غلانتون) بنوبة جنون وهو مخمور، ترنح كمصروع بشعره الأشعث وملابسه الرثّة ودخل إلى الساحة وبدأ بإطلاق النار من مسدساته. بعد الظهر استلقى مربوطا إلى سريره مثل رجل مجنون في حين جلس القاضي معه وبرّد جبهته بخِرق من الماء وتحدث إليه بصوت خافت. في الخارج كانت تُسمع أصوات تنادي عبر منحدر جوانب التلة. كانت طفلة صغيرة قد فُقدت وخرجت فرق

من المواطنين للبحث عند مداخل المناجم. بعد برهة نام (غلانتون) ونهض القاضي وخرج.

كان الجو رمادياً وممطراً، وكانت أوراق الأشجار تتطاير، ودخل من الباب مُراهق رث المظهر بجانب مزراب خشبي وشدّ كوع القاضي. كان هناك كلبان صغيران داخل قميصه، عرضهما للبيع وجرّ أحدهما من رقبته.

كان القاضي ينظر إلى أعلى الشارع في الخارج. عندما نظر إلى الفتى، سحب الفتى الكلب الآخر. تدليا بشكل رخو، وقال: كلاب للبيع. (بالإسبانية).

كم تريد؟ (بالإسبانية) قال القاضي.

نظر الفتى إلى أحد الكلبين ثم إلى الآخر، وكأنه يختار واحداً يناسب شخصية القاضي، مثل تلك الكلاب يمكن وجودها في أي مكان. ودفع بالكلب الذي في يده اليسرى، وقال: خمسين سنتيماً (بالإسبانية).

تلوّى الكلب وانسحب إلى الخلف في قبضته كحيوان يضع مؤخرته في حفرة، وعيناه الزرقاوتان بريئتان ومرعبتان في الوقت نفسه تماماً مثل البرد والمطر والقاضي.

للإثنين، (بالإسبانية) قال القاضي. وبحث في جيوبه عن قطع نقود.

اعتبر بائع الكلاب ذلك وسيلة للمقايضة وتفحّص الكلبين مرة أخرى ليقرر بشكل أفضل كم يستحقان، ولكن القاضي التقط من

ملابسه الملوثة قطعة نقدية ذهبية صغيرة تكفي لشراء مجموعة من الكلاب بذلك السعر. وضع النقود في راحة يديه وقدّمها، وبيده الأخرى أخذ الكلبين من مربيهما، حاملاً إياهما بقبضة واحدة مثل زوج جوارب. وأشار بالذهب، وقال:

انصرف. (بالإسبانية)

حملق الفتى بقطعة النقود.

ضمّ القاضي يديه بشكل قبضة ثم فتحها. كانت قطعة النقود قد اختفت. لوّح بأصابعه في الهواء ومدّ يده خلف أذن الفتى وأخذ قطعة النقود وأعطاها له. حمل الفتى قطعة النقود بكلتا يديه أمامه وهما على شكل كأس صغيرة ورفع نظره إلى القاضي. ولكن القاضي كان قد ذهب، والكلبان يتدليان. عبَر الجسر الحجري ونظر إلى الأسفل نحو المياه العميقة ثم رفع الكلبين وقذفهما بداخلها.

عند الطرف البعيد كان الجسر يُشرف على شارع صغير يمتد على طول النهر. هنا وقف الرجل القادم من (فانديمن) يتبول من جانب حائط حجري إلى داخل الماء. عندما رأى القاضي يرمي الكلبين من فوق الجسر سحب مسدسه وصاح.

اختفى الكلبان بالزَبَدْ. وسُحب واحد تلو الآخر إلى مجرى ماء أخضر عريض فوق صفائح من الصخر المصقول ثم إلى البركة في الأسفل. رفع الرجل من (فانديمن) المسدس وضغط الزناد. بدت أوراق شجر الصفصاف في الماء الصافي مثل أسماك نهرية منهكة

القوى. قفز المسدس من يديه ووثب أحد الكلبين في الماء، وأطلق النار مرة ثانية فانتشرت بقعة زهرية اللون. أطلق الرصاص للمرة الثالثة وظهر الكلب الآخر أيضا ثم غرق.

تابع القاضي طريقه على الجسر. عندما ركض الفتى ونظر إلى الماء، كان ما يزال يحمل قطعة النقود. ووقف الرجل من (فانديمن) على الشارع المقابل أمسك عضوه التناسلي بإحدى يديه والمسدس في الثانية. وانجرف الدخان بعيداً أسفل الجدول ولم َيعُدْ يوجد في البركة شيء نهائياً.

في وقت ما من بعد الظهر استيقظ (غلانتون) وتدبّـر تحرره من أربطته المثـَّبت بها بعد جهد كبير. أول الأخبار التي وصلتهم عنه كانت أمام المعسكر حيث مَزَّق العلم المكسيكي بسكينه وربطه بذيل بغل. ثم صعد بالبغل ونخسه ليعدو في الساحة جارّاً العلم المقدس في الوحل وراءه.

أخذ (غلانتون) يدور في الشوارع ثم ظهر في الساحة مرة أخرى وهو يركل البغل بقسوة على خواصره. ثم استدار ورنَّ صوت رصاصة وسقط البغل ميتا تحته برصاصة بندقية استقرت في دماغه. تدحرج (غلانتون) بعيداً ثم اندفع على قدميه وهو يطلق النار بعنف وشراسة. انهارت امرأة عجوز على الحجارة بدون صوت. جاء القاضي و(توبين) و(دوك إيرفنغ) من حانة (فرانك كارول) يركضون، ثم ركعوا في ظل حائط وبدأوا بإطلاق النار على النوافذ العلويّة.

وحضرت دزينة أخرى من الأمريكيين حول الزاوية على الجانب البعيد من الساحة، وفي انتشار أزيز الطلقات سقط اثنان منهم. بقايا من الرصاص كانت تتراكم فوق الحجارة ودخان البنادق ينتشر فوق الشوارع في الهواء الرطب. شق (غلانتون) و(جون غن) طريقهما بجانب الجدران إلى سقيفة خلف الخان حيث كانت الخيول موضوعة في الاسطبل وبدءا بإخراجها. دخل ثلاثة آخرون من المجموعة إلى الساحة وهم يركضون وبدأوا بنقل العِدّة خارج المبنى وسرَّجوا خيولهم. كان إطلاق الرصاص متواصلاً في الشارع وسقط أمريكيان ميتان،وآخرون ممدون ويصيحون. بعد ثلاثين دقيقة من خروج المجموعة على خيولهم تعرضوا لهجوم بنيران بنادق قديمة وحجارة وزجاجات، وخلّفوا وراءهم ستة منهم.

بعد ساعة من الزمن، لحق بهم (كارول) وأمريكي آخر اسمه (سان فورد) كانا يقيمان في البلدة. أضاء المواطنون الحانة بالمشاعل. قام القسيس بتعميد الأمريكيين الجرحى ثم رجع إلى الخلف في حين أطلق الرصاص على رؤوسهم.

قبل حلول الظلام وأثناء صعودهم المُضني فوق المنحدر الغربي للجبل، قابلوا مجموعة تقود مائة واثنين وعشرين بغلا تحمل دوارق من الزئبق للمناجم. استطاعوا أن يسمعوا صوت السياط ونهيق البغال على الطرق المتعرجة بعيداً أسفل منهم، واستطاعوا رؤية البغال المثقلة بالأحمال وهي تمشي بجهد كالماعز التي تمشي بجانب صدع في جدار صخري شديد التحدّر. حظ سيىء. على مسافة ستة وعشرين

يوماً من البحر، وأقل من ساعتين للوصول إلى المناجم. على المنحدر تنفّست البغال مُصدرة صوت صفير وتشبثت بالأرض، في حين دفعها سائقو الماشية المكسوون بملابسهم الرثّة الملونة لتتقدم بشكل أسرع. عندما رأى أول واحد منهم راكبي الخيول فوقهم، وقف فوق الرِكاب ونظر إلى الخلف. التف صفٌّ البغال إلى أسفل الطريق لمسافة نصف ميل أو أكثر، وفي الوقت الذي تجمعوا فيه ووقفوا كانت تظهر للعيان أقسامٌ من القافلة على الطرق المتعرجة المنفصلة بعيداً في الأسفل، ثمانية أو عشرة بغال، مرة يتجهون هنا وأخرى هناك. وُنتفت ذيول البغال حتى أصبحت مثل قطعة عظم بفعل أولئك الذين في الخلف والزئبق الموجود داخل الدوارق المطاطية التي تنبض بقوة وكأنها حملت وحوشاً غامضة، كأشياء مزدوجة تدور وتتنفس بصعوبة داخل تلك الحقائب المنتفخة. التفت سائق البغال ونظر إلى الطريق في الأعلى. في ذلك الحين كان (غلانتون) فوقه. حيّا الأمريكيٌّ بحرارة. مرّ (غلانتون) بدون كلام، سالكاً الجانب الأعلى في المضيق الصخري ودافعاً بغل سائق المواشي بشكل خطير بين الصفائح الطينية الرخوة. اكفهر وجه الرجل واستدار ورجع إلى أسفل الطريق. وتدافع راكبو الخيول الآخرون بجانبه، وعيونهم ضيقة ووجوههم سوداء مثل الوقّادين المتسخين بسُخام البنادق. ترجَّل ووقف بجانب بغله ثم سحب بندقيته من تحت غطاء السرج. كان (ديفيد براون) مقابله في تلك اللحظة، ومسدسه في يديه على جانب حصانه. أرجحه فوق قربوس السرج وأطلق النار على الرجل في الصدر. جلس الرجل على الأرض

بصعوبة، وأطلق (براون) عليه النار مرة ثانية، فانقذف بعيداً إلى الهاوية في الأسفل.

استدار باقي أفراد المجموعة بصعوبة ليعرفوا ماذا حدث. كل رجل منهم كان يطلق طلقات فارغة على سائقي البغال الذين سقطوا عن بغالهم واستلقوا على الأرض أو انزلقوا من فوق الجُرف وتلاشوا. أدار سائقو البغال الذين كانوا في الأسفل بغالهم وحاولوا الهروب عائدين نحو أسفل الممر، وكانت البغال المحملة المرعوبة قد بدأت التسلق على جدار الجُرف المنحدر كجرذان ضخمة. اندفع راكبو الخيول حائلين بينهم وبين الصخور وهم يوجهونها بشكل منتظم بعيداً عن صخور الجُرف، وقعت البغال بصمت كمن يُضحّي بنفسه، وتنقلب في الهواء ثم تنفجر على الصخور في الأسفل بانفجارات مفزعة من الدم والفضة حيث انفجرت الدوارق وظهر الزئبق يهتز متذبذبا في الهواء بفلقات وصفائح كبيرة وأقمار صغيرة مرتعشة، ثم تتجمع كل أشكالها في الأسفل وتتدحرج في الجداول الصخرية مثل عمل كيميائي مُطلق استُخلص من الظلام الغامض لقلب الأرض ومثل الظباء الهاربة من الآبقين القدماء على جانب الجبل، مضيئة وسريعة في الممر الجاف لقنوات العاصفة مُغيّراً شكل التجاويف في الصخر ومسرعاً من ُجرف إلى جرف أسفل المنحدر مومضاً ورشيقاً مثل أسماك الأنقليس.

خرج سائقو البغال عن الممر الوعر وهم يتأرجحون حيث لا مفر من الهاوية غالباً. وكانوا يسقطون محطمين بين أشجار الصنوبر في صخب من الصرخات، بينما كان راكبو الخيول يقودون البغال

المتباطئة وراءهم، واندفعوا بعنف نزولاً على الممر الصخري مثل رجال هم أنفسهم تحت رحمة شيء ما مرعب. انفصل (كارول) و(سان فورد) عن المجموعة وعندما وصلا إلى المنبسط من الأرض حيث اختفى آخر سائق بغال، أوقفا حصانيهما ونظرا إلى الوراء على الطريق. كان خالياً إلا من بعض الرجال الميتين من سائقي البغال. خمسون بغلا وقعت من على الجُرف. وعند منعطف المنحدر، استطاعا أن يشاهدا الأشكال المحطمة للحيوانات تنتشر على الصخور ورأيا الأشكال اللامعة للزئبق وقد شكّلت بركة في ضوء المساء. ضربت الخيول الأرض بأرجلها وقوّست رقابها. نظر راكبا الحصانين إلى تلك الثغرة الواسعة المفجعة، ونظرا الواحد إلى الآخر، ولكنهما لم يحتاجا لأية محادثة، وشدّا لجامي حصانيهما ونخسوهما لينزلا الجبل.

لحقا بباقي المجموعة عند الغسق. وترجلا عن حصانيهما عند الطرف البعيد من النهر. وكان الصبي وأحد رجال (ديلاوير) يُبعدان الخيول الهائجة عن حافة الماء. وأنزلا حصانيهما إلى مخاضة النهر وعبراها، وكان مستوى الماء يصل تحت بطون حصانيهما، وشقّ حصاناهما طريقهما فوق الصخور وهما ينظران بتوق نحو أعلى الجدول حيث دوّى صوت شلال من الغابة المعتمة وهو ينهمر في بركة حارة جداً. عندما خرجا من المخاضة على حصانيهما، تقدّم القاضي وأمسك حصان (كارول) من فكّه، وقال:

أين الزنجي؟

نظر إلى القاضي. كانوا جميعهم على مستوى النظر وهو فوق ظهر الحصان. وقال:

لا أعرف.

نظر القاضي إلى (غلانتون)، وبصق (غلانتون).

كم عدد الرجال الذين رأيتهم في الساحة؟

لم يكن عندي وقت لآخذ عدد الرؤوس. ما أعرفه هو أنه كان هناك ثلاثة أو أربعة مقتولين.

ولكن ليس الزنجي؟

لم أره مطلقا.

دفع (سان فورد) حصانه إلى الأمام. وقال: لم يكن هناك زنجي في الساحة. رأيتهم يقتلون الرجال وكانوا كلهم بيضاً مثلي ومثلك.

ترك القاضي حصان (كارول) وذهب ليحضر حصانه. فَصَل اثنان من هنود ديلاوير نفسيهما عن المجموعة. عندما امتطيا حصانيهما إلى أعلى الطريق كان الظلام قد حلّ تقريبا. واتجه أفراد المجموعة عائدين إلى داخل الغابة وأرسلوا رُقباء حراسة إلى مخاضة النهر ولم يشعلوا أي نار.

لم ينزل أي من راكبي الخيول عبر الممر الوعر. كان الجزء الأول من الليل داكناً، ولكن عند أول وضوح للمعالم عند المخاضة بدأ الليل يصفو وظهر القمر فوق الوادي، ورأوا دباً يتقدم ثم توقف عند الحافة البعيدة للنهر واختبر الهواء بأنفه ثم انصرف. عند بزوغ النهار عاد

القاضي وهندي ديلاوير. كان الرجل الأسود معهما. كان عارياً إلا من ملاءة لفَّ نفسه داخلها. ولم يكن حتى يرتدي حذاء. ويركب على بغل تحميل ذي ذيل بشكل العظْمة من بغال التحميل من القافلة، ويرتجف من البرد. الشيء الوحيد الذي بقي معه هو مسدسه. كان يحمله على صدره تحت الملاءة حيث لا يوجد مكان آخر يضعه فيه.

* * *

قادتهم الطريق إلى أسفل الجبال باتجاه البحر الغربي إلى ممر أخضر كثيف بعرائش العنب حيث تنظر الببغاوات الضخمة بخُبْث وتنعب. تَبِع الطريق نهراً موحلاً فيه عدة مخاضات، فعبروه مرة بعد مرة وباستمرار. تساقطت الشلالات الهزيلة من أطراف الجبال المنحدرة فوقهم، لتضرب بالصخر المصقول المرتفع بأبخرة كثيفة. خلال ثمانية أيام لم يقابلوا راكبي خيول آخرين. في اليوم التاسع رأوا رجلاً عجوزاً يحاول الابتعاد عن الطريق أسفل منهم، يضرب بعصا حمارين ليتقدما عبر الغابة. عندما وصلوا بمحاذاة تلك البُقعة، توقفوا واستدار (غلانتون) إلى داخل الغابة حيث اختلطت أوراق الأشجار المبللة، وتتبع الرجل العجوز الجالس في أرض مكسوة بالشجيرات منعزلاً مثل قزم خرافي. رفع الحماران بصرهما إلى الأعلى وارتعشت آذانهما ثم خفضا رأسيهما ليرعيا من جديد. راقبه الرجل العجوز.

لماذا تختبئ؟ قال (غلانتون). (بالإسبانية).

لم يُجِب الرجل العجوز.

من أين أتيت؟ (بالإسبانية)

بدا الرجل العجوز غير مُرحِّب حتى بفكرة الحوار. جلس القرفصاء على أوراق الأشجار وذراعاه مطويتان. انحنى (غلانتون) وبصق. وأشار بذقنه إلى الحمير.

ماذا لديك هناك؟ (بالإسبانية).

هزّ الرجل العجوز كتفيه باستهجان، وقال: أعشاب.

نظر (غلانتون) إلى الحيوانين ونظر إلى الرجل العجوز. وأدار حصانه عائداً الطريق لينضم إلى المجموعة.

لماذا تسعى إلي؟ (بالإسبانية). صاح الرجل العجوز وراءه.

واصلوا طريقهم. كانت هناك نسور وطيور أخرى في الوادي والكثير من الغزلان، وكان هناك نبات السحلبية البرية وأجَمَات الخيزران، وكان النهر هنا ضخما ويمر بجانب جلاميد هائلة، والشلالات تسقط في كل مكان من الغابة الكثيفة المتشابكة. اعتاد القاضي أن يمتطي حصانه في المقدمة مع أحد هنود ديلاوير، وحمل بندقيته المحشوة ببذور التين الشوكي الصغيرة القاسية، وفي المساء كان يذبح باحتراف الطيور الملونة التي اصطادها ويفـرّك الجلد ببارود البندقية ويحشوها بكرات من العشب الجاف ويوضّبها في حقائبه. كان يضغط أوراق الأشجار والنباتات داخل دفتره، ويطارد على أطراف أصابعه فراشات

الجبل وهو يبسط قميصه بكلتا يديه، ومتحدثاً إليهم بهمس خافت، لم يكن يوجد أي فضولي ليدرس القاضي نفسه. جلس (تودفين) يراقبه وهو يكتب ملاحظاته في دفتره الذي يحمله باتجاه النار من أجل الضوء، وسأله ما هو هدفه من وراء ذلك كله.

أوقَفَت ريشة القاضي صريرها. نظر إلى (تودفين) ثم استمر بالكتابة مرة ثانية.

بصق (تودفين) في النار.

تابع القاضي الكتابة ثم أغلق الدفتر ووضعه على أحد جانبيه وضغط يديه مع بعضهما ومررهما فوق أنفه وفمه ثم وضعهما على ركبتيه وراحتيه إلى الأسفل.

وقال: كل ما يتواجد من أحياء. كل ما يتواجد في الخليقة بدون معرفتي فهو متواجد بدون موافقتي.

نظر إلى الغابة المظلمة التي كانوا يعسكرون فيها. أشار نحو العينات التي جمعها، وقال: هذه المخلوقات المجهولة قد تبدو صغيرة وتافهة في العالم. ومع ذلك فإن أصغر كائن يمكنه أن يُبيدنا. أي أصغر شيء تحت ذلك الحجر بعيد عن معرفة الإنسان. فقط الطبيعة هي التي تستطيع أن تستعبد الإنسان، وفقط عندما يُستجلى آخِرُ كائن وتتم تعريته وسبر أغواره، عندها سيكون هو المتسلط كلياً على الأرض.

ما هو المتسلط؟

الحامي. الحامي أو الحاكم المُطْلَق.

لماذا لا تقول الحاكم المُطْلق، إذن؟

لأنه نوع مميّز من الحُماة. المتسلط يحكم حتى عند وجود حكام آخرين. نفوذه يُبطل الأحكام المحلّية.

بصق (تودفين).

وضع القاضي يديه على الأرض. ونظر إلى الفضولي، وقال: هذا هو مطلبي. وحتى الآن وفي كل مكان هناك جيوب للحياة المستقلة. مستقلة. لكي تكون لي يجب أن لا يُسمح لشيء أن يحدث إلا بتدبيري.

جلس (تودفين) وفردتا حذائه متصالبتان أمام النار، وقال: لا يوجد شخص يستطيع أن يُطلع نفسه على كل شيء على هذه الأرض.

أمال القاضي رأسه الضخم. الإنسان الذي يعتقد أن أسرار العالم ستبقى مخفيّة إلى الأبد يعيش في غموض وخوف. ستجرفه الخرافات نحو الأسفل. وستتآكل أعمال حياته بالمطر. ولكن الإنسان الذي يُكرّس نفسه لمهمة اكتشاف أسرار العالم، فقط بهذا القرار سيتولى أمر العالم، وفقط بتولي أمر العالم سيُفعّل طريقةً لإملاء شروط قَـدَره.

لا أرى ما علاقة ذلك باصطياد الطيور.

حريّة الطيور هي إهانة لي. سأضعها جميعا في حدائق حيوانات.

ستكون حديقة حيوانات بغيضة.

ابتسم القاضي، وقال: نعم. حتى لو كانت كذلك.

في المساء مرّت قافلة، وكانت رؤوس الخيول والبغال مغطاة بشالات صوفية ملونة، تـُساق بصمت في الظلام، حذّر راكبو الخيول بعضهم البعض بوضع أصابعهم على أفواههم. راقبهم القاضي الذي كان على رأس صخرة كبيرة يُشرف على الطريق وهم يرحلون.

في الصباح واصلوا طريقهم. خاضوا في نهر ياكي، وتابعوا خلال دعامات نبات عبّاد الشمس الطويلة كطول رجل فوق ظهر حصانه، واتجهت الوجوه الدائرية المستوية نحو الغرب. بدأت الأراضي تنكشف أمامهم وبدأوا يقتربون من نباتات الذرة على جوانب التلال وكان هناك الكثير من الأراضي مقطوعة الشجر في الخلاء حيث كانت هناك أكواخ من الأعشاب، وبرتقال وأشجار التمر هندي. ولم يروا أحداً من الناس. في الثاني من ديسمبر/ كانون أول لعام 1849 دخلوا بلدة (أوريس)، عاصمة ولاية سونورا.

لم يكونوا قد وصلوا نصف المسافة في البلدة قبل أن يلفتوا انتباه مجموعة لا تضاهى بتنوعها وخساستها ومن الذين قابلوهم كان متسولون ومراقبو المتسولين وعاهرات وقوادون وباعة وأطفال قذرون ووفود كاملة للعميان والمشوّهين، ومزعجون جميعهم يصيحون: من أجل الرَّب (بالإسبانية)، وبعضهم يركب بأرجل منفرجة فوق ظهور العتالين ويستعجلونهم، وعدد كبير من الجماهير، من كل عمر وحالة، ممن كانوا مجرد فضوليين. اتكأت النساء المعروفات بأنهن مُكَرَّسات أنفسهن للحياة المنزلية على الشرفات ، ومررن بوجوه ملونة باللون النيلي والطين الأحمر ومبهرجة مثل مؤخرة القرود، وكنَّ ينظرنَّ من

وراء مراوحهنّ بشيء من الحياء المُتصنع المثير كالمخنثين في مستشفى المجانين. امتطى القاضي و(غلانتون) حصانيهما على رأس الرتل قليل العدد وتباحثا فيما بينهما. قفزت الخيول بعصبية، وإذا لمسها راكبوها عرضياً بوضع يد على غطائها، انسحبت تلك الأيدي بصمت.

نزلوا في تلك الليلة في نـُزل عند طرف البلدة يديره رجل ألماني وضع النـُزل وملحقاته تحت تصرفهم ولم يعد يُرى سواء للخدمة أو للدفع. تجول (غلانتون) خلال الغرف الطويلة المغبّرة بسقوفها البيضاء، وأخيرا وجد خادمة عجوزاً تنكمش مرتعدة في ما كان يفترض أنه مطبخ، بالرغم من أنه لم يكن يحتوي على أي أدوات طهي ماعدا الكانون وبضعة قدور فخارية. وجعلها تبدأ العمل بتسخين ماء من أجل الاستحمام ودفع إليها ملء كفه من النقود الفضية وكلـّفها أن تُعد لهم شيئاً ما يشبه المائدة. حملقت بالقطع النقدية الفضية بدون أية حركة إلى أن أخرجها فانطلقت إلى الصالة تحمل القطع النقدية بكلتا يديها اللتين جعلتهما بشكل كوب وكأنها تحمل عصفوراً. اختفت فوق بئر السلّم وهي تصرخ ومباشرة أصبح هناك عدد من النساء المنشغلات حول المكان.

عندما استدار (غلانتون) ليرجع إلى الصالة كان هناك خمسة أو ستة خيول تقف فيها. صفعها بقبعته لتخرج وذهب إلى الباب ونظر إلى الخارج على جماهير المشاهدين الصامتين.

ونادى: يا فتيان الإسطبل، تعالوا. بسرعة. (بالإسبانية).

اندفع فَتَيَان إلى الداخل واقتربا من الباب ولحق بهما عدد آخر منهم. أشار (غلانتون) بحركة فتقدم الأطول بينهم ووضع إحدى يديه على رأس الفتى ولفّه ثم نظر إلى الآخرين، وقال: هذا الرجل هو الرئيس. (بالإسبانية) وقف الرئيس برزانة وعيناه تدوران حول المكان. أدار (غلانتون) رأسه ونظر إليه.

أكلّفك بكل شيء، هل فهمت؟ الخيول، السروج، كل شيء. (بالإسبانية)

نعم، فهمت. (بالإسبانية).

جيد. انصرف. هيئ الخيول في النـُزل. (بالإسبانية).

استدار الرئيس وصرخ على أصحابه بأسمائهم، فتقدم اثنا عشر فتى ودخلوا المنزل. عندما نزل (غلانتون) إلى الصالة كانوا يسوقون تلك الحيوانات - بعضها معروف بقتلة الإنسان - نحو الباب، وهم يوبخونهم، كان أصغر الفتيان بالكاد أطول من أرجل الحصان الذي يتولى أمره. خرج (غلانتون) إلى خلف المبنى وبحث حوله عن القسيس السابق الذي يعجبه كثيراً استدعاء العاهرات والمشروب، ولكنه لم يَعثر عليه. في محاولته الإقدام على شيء يمكنه أن يؤدي إلى رجوعه، وقع اختياره على (دوك إيرفنغ) و(شيلبي) وأعطاهما ملء قبضة يد من القطع النقدية وعاد إلى المطبخ مرة ثانية.

عند حلول الظلام كانت نصف دزينة من الماعز تُـشوى على النار المضرمة في الساحة خلف النُزل، لمعت أشكالها المسوّدة في الضوء

الضبابي. تجول القاضي في الساحة المحيطة بالنُزل ببذلته الكتانية، وأمر الطهاة بحركة من سيجاره ولحقت به فرقة عازفين على الآلات الوترية مكوّنة من ستة موسيقيين، جميعهم كبار في السن ووقورون وبقوا معه في كل لفّة حوالي ثلاث خطوات إلى الوراء ويعزفون اللحن. تدلّت قِربة جلدية فيها مشروب البُلكة المُسْكِر من حامل ثلاثي القوائم في منتصف الساحة، وعاد (إيرفنغ) مع عشرين إلى ثلاثين عاهرة حوله من كل عمر وحجم وانتشرت هناك أمام باب المبنى قوافل كاملة من العربات يقوم على مراقبتها أصحابالدكاكين المؤقتة حيث يعلن كل منهم عن قائم منتجاته، ومحاطين بجمهور متنقل من أهالي البلدة وعشرات الخيول شبه المروضة للمقايضة والتي كانت تتقهقر وتصهل، وقطعان من الخراف والخنازير بائسة المظهر مع مالكيها إلى أن أصبحت البلدة التي تمنى القاضي و(غلانتون) أن يرتاحا فيها كلها تقريبا أمام بابهما، كرنفال حافل بمزاج احتفالي وزيادة في البشاعة المألوفة في الجماهير في هذا المكان من العالم. أذكيت النار في الساحة حتى وصل لهبها إلى ارتفاعات عالية وظهرت من الشارع وكأن مؤخرة المبنى كلها تحترق، كان تجار جدد مع بضائعهم ومشاهدون جدد يَصِلون بانتظام مع جماعات كئيبة من هنود (ياكي) المكسوين بالمآزر والذين كان يتم استئجارهم للعمل.

عند منتصف الليل كانت هناك نيران في الشوارع ورقص وُسكْر، وضجّ النُزل بصيحات العاهرات الحادة، وتسللت جماعات من الكلاب

المتنافسة، ونشب قتال شرس بين الكلاب على عظام ماعز متفحمة في الساحة الخلفية التي أصبحت الآن مظلمة جزئيا وينبعث منها الدخان وانفجر فيها أول إطلاق للرصاص في تلك الليلة، ونبحت الكلاب الجريحة وجرّت أنفسها إلى أن خرج (غلانتون) بنفسه وقتلها بسكينه، كان منظراً شنيعاً في الضوء المتقطع، صمتت الكلاب إلا من صوت فرقعة أسنانها وهي تجرّ نفسها في الساحة مثل الفقمات أو أشياء أخرى، وتجثم تحت الجدران في حين دفعها (غلانتون) إلى الأسفل وفَلَعَ جماجمها بسكين حِزام ضخمة ذات مقبض نحاسي. ولم يمض وقت على عودته إلى داخل النُزل حتى كانت كلاب أخرى تدمدم عند بقايا النار.

في ساعات الصباح الباكر أطفئت معظم المشاعل في النزل ومُلئت الغرف بالثملين الذين يشخرون. كان أصحاب دكاكين المعسكر وعرباتهم قد ذهبوا وانتشرت حلقات النيران الخامدة السوداء في الطريق كحُفر القنابل، وسُحِبت قطع خشبية ينبعث منها دخان لتُبقي آخر نار حيث جلس حولها رجال مسنون وفتيان يدخنون ويتبادلون القصص. وعندما بدأت الجبال تأخذ أشكالها بارزة من الفجر في الشرق كانت تلك الأشكال قد انجرفت بعيداً أيضا. في الساحة عند الجهة الخلفية من المبنى، سحبت الكلاب الناجية العظام إلى كل مكان ورقدت الكلاب الميتة في حصى قاتم لتلوثه بدمائها التي جفّت في التراب، وبدأت الديوك بالصياح. عندما ظهر القاضي و(غلانتون) عند الباب الأمامي ببذلاتهما، القاضي

بالأبيض و(غلانتون) بالأسود، كان الرجل الوحيد الذي بقي في المكان هو أحد خدم النزُل نائما على الدرجات.

أيها الشاب، قال القاضي. (بالإسبانية).

قفز الفتى.

هل أنت السائس؟ (بالإسبانية).

نعم يا سيدي. في خدمتك. (بالإسبانية).

قال: خيولنا، (بالإسبانية). كان على وشك أن يَصف الخيول ولكن الفتى كان قد انطلق راكضاً.

كان الجو باردا والرياح تعصف. لم تطلع الشمس. وقف القاضي على الدرجات، ومشى (غلانتون) ذهاباً وإياباً يتمعّن بالأرض. خلال عشر دقائق ظهر الفتى ومعه اثنان آخران يقودون الحصانين مسرجَيْن ومهيأين بعناية ويهرولان في الشارع، كان الفتيان منهكين من الركض وأقدامهم عارية، وأنفاس الحصانين ممتازة ورأساهما يلتفان من جانب إلى جانب برشاقة.

* * *

-15-

عقد جديد - (سلوت)- الجزرة في (ناكوتزاري) - مواجهة مع (إلياس) - مُطارد شمالا - قرعة - (شيلبي) والصبي - حصان أعرج - رجل من الشمال - كمين - هروب - حرب في السهول - نزول - الشجرة التي تحترق - على الطريق - الغنائم - الصبي ينضم ثانية إلى قيادته- القاضي- تضحية في الصحراء- المستطلعون لا يعودون- الأغدود (ثماني آلهات أسطورية في مصر القديمة) - (سانتا كروز) - الميليشيا - ثلوج - النُزل - الاصطبل.

* * *

في الخامس من ديسمبر/ كانون أول واصلوا طريقهم نحو الشمال في الظلام البارد قبيل بزوغ النهار، حاملين معهم عَـقداً موقّعاً من حاكم ولاية (سونورا) للتزويد بفروات رؤوس الآباتشي. كانت الشوارع ساكنة وخالية. ترك (كارول) و(سان فورد) المجموعة، ويركب معهما الآن فتى اسمه (سلوت) تُرك مريضاً جداً في هذا المكان من قِبل أحد قطارات الذهب المتجهة إلى الساحل قبل أسابيع. عندما سأله (غلانتون) إذا كان من أقارب القائد الذي يحمل الإسم نفسه، بصق الفتى بهدوء وقال: لا، ولا هو أحد أقاربي. امتطى حصانه بالقرب من مقدمة الرتل واعتبر نفسه محظوظا لخروجه من

ذلك المكان، ومع ذلك فإن التوقيت سيء لتقديم الشكر لأي كان، لأنه لم يحصل بعد على مبتغاه من هذه الأرض.

واصلوا سيرهم باتجاه الشمال في صحراء (سونورا) الشاسعة، وفي هذا القفر المنبسط هاموا على وجوههم لأسابيع يتبعون الإشاعة والظل. ويُعتقد أن عدداً من عصابات غُزاة (تشيريكاوا) الصغيرة المبعثرة قد شوهدت من قِبل رعاة مواشي في بعض المزارع القذرة المنعزلة. بعد خروجهم بأسبوعين ذبحوا أهل قرية صغيرة على نهر (ناكوتزاري)، وبعد يومين وأثناء توجههم نحو (أوريس) ومعهم فروات الرؤوس، واجهوا فرقة من فرسان (سونورا) المسلحين على السهول غرب (بافياكورا) تحت قيادة الجنرال (إلياس)، فنشب قتال سريع حيث قـُتل ثلاثة من فريق (غلانتون) وجُرح سبعة، أربعة منهم لم يعودوا قادرين على امتطاء الخيول.

في تلك الليلة استطاعوا رؤية نيران الجيش على بعد أقل من عشرة أميال إلى الجنوب. أمضوا الليلة في الظلام، وطلب الجرحى ماءً، وفي السكون البارد قبيل الفجر كانت النيران البعيدة هناك ما تزال مشتعلة. عند بزوغ الشمس دخل هنود ديلاوير المعسكر ممتطين خيولهم، وجلسوا على الأرض مع (غلانتون) و(براون) والقاضي. في الضوء الساطع من الشرق بهتت النيران عند السهل مثل حلم بغيض، وامتدت الأراضي مكشوفة ومتألقة في الهواء النقي. كان (إلياس) يتنقّل قريباً مع خمسمائة جندي.

نهضوا وبدأوا بسرج الخيول. أحضر (غلانتون) جعبة سهام مصنوعة من جلد حيوان الأسلوت(*) وعدَّ الأسهم التي بداخلها بحيث يكون هناك سهم واحد لكل رجل، ثم مزّق قطعة قماش صوف حمراء إلى قطع طويلة ربطها حول مقابض قصبات أربعة رماح وأعاد الأسهم المعدودة إلى الجعبة.

جلس على الأرض والجعبة بين ركبتيه وفتحتُها إلى الأعلى في حين اصطف أفراد المجموعة بشكل رتل. عندما اختار الصبي السهم الذي سيسحبه من بين السهام، رأى القاضي يراقبه فتوقف قليلاً. نظر إلى (غلانتون) وترك السهم الذي اختاره وأمسك واحداً آخر وسحبه. كان مربوطاً بالقماشة الحمراء. نظر إلى القاضي مرة أخرى ولم يكن القاضي يراقب، ثم تحرك وأخذ مكانه مع (تيت) و (وبستر). ثم انضم إليهم، أخيراً، رجل اسمه (هارلان) من تكساس سحب آخر سهم ووقف الرجال الأربعة مع بعضهم في حين سرج الباقون خيولهم وساقوهم بعيداً.

من بين الجرحى كان هناك هنديّان من ديلاوير ومكسيكي واحد. الرابع كان (ديك شيلي) وهو الوحيد الذي جلس يراقب تحضيرات الرحيل. بقي هنود ديلاوير مع المجموعة يتباحثون فيما بينهم، واقترب أحدهم من الأمريكيين الأربعة وتمعّن في كل واحد منهم على حده. ومشى من جانبهم ثم استدار ورجع وأخذ السهم من (وبستر). نظر

(*) الأسلوت: حيوان أمريكي شبه النمر.

(وبستر) إلى (غلانتون) حيث كان واقفاً مع حصانه. ثم أخذ هندي ديلاوير سهم (هارلان). استدار (غلانتون) وجبهته بمحاذاة أضلاع حصانه وشدّ حزام السرج بإحكام ثم امتطاه. عدّل قبعته. ولم يتكلم أحد. ذهب (هارلان) و(وبستر) لإحضار حصانيهما. امتطى (غلانتون) حصانه بينما كان أفراد المجموعة يمرون به واحداً تلو الآخر، ثم استدار ولحق بهم في السهل.

ذهب هندي ديلاوير وأحضر حصانه الذي كان يتنقّل مُقيداً من جانب لآخر في أماكن المَراغة في التراب بالقرب من مكان نوم الرجال. أحد الهنديين المجروحين كان صامتاً، ويتنفس بصعوبة وعيناه مغلقتان. والآخر كان يغني بشكل متناغم. رمى هندي ديلاوير اللجام وأخذ هراوة الحرب من حقيبته وخطا بين رِجلي الرجل المنفرجتين وأرجح الهراوة وهشّم جمجمته بضربة واحدة. تحدّب الرجل بتشنج مرتجفاً قليلاً ثم استلقى بدون حِراك. وقُتل الآخر بنفس الطريقة، ثم رفع هندي ديلاوير رِجل الحصان وفك قيد قوائمه ومسحه ثم نهض ووضع القيد والهراوة في الحقيبة وامتطى الحصان وأداره. نظر إلى الرجلين الواقفين هناك. كان وجهه وصدره مبقّعين بالدم. لمس الحصان بكعبه وانطلق مبتعداً.

جثا (تيت) على التراب، ويداه تتأرجحان أمامه. استدار ونظر إلى الصبي، وقال:

لِمَنْ المكسيكي؟

لم يُجِب الصبي. نظرا إلى (شيلبي) الذي كان يراقبهما.

كان (تيت) يمسك حصى صغيرة في يده، وتركها تسقط واحدة تلو الأخرى في التراب. ونظر إلى الصبي.

إذهب إذا شئت. قال الصبي.

نظر إلى هنديّ ديلاوير الميتين داخل بطانيتيهما، وقال:

لا يمكنك أن تفعل ذلك.

هذا ليس هَمُك.

قد يعود (غلانتون).

قد يعود.

نظر (تيت) إلى حيث يرقد المكسيكي، ونظر إلى الصبي مرة ثانية، وقال: ما زلت ملتزماً بذلك.

لم يُجِب الصبي.

هل تعرف ماذا سيفعلون بهم؟

بصق الصبي، وقال: أستطيع أن أخمن.

لا، لا تستطيع.

قلت إنه يمكنك أن تذهب. إفعل ما تشاء.

نهض (تيت) ونظر إلى الجنوب، ولكن الصحراء كانت ممتدة هناك بكل صفائها، وخالية من جيوش تقترب. هزّ كتفيه من البرد،

وقال: (هنوداً). إنها لا تعني أي شيء بالنسبة لهم. عبَر أرض الساحة وأحضر حصانه ثم قاده وامتطاه. نظر إلى المكسيكي الذي كان يتنفس بصوت خافت، وعلى شفتيه زَبَد زهري اللون. نظر إلى الصبي ونخس الفرس لتتقدم عبر نبات السَنْط الخشن ثم انصرف.

جلس الصبي على التراب وحملق نحو الجنوب. كانت الرصاصة التي أصابت المكسيكي قد استقرت في رئتيه وسيموت على أي حال، ولكن (شيلبي) كان قد انكسر وركه برصاصة، وكان عقله صافياً. استلقى وهو يراقب الصبي. كان من أسرة معروفة من كنتاكي، وذهب للدراسة في كليّة ترانسيلفينيا، ومثل كثير من الشباب الآخرين من صنفه، ذهب إلى الغرب بسبب إمرأة. راقب الصبي وراقب الشمس الهائلة حيث تغرب وكأنها تغلي على حافة الصحراء. أي قاطع طريق أو مقامر كان يعلم أن الذي يبدأ بالكلام سيخسر، ولكن (شيلبي) كان قد خسر كل شيء في ذلك الحين، وقال:

لماذا لا تفعلها؟

نظر الصبي إليه.

لو لدي مسدس لأطلقت النار عليك. قال (شيلبي).

لم يُجِب الصبي.

أنت تعلم هذا، أليس كذلك؟

ليس لديك مسدس، قال الصبي.

نظر إلى الجنوب مرة ثانية. شيء ما يتحرك، ربما أول خطوط الحرّ. لا يوجد غبار في ذلك الصباح الباكر. عندما نظر إلى (شيلبي) مرة ثانية، كان (شيلبي) يبكي.

لن تشكرني إن تركتك، قال الصبي.

أنجز مهمتك إذن يا ابن العاهرة.

جلس الصبي. كانت رياح خفيفة تهُب من الشمال، وبدأت بعض طيور الحمام تهدل في أكثف منطقة من أشجار الخشب الزيتي خلفهما.

إذا أردت أن أتركك فسأفعل.

لم يُجِب (شيلبي).

أحدَثَ أخدوداً في التراب بكعب حذائه.

يجب أن تقول. قال الصبي.

هل ستترك لي مسدساً؟

أنت تعرف أنه لا يمكنني أن أترك لك مسدساً.

أنت لست بأفضل منه، أليس كذلك؟

لم يُجِب الصبي.

ماذا لو عاد؟

(غلانتون).

نعم.

ماذا لو عاد.

سيقتلني.

لن يفوتك شيء.

يا ابن العاهرة.

نهض الصبي.

هل ستُخبئُني؟

أخبؤك؟

نعم.

بصق الصبي.لا يمكنك الاختباء. أين ستختبئ؟

هل ستعود؟

لا أعرف.

هذا مكان مرعب لتموت فيه.

أين هو المكان الجيد؟

مسح (شيلي) عينيه بظاهر معصمه. وقال: هل تستطيع رؤيتهم؟

ليس بعد.

هل تسحبني إلى أسفل تلك الشجيرة؟

استدار الصبي ونظر إليه. ثم نظر بعيداً إلى الأرض في الأسفل مرة ثانية، ثم عبر الحوض وجلس القرفصاء خلف (شيلبي) وأمسكه من تحت ذراعيه ورفعه. تدحرج رأس (شيلبي) إلى الخلف ونظر إلى الأعلى ثم حاول انتزاع مؤخرة المسدس الموضوع في حزام الصبي. أمسك الصبي ذراعه، وأنزله ثم ابتعد. عندما رجع عبر حوض الماء وهو يقود الحصان، كان الرجل يبكي مرة ثانية. سحب المسدس من حزامه ودسَّه بين أمتعته واندفع إلى قربوس السرج وأخذ مطرته وذهب إليه.

كان وجهه ملتفتاً بعيداً. ملأ الصبي دورق الرجل من دورقه وأعاد السدّادة من حيث كانت معلّقة بشريطها ودفعها في مكانها بمؤخرة يده. ثم نهض ونظر إلى الجنوب. وقال:

هناك، لقد أتوا.

نهض (شيلبي) مستنداً على أحد كوعيه.

نظر الصبي إليه ونظر إلى الترابط الضعيف وعديم الشكل على طول الأفق إلى الجنوب. استلقى (شيلبي) إلى الوراء. كان يحملق في السماء. غطاء معتم من الغيوم كان يتحرك من الشمال ثم هبّت الرياح. وجرت مجموعة من أوراق الصفصاف على طرف الرمال ثم عادت تجري مرة أخرى. عبر الصبي إلى حيث كان الحصان يقف منتظراً وأخذ المسدس ودسه في حزامه وعلّق المطرة فوق قربوس السرج وامتطى الحصان ثم نظر إلى الخلف على الرجل الجريح. ومضى في طريقه.

كان متجهاً فوق السهل نحو الشمال عندما رأى راكب حصان آخر على الأرض التي أمامه على بعد ميل، ربما. لم يستطع أن يميّـزه من بعيد، وتابع سيره ببطء. بعد برهة رأى أن الراكب يقود الحصان، ثم بعد قليل استطاع أن يرى أن الحصان لا يمشي بطريقة صحيحة.

لقد كان (تيت). مكث بجانب الطريق يراقب الصبي وهو يمتطي حصانه على المرتفع. وقف الحصان على ثلاثة قوائم. لم يقل (تيت) أي شيء. خلع قبعته ونظر بداخلها ثم عاود لبسها مرة ثانية. استدار الصبي فوق السرج وكان ينظر إلى الجنوب. ثم نظر إلى (تيت).

هل يستطيع أن يمشي؟

ليس كثيراً.

نزل عن الحصان وسحب رِجل الحصان. كان نَسْر الحافر مفلوقاً وينزف دماً واهتزت أكتاف الحصان. أنزل الحافر على الأرض. كان قد مضى ساعتين على ارتفاع الشمس، والآن أصبح هناك غبار في الأفق. نظر إلى (تيت).

ماذا تريد أن تفعل؟

لا أعرف. سأقوده لبرهة. وأراقب مشيته.

لن يتحمل.

أعرف ذلك.

يمكننا أن نمتطي الحصانين ونحن نربطهما الواحد مع الآخر.

يمكنك المضي بطريقك.

يمكنني ذلك بأي حال.

نظر (تيت) إليه، وقال: إذهب إذا شئت.

بصق الصبي. وقال: هيا.

أكره أن أترك السرج. أكره أن أترك الحصان بعيداً بقدر طول ذلك الحبل.

التقط الصبي الجزء من لجام حصانه المجرور على الأرض. وقال: قد تُغيِّر رأيك فيما تكره أن تترك.

انطلقا وهما يقودان الحصانين. استمرت حاجة الحصان الجريح للتوقف. ولاطفه (تيت) ليستمر في التقدم. وقال: هيا أيها الغبي. لن تميل إلى الزنوج أكثر قليلاً مني.

عند الظهر، كانت الشمس عبارة عن غباشة باهتة فوق الرؤوس، وكانت تهب رياح باردة من الشمال. وانحنوا في وجه الرياح جميعهم، الرجلان والحصانان. كانت الريح تحمل حبيبات واخزة، فضبطا قبعتيهما إلى الأسفل فوق وجهيهما واندفعا إلى الأمام. ومرَّ قشٌ الصحراء الجاف مع الرمال المهاجرة الهائجة. بعد ساعة لم يعد يظهر للعيان أي أثر لمجموعة راكبي الخيول الرئيسة والذين مرّوا قبلهم. بدت السماء رمادية اللون ومتجانسة في كل مكان يمكنهم رؤيته، ولم تخِفّ الرياح. بعد برهة بدأت الثلوج تسقط.

أخذ الصبي بطانيته ولفَّ نفسه بداخلها. استدار ووقف وظهره للريح، وانحنى الحصان ووضع خده على خد الصبي. اكتست رموشه بالثلج. عندما حضر (تيت) توقف ثم وقفا ينظران بعيداً باتجاه الريح حيث كان الثلج يعصف. لم يعودا قادرين على رؤية مسافة أكثر من بضعة أقدام.

أليس هذا هو الجحيم؟ قال (تيت).

هل سيتقدم حصانك؟

ياللجحيم، لا. إنني بالكاد أجعله يمشي.

علينا أن نستدير فقد نلتقي بالإسبان.

لم أرَ أبداً الطقس يتحول إلى مثل هذه البرودة بمثل هذه السرعة.

ماذا تريد أن تفعل؟

من الأفضل أن نتابع.

يمكننا الذهاب إلى الأرض المرتفعة. طالما أننا مستمرون في الصعود على التلة، فنحن لا نتحرك في دائرة.

سنصبح معزولون. لن نجد (غلانتون) أبداً.

نحن معزولين الآن.

استدار (تيت) وحملق بكآبة بالقشور التي تطير في دوامات الرياح القادمة من الشمال. وقال: لنذهب. لا يمكننا الوقوف هنا.

قادا الحصانين. في ذلك الوقت أصبحت الأرض بيضاء. تبادلا الأدوار في ركوب الحصان السليم وقيادة الحصان الأعرج. تسلقا لمدة ساعات فوق أرض صخرية ولم يَخِفَّ الثلج. وبدءا بملاقاة أشجار الصنوبر والبلوط القزم ووديان مستوية متناثرة، وبسرعة وصلت الثلوج على هذه المروج المرتفعة إلى ارتفاع قدم، وكان الحصانان ينفخان ويخرجان دخاناً مثل المحركات البخارية، وصار الجو أكثر برودة وظلاماً.

كانا نائمين في الثلج وهما ملفوفان بالبطانيات عندما عثر عليهما مستطلعون من جماعة (إلياس) الأمامية الذين كانوا يركبون طوال الليل في الممر الوحيد الباقي، مسرعين كي لا يفقدوا الآثار على الأحواض الضحلة حيث مُلئت بالثلج. كانوا خمسة رجال وأتوا من خلال الأشجار دائمة الخضرة في الظلام وقد تعثروا جميعهم بالرجلين النائمين، كأنهما تلّتان في الثلج وقد فُتحت إحداهما وخرج منها فجأة شكل ما وجلس كعملية تفقيس مرعبة.

توقف الثلج عن السقوط. استطاع الصبي أن يراهم ويرى خيولهم بوضوح في تلك الأرض الباهتة، الرجال يمشون بخطوات متوسطة والخيول تنفخ من البرد. كان يحمل حذاءه بإحدى يديه ومسدسه بالأخرى، وخرج من البطانية وسدّد المسدس وأطلقه في صدر الرجل الأقرب إليه ثم استدار ليهرب. انزلقت قدماه ومشى على ركبة واحدة. انطلقت وراءه رصاصة بندقية. نهض مرة ثانية راكضاً إلى أرض ينتشر فيها شجر الصنوبر، ثم استدار وتابع على طول سفح المنحدر. أُطلقت وراءه طلقات أخرى وعندما استدار

استطاع أن يرى رجلاً قادماً من بين الأشجار. توقف الرجل ورفع كوعيه فانحنى الصبي ورأسه في المقدمة. استمرت رصاصات البندقية تنطلق بين الأغصان. تدحرج ولفّ نفسه ثم هيأ المسدس. لا بد أن الماسورة كانت مليئة بالثلج لأنه عندما أطلق منها انبثق طوق من الضوء البرتقالي حولها وأصدرت الطلقة صوتاً غريباً. شعر أنه يجب أن يرى إذا كان المسدس قد أطلق الرصاصة، إلا أنه لم يكن قد أطلقها. لم يعد يستطيع رؤية الرجل ورفع نفسه ثم تابع الركض. جلس عند سفح المنحدر يلهث في الهواء البارد وشدَّ حذاءه ونظر خلفه من بين الشجر. لم يتحرك أي شيء. نهض ودس المسدس في حزامه وتابع طريقه.

* * *

وجدته الشمس المشرقة جالساً تحت نتوءٍ جبلي صخري يراقب الأرض إلى الجنوب. وبقي جالساً هكذا لمدة ساعة أو أكثر. صعدت مجموعة من الغزلان عند الطرف البعيد من الغدير وكانت تأكل وتأكل وتتنقل. بعد فترة نهض وتابع طريقه على طول سلسلة الجبال.

مشى طوال ذلك اليوم عبر تلك الأراضي المرتفعة، وأثناء متابعة طريقه كان يأكل كمشات من الثلج الموجود على الأغصان دائمة الخضرة. تتبّع آثار الطرائد من الحيوانات من بين شجر التنّوب، وفي المساء تمشّى على طول حافة صخرية حيث استطاع رؤية الصحراء المنحدرة إلى الجنوب الغربي والمرقعّة بأشكال من الثلج تستنسخ تقريباً

شكل غطاء الغيوم التي كانت قد تحرّكت إلى الجنوب. تجمّد الثلج وصار جليداً فوق الصخر، وتلألأت الأعداد الكبيرة من الكتل الجليدية المتدلية بين أشجار الصنوبر بلون أحمر كالدم في الضوء المنعكس للشمس المنتشرة عبر البراري إلى الغرب. جلس وظهره إلى الصخر واستشعر دفء الشمس على وجهه وراقبها تتوهج وتختفي تدريجياً جارّة معها السماء الزهرية القرمزية. هبت ريح متجمدة، أعتمت أشجار الصنوبر فجأة مقابل الثلج ثم بقي السكون والبرد فقط.

نهض وانطلق مسرعاً على الصخور الصلصالية. مشى طوال الليل. ودارت النجوم بعكس عقارب الساعة في مسارها، ودارت مجموعة الدب الأكبر ومضت نجوم الثريّا في أعلى قمة القبة السماوية. استمر بالمشي إلى أن تخدرت أصابع قدميه وطرقعت قليلاً داخل حذائه. قادته طريقه فوق الحافة الصخرية أكثر إلى داخل الجبال على طول حافة ممر كبير ولم يعد يرى مكاناً للنزول من هذه الأرض المرتفعة. جلس وخلع حذاءه بصعوبة ثم أمسك قدميه المتجمدتين بيديه بالتناوب، لكنهما لم تدفآ والتصق فكاه ببعضهما من شدة البرد، وعندما ذهب ليلبس حذاءه مرة ثانية، كانت قدماه كأنما ثقبتهما عِصي ودخلت فيهما. عندما لبس الحذاء ووقف وضرب الأرض بقدميه المتخدرتين عرف أنه لن يستطيع التوقف مرة ثانية حتى تبزغ الشمس.

أصبح الجو أكثر برودة وما زال أمامه ليل طويل. استمر بالسير متبعاً في الظلام قمم الصخور التي جردتها الرياح من غطائها الثلجي.

توهجت النجوم المكشوفة بثبات واقتربت أكثر في الليل، وحتى اقتراب الفجر كان يتعثر بين الصخور البركانية في القمم الأكثر قُرباً من السماء، مدى قاحل من الصخر ملفوف بذلك الضوء المبهرج حيث تستلقي النجوم كأنها مغمورة بالماء تحت قدميه. وتعبر من حوله، وبشكل متواصل، شظايا مواد مضيئة مهاجرة لا موقع لها على الخرائط. وعند ضوء ما قبل الفجر شق طريقه فوق النتوء الجبلي، وهناك استقبل، قبل أي مخلوق في تلك الأرض، دفء أشعة الشمس.

نام متكوراً على نفسه بين الحجارة، والمسدس مثبت على صدره. ذهب الخدر عن قدميه ودفئتا، استيقظ وظل مستلقياً يحملق في سماء بلون الخزف الأزرق حيث يحوم عالياً حول الشمس صقران ببطء وبتوازن رائع كطيور ورقية فوق سارية.

مشى نحو الشمال طوال النهار، وفي ضوء المساء الممتد رأى من تلك الأرض العالية الأطراف تصادُم الجيوش بعيداً وبصمت على السهل في الأسفل. وطافت الخيول السوداء الصغيرة، وتبدل المنظر الطبيعي في الضوء الخافت ورقدت الجبال في الخلف بظلال معتمة. تنقّـل الفرسان البعيدون وقاموا بحركات دفاعية ومرّت فوقهم سحابة باهتة من الدخان وتنقّلوا على الظل المتعمق لأرض الوادي مخلّـفين وراءهم أشكال رجال هالكون فقدوا حياتهم في ذلك المكان. راقب كل ذلك يمر أسفل منه صامتاً منظماً ولا معنى له إلى أن اختفى راكبو الخيول المحاربون في هجوم الليل المفاجئ الذي سقط على الصحراء. كل تلك الأرض امتدت باردة وزرقاء وبدون ملامح وسطعت الشمس فقط على

الصخور العالية حيث وقف. واصل سيره وما لبث أن أصبح هو نفسه في الظلام، وهبت الرياح على الصحراء وظهرت شرارات البرق مرة تلو الأخرى على طول أطراف العالم. شق طريقه بمحاذاة الجُرف إلى أن وصل إلى صدع في الجدار الصخري انشق بواسطة وادٍ يمر بين الجبال. وقف ينظر إلى ذلك الخليج حيث أصدرت الأعشاب دائمة الخضرة اللولبية أصواتاً خفيفة مع هبوب الرياح، ثم بدأ ينزل.

انتشر الثلج داخل التجاويف العميقة على المنحدرات. وتَخبَّط وهو يمشي خلالها وتوازن بجانب الصخور الجرداء إلى أن تخدرت يداه بفعل البرد. عَبَر بحذر مُنزلق من الحصى وشق طريقه إلى الأسفل نحو الطرف البعيد بين الحصى الحجرية والأشجار الصغيرة المتشابكة. وقع مرة تلو المرة محركاً يديه في الظلام كمن يبحث عن شيء يمسكه، لينهض ويتحسس حزامه ومسدسه. واستمر على هذا الحال طوال الليل. عندما وصل إلى منبسط من أرض مرتفع فوق قاع الوادي استطاع أن يسمع صوت جدول يتدفق في الممر أسفل منه وذهب يتعثر ويداه تحت إبطيه مثل هارب بصدرية مجنون. وصل إلى جزء رملي من اليابسة مغسول بماء الجدول واتبعه حيث أخذه أخيراً إلى الصحراء مرة ثانية حيث وقف يرتعش بفعل البرد يبحث بغباء عن نجم ما في الغيوم المتلبدة.

تطاير معظم الثلج أو ذاب فوق السهل الذي وجد نفسه فيه. كانت تهب عواصف مترادفة آتية من الشمال في الأرض المنخفضة وتدحرج الرعد بعيداً، وكان الهواء بارداً وفيه رائحة الحجارة المبللة. انطلق عبر المنخفض القاحل، لا شيء فيه سوى أعشاب متناثرة

وفراشات منتشرة بشكل واسع تقف منعزلة وصامتة تحت السماء المكفهرة مثل باقي المخلوقات الموجودة هناك. وقفت الجبال إلى الشرق راسخة في الصحراء، وأمامه جرف أو نتوءات جبلية امتدت بعيداً كلِسان ضخم وظليل فوق أرض الصحراء. مشى متخشباً وشبه متجمد ولا يحِسُّ بقدميه. مر عليه أكثر من يومين بدون طعام وبقليل من الراحة، ويستشرف الأرض التي أمامه في توهج البرق المتكرر على فترات متقطعة، وبهذا الأسلوب تابع طريقه بإجهاد ودار حول رأسٍ صخري معتم على يمينه، ثم توقف وهو يرتجف وينفخ داخل يديه المرتجفتين والطويلتي الأظافر. ظهرت أمامه بعيداً في البراري نار متّقدة، وشُعلة منعزلة تخمد مع الريح الذي يشتد ويضعف، وتنهمر شرارات مبعثرة مع العاصفة مثل قشرة ساخنة تطير من كير حداد غير مميز يولول في الخلاء. جلس وراقبها. لم يكن قادراً على معرفة كم تبعد. استلقى على بطنه مستكشفاً المنطقة ليرى أي بشرٍ موجودين بها. ولكن لم يكن هناك ضوء أو سماء. استلقى لوقت طويل يراقب ولكنه لم ير شيئاً يتحرك.

عندما انطلق مرة ثانية، بدت النار وكأنها تخبو من أمامه. مرّت جماعة من الأشكال بينه وبين الضوء. ثم مرّت مرة أخرى. ربما كانت ذئاباً. تابع طريقه.

كانت شجرة منفردة تحترق في الصحراء. شجرة خلـّـفتها العاصفة العابرة مشتعلة. المهاجر المنفرد الذي توقف عندها أتى من بعيد ليكون هنا، وركع على التراب الحار ومدّ يديه المتخدرتين في حين أن كل شيء

حوله يشهد مجموعات قليلة الشأن من القوات الأجنبية التي أرسلت في ذلك اليوم الجامح، جثمت طيور بوم صامتة ووقفت على إحدى رجليها بالتناوب، وعناكب ذئبيّة وعقارب سوطية ضخمة وسحالي بأفواه سوداء كفم كلب التشاو، وهي قاتلة للإنسان، وعظاءات صغيرة تنفث دماً من عيونها، وأفاعي التراب الخبيثة التي تشبه الآلهات المحتشمة في (جيدا) و(بابل) بصمتها وشكلها. مجموعة متألقة من العيون المشتعلة التي تحدد حلقة الضوء، جميعها متجهة إلى هدنة محفوفة بالمخاطر أمام ذلك المشعل الذي أعاد توهجه النجوم إلى محاجرها.

عندما سطعت الشمس، كان نائماً تحت هيكل عظمي متفحّم . تحركت العاصفة إلى الجنوب منذ وقت طويل وكانت السماء بعد العاصفة صافية وزرقاء، وانتصبت قمة الدخان المنبعث من الشجرة المحترقة بشكل عمودي في الفجر الساكن كقلم مستدق الطرف يحدد الساعة بظله الحيّ الاستثنائي الباهت على سطح الأرض والذي ليس له دلالة أخرى. اختفت جميع المخلوقات التي كانت تسهر معه في الليل، وبقيت حوله فقط أشكال هياكل عظمية غريبة من وميض انصهار الرمل بفعل البرق بتجعداتها المسفوعة المنصهرة والناتجة من التراب حيث ينطلق البرق المتكور فوق الأرض في ليل يهسهس وتنتشر فيه رائحة الكبريت.

جلس على طريقة الخياط وراقب، من جهة فوهة البركان، العالم وهو يتحول عند الحواف إلى سراب مومض يطوّق الصحراء. بعد فترة نهض وشق طريقه إلى حافة المنخفض ثم إلى المجرى الجاف للجدول

متبعاً الآثار الشيطانية الضئيلة للخنازير البرية حتى وصل إليها تشرب من بركة ماء راكدة. جفلت الخنازير وهربت إلى الدَغَل وهي تصدر صوت نخير، استلقى على الرمال المبللة والمُداس عليها وشرب ثم استراح ثم شرب مرة ثانية.

انطلق بعد الظهر عبر قعر الوادي والماء يتخابط داخل أحشائه. بعد ثلاث ساعات وقف عند المسار القوسي لآثار الخيول القادمة من الجنوب حيث مرّت الفرقة. تبع جوانب الآثار وميّز آثار راكبي الخيول منفردين وخمّن عددهم وأن خيولهم كانت تمشي خبباً. تبع الأثر لعدة أميال، واستطاع أن يعرف من تعاقب الآثار أن جميع راكبي الخيول قد مرّوا مع بعضهم، وعرف من الصخور الصغيرة المقلوبة والحفر التي تم النزول فيها أنهم مرّوا في الليل. وقف ينظر من تحت يده إلى الأرض المنخفضة باحثاً عن أي غبار أو أثر لـ(إلياس). لم يكن هناك أي أثر. واصل طريقه. بعد ميل آخر صادف كتلة غريبة معتمة على الطريق كأنها جثة محروقة لحيوان شرير. أدارها. مرّت آثار الذئاب والذئاب الأميركية بين آثار الخيول والأحذية، بهجمات قليلة تتجه آثارها لتتلاقى عند ذلك الشكل المتحول إلى رماد ثم تتشعب ثانية.

كانت بقايا فروات رؤوس أُخذت في (ناكوتزاري) وحُرقت إلى غير رجعة في نار المعسكر الخضراء كريهة الرائحة حتى لم يبق شيء من جثث القرويين ما عدا ذلك الفحم المتخثر من حياتهم الماضية. وُضِع رماد الجثث فوق مرتفع على الأرض وتمعّن في كل جزء من الأرض

حوله، ولكن لم يكن هناك شيء لمشاهدته. واصل طريقه متبعاً الآثار بما تُلمّح إليه من مطاردة وظلام. اقتفى أثرهم أثناء الشفق المتحول إلى ظلام. عند غروب الشمس أصبح الجو بارداً، ولكن لا يمكن مقارنته بقسوة برد الجبال. أضعفه صيامه وجلس على الرمال ليستريح ثم أفاق منبطحاً وملتوياً على الأرض. كان القمر قد ارتفع، وكان نصف قمر وبدا كقارب طفل صغير في ممر جبال من الورق الأسود إلى الشرق. نهض وواصل المشي. كانت الذئاب الأميركية تعوي بعيداً وأقدامه تهتز تحته. بعد ساعة من تقدمه صادف حصاناً.

كان يقف في خط الأثر وتحرك مبتعداً في الظلام ثم توقف مرة ثانية. توقف ساحباً مسدسه. ذهب الحصان إلى الوراء، شكل مظلم، لم يعرف أبداً إذا كان فوقه راكب أم لا. تحرك الحصان في دائرة ثم عاد.

تحدّث إلى الحصان. سمع صوت رئتيه تتنفسان، وسمعه وهو يتحرك وعندما عاد استطاع أن يشم رائحته. تبعه لمدة ساعة، متحدثاً إليه ويصفّر باسطاً يديه. عندما اقترب بشكل كاف ليلمسه أمسك به من شعر عنقه واستمر بالخبب كما كان يفعل من قبل، فركض بجانبه وتشبث به وأخيراً ربط قوائمه الخلفيه وطوّقها مع واحدة من قوائمه الأمامية وأنزله على الأرض مكوّماً.

كان هو الأسبق في النهوض. وكان الحصان يصارع لكي ينهض وظنّ أن الحصان قد أصيب بأذى عند وقوعه، ولكنه لم يُصب. أوثق

حزامه حول خَطْمه وامتطاه فوقف الحصان يرتجف تحته وأرجله متباعدة. ربت على حاركه(*) وتكلم معه فتقدم الحصان إلى الأمام على غير هدى.

خمّن أنه أحد خيول التحميل المُشتراة في (أوريس). توقف الحصان وحثه على التقدم ولكنه لم يتحرك. ضرب بكعب حذائه تحت ضلوعه بقوة فجثم على مؤخرته وصار يزحف جانبياً. مدّ نفسه وفك الحزام عن خطمه وركله ليتقدم وضربه ضربة قوية بالحزام فمشى الحصان بسرعة. لفّ على قبضته كمية من شعر رقبة الحصان ودس المسدس بشكل آمن عند خصره وامتطاه ثم جثم على ظهرالحصان بدون سرج فشعر بمفاصل عموده الفقري بارزة ومحسوسة تحت الجلد.

أثناء مسيرهما انضم إليهما حصان آخر جاء من الصحراء ومشى بجانبهما، وكان ما يزال هناك عند بزوغ الفجر. في المساء أيضاً انضمت إلى آثار راكبي الخيول فرقة أكبر وكان الطريق مرتفعاً ومُداساً عليه ويقود إلى قاع الوادي في الشمال. مع ضوء الصباح انحنى ووجهه مقابل كتف الحصان وتمعّن بالآثار. كانت أفراس هنود بدون حوافر، وربما كان هناك مائة منها. لم تنضم هي إلى راكبي الخيول بل انضم راكبو الخيول إليها. اندفع إلى الأمام. مشى الحصان الصغير الذي أتى إليهما في الليل بضعة فراسخ ثم ابتعد عنهما بحذر، وكان الحصان الذي يمتطيه مضطرباً وعصبياً بسبب حاجته إلى الماء.

(*) الحارك: أعلى كاهل الفرس.

عند الظهيرة كان الحصان يتدهور. حاول أن يلاطفه ليبتعد عن طريق الأثر ويلحق بالحصان الآخر، ولكنه لم يغادر الطريق الذي يتقدم فيه. مصَّ حصاة كبيرة وتفحص الأرض حوله. ثم رأى راكبي خيول يتقدمونه. لم يكونوا هناك، ثم أصبحوا موجودين هناك. أدرك أن قربهم هو مصدر التوتر عند الحصانين، تابع طريقه وهو يراقب الحصانين ثم يراقب خط السماء إلى الشمال. ارتجف الحصان الذي يمتطيه واندفع إلى الأمام، وبعد برهة استطاع أن يرى أن راكبي الخيول يرتدون قبعات. حثَّ الحصان على السير، وبينما كان يتجه نحوهم، كان أفراد الفرقة قد توقفوا وجلسوا على الأرض يراقبون جميعهم اقترابه منهم.

كان مظهرهم سيئاً. كانوا مُستنفَدي القوى وملطخين بالدماء والسواد حول عيونهم وقد ربطوا جروحهم بقماش قذر ومبقّع بالدم، وملابسهم عليها قشور من دم جاف وبارود أسود. بدت عينا (غلانتون) في محجريهما السوداوين كمركز متوهج للقتل، حمّلق بشحوب هو ورجاله المنهكون في الصبي وكأنه لم يكن واحداً منهم فقد كانوا جميعهم في ظروف بائسة جداً. انزلق الصبي من فوق الحصان ووقف بينهم مرهقاً وظمآناً ويبدو كالمجنون. رمى إليه أحدهم مطرة ماء.

لقد فقدوا أربعة رجال. أما الآخرون فقد كانوا يتقدمونهم في مهمة استطلاع. شقَّ (إلياس) طريقه عبر الجبال طوال الليل وطوال اليوم التالي وهاجمهم في الظلام عبر الثلوج في السهل على بعد أربعين

ميلاً إلى الجنوب. سيقوا شمالاً في الصحراء كالماشية وأخذوا متعمّدين طريق فرقة الحرب ليضللوا مطارديهم. لم يعرفوا كم كان يبعد المكسيكيون عنهم من خلفهم، ولم يعرفوا كم كان يتقدم هنود الآباتشي أمامهم.

شرب من المطرة وتمعّن بهم. لم يكن يعرف مَنْ مِنَ الغائبين كان متقدّما مع المستطلعين ومن منهم كان ميتاً في الصحراء. كان الحصان الذي أحضره له (تودفين) هو ذلك الذي كان يمتطيه المُجند (سلوت) عندما خرج من (أوريس). عندما انطلقوا بعد نصف ساعة، لم يتمكن حصانان من النهوض فتركوهما خلفهم. جلس منفرج الساقين على سرج مقلقل وغير مغطى بجلد حيوان على حصان الرجل الميت مرتخياً ويترنح وبلحظة كانت ذراعاه ورجلاه تتدلى، وصار يتأرجح وهو نائم كدمية متحركة فوق حصان. استيقظ ليجد القسيس السابق إلى جانبه. نام مرة ثانية. عندما استيقظ مرة ثانية كان القاضي هناك. هو أيضاً فقد قبعته وامتطى حصانه وهو يضع على رأسه إكليلاً مُحاكاً من شجيرات الصحراء كأنه بردعة فرس رديئة من أرض مالحة، ونظر إلى الهارب بالابتسامة نفسها، وكأن العالم كان ساراً تماماً بالنسبة له وحده.

واصلوا طريقهم طوال بقية ذلك اليوم، صاعدين التلال المنحدرة المنخفضة والمغطاة بنباتات التشولا والشوك الأبيض. من وقت لآخر كان أحد الخيول الاحتياطية يتوقف ويتمايل على الطريق ويبتعد خلفهم. نزلوا منحدراً طويلاً شمالاً في المساء الأزرق البارد على انحدار قاحل مزروع فقط بنبات الأوكيتيللو الشوكي المتناثر،

وقصب أعشاب ضارّة، أقاموا معسكراً على الأرض المنبسطة، وهبت الرياح طوال الليل، واستطاعوا رؤية نيران أخرى تشتعل في الصحراء إلى الشمال. خرج القاضي وتفحّص الخيول واختار، من بين تلك الخيول البديلة الواهنة، الحيوان الذي يوحي مظهره بأنه الأقل قدرة على الاحتمال وأمسك به. قاده بجانب النار ونادى على أحدهم ليأتي ويمسكه له. لم ينهض أحد. انحنى القسيس السابق على الصبي، وقال:

لا تُعره اهتماماً أيها الشاب.

نادى القاضي مرة ثانية في الظلام ومن وراء النار، ووضع القسيس السابق يده مُحذراً على ذراع الصبي. ولكن الصبي نهض وبصق في النار. ثم استدار ونظر إلى القسيس السابق.

أتعتقد أنني أخاف منه؟

لم يُجِب القسيس السابق، واستدار الصبي وانصرف في الظلام حيث ينتظر القاضي.

وقف ممسكاً بالحصان. وكانت أسنانه فقط هي التي تتلألأ في ضوء النار. قادا الحصان معاً بعيداً قليلاً، وأمسك الصبي الحبل المحبوك المربوط به الحصان في حين أخذ القاضي حجراً مدوّراً يزن ربما مائة رطل، وحطّم جمجمة الحصان بضربة واحدة. اندفع الدم من أذنيه ووقع على الأرض بقوة كبيرة بحيث انكسرت إحدى قوائمه الأمامية تحته محدثة صوت فرقعة ضعيفاً.

سلخوا الجزء الخلفي من جسم الحصان بدون تفريغ أحشائه، وقطع الرجال شرائح منه وقاموا بشوائها فوق النار، ثم قطعوا باقي اللحم قطعاً طولية وعلّقوها فوق الدخان. لم يَعُد المستطلعون ونصّبوا حراساً ثم ناموا وأسلحة كل رجل على صدره.

في منتصف نهار اليوم التالي عبروا أرضاً قلوية منخفضة حيث وجدوا تجمُّعاً لرؤوس رجال. توقف أفراد المجموعة، وتقدم (غلانتون) والقاضي. كان عدد الرؤوس ثمانية، وعلى كل رأس قبعة وشكّلوا حلقة بحيث تتجه وجوهم جميعهم إلى الخارج. دار (غلانتون) والقاضي حولهم ثم توقف القاضي وترجّل عن الحصان ودفع أحد الرؤوس بحذائه. ليُطمئِن نفسه أنه لا يوجد رجل مدفون في التراب تحت الرأس. باقي الرؤوس كانت تحملق بعيون عمياء مجعّدة كأنهم أعضاء جمعية ذات مبادئ أخلاقية كرّسوا أنفسهم للصمت وللموت.

نظر راكبو الخيول بعيداً إلى الشمال وواصلوا طريقهم. كان هناك خلف مرتفع مسطّح من الرماد البارد حطام متفحّم لزوج من العربات ولجذوع أجساد أفراد الفرقة العارية. نقلت الرياح الرماد، وحددت المحاور المعدنية أشكال العربات كما تحدد العوارض الطولانية هياكل السفن في قيعان البحار. كانت الجثث نصف مأكولة، وحلّقت الغربان عندما اقترب راكبو الخيول وبدأ زوج من الصقور بالترنح على الرمال باسطَيْن أجنحتهما كراقصتين قذرتين، ويهتز رأسيهما المهتاجَيْن بطريقة فاحشة.

تابعوا طريقهم. واجتازوا مصب نهر جاف في الصحراء المنبسطة، وواصلوا السير بعد الظهر خلال سلسلة من الممرات الضيّـقة إلى أرض تلال ممتدة. استطاعوا شمَّ رائحة نيران أشجار الصنوبر، وقبل حلول الظلام كانوا قد دخلوا بلدة (سانتا كروز).

هذه البلدة، مثل جميع الحصون على طول الحدود، كانت أسوأ حالاً من سابقاتها وكان الكثير من المباني غير مأهولة ومدمرة. وقد أعلن عن مجيئهم قبل وصولهم واصطف السكان على الطريق يراقبونهم ببلاهة أثناء مرورهم، كانت النساء ترتدين الشالات السوداء، والرجال مسلحين ببنادق قديمة أو بنادق صُـنعت من قطع أقحمت بطريقة بدائية في كعب بندقية من خشب الحور القطني قُـطعت وشُـكلت بالفؤوس كألعاب للأولاد. حتى أن بعضهم كان يحمل بنادق بدون زناد نهائياً كانت تُطلق النار بدسٍّ سيجارة في ثقب الماسورة مطلقة حجر البارود الذي حشيت به، والمُستَخرج بدوره من مجرى النهر، مئززاً في الهواء بطيران منحرف وكما يحلو له أشبه ما يكون بمسارات الأحجار النيزكية. تقدم الأمريكيون بخيولهم إلى الأمام. وبدأ الثلج يسقط من جديد وهبت رياح باردة على الشوارع الضيقة أمامهم. وحتى في حالتهم البائسة تلك ظهروا متألقين من فوق سروج خيولهم، عند هذا الحشد من المتشردين المبتهجين، وباحتقار غير مُقنَّع.

وقفوا بين خيولهم في ذلك الزقاق الصغير القذر بينما كانت الرياح تنقب في الأشجار، وفي الشفق الرمادي صاحت الطيور الجائمة

في أعشاشها وتشبثت بالأغصان، وهبَّ الثلج في دوامة عبر الساحة الصغيرة وغطى أشكال المباني الطينية، وجعل صيحات البائعين الذين اتبعوهم تذهب أدراج الرياح. استدار (غلانتون) والمكسيكي الذي ظهر معه فامتطى أفراد المجموعة خيولهم وساروا في رتل إلى الشارع حتى وصلوا إلى بوابة خشبية كبيرة تؤدي إلى الساحة. كانت الساحة مغطاة بالثلج، وفي الداخل كان هناك فناء للطيور والحيوانات - ماعز وحمار صغير - التي تشبثت وخربشت بمخالبها بتهور على الجدران عندما دخل راكبو الخيول. في إحدى الزوايا وقف مرجل ثلاثي القوائم مصنوع من قضبان مطلية بالأسود، وكانت هناك لطخة دم كبيرة نزل الثلج على جزء منها، وظهرت بلون وردي ضعيف وشاحب في ما تبقى من الضوء. خرج رجل من البيت وتحدث هو و(غلانتون) مع المكسيكي ثم أشار إليهما بالدخول بعيداً عن ذلك الطقس.

جلسوا على أرض غرفة طويلة ذات سقف عال وعوارض مُبقّعة بالدخان، في حين أحضرت امرأة وفتاة صحوناً من يخنة اللحم والخضار صُنعت من لحم الماعز، وصحناً فخارياً كبيراً مليئاً بكعكات دقيق الذرة الزرقاء، وقُدِّمت إليهم صحون من الفاصولياء وقهوة وعصيدة الذرة التي وُضعت فيها قطع كبيرة من سكر بيلينسيللو. خيَّم الظلام في الخارج وانهمر الثلج. لم يكن يوجد نار في الغرفة وكان الطعام ينضج على البخار بشكل مضجر. بعد أن تناولوا الطعام جلسوا يدخنون، وجمعت النساء الصحون، وبعد برهة حضر فتى يحمل مصباحاً وقادهم إلى الخارج.

عبروا الساحة بين الخيول التي تتنفس بصوت مسموع، وفتح الفتى باباً خشبياً قاسياً لحظيرة من الطين ووقف جانباً وهو يحمل المصباح عالياً. أحضروا سروجهم وبطانياتهم. وضربت الخيول الأرض بحوافرها في الساحة من البرد.

كان في الحظيرة فرس ومهر رضيع وكان الفتى يريد أن يضع المهر في الخارج، ولكنهم طلبوا منه أن يتركها. حملوا قشاً من الاصطبل ورموه على الأرض، وكان الفتى يحمل المصباح ليفرشوا بطانياتهم. انبعثت في الحظيرة رائحة الصلصال والقش والسماد، وفي الضوء الأصفر المتسخ ظهر بخار أنفاسهم من شدة البرد. عندما رتبوا بطانياتهم أنزل الفتى المصباح وخرج إلى الساحة وسحب الباب وأغلقه وراءه تاركاً إياهم في ظلام دامس مطلق.

لم يتحرك أحد. في ذلك الاصطبل البارد ربما استحضر إغلاق الباب في بعض العقول نُزلا أخرى وهذا ليس باختيارهم. تنفست الفرس بصعوبة ومشى المهر قربها. ثم بدأوا واحداً تلو الآخر بتجريد أنفسهم من ملابسهم الخارجية، المعاطف الواقية من المطر المصنوعة من جلد الحيوان والشالات الصوفية والسترات، وانتشرت حولهم، واحداً تلو الآخر، شرارات مفرقِعة وبدا كل رجل كأنه يلبس غطاء من نار باهتة. بدت أيديهم المرفوعة إلى الأعلى، لسَحْب ملابسهم، مضيئة. وكل شخص مخفي كان مغلفاً بأشكال من الضوء ذات صوت

مسموع وكأنها كانت دائماً كذلك. صهلت الفرس في الجانب البعيد من الاصطبل وجفلت من هذه الإضاءة لكائنات معتمة جداً، واستدار المهر وأخفى وجهه عند جلد خاصرة أمه.

*   *   *

-16-

وادي سانتا كروز - سان برناردينو - ثيران بريّة - توماكاكوري - الإرسالية - ناسك - (توباك) - المستطلعون المفقودون - سان اكسافيير دل باك - حصن توكسون - الباحثون عن الطعام - الـ(تشيريكاواس) - مواجهة محفوفة بالمخاطر - (مانغاس) كولورادو - الملازم (كوتس) - تجنيد في الساحة - رجل هائج - قتل (أوينز) - في الحانة - السيد (بيل) يُفحص - القاضي يعثر على دليل- هنود حمر عجيبون - رقصة الفاندانغو - القاضي والنيزك.

* * *

كان البرد أكثر حدة في الصباح عندما انطلقوا ممتطين خيولهم. لم يكن هناك أحد في الشوارع ولم يكن هناك آثار على الثلوج التي سقطت مؤخراً. عند طرف البلدة رأوا المكان الذي عبرت منه الذئاب. مرّوا بجانب نهر صغير وطبقة رقيقة من الجليد ومستنقع متجمد حيث كان البط يروح ويجيء مدمدماً. عند بعد ظهر ذلك اليوم اجتازوا وادياً خصباً مورقاً حيث وصل ارتفاع عشب الشتاء الذابل إلى بطون خيولهم. حقول خالية حيث تعفنت المحاصيل، وبساتين تفاح وسفرجل ورمان حيث جفّت الفاكهة وسقطت على الأرض. ووجدوا غزلاناً مجتمعة في المروج وآثار قطيع مواشٍ. في تلك الليلة وبينما هم جالسون

حول النار يقومون بشواء أضلاع وأفخاذ ظبي صغير، سمعوا خوار الثيران في الظلام.

في اليوم التالي تابعوا طريقهم مارّين بحُطام مبنى المزرعة القديمة في سان برناردينو. في ذلك المرعى رأوا ثيراناً بريّة مسنّة لدرجة أنها تحمل دمغات إسبانية على مؤخراتها والعديد من هذه الحيوانات هاجمت المجموعة قليلة العدد وأطلق عليها النار وتُركت على الأرض إلى أن جاء أحدها من بين نباتات الأكاسيا وغيَّبَ قرونه حتى الحدبة في ضلوع الحصان الذي يمتطيه (جيمس ميلر). رفع قدمه من الرِكاب القريب عندما رأى الثور قادماً، وجعله التصادم يرتج على السرج. صهل الحصان وركل برجله ولكن الثور ثبّت قوائمه ورفع الحصان وراكبه بالكامل من على الأرض قبل أن يتمكن (ميلر) من سحب مسدسه، وعندما وضع فوهة المسدس على جبهة الثور وأطلق النار، سقطت كل الأجزاء الغريبة على نحو مخيف، ومشى خارج الأشلاء باشمئزاز بينما يتدلى المسدس الذي ينبعث منه الدخان من يده. كان الحصان يبذل جهداً كبيراً للوقوف، فعاد وأطلق عليه النار ووضع المسدس في حزامه وبدأ بفك حزام السرج. كان الحصان ممدداً فوق الثور الميت، وقد احتاج (ميلر) لجهد كبير كي يحرر السرج منه. توقف باقي راكبي الخيول ليراقبوا، وأحضر أحدهم آخرَ حصان بديل في مجموعة الخيول الاحتياطية، فيما عدا ذلك لم يعرضوا عليه أي مساعدة أخرى.

واصلوا طريقهم متبعين المسار الخارج من سانتا كروز، خلال مجموعة أشجار الحور القطني الضخمة الصاعدة من قاع النهر. لم يتجاهلوا أي إشارة تدل على وجود الأباتشي مرة ثانية، ولم يعثروا على أثر للمستطلعين المفقودين. في اليوم التالي مرّوا بجانب إرسالية (سان خوسيه دي توماكاكوري)، ونزل القاضي لينظر إلى الكنيسة الموجودة على بعد ميل من الطريق. وألقى خطاباً عن تاريخ وأسلوب بناء الكنيسة، وأولئك الذين سمعوه لم يصدّقوا أنه أتى إليها في حياته. تابع ثلاثة منهم الطريق معه، وراقبهم (غلانتون) يذهبون بريبة مكتومة. واصل هو والآخرون طريقهم لمسافة قصيرة ثم توقفوا ورجعوا إلى الوراء.

كانت الكنيسة القديمة حطاماً ووقف الباب مفتوحاً على الجدران العالية المحيطة. عندما مرّ (غلانتون) ورجاله خلال الباب المنهار، وقفت أربعة خيول بدون راكبين في المجمع الخالي بين شجر الفواكهة الذابلة ومعرشات العنب. تابع (غلانتون) طريقه وهو يحمل بندقيته بشكل عمودي أمامه، وصفيحة عَقِبها على فخذه. ومشى كلبه في عقب الحصان واقتربوا بحذر من جدران الكنيسة المنهارة. كانوا على وشك الدخول من الباب ممتطين خيولهم، ولكن عندما وصلوه أطلقت النار من الداخل فطارت طيور الحمام، وانزلقوا من فوق خيولهم وربضوا وراءها حاملين بنادقهم. نظر (غلانتون) إلى الآخرين وراءه ثم دفع حصانه للتقدم إلى حيث يستطيع أن يرى في الداخل. كان جزء من الحائط العلوي ومعظم السقف قد انهارا، وكان هناك رجل ممدداً

على الأرض. قاد (غلانتون) حصانه إلى غرفة المقدسات ووقف ينظر مع الآخرين إلى الأسفل.

كان الرجل الذي على الأرض يحتضر، وكان مرتدياً ملابس محلية الصنع من جلود المواشي، حتى المداس، وكذلك قبعة غريبة. قلبوه على الأرض المتشققة والمرصوفة بحجارة فخارية فتحرك فكه وتكوّن لُعاب من الدم على شفته السفلى. كانت عيناه متلبدتين وكان فيهما خوف وكان فيهما شيء آخر. سند (جون برويت) عقب بندقيته على الأرض وهزّ قرنه لكي يعيد تعبئة البندقية، وقال: رأيت هارباً آخر، لقد كانا اثنين.

بدأ الرجل الذي على الأرض يتحرك. كانت إحدى يديه موضوعة على فخذه وقد حركها قليلاً وأشار بها، ولم يعرفوا هل أشار إليهم أم إلى الارتفاع الذي سقط منه أم إلى مصيره في الآخرة. ثم مات.

نظر (غلانتون) على الأنقاض، وقال: من أين أتى ابن العاهرة هذا؟

أشار (برويت) نحو حاجز السقف الطيني المنهار. كان هناك في الأعلى. لم أعرف ماذا كان، ولا زلت لا أعرف. لقد أطلقت الرصاص على ابن العاهرة من هناك.

نظر (غلانتون) إلى القاضي.

أعتقد أنه كان معتوهاً، قال القاضي.

قاد (غلانتون) حصانه خلال الكنيسة وإلى الخارج من باب صغير في صحن الكنيسة داخل الساحة. كان يجلس هناك عندما أخرجوا الناسك الآخر. نخسه (جاكسون) بماسورة بندقيته ليتقدم إلى الأمام، كان رجلاً نحيلاً وصغير الحجم، ولم يكن شاباً، والرجل الذي قتلوه كان أخاه. لقد هربا من سفينة على الشاطئ منذ زمن بعيد واتجها إلى هذا المكان. كان مرعوباً ولا يتكلم الانجليزية ويتكلم القليل من الإسبانية. تكلم معه القاضي بالألمانية. لقد كانا هنا منذ سنين. لقد جُرِّد الأخ من عقله في هذا المكان، والرجل الذي يقف الآن أمامهم بملابسه المصنوعة من جلد الحيوان وحذائه القصيرالغريب لم يكن سليم العقل تماماً. تركوه هناك، وامتطوا خيولهم إلى الخارج، كان الرجل يهرول جيئة وذهاباً في الساحة وهو ينادي. بدا كأنه لا يعرف أن أخاه كان ميتاً في الكنيسة.

لحق القاضي بـ(غلانتون) وامتطيا حصانيهما جنباً إلى جنب نحو الطريق.

بصق (غلانتون)، وقال: كان يجب قتل ذلك الرجل أيضاً.

ابتسم القاضي.

لا أحب أن أرى رجالاً بيضاً هكذا، قال (غلانتون). هولنديون أو مهما يكن. لا أحب أن أرى ذلك.

انطلقوا شمالاً على طول خط النهر. كانت الغابات جرداء وأوراق الأشجار على الأرض متعلقة برقائق الجليد، وكانت أغصان أشجار الحور القطني المبرقشة والرفيعة متخشبة وموحلة مقابل سماء

الصحراء المضّربة مثل اللحاف. في المساء مروا خلال (توباك) المهجورة حيث سنابل القمح ذابلة في حقول الشتاء والحشائش نامية على الشارع. وقف رجل أعمى على منحدر يترقب عند الساحة وعندما مرّوا رفع رأسه ليصغي.

خرجوا إلى الصحراء ليعسكروا. لم تكن هناك رياح، وكان الصمت هو الشيء المُفضّل بشكل كبيرعند كل نوع من الهاربين كما كانت الأرض المكشوفة نفسها، فلا توجد جبال قريبة في متناول الأعداء ليخفوا أنفسهم خلفها. كانوا جاهزين وخيولهم مسوجة في الصباح قبل الضوء، وانطلقوا مع بعضهم وأسلحتهم مهيأة للإطلاق. فحص كل رجل المنطقة بدقة ورُصدت حركات أضعف الحيوانات في إداركهم الجمعي حتى اتحدوا بأسلاك غير مرئية من اليقظة، ثم تقدموا في ذلك المشهد الطبيعي برنين منفرد مشترك. مرّوا بمزارع مهجورة وقبور على أطراف الطريق، وعند منتصف النهار تعرّفوا على آثار الآباتشي مرة ثانية قادمة من خارج الصحراء إلى الغرب وتتقدم أمامهم خلال الرمال اللينة لقاع النهر. ترجّل راكبو الخيول وأخذوا عينات من التراب المضغوط عند حافة الآثار وفحصوها بين أصابعهم، وقدّروا الرطوبة مقابل الشمس وتركوها تسقط ثم نظروا بعيداً إلى النهر من خلال الأشجار العارية. امتطوا الخيول مرة ثانية وتابعوا طريقهم.

وجدوا المستطلعين المفقودين متدلين من أغصان شجرة بالوفيردي المسودة من النار ورؤوسهم إلى الأسفل. ثُقبت أوتار أعقاب أقدامهم بوشائع مدببة حادة من الخشب الأخضر، وتدلوا بلونهم

الرمادي عراة فوق رماد الجمر المنطفئ حيث تم شواؤهم إلى أن تفحمت رؤوسهم وفارت أدمغتهم بفقاعات في جماجمهم وخرج البخار من فتحات أنوفهم. وسُحبت ألسنتهم إلى الخارج وثبتت بأعواد مدببة دُفعت خلالها، وبترت آذانهم، وشطّبت جذوعهم بشظايا حجر صوان إلى أن تدلت أحشاؤهم على صدورهم. تقدم بعض الرجال بسكاكينهم وقطعوا الحبال المعلقة بها الجثث لتقع وتركوها هناك في الرماد. هذان الشكلان المتفحمان كانا لآخر هنديين من هنود ديلاوير، والإثنان الآخران كانا للرجل القادم من فانديمن ولرجل من الشرق اسمه (جيلكريست). لم يحظوا بين مضيفيهم الهمجيين بتفضيل ولا بتفرقة عنصرية بل عانوا وماتوا بدون تحيّـز لأي منهم.

واصلوا طريقهم تلك الليلة عبر مقر الارسالية التبشيرية(سان إكسافيير دل باك)، كانت الكنيسة مهيبة وواضحة في ضوء النجوم. لم ينبح كلب واحد. تراءت مجموعات من أكواخ الـ(باباغو) بدون سكان. كان الجو بارداً وصافياً والأرض هناك وفي الخلف تمتد في ظلام غير مرغوب به من الكثيرين إلا من طير بوم. ظهر نيزك أخضر باهت فوق الوادي خلفهم ومرّ فوق الرؤوس ثم تلاشى بصمت في الفراغ.

عند الفجر في الضواحي حول الحصن في (توسون)، مرّوا بحُطام عدة مزارع وبعلامات على جانب الطريق حيث قُتل الناس. بعيداً في السهل كان ينتصب مسكن صغير حيث ما زال الدخان ينبعث من المباني، وجثمت، بجانب قطع سياج بُـنِي من أغصان الصبّار، صقور بجانب بعضها كتفاً بكتف تواجه الشرق نحو شمس الأمل، رافعة رجلاً

واحدة ثم الأخرى، وباسطة أجنحتها مثل العباءات. رأوا عظام خنازير ماتت في الساحة ذات الجدران الصلصالية، كما رأوا ذئباً في أرض صغيرة مزروعة بالبطيخ يجثم بين كوعيه الهزيلين وراقبهم أثناء مرورهم. تقع البلدة في السهل إلى الشمال في خط رفيع من الجدران الباهتة، جمعوا خيولهم على طول كثيب منخفض من الحصى، وألقوا نظرة شاملة عليه وعلى البلدة وعلى سلاسل الجبال الجرداء في الخلف. وامتدت صخور الصحراء في نطاق مظلم من الظل، وكانت الرياح تهب منطلقة من الشمس التي استقرت هناك حيث تربض نابضة على مد البصر إلى الشرق من الأرض. نخسوا خيولهم وانطلقوا إلى الأرض المنبسطة كما فعلت آثار الآباتشي أمامهم سابقة اياهم بيومين وكما فعل عدد مؤلف من مائة فارس.

واصلوا طريقهم وبنادقهم على رُكَبِهم، ومنتشرين بشكل مروحة يسيرون جنباً إلى جنب. توهجت شمس الصحراء فوق الأرض أمامهم وحلّقت طيور الحمام المطوّق فوق الأجَمَة بشكل فردي ومزدوج وهَدَلت بأصوات خافتة. بَعد ألف ياردة استطاعوا أن يروا الآباتشي الذين عسكروا على طول الجدار الجنوبي. كانت حيواناتهم ترعى بين شجر الصفصاف في حوض النهر إلى جنوب البلدة، وما كان يبدو حجارة أو أطلالاً تحت الجدار كان عبارة عن أكواخ ذات سقوف مائلة باتجاه واحد ومبنيّة من أعمدة وجلود حيوانات وملاءات عربات.

واصلوا طريقهم. وبدأت بضعة كلاب تنبح. وكان كلب (غلانتون) يروح ويجيء بعصبية، ثم خرج وفد من راكبي الخيول من المعسكر.

كانوا من هنود الـ(تشيريكاوا)، عشرين أو خمسة وعشرين منهم. بالرغم من سطوع الشمس فإن الحرارة لم تكن فوق درجة التجمد، ومع ذلك امتطوا خيولهم نصف عراة، وعراة إلا من الأحذية والمآزر والقبعات المزينة بريش والمصنوعة من جلد الحيوان، كانوا مثل متوحشي العصر الحجري الملطخين بألوان من الوحل تُظهر رموزاً غامضة، كانوا ملوثين بالشحم ورائحتهم كريهة، والألوان التي على خيولهم تبدو باهتة من تحت التراب الذي يغطيها، والخيول تقفز وتلهث فيخرج بخار من أنوفها من البرد. كانوا يحملون رماحاً وسهاماً وبضعة بنادق، ولهم شعور طويلة سوداء، وعيون باردة وسوداء أيضا تنفذ وسط راكبي الخيول لتفحص أسلحتهم، وغشاء العين عندهم غير شفاف ومحتقن بالدم. لم يتكلم أي منهم ولا حتى مع الطرف الآخر. شقوا طريقهم بخيولهم بين أفراد المجموعة بنوع من الحركات الخاصة بالطقوس، وكأنه يجب وطؤ نقاط معينة من الأرض بتعاقب معين كما في لعبة طفل ولكن مع وجود احتمال لخسارة مرعبة.

كان قائد أولئك المحاربين الحقيرين رجلاً أسمر صغير الحجم يرتدي ملابس عسكرية مكسيكية قديمة ويحمل سيفاً، ويضع في حزامه المبهرج المزق مسدساً من نوع (ويتنيفيل كولت) والذي كان أحد

مسدسات المستطلعين. امتطى حصانه حتى وصل أمام (غلانتون) ثم قيَّم موقع باقي راكبي الخيول ثم سأل بلغة إسبانية جيدة إلى أين يتجهون. وما لبث أن أنهى كلامه حتى كان حصان (غلانتون) قد أمال فكه للأمام وأمسك بأذن حصان الرجل، فتدفق الدم. صهل الحصان وتقهقر وحاول الآباتشي بصعوبة أن يبقى فوق حصانه وسحب سيفه ووجد نفسه يحدّق داخل دائرتين متلاصقتين معتمتين كانتا فوهتي بندقية (غلانتون) المزدوجة. صفع (غلانتون) خطم حصانه مرتين بقوة ورفع رأسه وإحدى عينيه تطِرْف والدم يقطر من فمه. وأدار الآباتشي رأس فرسه، وعندما استدار (غلانتون) لينظر إلى رجاله، وجدهم قد تجمدوا في موقف معقد مع المتوحشين، وثبتوا مع أسلحتهم بشكل بِناءْ مشدود إلى بعضه وقابل للكسر مثل لعبة التركيب حيث وضْع كل قطعة في مكانها يُتنبأ به من وضع القطع الأخرى، وبحيث لا يمكن تحريك أي منها وإلا سيسقط البناء كله.

كان القائد هو أول من تكلم. وأشار إلى أذن فرسه المضرجة بالدم وتكلم بغضب باللغة الأباتشية، وعيناه السوداوان تتجنبان النظر في عيني (غلانتون). ودفع القاضي حصانه إلى الأمام، وقال:

كن هادئاً، إنه مجرد حادث. (بالإسبانية)

أنظر، قال الآباتشي، أنظر إلى أذن حصاني. (بالإسبانية)

ثبَّت رأس الحصان ليريه أذنه، ولكن الحصان اهتز بعنف وفَلت فتدلت الأذن المكسورة وانتثر الدم على راكبي الخيول. سواء أكان دم

حصان أو أي دم آخر، فقد سبب ارتجاف ذلك البناء المحفوف بالمخاطر ووقفت الأفراس متصلّبة وهي ترتعش في الشمس المحمرّة، وهمهمت الصحراء تحتهم بصوت كصوت الطبل المطوّق. أسيء استخدام خاصيّة الشدّ للهدنة غير المصدّق عليها لأقصى درجة يمكن تحملها عندما وقف القاضي قليلاً فوق رِكاب السرج ورفع يده وتكلّم بصوت عال بعباراتِ تحية.

خرج ثمانية أو عشرة محاربين آخرين يمتطون خيولهم من عند الجدار. كان قائدهم رجلاً ضخماً وله رأس ضخم ومكسو برداء كامل فضفاض ومفتوح عند الرُكب ليتلاءم مع كساء الساق الجلدي لحذائه الذي لا كعب له، وقميص ذي مربعات ووشاح أحمر. لم يكن يحمل سلاحاً، ولكن الرجال على جانبيه مسلحون ببنادق ذات مواسير قصيرة كما كانوا يحملون مسدسات السروج وأشياء أخرى كانت للمستطلعين الذين قتلوا. عندما اقتربوا، تراجع المتوحشون الآخرون وأفسحوا طريقاً لهم. أشار الهندي الذي عُضّت أذن حصانه على الجرح إليهم. ولكن القائد أومأ برأسه بدماثة، وأدار حصانه ربع دورة باتجاه القاضي، وقوّس الحصان رقبته وعدّل الهندي جلسته فوقه، وقال: نهارك سعيد. من أين أنت قادم؟ (بالإسبانية).

ابتسم القاضي ولمس الإكليل الذابل على جبينه، ربما نسي أنه لا يضع قبعة. وقدّم رئيسه (غلانتون) بطريقة رسمية جداً. وتبادلا التقديم. كان اسم الرجل (مانغاس) وكان ودوداً ويتكلم الاسبانية بشكل جيد. وعندما قدّم راكب الحصان المصابة أذنه شكواه لأخذها

بعين الاعتبار، ترجّل ذلك الرجل (مانغاس) وأمسك برأس الحصان وفحص أذنه. كان متقوس الرجلين وتناسق جسمه غريباً. رفع نظره نحو الأمريكيين ونظر إلى راكبي الخيول الآخرين ولوّح لهم بيده.

وقال: انصرفوا. (بالإسبانية) ثم استدار نحو (غلانتون) : إنهم ودودون. إنه فقط ثمل قليلاً.(بالإسبانية)

بدأ هنود الآباتشي بالخروج من بين الأمريكيين كأنهم رجال ينسحبون من داخل أجمة شوك. أوقف الأمريكيون بنادقهم عمودياً، وقاد (مانغاس) الحصان المصاب إلى الأمام ورفع له رأسه، ضاماً الحيوان بين يديه والعين البيضاء تدور بجنون. بعد بعض المناقشة أصبح من الواضح أنه مهما فُرض من تعويض عن الضرر فإنه لا توجد أي عملة مقبولة للدفع غير الويسكي.

بصق (غلانتون) وحدّق إلى الرجل. وقال: لا يوجد ويسكي.

أطبق الصمت. ونظر الآباتشي إلى بعضهم البعض. ونظروا إلى حقائب السرج وإلى المطرات وإلى الأرض. كيف؟ (بالإسبانية) قال (مانغاس).

لا يوجد ويسكي. قال (غلانتون).

ترك (مانغاس) عِذار الحصان المصنوع من جلد حيوان خشن. راقبه رجاله. نظر باتجاه البلدة المسوّرة ونظر إلى القاضي. وقال: لا يوجد ويسكي؟

لا يوجد ويسكي.

بدا وجهه بين الوجوه المكفهرة غير معكر. تفحّص الأمريكيين وعتادهم. في الحقيقة لم يبدوا كرجال يمكن أن يحملوا ويسكي دون أن يشربوه. امتطى القاضي و(غلانتون) حصانيهما ولم يعرضا شيئاً أكثر في سبيل التفاوض.

يوجد ويسكي في (توسون)، (بالإسبانية) قال (مانغاس).

بدون شك، (بالإسبانية) قال القاضي. والجنود أيضاً. (بالإسبانية). دفع حصانه إلىالأمام، حاملاً بندقيته في يد واللجام باليد الأخرى.

تحرّك (غلانتون)، وتنقل الحصان الذي وراءه. ثم توقف (غلانتون).

وقال: هل معك ذهب؟ (بالإسبانية).

نعم. (بالإسبانية)

كم؟ (بالإسبانية)

ما فيه الكفاية. (بالإسبانية)

نظر (غلانتون) إلى القاضي ثم إلى (مانغاس)، وقال: حسناً. بعد ثلاثة أيام. هنا. تحصل على برميل ويسكي. (بالإسبانية).

برميل؟ (بالإسبانية).

برميل. (بالإسبانية). وكز فرسه، وتنحى هنود الآباتشي ليفتحوا طريقاً، وانطلق (غلانتون) والقاضي والرجال الذين يتبعونهم بشكل

رتل نحو بوابات البلدة الموحلة القذرة والتي توهجت في ضوء شمس الشتاء على السهل.

*　　*　　*

كان اسم الملازم المسؤول عن الموقع العسكري الصغير (كوتس). وكان قد ذهب إلى الساحل مع قوة الميجور (غراهام)، وعاد إلى هنا قبل أربعة أيام ليجد البلدة تحت حصار هنود الآباتشي غير الرسمي. كانوا ثملين من مشروب خمَّروه هم بأنفسهم، وكان هناك إطلاق رصاص في الليل لمدة ليلتين متواصلتين وصخب مستمر من أجل الحصول على الويسكي. كان في الموقع العسكري نصف مدفع قديم يزن اثني عشر باونداً ومحشو برصاص بنادق محمول على مجموعة حجارة، وتوقّع (كوتس) أن ينسحب المتوحشون عندما لا يجدون شيئاً آخراً ليشربوه. كان رسمياً جداً وخاطب (غلانتون) بـ كابتن. لم يكلف أي من المرتزقة ذوي الملابس الرثة نفسه ولو حتى بالترجل. نظروا حولهم بعيون كئيبة على البلدة المحطّمة. وكان حمار صغير معصوب العينين مربوطاً إلى عمود يدير طاحونة خَلْط الطُفال والماء لصنع الفخار، ويدور بشكل متواصل، ويُصدِر عمود الطاحونة صوت قرقعة من بكراتها الخشبية. وكانت دجاجات وطيور أصغر تنبش عند قاعدة الطاحونة. كان العمود يرتفع أربعة أقدام عن الأرض، ومع ذلك كانت الطيور تجثم أو تنحني كلما مرّ العمود من فوق رؤوسها. ورقد

على تراب الساحة عدد من الرجال من الواضح أنهم نائمون، كانوا رجلاً أبيضاً وهندياً ومكسيكياً. بعضهم مغطى ببطانيات وبعضهم غير مغطى. وفي الطرف البعيد من الساحة كان هناك موقع عام للجَلْد بالسياط وكان مظلماً في أسفله حيث تبولت الكلاب فوقه. اتبع الملازم نظرتهم المحملقة. دفع (غلانتون) قبعته ونظر إلى الأسفل من فوق حصانه.

وقال: أين يستطيع المرء في هذا الجحر الحقير أن يحصل على مشروب؟

كانت أول كلمات نطق بها أحدهم. تمعّن (كوتس) بهم. كانوا منهكين ومنزعجين ومسودّين من الشمس. كانت خطوط ومسامات جلودهم متسخة بعمق بسُخام البنادق حيث نظّفوا فوهات أسلحتهم. حتى الخيول بدت غريبة لأي شخص رأى حصاناً من قبل، كانت تبدو كأنها مكسوّة بشعر وأسنان وجلد إنسان. فيما عدا مسدساتهم وإبزيماتهم وبعض القطع المعدنية في غطاء الخيول، لم يكن في أولئك الواصلين شيء يوحي حتى بأنهم اكتشفوا العَجَلَة.

يوجد العديد من الأماكن، قال الملازم، ومع ذلك أخشى أنه لا يوجد أيّ منها فاتحاً أبوابه.

هل هم معتادون على إغلاقها بتلك الطريقة. قال (غلانتون). ووكز حصانه ليتقدم. لم يتكلم مرة ثانية ولم يتكلم أحد من الآخرين

نهائياً. أثناء عبورهم الساحة رفع بضعة متشردين رؤوسهم خارج بطانياتهم ونظروا إليهم وهم منصرفون.

كان البار الذي دخلوه غرفة مربعة من الطين، وبدأ المالك بخدمتهم بملابسه الداخلية. جلسوا على مقعد عند طاولة خشبية في الظلام يشربون وهم متجهمو الوجوه.

من أين أنتم ؟ قال المالك.

خرج (غلانتون) والقاضي ليريا إذا كانا يستطيعان تجنيد أي رجال من الغوغاء المضجعين على التراب في الساحة. بعضهم كان جالساً وينظر بعينين نصف مغمضتين تحت الشمس. أحد الرجال يحمل سكيناً ضخمة وكان يَعِرض تقطيع أغصان النبات مع أي شخص للمراهنة على من يملك السكين الأفضل. مشى القاضي بينهم بابتسامته.

أيها الكابتن ماذا يوجد في حقائب السرج؟

التفت (غلانتون). وحمل هو والقاضي حقائبهما على أكتافهما. الرجل الذي تكلم كان مستنداً إلى دعامة وقد رفع إحدى ركبتيه ليسند كوعه.

هذه الحقائب؟ قال (غلانتون).

تلك الحقائب.

هذه الحقائب هنا مليئة بالذهب والفضة، قال (غلانتون) لأجل ذلك هي.

ابتسم الرجل العاطل عن العمل وبصق.

هذا هو السبب الذي يريد من أجله الذهاب إلى كاليفورنيا، قال رجل آخر. إفرض أنه كان قد ذهب، كان سيحصل الآن على حقيبة مليئة بالذهب.

ابتسم القاضي بلطافة للعاطل عن العمل، وقال: أنت مُعرّض لأخذ برد هنا في الخارج. من يرغب بالذهاب إلى حقول الذهب الآن.

نهض رجل واحد ومشى بضعة خطوات بعيداً ثم بدأ يتبول في الشارع.

ربما يذهب معك الرجل الهائج، صاح رجل آخر. سيكون هو و(كلويس) خير عون لك.

كانا يحاولان الذهاب منذ زمن طويل.

بحث (غلانتون) والقاضي عنهما. كانت هناك خيمة بسيطة مصنوعة من قماش مشمع مُلقاة بعيداً ولافتة تقول: رؤية الرجل الهائج بربع دولار. مرّا وراء غطاء عربة حيث يوجد قفص بسيط مصنوع من سيقان نبات البالوفيردي وبداخله يجثم معتوه عارٍ، وأرض القفص متسخة بالقاذورات والفضلات والطعام المُداس عليه وذباب يطير في كل مكان. كان المعتوه صغير الحجم ومشوّهاً ووجهه ملوّث بالبُراز وجلس يحدق إليهم بعدوانية بلهاء وبصمت وهو يمضغ البُراز.

حضر المالك من الخلف وهو يهزّ رأسه لهما. لا يُسمح بدخول أحد إلى هنا. لم نفتح أبوابنا بعد.

نظر (غلانتون) إلى سياج القفص القذر. وكانت تنتشر في الخيمة رائحة الدخان والزيت والبُراز. جثا القاضي ليتمعّن في المعتوه.

هل هذا الشيء لك؟ قال (غلانتون).

نعم، نعم إنه لي.

بصق (غلانتون). أخبرنا الرجل أنك تريد الذهاب إلى كاليفورنيا.

حسناً، قال المالك. نعم، هذا صحيح. هذا صحيح.

ماذا تظن أنك فاعل بذلك الشيء؟

آخذه معي.

وكيف تعتزم حمله؟

لدي فرس وعربة. لحمله بداخلها.

هل لديك أي نقود؟

نهض القاضي. وقال: هذا هو الكابتن (غلانتون). إنه يقود حملة إلى كاليفورنيا. ويسرّه أن يأخذ بعض المسافرين تحت حماية مجموعته بشرط أن يزودوا أنفسهم بشكل ملائم.

حسناً الآن نعم، لدي بعض المال. كم هي النقود التي نتحدث عنها؟

كم لديك؟ قال (غلانتون).

حسناً. مبلغ كافي، أستطيع القول. أقول مبلغاً كافياً من النقود.

تمعّن (غلانتون) بالرجل. وقال: سأقول لك ماذا سأفعل بك. هل تريد الذهاب إلى كاليفورنيا أم أنك تتشدّق فقط؟

كاليفورنيا، قال المالك. بكل الوسائل.

سآخذك مقابل مائة دولار تُـدفع مقدماً.

انتقلت عينا الرجل من (غلانتون) إلى القاضي وبالعكس. وقال: أعتقد أن لدي بعض هذا المبلغ.

سنكون هنا بعد يومين، قال (غلانتون). إبحث لنا عن مسافرين آخرين وسنعدّل لك تعرفتك وفقاً لذلك.

سيعاملك الكابتن بطريقة مناسبة، قال القاضي. تستطيع أن تكون واثقاً من ذلك.

نعم يا سيدي، قال المالك.

عندما مرّوا بالقفص في طريقهم إلى الخارج، التفت (غلانتون) لينظر إلى المعتوه مرة ثانية. وقال: أتتركون النساء يشاهدن ذلك الشيء.

لا أعرف، قال المالك. لم يسأل أحد ذلك من قبل.

عند الظهيرة وصلوا إلى مطعم رخيص. كان هناك ثلاثة أو أربعة رجال فيه عندما دخلوه، فخرج الرجال من المطعم وغادروا. كان هناك فرن من الطين في الساحة خلف المبنى، ومقعد من عربة محطمة مع بضعة قدور وغلاية فوقه. وكانت امرأة تلبس شالاً رمادياً تقطّع لحماً بقرياً بواسطة فأس في حين جلس كابان يراقبان. دخل إلى الغرفة من الخلف رجل يرتدي مريولاً مبقّعاً بالدم وتفحصهم. انحنى ووضع كلتا يديه على الطاولة التي أمامهم. وقال:

أيها السادة، نحن لا نمانع بتقديم الخدمة لأشخاص ملونين. يسرنا أن نفعل ذلك. ولكننا نطلب إليهم الجلوس هناك على تلك الطاولة. هنا بالتحديد.

رجع إلى الوراء ورفع إحدى يديه بحركة غريبة. نظر ضيوفه إلى بعضهم البعض.

عن ماذا يتحدث بحق الجحيم؟

هنا بالضبط. قال الرجل.

نظر (تودفين) إلى الطاولة حيث جلس (جاكسون). ونظر العديدون إلى (غلانتون). كانت يداه موضوعتين على الطاولة التي أمامه، ورأسه منحنياً قليلاً كرجل في صلاة المائدة. جلس القاضي مبتسماً، وذراعاه متصالبان. كانوا جميعهم ثملين قليلاً.

يعتقد أننا زنوج.

جلسوا بصمت. بدأت المرأة التي في الساحة تنتحب بلحن كئيب والرجل يقف ويده ممدودة. وعند الباب تكوّمت حقائب وقِراب المسدسات وأسلحة المجموعة.

رفع (غلانتون) رأسه ونظر إلى الرجل.

وقال: ما اسمك؟

اسمي (أوينز). أنا أملك هذا المكان.

سيد (أوينز)، إذا كنت أي شيء آخر غير غبي لعين، يمكنك إلقاء نظرة على هؤلاء الرجال هنا لتعرف حقيقة جوهرية بأن أحداً منهم لن ينهض من حيث يجلس ليذهب إلى مكان آخر ويجلس فيه.

حسناً لا أستطيع تقديم الخدمة لكم.

إفعل ما يحلو لك بشأن ذلك. إسألها ماذا عندها يا (تومي).

كان (هارلان) يجلس عند نهاية الطاولة وانحنى إلى الخارج ونادى المرأة العجوز الجالسة عند قدورها وسألها بالإسبانية ماذا لديها من طعام ليتناولوه.

نظرت باتجاه المطعم، وقالت: عظام.

عظام، قال (هارلان).

أطلب منها أن تحضرها يا (تومي).

لن تحضر لكم شيئاً بدون أن أطلب أنا ذلك، أنا أملك هذا المكان.

كان (هارلان) ينادي خارج الباب المفتوح.

أنا أعرف بكل تأكيد أن ذلك الرجل هناك هو زنجي، قال (أوينز).

رفع (جاكسون) نظره إليه.

التفت (براون) نحو المالك، وقال:

هل لديك مسدس؟

مسدس؟

مسدس. هل لديك مسدس؟

ليس معي، ليس لدي.

سحب (براون) مسدساً نوع كولت ذا الخمس طلقات من حزامه ورماه إليه. التقطه (أوينز) ووقف يحمله بريبة.

الآن لديك مسدس. أطلق النار على الزنجي.

انتظر دقيقة، اللعنة. قال (أوينز).

أطلق عليه النار. قال (براون).

نهض (جاكسون) وسحب أحد مسدساته الكبيرة من حزامه. سدّد (أوينز) المسدس نحوه، وقال: ضع ذلك جانباً.

من الأفضل أن تتخلى عن إصدار الأوامر وأطلق النار على ابن العاهرة.

ضع ذلك جانباً، اللعنة، أيها الرجل. قل له أن يضعه جانباً.

أطلق عليه النار.

هَيَّاً المسدس.

أطلق (جاكسون) النار. ببساطة مرر يده اليسرى فوق المسدس الذي كان يحمله بحركة سريعة كوميض شرارة ثم ضغط الزناد.

قفز المسدس الكبير وخرجت حفنتان من دماغ (أوينز) من مؤخرة جمجمته وسقط على الأرض إلى الخلف. وقع بدون صوت وتمدد منكمشاً ووجهه على الأرض وإحدى عينيه مفتوحة والدم يندفع من التحطّم في مؤخرة رأسه. جلس (جاكسون). ونهض (براون) واسترجع مسدسه وترك مطرقته إلى الوراء ووضعه في حزامه، وقال: أكثر زنجي مُرعب رأيته في حياتي. إبحث لنا عن بعض الصحون يا (تشارلي). فأنا أشك أن تكون المرأة ما زالت في الخارج الآن.

كانوا يحتسون الشراب في حافة على بعد لا يزيد عن مائة قدم من ذلك المشهد عندما دخل الملازم ونصف دزينة من الجنود المسلحين إلى النُزل. كانت الحانة عبارة عن غرفة واحدة وكان هناك ثقب في السقف سقط من خلاله جذع من أشعة الشمس على الأرض الطينية، وتحرك الأشخاص الذين كانوا يعبرون الغرفة متجنبين حافة ذلك العمود الضوئي وكأنه قد يكون ساخناً ولا يمكن لمسه. كانوا يبدون كأنهم رجال قساة اعتادوا التردد على هذا المكان، ومشوا بتثاقل نحو

البار جيئةً وذهاباً بثيابهم الرثّة وجلودهم كرجال الكهوف الذين يتقايضون بتجارة غير معروفة. مشى الملازم حول ذلك المكان المشمس والمُدخِن ووقف أمام (غلانتون).

أيها الكابتن، نحن مضطرون لأن نأخذ آياً كان مسؤولاً عن موت السيد (أوينز) إلى السجن.

رفع (غلانتون) نظره. وقال: من السيد (أوينز)؟

السيد (أوينز) هو السيد الذي كان يدير المطعم هناك في الأسفل. لقد قُتل بإطلاق الرصاص عليه.

أنا آسف لسماع ذلك. قال (غلانتون). إجلس.

تجاهل (كوتس) الدعوة. أيها الكابتن، أنت لا تعتزم أن تُنكر أن أحد رجالك هو الذي قتله. أليس كذلك؟

هذا بالضبط ما أعتزم فعله، قال (غلانتون).

أيها الكابتن، لن يصمد ذلك الادعاء.

ظهر القاضي من الظلام، وقال: طاب مساؤك أيها الملازم. هل هؤلاء الرجال هم الشهود؟

نظر (كوتس) إلى العريف الذي يرافقه، وقال: لا، هؤلاء ليسوا شهوداً. يا للجحيم، أيها الكابتن. لقد شوهدتم جميعاً تدخلون النـُـزل وتخرجون منه بعد حدوث إطلاق النار. هل ستنكر أنك ورجالك قد تناولتم الغداء هناك؟

أنكر كل كلمة لعينة من ذلك، قال (غلانتون).

حسنا أقسم بالرَّب أنه يمكنني إثبات أنكم تناولتم طعامكم هناك.

لطفاً، وجّه ملاحظاتك إليَّ أيها الملازم، قال القاضي. أنا أمثل الكابتن (غلانتون) في كل الأمور القانونية. وأعتقد أنك يجب أن تعرف أولاً أن الكابتن ليس من المفترض أن يُنعت بالكاذب، وعليَّ أن أفكر مرتين قبل أن أقحم نفسي معه في قضية تتعلق بالشرف. ثانيا، لقد كنتُ معه طوال النهار وأستطيع أن أؤكد لك أنه لا هو ولا أي من رجاله وضع قدمه في النُزل الذي تُـلمّح إليه.

بدا الملازم مصعوقاً من جرأة تلك الإنكارات. نظر إلى القاضي ثم إلى (غلانتون) ثم إلى القاضي مرة ثانية. وقال: سأكون ملعوناً. ثم استدار واندفع خلال الرجال وغادر المكان. أمال (غلانتون) كرسيه وأسند ظهره إلى الحائط. لقد جنّدوا رجلين من بين فقراء البلدة، رجلين لا تُرجى منهما أي فائدة جلسا على طرف المقعد الخشبي يحدّقان ببلاهة وهما يحملان قبعتيهما بيديهما. ومرّت عين (غلانتون) السوداء عليهما ووقعت على المالك المعتوه الذي جلس في الغرفة يراقبه.

هل أنت رجل يحتسي المشروب؟ قال (غلانتون).

كيف ذلك؟

زَفَرَ (غلانتون) من أنفه ببطء.

نعم، قال المالك. نعم أنا كذلك.

كان على الطاولة أمام (غلانتون) دلو خشبي مشترك وبداخله مغرفة من الصفيح، وكان مليئاً إلى ثلثه من ويسكي عربات الساحة والذي يُصب من برميل خشبي في البار. وأشار (غلانتون) إليه.

لن أحمله إليك.

نهض المالك والتقط كأسه ثم ذهب إلى الطاولة. أخذ المغرفة وصبّ في كأسه ثم أعاد المغرفة إلى الدلو. وأشار قليلاً بالكأس ثم رفعه وشربه حتى آخر قطرة.

مُمْتَن كثيراً.

أين قِردك؟

نظر الرجل إلى القاضي، ونظر إلى (غلانتون) مرة ثانية.

أنا لا أخرجه كثيراً.

من أين حصلت على ذلك الشيء؟

لقد تُرك عندي. توفيت أمه. لم يكن يوجد أحد ليربيه. أرسلوه إلي بالسفينة. (جوبلين ميسوري). وضعوه في صندوق وشحنوه، استغرقت الرحلة خمسة أسابيع. لم يزعجه ذلك نهائياً. فتحت الصندوق فكان بداخله.

خذ كأساً آخر من المشروب من هناك.

أخذ المغرفة وملأ كأسه مرة ثانية.

إنه شديد كالحياة. لم أؤذيه أبداً. أحضرت له بذلة مصنوعة من نسيج من وبر، ولكنه أكلها.

ألم يرَ كل من في البلدة ابن العاهرة؟

نعم، نعم لقد رأوه. إنني بحاجة للذهاب إلى كاليفورنيا. ربما أتقاضى نصف دولار لرؤيته هناك.

ربما تُكسى بالقطران والريش هناك.

لقد حصل معي ذلك، في أركنسا. زعمت أنني أعطيته شيئاً، خدّرته. فأخرجوه وانتظروا حتى يتحسّن وضعه، وبالطبع لم يحصل ذلك. وكان عندهم واعظ مميّز، حضر وقرأ عليه. وفي النهاية استعدته. كان من الممكن أن أكون شخصاً ذا شأن في هذا العالم لولاه.

هل أفهمك بشكل صحيح، قال القاضي، أن المعتوه هو أخوك؟

نعم ياسيدي؟ قال الرجل. هذه هي حقيقة الأمر.

مدّ القاضي نفسه وأمسك برأس الرجل بيديه وبدأ يستكشف منحنياته. دارت عينا الرجل بحركة سريعة وأمسك بمعصمي القاضي. كان القاضي يمسك كل رأسه بقبضته كمعالج مؤمن خَطِر وضخم. كان الرجل يقف على رؤوس أصابعه وكأنه يريد أن يتكيّف بشكل أفضل مع تحرياته، وعندما تركه القاضي تراجع خطوة إلى الوراء ونظر إلى (غلانتون) بعينين مليئتين بالكآبة. جلس المجندون على طرف المقعد يراقبون وفكوكهم متدلية إلى الأسفل، ونظر القاضي إلى الرجل

وتفحصه ثم مدّ نفسه وأمسك به مرة أخرى، حاملاً إياه من جبهته في حين وكز مؤخرة جمجمته بطرف قاعدة إبهامه. وعندما أنزله القاضي، رجع الرجل إلى الوراء ووقع على المقعد الخشبي، وبدأ المتطوعون يهتزون إلى الأعلى وإلى الأسفل وبالصفير والنعيب. نظر المالك المعتوه حول دكان المشروبات الروحية المبهرج ماراً بكل وجه وكأن ذلك لم يكن كافياً. رفع نفسه وذهب إلى طرف المقعد الخشبي. وعندما وصل منتصف الطريق عبر الغرفة نادى عليه القاضي.

هل كان دائماً على هذه الحال؟ قال القاضي.

نعم ياسيدي، لقد وُلِد هكذا.

استدار لكي يذهب. وأفرغ (غلانتون) كأسه ووضعها أمامه ثم رفع نظره، وقال: هل كنت أنت كذلك؟ ولكن المالك دفع الباب واختفى في الضوء المُبْهر في الخارج.

حضر الملازم مرة ثانية في المساء، وجلس هو والقاضي معاً، وأخذ القاضي يتدارس قضايا قانونية معه. وكان الملازم يومئ برأسه وشفتاه مزمومتان. وترجم له القاضي عبارات لاتينية خاصة بالقانون. وذكر قضايا مدنية وعسكرية. واقتبس من أقوال (كوك) و(بلاكستون) و(أناكسيماندير) و(ثيلز).

في الصباح ظهرت مشكلة جديدة. فقد اختـُطِفت فتاة مكسيكية. ووجـِدَت قطع من ثيابها ممزقة وملطخة بالدم تحت الجدار الشمالي الذي لا يمكن أن تكون إلا قد أُلقيت من فوقه. كانت في الصحراء

علامات داكنة. وفردة حذاء. جثا والد الفتاة وهو يمسك بقطعة قماش ملطخة بالدم ويضمها إلى صدره ولم يستطع أحد إقناعه بالنهوض ولا بالمغادرة. أشعلت النيران في تلك الليلة في الشوارع وقُتلت بقرة، وكان (غلانتون) ورجاله مضيفين لمجموعة متعددة الأشكال والألوان من المواطنين والجنود والهنود الأقل درجة أو الـ(تونتوس) كما يدعوهم إخوانهم خارج البوابات. فتح برميل ويسكي وفي الحال بدأ الرجال يترنحون هائمين على وجوههم خلال الدخان. وأحضر تاجر في تلك المدينة مجموعة من الجِراء كان أحدها بستة أرجل وآخر برجلين وثالث بأربعة عيون في رأسه. وعرضها على (غلانتون) للبيع، وأمر (غلانتون) الرجل بالابتعاد محذراً إياه وهدّد بقتل الجراء.

جرد لحم البقر حتى العظام، ثم أخذت العظام، وجُرَّت عوارض من حطام المباني وكوّمت في الساحة. في ذلك الوقت كان معظم رجال (غلانتون) عراة ويترنحون هنا وهناك، وفي الحال جعلهم القاضي يرقصون في حين عزف هو على آلة بسيطة كان قد صادرها، واسودَّت الجلود القذرة التي تجردوا منها بلهب النار وتبقّعت بالدخان وفاحت رائحتها الكريهة، وارتفعت الشرارات الحمراء مثل أرواح الحياة التافهة التي احتفظوا بها.

عند منتصف الليل ترك المواطنون المكان وبقي رجال مسلحون وعراة يضربون على الأبواب بعنف ويطلبون المشروب والنساء. في ساعات الصباح الباكر عندما اشتعلت النيران على أكوام الفحم

وتطايرت بضعة شرارات مع الريح، وركضت على الشوارع الصلصالية الباردة كلاب متوحشة حول نيران الطبخ تنتزع قطع اللحم المتفحمة واستلقى الرجال عراة عند المداخل وهم يتشبثون بأكواعهم ويشخرون في البرد.

عند الظهيرة خرجوا مرة ثانية، يتجولون بعيون محتقنة ويرتدون قمصاناً وسراويل جديدة. وكانوا قد جمعوا الخيول الباقية من الطبيب البيطري الذي استوقفهم لاحتساء مشروب. كان رجلاً صغير الحجم وقوياً اسمه (باتشيكو) وكان عنده حجر نيزكي حديدي ضخم وشكّله كطاحن كبير ليستخدمه بدل سندان الحدّاد، ورفع القاضي ذلك الشيء بسبب مراهنة، وبمراهنة أخرى رفعه فوق رأسه. عدة رجال اندفعوا إلى الأمام ليشعروا بالحديد وليُأرجحوه في مكانه، ولم يُفوت القاضي هذه الفرصة ليبحث عن الطبيعة الحديدية للأجسام السماوية وقواها وميزاتها. رُسم خطان فوق التراب تفصل بينهما مسافة عشرة أقدام، وأقيم رهان ثالث استخدمت فيه وقطع نقدية من نصف دزينة من البلدان، ذهبية وفضية وحتى بضعة جُلل أو بطاقات سندات حسم من المناجم القريبة من (توباك). أمسك القاضي ذلك الكوم الهائل من المعادن المصهورة والذي طاف طوال كم ألف من السنين والذي أتى من كم زاوية غير معروفة من العالم، ورفعه فوق رأسه ووقف يترنح ثم اندفع بقوة إلى الأمام. تجاوز العلامة بمقدار قدم ولم يشارك أحداً بالنقود المكوّمة على غطاء السرج عند قدمي الطبيب البيطري، فحتى (غلانتون) لم يكن راغباً بالمراهنة على المحاولة الثالثة.

-17-

مغادرة (تومسون) - عملُ صانع براميل جديد - مقايضة - غابات (ساغوارو) - (غلانتون) عند النار - قيادة (غارسيا) - القمر الكاذب - النار الإلهية - القسيس السابق يتحدث عن علم الفلك - القاضي يتحدث عن مخلوقات من خارج الأرض، عن النظام، عن اللاهوت - خدعة القطعة النقدية - كلب (غلانتون) - حيوانات ميتة - الرمال - صلب - القاضي يتحدث عن الحرب - القسيس لا يقول - أرض وعرة، أرض مهجورة - برك أطلس - عظم متحجر - الـ(كولورادو) - باحثون عن الذهب - (يوماس) - مالِكُو المعَدِيات - إلى معسكر (يوما).

* * *

واصلوا طريقهم عند الغسق. خرج العريف فوق مدخل المبنى ونادى عليهم ليتوقفوا ولكنهم لم يفعلوا. كانوا واحداً وعشرين رجلاً وكلباً وعربة منبسطة تحمل المعتوه وقفصه الذي كان مربوطاً بحبل وكأنه في رحلة بحرية. وخلف القفص رُبط برميل الويسكي الذي قطّروه في الليلة السابقة. كان البرميل قد فُكك وأعيد تركيبه من قِبل شخص عيَّنه (غلانتون) كصانع براميل مؤقت للحملة، ويحتوي بداخله الآن دورقاً مصنوعاً من معدة خروف وفيه من الويسكي ما قد يصل إلى ثلاثة أرباعه. وقد تم توصيل هذا الدورق مع الإسكابة من

الداخل، ومُلئ باقي البرميل بالماء. خرجوا، بهذه المؤونة، من خلال البوابات وخلف الجدران إلى البراري التي ترتعش في الشفق المرتبط بها. تأرجحت العربة الصغيرة وأصدرت صوت قرقعة وتشبث المعتوه بقضبان قفصه وصاح بصوت أجش متذمراً على الشمس.

امتطى (غلانتون) حصانه في مقدمة الرتل على سرجٍ جديد مطوّق بالذهب والحديد حصل عليه بالمقايضة، وكان يرتدي قبعة جديدة سوداء تلائمه. كان عدد الأعضاء الجدد خمسة وكانوا يبتسمون لبعضهم البعض وكانوا ينظرون وراءهم إلى الحارس. امتطى (ديفيد براون) حصانه في المؤخرة تاركاً أخاه هنا وسيتضح فيما بعد أنه تركه للأبد، وكان مزاجه سيئاً لدرجة أنه من الممكن أن يطلق النار على الحارس بدون أي استفزاز. عندما صاح الحارس مرة ثانية، أرجح بندقيته وأحس الرجل بأن عليه أن ينخفض إلى الأسفل تحت حاجز السطح ولم يعودوا يسمعوا منه شيئاً. وفي الغسق الطويل امتطى الهمجيون خيولهم وخرجوا لمقابلتهم، وحدثت مقايضة الويسكي فوق بطانية مصنوعة في (سالتيللو) ومفروشة على الأرض. ولم يُعر (غلانتون) الكثير من الاهتمام للإجراءات. عندما عدّ الهمجيون الذهب والفضة لإرضاء القاضي، داس (غلانتون) على البطانية وركل القطع النقدية كلها بكعب حذائه ثم ابتعد عنها وأمر (براون) بأن يرفع البطانية. تبادل (مانغاس) ومساعدوه نظرات عابسة، ولكن الأمريكيين امتطوا خيولهم وانطلقوا ولم ينظر أيّ منهم إلى الوراء ما عدا الأعضاء

الجدد. أصبحوا على اطلاع بتفاصيل العمل واقترب أحدهم إلى جانب (براون) وسأل إذا ما كان الآباتشي سيتبعونهم.

لن يسيروا بخيولهم في الليل، قال (براون).

نظر المتطوع إلى الخلف نحو الأشكال المجتمعة حول البرميل في تلك الصحراء المعتمة، وقال: لماذا لا يفعلون ذلك؟

بصق (براون). وقال: بسبب الظلام.

انطلقوا غرباً من البلدة عبر أسفل جبل صغير ومن خلال بلدة للهنود الحمر تتبعثر فيها أوانٍ خزفية قديمة محطمة من فرن الأواني الفخارية الذي كان موجوداً هناك يوماً ما. اتجه سجَّان المعتوه إلى منصة القفص وتشبث المعتوه بالقضبان وراقبَ الأرض تمر بصمت.

انطلقوا تلك الليلة خلال غابات الساغوارو(*) فوق التلال إلى الغرب. كانت السماء كلها ملبّدة بالغيوم. وتلك الأعمدة الأسطوانية التي تمر في الظلام كانت مثل حطام معابد واسعة ذات نظام معماري كلاسيكي، كئيبة وساكنة إلا من صيحات طيور البوم القزمة الخافتة بين الحطام. كانت الأرض مكتظة بنبات التشولا وتدلت أجمة منه إلى الخيول والتصقت بها بأشواك يمكن أن تدخل في نعالها حتى العظم، وهبت الرياح عبر التلال وصفرت طوال الليل مع أصوات الأفاعي السامة من بين الأشواك المنتشرة بكميات لا تُعد ولا تحصى. واصلوا

(*) ساغوارو: شجر صبر صحراوي يتكون من جذع رئيس وقليل من الجذوع الفرعية وقد يصل ارتفاعه إلى ستين قدماً.

طريقهم وأصبحت الأرض تضيق أكثر، ووصلوا إلى المرحلة الأولى من سلسلة من مراحل الحملة التي لن يتواجد فيها الماء نهائياً وعسكروا هناك. في تلك الليلة حملق (غلانتون) طويلاً بجمر النار. كل رجاله من حوله كانوا نائمين ولكن تغيّر الكثير. لقد رحل الكثير منهم، إما ماتوا أو أصيبوا. هنود ديلاوير قتلوا جميعهم. راقب النار، وإذا كان قد رأى أهوالاً هناك فقد كان مُعرَّضاً لها بالدرجة نفسها تقريباً. كان يريد أن يحيا لينظرإلى البحر الغربي وقد كان نِدّاً لما يمكن أن يتلو، ذلك أنه كان يتسم بالكمال في جميع الأوقات. سواء أكان ذكره سيستمر جنباً إلى جنب مع تاريخ الأمم ورجالها أم سيتوقف. فقد حنث بقسمه منذ زمن طويل في تقدير النتائج وسمح للقضاء والقدر أن يأخذ مجراه. علاوة على ذلك فقد استملك في أعماقه كل ما يريد أن يحققه في هذا العالم وكل ما يريده للعالم أن يكون بالنسبة له، وليكون هذا دستوره المسجل على بلاطة ضريحه ذاتها، لقد ادَّعى القوة وجهر بها، وسوف يقود الشمس القاسية إلى عتمتها النهائية، وكأنه كان يأمرها طوال العصور، منذ ذلك الحين الذي لم تكن تُوجد فيه مسارات في أي مكان ولم يكن يوجد فيه بشر أو شموس لتمر فوقهم.

على الجانب الآخر منه جلس ذلك الشكل المقيت للقاضي. كان نصف عارٍ ويخربش في دفتره. وعوت ذئاب الصحراء الصغيرة في غابة الأشواك التي مرّوا بها، وردّت عليهم ذئاب أخرى في السهل الجاف أمامهم، ونفخت الرياح على الجمر الذي كان يراقبه. وكانت أشواك نبات التشولا المتلألئة في سلالها البرّاقة تهتز مثل حيوان خيار البحر

المتوهج في الظلام الفوسفوري لأعماق البحار. جُرَّ المعتوه في قفصه إلى جانب النار، فراقبها بشكل متواصل. عندما رفع (غلانتون) رأسه رأى الصبي على الجانب الآخر من النار جاثماً داخل بطانيته وهو يراقب القاضي.

بعد يومين قابلوا فيلقاً تحت قيادة الكولونيل (غارسيا)، وكانوا جنوداً من (سونورا) يبحثون عن مجموعة من الأباتشي تحت قيادة (بابلو) وكان عددهم حوالي مائة فارس. بعضهم كان بدون قبعات، وبعضهم بدون سراويل وآخرون عراة تحت ستراتهم، وكانوا مسلحين بأسلحة متداعية، بنادق الغدّارة القديمة وبنادق من نوع تاور، بعضهم كان يحمل أقواساً وسهاماً أو لا شيء أكثر من حبال ليخنقوا بها الأعداء.

تفحّص (غلانتون) ورجاله تلك الجماعة بذهول صاعق. احتشد المكسيكيون وأيديهم ممدودة من أجل الحصول على التبغ، فتبادل (غلانتون) والكولونيل كياسة بدائية ثم اندفع (غلانتون) بين ذلك الحشد المزعج. كانوا من شعب آخر، راكبو الخيول أولئك، وكل الأرض إلى الجنوب من حيث نشأوا وأي أراض إلى الشرق إلى حيث يتجهون، كانوا كلهم ميتين بالنسبة له، الأرض وأي مقيمين عليها، كانوا في الحقيقة غير ذي شأن وعرضة للأخذ والرد. هذا الشعور تفشى بين المجموعة قبل أن يبتعد (غلانتون) كلياً عنهم، وأدار كل رجل حصانه وتبع كل رجل الآخرين، حتى القاضي لم يتكلم لـيُعفي نفسه من ذلك اللقاء.

واصلوا طريقهم داخل الظلام وامتدت أمامهم الأرض الجرداء، التي أضاءها القمر بشكل متكافئ، باردة وشاحبة وقبع القمر داخل هالة فوق الرؤوس، وفي تلك الهالة كان يكمُن قمر زائف ببحاره الباردة الرمادية ذات العروق اللؤلؤية. أقاموا معسكراً على منبسط من الأرض حيث حدّدت جدران الكتل المتجمعة ممر نهر قديم، وأشعلوا ناراً جلسوا حولها بصمت، وتوهجت عينا الكلب وعينا المعتوه وعيون بعض الرجال بلون أحمر، فبدت كأنها قطع جمر في رؤوسهم أينما أداروها. واهتزت شُعلات النار مع الريح وبهتت قطع الجمر ثم احمرّت ثم بهتت ثم احمرّت كخفقان دم انتُزع من شيء حيّ ووضع على الأرض أمامهم، وراقبوا النار التي تحمل بداخلها شيئاً من الرجال أنفسهم بقدر ما هم أقل أهمية بدونها ومفصولون عن أصولهم ومنفيون. فكلٌ نار هي كلٌ النار، أول نار وآخر نار يمكن أن توجد. وفيما بعد نهض القاضي وانصرف في مهمة غامضة، وبعد برهة سأل أحدهم القسيس السابق إذا كان صحيحاً أنه في وقت ما كان يوجد قمران في السماء، فنظر القسيس السابق إلى القمر الزائف فوقهم، وقال إنه قد يكون ذلك صحيحاً، ولكن الشيء الأكيد هو أن الرَّب بهيبته وعند توالد القمر على هذه الأرض لابد وأنه بلل إبهامه وانحنى إلى الأسفل بعد مرحلة اللاتكوُّن (ما قبل الخليقة) وضغط على القمر وأطفأه مُصدراً صوت هسهسة. واستطاع أن يُوجِد وسائل بديلة تهتدي بها الطيور إلى طريقها في الظلام، وقد كان بإمكانه فعل ذلك مع هذا أيضاً.

السؤال الذي طُرح بعد ذلك هو ما إذا كان هناك أناس أو مخلوقات مثلهم على المريخ أو على الكواكب الأخرى، عند هذا السؤال تكلم القاضي الذي عاد إلى جانب النار ووقف نصف عارٍ وهو يتعرّق، وقال إنه لا توجد حياة وإنه لا يوجد أناس في أي مكان في هذا العالم سوى أولئك الموجودين على سطح الأرض. أصغى الجميع أثناء حديثه، أولئك الذين استداروا ليراقبوه وأولئك الذين لم يستديروا.

وقال: إن حقيقة هذا العالم هي أن أي شيء ممكن. ألم تروا ذلك منذ الولادة فبهذه الوسيلة استُخرجت، ومن غرابتها ستبدو لكم كما هي، حيلة قبعة في عرض لطبيب ساحر، حلم محموم، نشوة تُسْكِنُك مع كائنات خرافية فلا يوجد حوار ولا توجد أحداث، ككرنفال متجول، عرض في خيمة مُتنقّلة وجهتُها الأبعد بعد عدة منحدرات في عدة حقول موحلة هي وجهة لا تُوصف وكارثية فوق التصوّر.

الكون ليس بالشيء المحدود، والنظام فيه ليس مقيّدا بأي منطقة من حيث مفهومه بتكرار ما يوجد في جزء ما ليوجد في جزء آخر. حتى في هذا العالم توجد أشياء لا علم لنا بها أكثر مما نعلم به، والنظام الذي تراه في الخَلْق هو ذلك الذي وضعته أنت هناك، كخط في متاهة، بحيث لا تضِل طريقك. فالكون له نظامه الذي لا يستطيع عقل أي إنسان أن يفهمه، لأن العقل نفسه هو مجرد حقيقة بين الحقائق الأخرى.

بصق (براون) في النار، وقال: هذا بعض من جنونك.

ابتسم القاضي، ووضع راحتي كفيه على صدره وتنفس هواء المساء ثم اقترب وجلس القرفصاء ورفع إحدى يديه. أدار تلك اليد وإذا بقطعة نقود ذهبية تظهر بين أصابعه.

أين قطعة النقود يا (ديفي)؟

سوف أبلغك أين تضع قطعة النقود.

أرجح القاضي يده وإذا بقطعة النقود تلمع فوق رؤوسهم في ضوء النار. لابد أنها كانت مثبتة إلى خيط رصاص رقيق، أو ربما إلى شعر ذيل حصان، لأنها دارت حول النار وعادت إلى القاضي فأمسكها بيده وابتسم.

يتحدد منحنى الأجسام الدائرة بطول مجالها، قال القاضي، الأقمار وقطع النقود والبشر. تحركت يداه وكأنه يسحب شيئاً ما من إحدى قبضتيه بسلسلة طويلة. وقال: راقب القطعة النقدية يا(ديفي).

قذفها وشكّلت منحنى خلال النار ثم اختفت في الظلام. راقبوا الليل حيث اختفت القطعة، وراقبوا القاضي، وأثناء مراقبتهم، كان البعض يراقب القاضي والبعض الآخر يراقب القطعة وكانوا جميعهم شاهداً مشتركاً.

القطعة النقدية يا (ديفي)، القطعة النقدية، همس القاضي. جلس منتصباً ورفع يده ثم ابتسم لمن حوله.

عادت القطعة النقدية من الظلام واجتازت النار مرتفعة بصوت أزيز خافت، وكانت يد القاضي المرفوعة فارغة ثم ظهرت القطعة بداخلها. صدر صوت صفعة خفيف ثم أمسك بالقطعة. وبالرغم من أن البعض زعم أنه قذف القطعة بعيداً ووضع واحدة أخرى مثلها في راحة يده وأصدر الصوت بلسانه لأنه هو نفسه كان لاعب خفة بارع، وقال هو بنفسه عندما قذف القطعة بعيداً إن ما يعرفه كل الرجال هو أنه توجد قطع نقدية وقطع نقدية مزيفة. في الصباح مشى بعضهم على الأرض التي قُذفت عليها القطعة النقدية، ولكن لو وجدها أحدهم لاحتفظ بها لنفسه، وعند شروق الشمس كانوا قد امتطوا خيولهم وانطلقوا مرة ثانية.

تدحرجت العربة التي تحمل المعتوه في قفصه علىعجلاتها في المؤخرة، وتراجع كلب (غلانتون) ليهرول بجانب العربة، ربما بسبب غريزة حب الرعاية مثل الغريزة التي يثيرها الأطفال في الحيوانات. ولكن (غلانتون) نادى على الكلب ليسير بجانبه، وعندما لم يأت الكلب تراجع قليلاً بجانب الرتل القصير وانحنى إلى الأسفل ثم جلد الكلب بوحشية بحبله الذي يقيّد به قوائم الحصان، وقاده أمامه.

بدأوا يعثرون على سروج أحصنة وأعمدة عربات وبغال ميتة وعربات. ورأوا هياكل سروج قد أكلت حتى تعرّت من أغطيتها الجلدية وتحللت وأصبحت بيضاء كالعظام بفعل الجو، وأطراف الخشب مقطعّة كما لو أن فئران قضمتها. مرّوا بهياكل لمواشٍ ميتة تحت قطع من الجلود الجافة مُلقاة كحطام قوارب بدائية انقلبت على ذلك القفر الذي

لا شاطئ له، كما مرّوا وهم ممتقعون وشاحبون بأشكال تجففت لخيول وبغال داس عليها الرحالة. هذه الحيوانات المجففة ماتت ورقابها ممدودة بألم في التراب والآن تنتصب وهي عمياء ومنحرفة وتتدلى من أضلاعها المفتتة قطع جلد متفحمة، وانحنت بأفواهها الطويلة التي تصرخ باتجاه عربة الشموس اللانهائية التي تمر فوقها. واصل راكبو الخيول طريقهم. عبروا بحيرة واسعة جافة تمتد خلفها صفوف من البراكين الخامدة وكأنها أشكال من صنع حشرات ضخمة. وإلى الجنوب تمتد أشكال مكسّرة من الخَبَث في حوض الحمم البركانية بعيداً بقدر ما تستطيع العين أن ترى. وتحت حوافر الخيول شَكّلت رمال المرمر نفسها بشكل ثنيات متماثلة بشكل غريب مثل برادة الحديد المتناثرة في حقل، واتسعت هذه الأشكال تدريجياً نحو الخارج ثم ارتدَّت كالصدى فوق تلك الأرض المتناسقة ثم التفّت بشكل دوامة مبتعدة فوق الحوض. وكأن رواسب الأشياء ما زالت تحتوي على بعض بقايا إحساس. وكأن في مرور أولئك الرحالة كان هناك شيء مرعب بشكل كبير في الاتساق حتى مع ذرات الحقيقة المطلقة.

على مرتفع عند الحافة الغربية من الحوض، مروا بصليب خشبي خام حيث صَلب الـ(ماريكوباس) واحداً من هنود الآباتشي. تدلت مومياء الجثة من منصة الصاري وفمها مفتوح في ثقب بلا جلد، وصُقل قسم من الجلد والعظم بفعل الرياح المحملة بالزجاج البركاني من البحيرة وهيكل باهت من الأضلاع كان يظهر من خلال قطع الجلد المتدلية من الصدر. واصلوا الطريق. مشت الخيول مجهدة بعناد

على الأرض الغريبة وتدحرجت الأرض الكروية تحتهم بصمت مُحرِّكة القفر الشاسع الذي يضمهم. في القسوة المحايدة لتلك الأراضي تم توارث جميع الظواهر الطبيعية بمساواة غريبة فلا يستطيع شيء، لا عنكبوت ولا حجر ولا ورقة عشب، أن تتقدم بطلب للحصول على الأسبقية. إن وضوح تلك الأشياء ناقضت ألفتها، إذ يمكن للعين أن تصف الكل من مَعلَم أو من جزء، وهنا لم يعد يوجد شيء متوهج أكثر من الآخر ولا شيء معتم أكثر من الآخر، وفي الديمقراطية البصرية لهذا المشهد أصبحت التفضيلات غريبة وأصبحت تربط الإنسان والحجر قَرابة غير متوقعة بينهما.

أصبحوا هزيلين وكئيبين تحت الشموس البيضاء لتلك الأيام وكانت عيونهم المجوفة المرهقة مثل عيون أولئك الذين يسيرون أثناء النوم ويفاجأون بالنهار. بدوا وهم جاثمون تحت قبعاتهم هائمين بدرجة أعظم، كمخلوقات تتوق الشمس إليهم. حتى القاضي أصبح صامتاً ومتأملاً. لقد تحدّث عن تطهير النفس من تلك الأشياء التي تضع مطالب عند الإنسان ولكن تلك الجماعة التي تلقت ملاحظاته حسبوا أنفسهم أحسنوا صنيعاً مع أي مطالب. واصلوا طريقهم وسحبت الريح الغبار الرمادي الناعم أمامهم، وصاروا جيشاً بلِحى رمادية ورجالاً رماديين وخيولاً رمادية. وامتدت الجبال إلى الشمال مع اتجاه الشمس بطيات متجعدة وكانت الأيام باردة والليالي أبرد بقليل، وجلسوا حول النار، كلٌّ في حلقة من الظلام خاصة به داخل حلقة الظلام الكبيرة، في

حين كان المعتوه يراقب من قفصه على حافة الضوء. كسر القاضي عظم ساق ظبي بواسطة فأس وقَطَر النخاع الساخن على الحجارة فانبعث منها دخان. راقبوه، وكان الموضوع هو الحرب.

يقولِ الكتاب المقدس إن الذي يعيش بالسيف لا بد أن يهلك بالسيف، قال الرجل الأسود.

ابتسم القاضي، وكان وجهه براقاً بسبب الشحم. وقال: وماهي الطريقة الأخرى التي يموت بها الرجل الجيد؟

يعتبر الكتاب المقدس الحرب شراً بالفعل، قال (إيرفنغ)، ومع ذلك توجد الكثير من قصص الحرب اللعينة بداخله.

لا يؤثر ما يعتقده الناس عن الحرب، قال القاضي. الحرب تبقى. وبالطريقة نفسها أسأل الرجال ما هو رأيهم بالحجر. الحرب كانت دائماً موجودة. قبل أن يوجد الإنسان، الحرب انتظرته. التجارة المطلقة تنتظر ممارسها المُطْلق. بتلك الطريقة كانت وبها ستكون. بتلك الطريقة وليس بطريقة أخرى.

التفت إلى (براون)، الذي سمعه يهمس ببعض الكلام غير المفهوم أو باعتراض. وقال: هاه (ديفي). إنها تجارتك التي نكرمها هنا. لماذا لا تؤدي الحناءة صغيرة. دع كل شخص يتعرف على كل شخص.

تجارتي؟

بالتأكيد.

ما هي تجارتي؟

الحرب. الحرب هي تجارتك، أليس كذلك؟

وأليست هي تجارتك أيضاً؟

تجارتي أيضاً. إلى حد كبير.

وماذا عن دفاتر الملاحظات والعظام والأشياء؟

كل تجارة أخرى متضمنة في تجارة الحرب.

ألهذا السبب الحرب تبقى؟

لا، إنها تبقى لأن الشباب يحبونها والمسنون يحبونها داخلهم. أولئك الذين قاتلوا، وأولئك الذين لم يقاتلوا.

هذا هو رأيك؟

ابتسم القاضي. وُلِد البشر من أجل اللعب. ولاشيء آخر. كل طفل يعرف أن اللعب أكثر نُبلاً من العمل. ويعلم أيضاً أن قيمة اللعبة أو ميزتها لا تورّث في اللعبة نفسها ولكن في قيمة ما يُجازف به. ألعاب الحظ تتطلب رهاناً حتى يصبح لها أي معنى. وتتضمن الألعاب الرياضية مهارة وقوة الخصم، وإهانة الهزيمة وفخر النصر والذين هم أنفسهم رهان كاف، لأنهم متأصلون في قيمة الغرماء ويُعرِّفونهم. ولكن، تجربة حظ أو اختبار قيمة، جميع الألعاب تتوق إلى وضع لعبة الحرب لأنها تبتلع كل ما يُراهن عليه، ألعاب ولاعبون وكل شيء.

لنفترض أن رجلين يلعبان الورق بدون شيء يراهنان عليه إلا حياتهما. من لم يسمع بمثل هذه القصة؟ دور من لعب الورق. يكون الكون بأسره في حالة مخاض بالنسبة للاعب كهذا، وهو يتحرك نحو تلك اللحظة التي ستُخبر إذا كان سيموت بيد ذلك الرجل أو ذاك الرجل سيموت بيد هذا. وماذا يمكن أن يكون هناك أكثر من ذلك ليؤكد شرعية قيمة الإنسان؟ هذا التعزيز للّعبة إلى أقصى حالة لها لا يسمح بأي جدال يتعلق بنظرية الحظ. إن تفضيل اختيار رجل على الآخر هو تفضيل مطلق ونهائي، وهو رجل بليد فعلاً الذي يستطيع أن يتخذ مثل ذلك القرار الصعب دون استعداد كاف بالقوة أو بالاهتمام، أي منهما. في مثل تلك الألعاب التي تقوم المجازفة فيها على إبادة المهزوم تكون القرارات فيها واضحة. هذا الرجل الذي يحمل أوراقاً بهذا الترتيب المحدد في يده، بتلك الوسيلة تتم إزالته من الوجود. هذه هي طبيعة الحرب، التي رهانها المباشر هو اللعب والسلطة والتبرير. بالنظر إليها بهذه الطريقة، فإن الحرب هي أصدق أشكال النبوءة. إنها اختبار لإرادة الإنسان وإرادة إنسان آخر في تلك الإرادة الكبيرة التي، لأنها تربطهما ببعضهما، فهي مجبرة على الاختيار. الحرب هي اللعبة المطلقة لأن الحرب في النهاية سريان لوحدة الوجود. الحرب هي الإله.

تمعّن (براون) بالقاضي. أنت مجنون يا (هولدن)، في النهاية مجنون.

ابتسم القاضي.

قد لا يكون ذلك صحيحاً، قال (إيرفنغ)، الرجل الذي يكسب معركة ما ليس بريئاً أخلاقياً.

قانون الأخلاق هو اختراع بشري لحرمان القوي من حقوق شرعية لصالح الضعيف. القانون التاريخي يهدمه في كل مناسبة. وجهة النظر الأخلاقية لا يمكن إثبات صحتها أو خطئها بأي اختبار مُطـلق. الرجل الذي يقع ميتاً في مبارزة لا يُثبَت بذلك أنه على خطأ فيما يتعلق بأفكاره. إن مجرد خوضه في مثل تلك التجربة يقدم بينة لرؤية جديدة وأكثر تحرراً وأرحب أفقاً. إن رغبة الغرماء في الامتناع عن المزيد من الحجج باعتبارها شيئا تافهاً، وهي في الحقيقة كذلك، وتقديم مطالب مباشرة إلى الهيئات التاريخية يشير بوضوح تام إلى كم هي قليلة الأهمية وجهات النظر وإلى كم هي عظيمة الأهمية الاختلافات الناتجة عنها. واذا كان الجدال هو شيء تافه فعلاً، فليس كذلك الرغبات التي تنجم عنه. غرور الانسان وخيلاؤه لا حدود لهما، إلا أن معرفته تبقى غير كاملة، ومهما حاول تقييم أحكامه، عليه في نهاية المطاف تقديمها إلى محكمة أعلى. هنا لا يمكن أن يوجد قانون دفاع خاص يرجح أحد الأطراف. هنا تصبح اعتبارات الإنصاف وصحة الرأي والأخلاق القويمة شيئاً فارغاً وبدون أي ضمان، وهنا تُحتقر وجهات نظرالخصوم. وقرارات الحياة والموت، لما سيكون أو لا يكون، تدحض كل قضية الحق. في الاختيارات بتلك الأهمية جميع الأشياء الأقل شأناً تصنفُ تحت فئة أكبر، أخلاقياً وروحانياً وطبيعياً.

بحث القاضي في المجموعة عن مجادلين، وقال: ولكن ماذا يقول القسيس؟

رفع (توبين) نظره. القسيس لا يقول.

القسيس لا يقول، قال القاضي. لا يقول. (باللاتينية). ولكن القسيس قال. لأن القِس وضَـع رداء رهبانيته وأخَذ الأدوات من ذلك النداء الأسمى والذي يمجده جميع البشر. والقسيس أيضا ليس خادم الإله بل هو إله بحد ذاته.

هزّ (توبين) رأسه. إن لك لغة تكفيرية يا (هولدن). وفي الحقيقة أنا لم أكن أبداً قسيساً، ولكن فقط مترهبناً.

قسيس مياومة أو قسيس متدرب، قال القاضي. فإنه يوجد صِلة عجيبة بين رجال الرَّب ورجال الحرب.

لن أؤيدك في نظريتك. قال (توبين). ولا تطلب ذلك.

آه أيها القسيس، قال القاضي. كيف يمكنني أن أطلب منك ما لم يُعطَ لك أصلاً؟

* * *

في اليوم التالي عبروا الـ(ماليبز) سيراً على الأقدام وهم يسوقون الخيول في حوض بحيرة من الحمم البركانية المتشققة وذات اللون الأسود المُحمَر مثل حوض من الدم المجفف، شاقين طريقهم بحذر في

تلك الأراضي الوعرة ذات بلورات الكهرمان القاتمة كبقايا جيش غامض يصارع للخروج من تلك الأرض الملعونة، وكانوا يدفعون العربة الصغيرة بأكتافهم فوق الصدوع والرفوف الصخرية، والمعتوه يتشبث بالقضبان ويصيح بصوت أجش في الشمس كحاكم قوي جامح غريب اختُطِف من سلالة المنحلين. اجتازوا أرضاً بركانية ذات طين رقيق التركيب ومتكتل ورماد بركاني كأرض جحيم نفد وقودها، ثم صعدوا بين سلاسل تلال جرداء ومنخفضة من الغرانيت فوق جُرف صلب، هنا حدد القاضي من جديد طريق سيرهم مستخدماً حساب المثلثات ونقاطاً معروفة في مشهد طبيعي. وكان طريقاً مفروشاً بالحصى وممتداً بعيداً حتى الأفق. وبعيداً إلى الجنوب وخلف التلال البركانية السوداء تمتد سلسلة جبال بيضاء منعزلة، سواء كانت رمالاً بيضاءَ أو جبصيناً فإنها كانت تبدو مثل وحش بحر يطوف على سطح الماء بين الأرخبيلات المظلمة. واصلوا سيرهم. وخلال مسيرة يوم على خيولهم وصلوا إلى أحواض صخرية وإلى الماء الذي بحثوا عنه، فشربوا ونقلوا الماء بدلائهم من الأحواض المرتفعة إلى الأحواض الجافة في الأسفل لتشرب الخيول.

في كل مناطق الصحراء المروية، كان هناك عظام، ولكن القاضي في ذلك المساء حمل إلى النار عظمة لم يرَ أحد مثلها من قبل، كانت عظمة فخذ ضخمة لوحش انقرض منذ زمن بعيد، وجدها وقد تغيّر لونها بفعل العوامل الجوية في جُرف عال، وقد جلس الآن ليقيسها

بمتر خياط ثم حملها ورسمها في سِجلّه. الجميع في تلك المجموعة كانوا قد استمعوا إلى القاضي وهو يتحدث في علم الإحاثة ما عدا الأعضاء الجدد الذين جلسوا يراقبون ويضعون له تلك التساؤلات التي تمكنهم من بعض الادراك. كان يجيبهم باهتمام، مضخماً لهم أسئلتهم وكأنهم علماء متدربون. أومأوا ببلادة ومدّوا أنفسهم ليلمسوا ذلك العمود العظمي المُبقّع والمتحجر، ربما ليتحسسوا بأصابعهم الاتساع الزمني الهائل الذي تحدث عنه القاضي. قام القيّم على المعتوه بإخراجه من قفصه وربطه بجانب النار بواسطة حبل مجدول من شعر ذيل الحصان كي لا يستطيع التفكير بالهرب، فوقف المعتوه متكئاً داخل طوقه ويداه ممدودتان وكأنه يتوق إلى لهب النار. نهض كلب (غلانتون) وجلس يراقبه، فتمايل المعتوه وسال لعابه وعيناه المتلبدتان تتوهجان بفعل ضوء النار. كان القاضي يحمل عظمة الفخذ منتصبة ليوضّح بشكل أفضل التشابهات الجزئية بينها وبين العظام السائدة في الأرض حولهم، وتركها تقع في الرمال وأغلق دفتره.

وقال: ليس فيها غموض.

طرفت أعين المتطوعين ببلادة.

أمنيتكم القلبية هي أن أخبركم عن شيء غامض. الشيء الغامض هو في أنه لا يوجد شيء غامض.

نهض وابتعد في الظلام وراء النار.

آه، قال القسيس وهو يراقب، وغليونه مُطفأ بين أسنانه. ولا يوجد شيء غامض. وكأنه هو نفسه ليس شيئاً غامضاً، ذلك المخادع العجوز اللعين.

* * *

بعد ثلاثة أيام وصلوا إلى كولورادو. ووقفوا على حافة النهر يراقبون المياه العكرة والمتلونة بلون الطين تسقط برغوة ثابتة ومنبسطة من الصحراء. طار اثنان من طير الكركي من الشاطئ وتحركا بسرعة مبتعدين، وسيقت الخيول والبغال إلى الضفة وجازفت بريبة بالدخول إلى دوامة ضحلة ووقفت تشرب وتنظر إلى الأعلى، وأنوفها تقطر، على التيار الجاري وعلى الشاطئ في الخلف.

عند أعلى النهر في معسكر صادفوا بقايا عربة قطار دُمرت بسبب الكوليرا. وتنقّل الناجون بين نيران طهيهم في منتصف النهار، أو حملقوا بعمق في الجنود الذين خرجوا يمتطون خيولهم من خلال شجر الصفصاف. وانتشرت أشياؤهم في كل مكان على التراب، وتفرقت حاجيات الأموات لتتوزع بينهم. وكان يوجد في المعسكر عدد من هنود (يوما). كان للرجال شعر طويل قطع بالسكاكين أو ألصقوا على رؤوسهم شعراً مستعاراً من الطين، ثم مشوا بتثاقل وهم يحملون هراوات ثقيلة تتدلى في أيديهم. هم ونساؤهم كانوا موشومين على الوجه، كانت النساء عاريات إلا من تنانير مصنوعة من لحاء شجر

الصفصاف المُحَاك مع بعضه بواسطة حبل، وكثير منهن كنَّ جميلات وأغلبهن يعانين من أعراض مرض السفلس.

تنقل (غلانتون) خلال تلك المحطة الكئيبة وكلبه في عقبيه وبندقيته في يده. على يسار المجموعة عبر النهر كان هنود الـ(يوما) يدفعون البغال القليلة المثيرة للشفقة للسباحة، ووقف (غلانتون) على الضفة وراقبهم. عند أسفل النهر أغرقوا أحد البغال ثم سحبوه إلى الشاطئ ليقطِّعوه. جلس هناك رجل عجوز بمعطفه الشاكتو ولحيته الطويلة، وكان حذاؤه بجانبه ورجلاه في الماء .

أين خيولكم؟ سأل (غلانتون).

أكلناها.

تمعّن (غلانتون) بالنهر.

كيف تعتزمون العبور؟

على معديّة.

نظر عبر النهر إلى حيث أشار الرجل العجوز. وقال: كم سيأخذ لينقلكم عبر النهر؟

دولار على الشخص.

التفت (غلانتون) وتمعّن بالمهاجرين على الشاطئ. كان الكلب يشرب من النهر، قال له شيئاً ما فأتى الكلب وجلس بجانب ركبته.

أبحرت المعدِّية من الضفة البعيدة وعبرت إلى مرسى نحو أعلى النهر حيث كان يوجد خشب طافٍ بشكل طولي على هيئة رجل ميت.

كان المركب مكوّناً من زوج من مقصورات عربة قديمة ثُبتتا إلى بعضهما وحُشيَّت الفراغات بالقار. حملت مجموعة من الناس أمتعتهم على أكتافهم ووقفوا ينتظرون. استدار (غلانتون) وذهب إلى أعلى الضفة ليُحضر حصانه.

كان صاحب المعدِّية طبيباً من ولاية نيويورك، واسمه (لنكون)، وكان يشرف على التحميل، والمسافرون يركبون في المعدِّية ويجثون على طول حاجز القارب مع أمتعتهم وهم ينظرون بعيداً بريبة على المياه الواسعة. جلس كلب حراسة على الضفة يراقب. مع اقتراب (غلانتون) وقف بعدوانية. استدار الطبيب وظلل عينيه بيده، فقدَّم (غلانتون) نفسه. تصافحا. يسرني التعرف عليك كابتن (غلانتون). أنا في خدمتك.

أومأ (غلانتون) برأسه. أعطى الطبيب تعليمات للرجلين اللذين يعملان عنده، ومشى هو و(غلانتون) على الممر أسفل النهر. كان (غلانتون) يقود حصانه، ويتبعهما كلب الطبيب على بعد عشر خطوات خلفهما.

كان أفراد مجموعة (غلانتون) قد عسكروا على منبسط مرتفع من الأرض الرملية ومظللين جزئياً بأشجار الصفصاف النهرية. وعندما اقترب هو والطبيب، نهض المعتوه في قفصه وأمسك بالقضبان وبدأ

يصيح مستهجناً وكأنه يحذر الطبيب ليبتعد. ابتعد الطبيب عن ذلك الشيء وهو ينظر إلى مضيفه، ولكن مساعدي (غلانتون) تقدَّموا وفي الحال دخل الطبيب والقاضي بمحادثة عميقة لاستثناء أي شخص آخر.

في المساء انطلق (غلانتون) والقاضي، ومفرزة من خمسة رجال إلى مخيم هنود (يوما). مرّوا خلال غابة مسيّجة من أشجار الصفصاف وشجر الجميز المكسو بقشور من الصلصال من مياه الفيضان، ثم عبروا بجانب الترعة القديمة وحقول الشتاء الصغيرة حيث تخشخش قشور الذرة الجافة بخفة مع الريح واجتازوا النهر عند مخاضة (ألغودونيز). عندما أعلنت الكلاب وصولهم كانت الشمس قد نزلت وأصبحت الأرض الغربية حمراء وضبابية، وتابعوا طريقهم بشكل رتل كحجر منقوش يظهر بوضوح في الضوء الخمري وجوانبهم المظلمة باتجاه النهر. انبعث الدخان من نيران الطهو في المخيم من خلال الأشجار، وخرج وفد من المتوحشين ممتطين خيولهم ليقابلوهم.

توقفوا وامتطوا خيولهم. كان أفراد المجموعة التي تقترب مكسوين بملابس مهرجين، ومع ذلك كانوا يتقدمون منتصبين وبثقة كبيرة بالنفس إلى الحد الذي جعل راكبي الخيول الأكثر ضعفاً يجدون صعوبة في المحافظة على رباطة جأشهم. كان القائد رجلاً اسمه (كابالو إن بيلو) وهذا الثري العجوز كان يرتدي معطفاً من الصوف المطوق بحزام والذي يلائم الطقس البارد، وتحته كان يرتدي قميصاً نسائياً من الحرير المطّرز وسروالاً من الكاسينت الرمادي. كان حجمه صغيراً

وغريباً، وفقد إحدى عينيه في حرب مع (ماريكوباس)، وحيّا الأمريكيين بنظرة خلاعية خبيثة والتي ربما كانت ابتسامة في يوم ما. زعيم أصغر اسمه (باسكوال) جلس على حصان على يمينه، يرتدي معطفاً مزيناً بجديلة وبأكمام إلى الأكواع، ويضع على أنفه عظمة عُلّقت بحلقات صغيرة. ورجل ثالث هو (بابلو) وكان يرتدي معطفاً قرمزياً بشرائط مجدولة ملوثة وبكتافات ذات طوق فضي فقد لمعانه. كان حافي القدمين وعاري الساقين، ووضع على وجهه منظار وقاية (نظارتان واقيتان من أشعة الشمس والغبار) مدوّراً أخضر اللون. بتلك الملابس نظموا أنفسهم أمام الأمريكيين وأومأوا بصرامة.

بصق (براون) على الأرض باشمئزاز وهز (غلانتون) رأسه. وقال:

ألستم مجموعة من الهنود الحمر ذات أشكال كالمجانين.

القاضي فقط هو الذي بدا أنه يُعيرهم بعض الاهتمام، وقد كان وقوراً في تعامله، مرتثياً، ربما كما بالنسبة له هو، أن الأشياء قلما تكون كما تبدو.

وقال: مساء الخير. (بالإسبانية).

دفع الزعيم ذقنه بحركة صغيرة ظهرت غامضة بما فيها من التباس، وقال: مساء الخير، من أين أتيتم؟ (بالإسبانية).

* * *

-18-

العودة إلى المعسكر - المعتوه يُسلِّم - (سارة بورجينيز) - مواجهة - استحمام في النهر - العربة احترقت - (جيمس روبرت) في المعسكر - تعميد آخر - القاضي والمعتوه.

* * *

عندما خرجوا من معسكر هنود (يوما) كان ما يزال هناك بعض ظلام الصباح الباكر. وتسابقت أبراج السرطان والعذراء والأسد في دائرة البروج في الليل الجنوبي، وتوهجت مجموعة نجوم ذات الكرسي المتألقة إلى الشمال كتوقيع ساحرة على وجه السماء الأسود. لقد توصلوا في مفاوضات الليل الطويل إلى تفاهم مع (يوما) متآمرين للاستيلاء على المعدِّية. امتطوا خيولهم باتجاه أعلى النهر بين الأشجار المبقّعة بمخلفات الفيضان متحدثين فيما بينهم بهدوء كرجال عائدين في وقت متأخر من مناسبة إجتماعية، من حفل زفاف أو جنازة ميت.

عند ظهور ضوء النهار اكتشفت النساء على التقاطع المعتوه في قفصه. فاجتمعن حوله، ومن الواضح أنهن لم يكنَّ مرعوبات من العريّ والقذارة اللتين كان فيهما. دندنَّ له وتشاورن فيما بينهن،

وهدتهن امرأة اسمها (سارة بورجينز) للبحث عن أخيه. كانت امرأة ضخمة ذات وجه أحمر كبير وكان انطباعها عنه أنه مستهتر.

وقالت: ما اسمك على أية حال؟

(كلويس بل) سيدتي.

ما اسمه هو؟

اسمه (جيمس روبرت) ولكن لا أحد يناديه بهذا الاسم.

إذا رأته أمك ماذا تظن أنها تقول؟

لا أعلم. لقد ماتت.

ألا تشعر بالخجل؟

لا يا سيدتي.

لا تخاطبني بوقاحة.

لا أحاول أن أفعل ذلك. إذا كنتِ تريدينه فخُذيه. سأعطيكِ إياه. لا أستطيع أن أفعل أكثر مما فعلت.

اللعنة إذا لم تكن شخصاً تافهاً. واستدارت إلى النساء الأخريات.

ساعدنني جميعكن. علينا أن نحممه، ونلبسه بعض الملابس. فلتسرع إحداكن وتـُحضر صابوناً.

سيدتي، قال القيّم عليه.

فلتأخذنه جميعكن إلى النهر.

مرّ (تودفين) والصبي بهنَّ وهنَّ يقمنَّ بجر العربة. تنحيا عن الطريق وراقبوهنَّ وهنَّ مارَّات. كان المعتوه يتشبث بالقضبان ويصرخ بصوت أجش عند الماء، وبدأت بعض النسوة بإنشاد ترنيمة.

إلى أين يأخذنه؟ قال (تودفين).

لم يكن الصبي يعرف. كنَّ يسندنَّ العربة على الرمال اللينة ويدفعنها نحو حافة النهر، ثم تركنها تسقط في النهر وفتحنَّ باب القفص. وقفت المرأة (بورجينيز) أمام المعتوه.

(جيمس روبرت) أخرجْ من هناك.

مدّت نفسها نحوه وأخذته من يده. حدّق إلى الماء من ورائها، ثم حاول الوصول إليها.

خرجت تنهيدة من المرأة، وسحبت عدة نساء تنانيرهن وثبتْنها تحت رباط الخصر ووقفنَّ في النهر ليستلمنه.

سلَّمته وهو يتعلَّق برقبتها. عندما لمست قدماه الأرض استدار نحو الماء. تلوّثت المرأة بالبراز، ولكن يبدو أنها لم تلاحظ ذلك. ونظرت خلفها إلى أولئك على ضفة النهر.

وقالت: أحرقوا ذلك الشيء.

ذهبت إحداهن إلى النار لإحضار جمرة، وبينما كنَّ يُدخلنَّ (جيمس روبرت) في الماء كان القفص قد اشتعل وبدأ يحترق.

تشبث بتنانيرهن، وأمسكهن بيد ذات مخالب، وهو يثرثر ولعابه يسيل.

فقلنَّ: لقد رأى نفسه في الماء.

شووو. تخيلوا هذا الطفل محبوساً مثل حيوان ضارٍ.

فرقعت ألسنة اللهب المتصاعدة من العربة المحترقة في الهواء الجاف، ويبدو أن تلك الضجة قد أثارت انتباه المعتوه لأنه أدار عينيه الباردتين نحوها. فقلنَّ: إنه يُميّز. ووافقنَّ جميعهن. خرجت المرأة بورجينيز من الماء بصعوبة وقد انتفخ فستانها كالبالون حولها، وأخذت المعتوه إلى مكان أعمق في الماء ثم دارت به كالدوامة حولها، بدا كإنسان ناضج بين ذراعيها القويتين الكبيرتين. حملته إلى الأعلى، ودندنت له. وطاف شعرها الباهت فوق سطح الماء.

رآه رفاقه السابقون في تلك الليلة أمام نار المهاجرين بملابس من الصوف الخشن المحبوك. ودارت رقبته النحيلة بحذر داخل قَبة القميص الأكبر من اللازم. وقد وضعن على شعره زيتاً ومشطنَه بشكل منبسط على جمجمته حيث بدا كأنه مرسوم عليها. وأحضرنَّ له حلويات ثم جلس ولعابه يسيل مراقباً النار، وكان موضع إعجابهن الشديد. في الظلام جرى النهر وارتفع قمراً بألوان الأسماك فوق الصحراء شرقاً وأجلس ظلالها بجانبها في الضوء الباهت. خبت النار وتصاعد دخان رمادي وتجمّع في الليل. وعوت حيوانات ابن آوى الصغيرة عبر النهر، وهاجت كلاب المعسكر وزمجرت. أخذت المرأة بورجينيز المعتوه إلى

فراشه القشي تحت غطاء العربة وخلعت عنه ملابسه ما عدا الملابس الداخلية الجديدة وغطته ببطانيته وقبلته قبلة ليلة سعيدة، وخيم الهدوء على المعسكر. عندما عبَر المعتوه الأرض المنبسطة الزرقاء الدخانية، كان عارياً مرة أخرى، ومشى بتثاقل بجانب النار مثل حيوان كسلان طائش على الأرض. توقف قليلاً واختبر الهواء ثم تابع جاراً قدميه. ذهب بعيداً عن المرسى ومشى متعثراً خلال أشجار الصفصاف، وهو يئن ويدفع بذراعيه النحيلتين الأشياء في الليل. ثم وقف على الشاطئ وحده. صاح بصوت أجش منخفض وخرج صوته منه كهدية مطلوبة إذ لم يرجع صدى له. نزل إلى الماء. وقبل أن يصل ماء النهر إلى مستوى خصره فَقَدَ توازنه وغاب عن النظر.

كان القاضي ماراً في جولته بعد منتصف الليل بجانب ذلك المكان بالضبط وهو عارٍ تماماً - هذه المصادفات شائعة أكثر مما يَتوقع البشر وإلا من سينجو من أي عبور في الليل - ودخل إلى النهر وأمسك بالمعتوه الغارق، ونشله إلى الأعلى من كعبيه، كما تفعل قابلة ضخمة، ثم صفعه على ظهره ليَخرج الماء. كان مشهد ولادة أو تعميد، أو طقساً دينياً لم يُدشَّن في أي شريعة بعد. عصر الماء من شعره وضمَّ المعتوه العاري الذي ينشج بين ذراعيه وحمله إلى المعسكر وأعاده بين رفاقه.

* * *

-19-

المدفع - هجوم الـ(يوما) - المشادّة - (غلانتون) يستولي على المعدّية - الخائن المشنوق - الخزينة - وفد نحو الساحل - (سان دييجو) - ترتيب من أجل المؤن - (براون) في عيادة الطبيب البيطري - نزاع - (وبستر) و(تودفين) مُحرَرَان - المحيط - مشاحنة - رجل حُرق حيّا - (براون) في سجن وضيع - حكايات الكنز - هروب - جريمة قتل في الجبال - (غلانتون) يغادر هنود (يوما) - العمدة يشنق - رهائن - يعود إلى (يوما) - الطبيب والقاضي، الزنجي والمعتوه - الفجر على النهر - عربات بدون عجلات - قتل (جاكسون) - مجزرة هنود (يوما).

* * *

كان الطبيب قاصداً كاليفورنيا عندما امتلك المعدِّية بالصدفة على الأغلب. وفي الأشهر التالية جمع ثروة ضخمة من الذهب والفضة والمجوهرات. واتخذ هو واثنان ممن عملوا في خدمته مقراً على الضفة الغربية من النهر مشرفاً على مرسى المعدِّية بين دعائم حصن على جانب التلة غير مُكتمل، ومبني من الطين والحجر. بالإضافة إلى عربتي الشحن اللتين ورثهما من مقر قيادة الميجور (غراهام)، كان عنده أيضاً مدفع جبلي - مدفع برونزي يرمي قذائف وزنها اثنا عشر رطلاً وله ماسورة ذات فوهة بحجم الصحن - وكان هذا السلاح ينتصب على

عربته الخشبية مُعطلاً عن العمل وغير مُلـقَم. جلس الطبيب في مقرّه البسيط مع (غلانتون) والقاضي بالإضافة إلى (براون) و(إيرفنغ) يشربون الشاي، واختار (غلانتون) بضعة قصص سردها على الطبيب عن مغامراتهم مع الهنود، ونصحه بشِدّة أن يصون مركزه. اعترض الطبيب. وزعم أنه على علاقة جيدة مع هنود (يوما). فقال له (غلانتون) في وجهه إن أي شخص يثق بهندي هو شخص غبي. احمرَّ وجه الطبيب غضباً ولكنه أمسك لسانه. تدخَّل القاضي، وسأل الطبيب إذا كان يعتبر المهاجرين المحتشدين على الشاطئ البعيد تحت حمايته. فقال الطبيب إنه يعتبرهم كذلك. تحدث القاضي بتعقُّل وباهتمام. وعندما عاد (غلانتون) ومفرزته إلى أسفل التلة ليتجهوا إلى معسكرهم، كانوا قد أخذوا إذن الطبيب بتحصين التلة وحشو المدفع، ومن أجل هذه الغاية بدأوا بإعداد ما تبقى لديهم من الرصاص حتى جمعوا ما يقارب ملء قبعة من طلقات البنادق.

لقموا المدفع في ذلك المساء بما يعادل رطلاً من البارود وبكل أشكال الطلقات ثم دحرجوا السلاح إلى موقع مشـْرف على النهر والمرسى في الأسفل.

بعد يومين هاجم هنود (يوما) معبر النهر. كانت القوارب على الضفة الغربية للنهر تفرّغ حمولتها حسب ما تم ترتيبه، واستعد المسافرون ليطالبوا ببضائعهم. أتى المتوحشون فرساناً ومشاة من بين أشجار الصفصاف بدون سابق إنذار واحتشدوا على الأرض المكشوفة قرب المعدِّية.

على التلة فوقهم أدار (براون) و(لونغ وبستر) المدفع وثبتوه، ثم حشى (براون) سيجاره المشتعل داخل فُرجة الاشتعال.

حتى فوق تلك الأرض المكشوفة كانت الهزّة قوية جداً. قفز المدفع وهو في عربته من على الأرض وأصدر صوت صلصلة وانبعث الدخان إلى الخلف فوق الوحل المتكتل. وعلى الرَّقّة(*) أسفل الحصن حدث دمار مرعب وسقط أكثر من اثني عشر هندياً من الـ(يوما) ميتين أو يتلوون من الألم فوق التراب. وعصفت ريح شديدة بينهم، وخرج (غلانتون) ورجاله أرتالاً من منطقة أعلى النهر ذات الساحل المشجر، وهجموا عليهم، فصاحوا بهياج على من خانوهم. وبدأت خيولهم تدور، فسحبوها بقسوة وأطلقوا السهام على الجنود، فأطلق عليهم الجنود وابلاً من رصاص المسدسات، وأخرج المُسافرون الذين نزلوا من المعدّية أسلحتهم بسرعة من بين أمتعتهم وركعوا وبدأوا بإطلاق النار من ذلك المكان، في حين انبطح النساء والأطفال بين صناديق الأمتعة وصناديق الشحن. تقهقرت خيول هنود الـ(يوما) وصهلت وهاجت وابيضت عيونها وأزْبَدَت بأنوفها التي تشبه الأطواق فوق الرمال اللينة، واتجه الناجون نحو شجر الصفصاف من حيث أتوا مخلفين وراءهم على السهل الجرحى والمحتضرين والقتلى. لم يتبعهم (غلانتون) ورجاله، بل ترجّلوا عن خيولهم ومشوا بشكل نظامي بين الساقطين على الأرض يقتلونهم رجالاً وخيولاً على حد سواء، بطلقة

(*) الرَّقة: سهل نشأ من مخلفات فيضان.

مسدس في رأس كل منهم، في حين كان مسافرو المعدِّية يراقبون، ثم أخذ (غلانتون) ورجاله فروات الرؤوس.

وقف الطبيب على شرفة المبنى في صمت وراقب الجثث تـُجر نحو المرسى وتُركل بالأحذية وتُدفع إلى داخل النهر. استدار ونظر إلى (براون) و(وبستر) اللذين نقلا المدفع وعربته إلى مكانه، وجلس (براون) بارتياح فوق ماسورة المدفع الساخنة يُدخـّن سيجاره ويراقب الأحداث في الأسفل. استدار الطبيب ودخل عائداً إلى مقرِّه.

لم يظهر الطبيب في اليوم التالي. تولّى (غلانتون) أمرعمل المعدِّية. وأبلغ الناس، الذين كانوا ينتظرون منذ ثلاثة أيام ليعبروا النهر مقابل دولار للشخص الواحد، أن الرسوم أصبحت أربعة دولارات للشخص. وحتى هذه التعرفة سرى مفعولها لمدة لم تزد عن بضعة أيام. وسرعان ما بدأوا بتطبيق نظام المعدِّية البروكروستية(*) حيث تُحدد الرسوم لتتلائم مع حقائب المسافرين. وفي النهاية أُسقطت جميع الذرائع وسُلب المهاجرون كُليَّة. ضُرب المسافرون ونُهبت أسلحتهم وبضائعهم، وأرسلوا إلى الصحراء فقراء مُعدمين. نزل الطبيب ليحتج عليهم فدُفعت له حصته من العوائد وعاد إلى مقرّه. أُخذت الخيول واغتُصبت النساء، وبدأت الجثث تنجرف عبْر معسكر الـ(يوما) إلى

(*) البروكروستية: نسبة إلى بروكرستيز أو فراشه: كان بروكرستيز لصاً إغريقياً يمد أرجل ضحاياه أو يقطعها لكي يجعل طولها منسجماً مع فراشه.

النهر. في الوقت الذي تزايدت فيه تلك الاعتداءات الوحشية كان الطبيب قد حجز نفسه في مقرّه ولم يره أحد بعد ذلك.

في الشهر التالي وصلت مجموعة من كنتاكي تحت قيادة الجنرال (باترسون) وترفّعوا عن التفاوض مع (غلانتون)، فشيدوا معدّية عند أسفل النهر وعبروا ثم واصلوا طريقهم. تولى أمر هذه المعدّية هنود الـ(يوما) وأدارها لهم رجل اسمه (كالاهان)، ولكن خلال أيام كانت قد حُرقت ووجدت جثة (كالاهان) بدون رأس طافية في النهر، وكان يقف صقراً بين لوحي كتف الجثة كأنه راكب صامت يتجه إلى البحر وهو يرتدي عباءة كاهن سوداء.

صادف عيد الفصح في تلك السنة اليوم الأخير من شهر مارس/ آذار، وعند فجر ذلك اليوم عبَر الصبي ومعه (تودفين) وولد اسمه(بيلي كار) النهر ليُقطّعوا سيقان شجر الصفصاف في المكان الذي نما فيه الشجر نحو أعلى النهر من مخيم المهاجرين. أثناء عبورهم من ذلك المكان وقبل بزوغ الضوء قابلوا فرقة من رجال (سونورا) في الأعلى ومن حولهم، ورأوا تمثالاً بائساً ليهوذا يتدلى من مشنقة، وقد كان مصنوعا من القش وخِرق قديمة ورُسم التقطيب على وجهه المصنوع من القماش، وذلك عَكَسَ، بواسطة اليد التي أنجزته، ليس أكثر من إدراك طفل للرجل وجريمته. كان رجال (سونورا) في الأعلى منذ منتصف الليل يسكرون وقد أشعلوا نارا على الأرض المنبسطة والمرتفعة ذات التربة الخصبة حيث نُصبت المشنقة، وعندما مرّ الأمريكيون

بجانب معسكرهم، نادوا عليهم بالإسبانية. وأحضر أحدهم جمرة طويلة من النار وطرفها مكسو بقطع صغيرة مشتعلة وأشعلت النار في تمثال (يهوذا). كانت في ملابسه الرثّة مجموعة مفرقعات وأسهم نارية، فعندما اشتعلت به النار انفجر متفككاً قطعة تلو القطعة بوابل من الخِرق والقش المشتعل. إلى أن انفجرت في النهاية قنبلة كانت داخل سرواله ونسفت ذلك الشيء إلى قطع من السُخام النتن والكبريت، وهتف الرجال بمرح، وقذف الأولاد بعض الحجارة على البقايا المتفحمة والمتدلية من الحبل. كان الولد آخر من مرّ من خلال الأرض مقطوعة الأشجار، فدعاه رجال (سونورا) وعرضوا عليه خمراً في قربة من جلد الماعز، ولكنه رفع معطفه الرث على كتفيه وانطلق مسرعاً.

في ذلك الوقت كان (غلانتون) قد استعبد عدداً من رجال (سونورا) وأبقى جماعة منهم تعمل في الحصن فوق التلة. كما كانت هناك دزينة أو أكثر من الهنود محتجزين في معسكرهم، وفتيات مكسيكيات، بعضهن أكبر من الأطفال بقليل. راقب (غلانتون) الجدران المرتفعة حوله باهتمام، ولكن فيما عدا ذلك ترك رجاله يتابعون العمل على المعْبَر بحرية مرعبة. ويبدو أنه لم يكن يعير الكثير من الاهتمام للثروة التي كانوا يجمعونها، بالرغم من أنه كان يومياً يفتح القفل النحاسي الذي يُغلق الصناديق الخشبية والجلدية الموجودة في مقره، ويرفع الغطاء ويفرغ جميع أكياس الأشياء الثمينة داخلها. في ذلك الوقت كان في الصناديق آلاف الدولارات من القطع النقدية الذهبية والفضية، كما كانت هناك مجوهرات وساعات ومسدسات

وذهب خام في أكياس جلدية صغيرة، وفضة بشكل قضبان وسكاكين وأوانٍ فضية وصحون وأسنان.

في الثاني من إبريل/نيسان، انطلق (ديفيد براون) مع (لونغ وبستر) و(تودفين) إلى بلدة سان دييجو على الساحل المكسيكي القديم بهدف الحصول على المؤن. أخذوا معهم قافلة من حيوانات التحميل وغادروا عند غروب الشمس، ومرّوا بين الأشجار وهم ينظرون إلى الوراء على النهر ثم قادوا الخيول جانبياً نحو الأسفل على الكثبان في الغسق الأزرق البارد.

قطعوا الصحراء في خمسة أيام بدون أحداث، وتابعوا خلال السلسلة الساحلية، وقادوا البغال خلال الثلوج في الممر الجبلي ونزلوا على المنحدر الغربي ودخلوا البلدة تحت رذاذ من المطر. أصبحت ملابسهم المصنوعة من جلود الحيوانات ثقيلة لتبلـُلِها بالماء، وتلطخت الحيوانات بالطمي الذي ارتشح منهم ومن أغطية سروجهم. ثم مرّ بهم أفراد من سلاح الفرسان الأمريكي ممتطين خيولهم في وحل الشارع. واستطاعوا أن يسمعوا بعيداً هدير البحر يرتعد على الساحل الرمادي الصخري.

أخذ (براون) من قربوس سرجه كيساً قماشياً مليئاً بالقطع النقدية، وترجّل ثلاثتهم ودخلوا دكان بائع ويسكي، وبدون سابق إنذار وضعوا الكيس على قاعدته على طاولة البائع.

كانت هناك دبلونات[*] مصكوكة في إسبانيا وفي (غوادالاخارا)، وأنصاف دبلون ودولارات ذهبية، وأنصاف دولارات ذهبية صغيرة جداً وقطع نقدية فرنسية ذات فئة عشرة فرنكات وإيجل ذهبية وأنصاف إيجل، ودولارات حلقيّة ودولارات مصكوكة في شمال كاليفورنيا وجورجيا، ذات عيار اثنين وعشرين قيراطاً صافياً. وزنها البائع بالكومَات على ميزان عادي مصنفة حسب مصدرها، ثم سحب فلينات زجاجة وصبَّ مقادير دقيقة تقريباً داخل كؤوس من القصدير مطبوع داخلها مقاييس بالجِـل[**]. شربوا من الكؤوس ووضعوها على الطاولة مرة ثانية، فدفع البائع الزجاجة على سطح الكاونتر المصقول.

وضعوا قائمة بالمؤن لشرائها وعند موافقتهم على سعر الطحين والقهوة وبعض السلع الأخرى، خرجوا إلى الشارع وكل منهم يحمل زجاجة في قبضة يده. ذهبوا من الطريق السهلة ومروا خلال الوحل وبجانب صفوف من الأكواخ البسيطة، ثم عبروا ساحة صغيرة شاهدوا خلفها البحر في أدنى درجات الجَزْر يتماوج، ومخيماً صغيراً، وشارعاً حيث صُنعت الأكواخ الخفيضة من جلود الحيوانات وامتدت، كأسماك البحر المفلطحة الغريبة، على طول حافة أشجار البلوط البحرية وفوق الشاطئ، سوداء تماماً وتلمع في المطر.

(*) الدبلون: عملة أسبانية ذهبية قديمة.

(**) الجل: مقياس سعة يعادل ربع باينت. والباينت يعادل رُبع غالون.

في أحد تلك الأكواخ استيقظ (براون) في اليوم التالي. تذكَّر القليل عن الليلة الماضية، ولم يكن معه أحد في الكوخ. كانت باقي نقودهم في حقيبة معلقة حول رقبته. دفع الباب ذا الإطار الجلدي ففتحه وخرج إلى الظلام والرطوبة. لم يربطوا حيواناتهم ولم يطعموها، فرجع في طريقه إلى دكان بائع الويسكي حيث وجدها مربوطة وجلس على الممشى وراقب الفجر ينحدر على التلال خلف البلدة.

عند الظهر كان واقفاً أمام باب العمدة وعيناه محتقنتان ورائحته كريهة يُطالب بتحرير رفاقه. ذهب العمدة نحو ملحقات المبنى الخلفية، وخلال وقت قصير وصل عريف أمريكي وجنديان وأبعدوه. بعد ساعة كان في مقر الطبيب البيطري، ووقف بحذر عند المدخل يحملق في الظلام لكي يتمكن من تمييز أشكال الأشياء في الداخل.

كان الطبيب البيطري على مقعده، فدخل (براون) ووضع أمامه صندوقاً من خشب المهوغاني المصقول وعلى الغطاء لوحة اسم نحاسية مثبتة بمسامير صغيرة. ونزع السقاطات ثم فتح الصندوق وأخرج من تجويفه ماسورتي بندقية رش، ورفع كعب البندقية بيده الأخرى. ثم ثبت الماسورتين في مغلاق البندقية المفتوح وأوقفها على المقعد ودفع مسمار الانفجار إلى الحجيرة ليؤمنها. ثم جعل المطرقتين على وضع الصَّلي بإبهامه ثم تركهما تسقطان. كانت البندقية صناعة انجليزية، والماسورتان من فولاذ دمشقي وأقفال محفورة، وكعب البندقية من قشرة خشب المهوغاني. رفع نظره إلى الأعلى. وكان الطبيب البيطري يراقبه.

أنت تعمل بالبنادق؟ قال (براون).

نوعاً ما.

أريد هاتين الماسورتين مقصوصتين.

أخذ الرجل البندقية وحملها بيديه. كانت هناك دعامة وسطية مرتفعة بين الماسورتين وعليها مرصّع بالذهب اسم الصانع، لندن. وكانت هناك أطواق من البلاتين على مغلاق البندقية، وكانت الأقفال والزناديْن مزيّنة بزخرفة ملولبة حُفرت عميقاً في الفولاذ، كما حُفرت أشكال طيور حجل على كل من طرفي اسم الصانع هناك. لُحِمَت الماسورتان الأرجوانيتان في ثلاثة مواقع، وحَمَلَ الحديد والفولاذ المطروق شكلاً متماوجاً كالعلامات التي تتركها أفعى قديمة وغريبة، نادرة وجميلة ومميتة، وكان الخشب مزيناً بنقش لريشة حمراء غامقة في المؤخرة، وتحمل صندوقاً صغيراً ذا غطاء لنوابض فضيّة في المقدمة.

قلّب الطبيب البيطري البندقية بين يديه ونظر إلى (براون). ثم نظر إلى الصندوق. كان محاطاً بقماش قطني مضلّع أخضر، وكانت هناك حجيرات صغيرة لتحمل قاطع لبادة البارود، ودوارق بارود بيوترية(*)، ونتوءات حادة للتنظيف، وكبسولات بيوترية مفتوحة تحتوي على متفجرات.

تريد ماذا؟ قال الطبيب البيطري.

(*) بيوترية: أشابة معدنية مقومها الأساسي القصدير.

تقصير الماسورتين. بطول تقريبا إلى هنا. ووضع إصبعه على السلاح.

لا أستطيع أن أفعل ذلك.

نظر (براون) إليه وقال: لا تستطيع أن تفعل ذلك؟

لا يا سيدي.

نظر حول المكان، وقال: حسناً، كنت أعتقد أن أي غبي لعين يمكنه أن ينشر ماسورتين من بندقية.

هناك خللٌ ما بك. لماذا يرغب أي شخص بقص الماسورتين عن البندقية كما تطلب؟

ماذا قلت؟ قال (براون).

قدم الطبيب عرضاً لشراء البندقية بعصبية. قصدت أنني لا أرى لماذا يرغب أي شخص في أن يدمر بندقية جيدة كهذه هنا. كم تأخذ مقابلها؟

ليست للبيع. أتعتقد أن بي خبلاً؟

لا، لا أعتقد. لم أقصدها بتلك الطريقة.

هل ستقوم بقص الماسورتين أم لا؟

لا أستطيع فعل ذلك.

لا تستطيع أم لا تريد؟

اختر أيهما أنسب لك؟

أخذ (بروان) البندقية ووضعها على المقعد.

على ماذا يجب أن تحصل إذا كنت ستفعل ذلك؟

لن أفعل ذلك.

إذا أراد شخص ما أن يحصل عليها مقصوصة، ماذا يمكن أن يكون السعر المناسب؟

لا أعرف، دولار واحد.

مدَّ (براون) يده إلى جيبه وأخرج ملء قبضة من القطع النقدية. ووضع قطعتين نقديتين ذهبيتن بقيمة دولارين ونصف على المقعد. وقال: الآن، أنا أدفع لك دولارين ونصف.

نظر الطبيب البيطري إلى القطع النقدية بعصبية. وقال: أنا لا أحتاج نقودك. لا يمكنك أن تدفع لي لأذبح تلك البندقية.

لقد دُفع لك المبلغ.

لا لم يُدفع.

إنها موضوعة هناك. والآن يمكنك إما أن تبدأ بالنشر أو تهمل الأمر. وفي تلك الحالة علي أن أقطعها من مؤخرتك.

لم يرفع الطبيب البيطري نظره عن (براون). وبدأ بالتراجع عن المقعد ثم استدار وهرب.

عندما وصل رقيب الحراس كان (براون) قد حشر البندقية في المِلزمة وبدأ بقص الماسورتين بمنشار معادن. مشى السارجنت في المكان إلى حيث يتمكن من رؤية وجهه. ماذا تريد؟ قال (براون).

هذا الرجل يقول إنك هددت حياته.

أي رجل؟

هذا الرجل. وأشار الرقيب نحو باب السقيفة.

تابع (براون) النشر. وقال: أتدعو ذلك رجلاً؟

لم أعطه الإذن أبداً ليدخل إلى هنا ولا ليستخدم أدواتي، قال الطبيب البيطري.

ما رأيك بذلك؟ قال الرقيب.

ما رأيي بماذا؟

كيف تردُّ على اتهامات هذا الرجل؟

إنه كاذب.

لم تهدده أبدا؟

هذا صحيح.

يا للجحيم لم يهددني أبداً.

أنا لا أهدد الناس. أخبرته أنني سأجلد مؤخرته وهذا بالضبط ما عاهدته عليه.

ألا تدعو ذلك تهديدا؟

رفع (براون) نظره إلى الأعلى. لم يكن تهديداً. لقد كان عهداً.

وانكب على عمله مرة ثانية، وبعد بضعة تمريرات أخرى من المنشار سقطت الماسورتان في الأوساخ على الأرض. ووضع المنشار

وأغلق فكي المِلزمة ورفع البندقية وفك مسامير الماسورتين عن المقبض ووضع القطع في الصندوق وأغلق الغطاء وثبته بالمزلاجين.

عن ماذا كان الجدال؟ قال الرقيب.

لم يكن هناك أي جدال عندي علم به.

من الأفضل لك أن تسأله من أين حصل على تلك البندقية التي دمرها لتوه. لقد سرقها من مكان ما، يمكنك المراهنة على ذلك.

من أين حصلت على البندقية؟ قال الرقيب.

انحنى (براون) ورفع الماسورتين المفصولتين. كان طولهما حوالي ثمانية عشر إنشا وأمسكهما من الجهة الصغيرة. دار حول المقعد ومرّ بجانب الرقيب. وضع صندوق النبدقية تحت ذراعه. وعند الباب استدار، ولم يكن الطبيب البيطري في أي مكان على مرأى البصر. ونظر إلى الرقيب، وقال: أعتقد أن ذلك الرجل قد سحب جميع اتهاماته، كأنه كان ثملاً.

*   *   *

عندما كان يعبر الساحة نحو مبنى المجلس البلدي الطيني الصغير، قابل (تودفين) و(وبستر) المُحرَرَيْن مؤخرا. كانا يبدوان كالمتوحشين ورائحتهما كريهة. ذهب ثلاثتهم إلى الشاطئ وجلسوا ينظرون بعيداً إلى الأمواج الرمادية العالية، ويمررون زجاجة (براون) فيما بينهم. لم

يرَ أحد منهم محيطاً من قبل. نزل (براون) نحو الماء ومدّ يده إلى طبقة زبد البحر الذي انتشر على التراب المعتم. رفع يده وتذوّق الملح الذي على أصابعه ونظر نحو الشاطئ ونحو البحر ثم عادوا من الشاطيء باتجاه البلدة.

قضوا فترة ما بعد الظهر يشربون في حانة لازاروس التي يديرها مكسيكي. دخل بعض الجنود. وحدثت مشاجرة، كان (تودفين) واقفاً يترنح. ونهض صانع سلام من بين الجنود، وفي الحال جلس الغـُرماء المسؤولون عن المشاجرة مرة ثانية. ولكن بعد دقائق وعند عودة (براون) من جانب البار، صبَّ كأسا من مشروب العَرَق فوق جندي شاب ثم أضرم فيه النار بواسطة سيجارهِ. ركض الرجل إلى الخارج صامتاً إلا من صوت ألسنة اللهب، وكانت ألسنة اللهب باهتة وزرقاء ثم اختفت في ضوء الشمس وأخذ يتصارع مع اللهب في الشارع كرجل هاجمه النحل أو أصابه جنون، ثم سقط على الطريق واحترق تماماً. في الوقت الذي وصلوا إليه بدلو من الماء كان قد تفحّم وتجعّد على الوحل كعنكبوت هائل.

استيقظ (براون) في زنزانة مظلمة مكبلاً وقد أفقده الظمأ صوابه. وأول شيء بحث عنه كان كيس نقود. كان ما يزال داخل قميصه. نهض من فوق القش ووضع إحدى عينيه على ثقب الباب. كان الوقت نهاراً. صاح منادياً على أي أحد ليأتي إليه. ثم جلس وعدَّ القطع النقدية بيديه المكبلتين وأعادها إلى الكيس.

في المساء أحضر له عشاءه من قِبل جندي. كان اسم الجندي (بتيت)، وأراه (براون) عِقد الآذان الذي يرتديه وأراه النقود. فقال (بتيت) إنه لا يريد دوراً في خططه. وأخبره (براون) كيف أن لديه ثلاثين ألف دولار مدفونة في الصحراء. وأخبره عن المعدِّية، مُنصِّبا نفسه مكان (غلانتون)، ثم أراه القطع النقدية مرة ثانية وتحدث بحسن اطلاع عن الأماكن التي أتت منها وعن أصولها، مضيفاً على خطب القاضي معلومات مرتجلة. حصصاً متساوية. تكلم بهمس. بيني وبينك.

تمعّن بالجندي من خلال القضبان. ومسح (بتيت) جبهته بكمِّه. غرف (براون) القطع النقدية ودفعها داخل الثقب وسلّمها له.

وقال: أتعتقد أنه لا يمكننا الوثوق ببعضنا البعض؟

وقف الفتى وهو يحمل كيس النقود بريبة. حاول أن يدفعه ليعيده إليه من خلال القضبان. فرجع (براون) إلى الوراء ورفع يديه.

وهمس: لا تكن غبياً. ماذا تعتقد أنني كنت سأفعل لأحصل على مثل تلك الفرصة في سِنك؟

عندما ذهب (بتيت)، جلس (براون) فوق القش ونظر إلى صحن الفاصولياء وكعكة الذرة المعدني الرقيق. بعد برهة تناول طعامه. في الخارج كانت تمطر مرة ثانية واستطاع أن يسمع أصوات راكبي الخيول يمرون في وحل الشوارع، وسرعان ما حلَّ الظلام.

غادرا بعد ليلتين. كان لكل منهما سرج متوسط الجودة وبندقية وبطانية، وكان معهما بغل يحمل مؤناً من الذرة المجففة ولحم البقر والتمر. واصلا طريقهما بين التلال المبتلة، وعند أول ضوء رفع (براون) البندقية وأطلق النار على الفتى في مؤخرة رأسه. تمايل الحصان إلى الأمام وانقلب الفتى إلى الخلف، وقد اختفت صفيحة جمجمته الأمامية كاملة وانكشف دماغه. أوقف (براون) حصانه وترجّل عنه واستعاد كيس النقود وأخذ سكين الفتى ودورق البارود ومعطفه ثم قطع أذنيه وعلقهما على عقده، وامتطى حصانه وانطلق. وتبعه البغل المحمّل بالمؤن، وبعد برهة لحق به الحصان الذي كان يمتطيه الفتى.

* * *

عندما دخل (وبستر) و (تودفين) المعسكر في (يوما) لم يكن معهما لا المؤن ولا البغال التي كانت معهما عندما غادرا. أخذ (غلانتون) خمسة رجال وانطلقوا عند الغسق مخلفين القاضي وراءهم ليتولى أمر المعدِّية. وصلوا إلى سان دييجو في جوف الليل الساكن، وأرشدوا إلى منزل العمدة. جاء هذا الرجل إلى الباب بقميص النوم وقلنسوة حاملاً شمعة أمامه. دفعه (غلانتون) إلى الخلف داخل الردهة وأرسل رجاله إلى خلف المنزل من حيث سمعوا مباشرة صرخات امرأة وبضعة صفعات غير واضحة ثم صَمت.

كان العمدة رجلاً في الستينيات واستدار ليذهب لمساعدة زوجته ولكنه ضُرب بماسورة مسدس. وقف مرة ثانية ممسكاً برأسه. ودفعه

(غلانتون) إلى الغرفة الخلفية. وكان يحمل حبلاً في يده رُبط على شكل أنشوطة، وأدار العمدة ثم وضع الأنشوطة فوق رأسه وشدّها بإحكام. كانت الزوجة تجلس منتصبة في السرير وعندما رأت ذلك بدأت بالصراخ مرة ثانية. كانت إحدى عينيها متورمة وتَطْرف بسرعة، وضربها أحد الجنود مباشرة على فمها فارتمت على الفِراش المبعثر ووضعت يديها على رأسها. رفع (غلانتون) الشمعة إلى الأعلى وأمر أحد جنوده برفع الجندي الآخر بدفعه من تحت على أكتافه، ومدّ الفتى الذي في الأعلى نفسه وتحسس أعلى إحدى العارضات إلى أن وجد فراغا ثبَّت فيه نهاية الحبل وتركه يتدلى إلى الأسفل ثم سحبوه ورفعوا العمدة الصامت في الهواء وهو يقاوم. لم يربطوا يديه فكان كأنه يتلمس طريقه بجنون في الأعلى باحثاً عن الحبل ثم جذب نفسه إلى الأعلى ليتجنب الشنق وركل بأقدامه ودار حول نفسه ببطء في ضوء الشمعة.

ألطف بي يا رب (بالإسبانية) قال لاهثاً. ماذا تريد؟ (بالإسبانية)

أريد نقودي، قال (غلانتون). أريد نقودي وأريد بغالي وأريد (ديفيد براون).

ماذا؟ (بالإسبانية). قال الرجل العجوز وهو يتنفس بصفير.

أضاء أحدهم مصباحاً. نهضت المرأة العجوز ورأت أولاً ظلاً ثم شكل زوجها يتدلى من الحبل وبدأت تزحف على السرير باتجاهه.

قُل لي، (بالإسبانية) قال العمدة وهو يلهث.

أحدهم مدّ نفسه ليمسك الزوجة، ولكن (غلانتون) أشار له أن يبتعد، ونزلت عن السرير وهي تترنح وأمسكت بركبتي زوجها لتدفعه إلى الأعلى. كانت تنشج وتتضرع طالبة الرحمة من (غلانتون) ومن الرّب على حد سواء.

مشى (غلانتون) في المكان إلى حيث يتمكن من رؤية وجه الرجل. وقال: أريد نقودي، نقودي وبغلي والرجل الذي أرسلته إلى هنا.

الرجل الذي في قبضتك. رفيقي. (بالإسبانية).

لا لا، لهث الرجل المعلّق. فتّش (بالإسبانية)، لا يوجد رجل هنا.

أين هو؟

إنه ليس هنا.

بلى هو هنا. في السجن. (بالإسبانية).

لا لا. يا أم المسيح. (بالإسبانية). ليس هنا. لقد ذهب. منذ سبعة أو ثمانية أيام. (بالإسبانية).

أين السجن؟

ماذا؟ (بالإسبانية).

السجن. أين هو؟ (بالإسبانية).

حررت المرأة العجوز نفسها ومدّت إحدى ذراعيها بشكل كافٍ لتشير بها، ووجهها مضغوط على ساق الرجل، وقالت: هناك، هناك. (بالإسبانية).

خرج رجلان، أحدهما يحمل مؤخرة الشمعة ويحجب الشعلة بيده التي جعلها بشكل كأس أمامه. عندما عادا أبلغا أن السجن الصغير تحت الأرض في المبنى الخلفي فارغ.

تمعّن (غلانتون) بالعمدة. كانت المرأة العجوز تترنح بشكل واضح للعيان. وقد كانوا قد شدّوا الحبل جزئياً ولفّوه على طرف عمود السرير، فك الحبل فسقط العمدة وزوجته على الأرض بقوة.

تركوهما مقيدين وفماهما مربوطان، وذهبوا لزيارة بائع الويسكي على خيولهم. بعد ثلاثة أيام وُجد العمدة وبائع الويسكي وزوجة العمدة مقيدين ومستلـْقين في بُرازهم داخل كوخ مهجور عند حافة المحيط على بعد ثمانية أميال إلى الجنوب من البلدة. وقد تُرك لهم قِدر ماء كانوا يشربون منه كالكلاب وصاحوا مع صوت هدير الأمواج في ذلك المكان النائي إلى أن صمتوا كالحجارة.

بقي (غلانتون) ورجاله في الشوارع يومين وليلتين فاقدين صوابهم من الثمالة. في مساء اليوم الثاني واجههم الرقيب المسؤول بتهمة الثمالة، فضُرب هو والرجال الثلاثة الذين يرافقونه حتى أغمي عليهم، وجُرّدوا من أسلحتهم. عند الفجر وعندما ركل الجنود باب النُزل لم يكن أحد في الغرفة.

عاد (غلانتون) إلى (يوما) لوحده، وذهب رجاله إلى حقول الذهب. وفي تلك الصحراء التي تتناثر فيها العظام، صادف مجموعات من مسافرين على الأقدام بائسين نادوا عليه، ورجالاً ميتين في المكان

الذي سقطوا فيه ورجالاً سوف يموتون وجماعات من الناس احتشدوا حول آخر عربة وهم يصيحون بخشونة على البغال أو الثيران وينخسونها لتتقدم وكأنهم يحملون في تلك الصناديق الهشة الميثاق نفسه، وتلك الحيوانات ستموت وكذلك الناس الذين معهم، وأخذوا ينادون على راكب الخيل الوحيد ليحذروه من الخطر عند المعبر، واستمر راكب الحصان في طريقه بعكس تيار اللاجئين كبطل أسطوري في مواجهة وحش حرب أو طاعون أو جوع، بما بدأ به بتصميم لا هوادة فيه.

عندما وصل إلى (يوما) كان ثملاً. كان وراءه في القافلة حماران محمّلان بالويسكي والبسكويت. امتطى حصانه ونظر نحو النهر الذي كان القيّم على مصائر ذلك العالم، وأتى كلبه إليه، ودسّ قدمه في الرِكاب.

جثمت فتاة مكسيكية تحت ظل الحائط عارية. وراقبته وهو يمر ساترة صدرها بيديها. كانت ترتدي طوقاً حول عنقها من جلد حيوان غير مدبوغ وكانت مقيّدة إلى عمود وبجانبها صحن فخاري فيه بقايا لحم متفحّم. ربط (غلانتون) الحمارين إلى العمود ودخل ممتطياً حصانه.

لم يكن هناك أحد في المكان. تابع طريقه إلى المرسى. وبينما كان يراقب النهر ظهر الطبيب زاحفاً على الضفة وأمسك بقدم (غلانتون) وبدأ يتوسل إليه بغمغمة غير مفهومة. بدا أنه لم يكن يهتم بنفسه منذ أسابيع، فقد كان قذراً وأشعث الشعر ورث الملابس، وسحب رِجل

سروال (غلانتون) وأشار نحو الحصن على التلة، وقال: ذلك الرَجل، ذلك الرَجل.

سحب (غلانتون) قدمه من الرِكاب ودفع الطبيب بعيداً بقدمه وأدار الحصان ثم عاد صاعداً التلة. كان القاضي يقف على المرتفع في الظل مقابل شمس المساء كأرشمندريت(*) أصلع ضخم. كان ملفوفاً بغطاء من القماش الهَدِل وعارياً من تحته. خرج (جاكسون) من مستودع الفحم الحجري مرتدياً زي القاضي نفسه ووقف بجانبه. وتابع (غلانتون) طريقه على قمة التلة إلى مقره.

استمر إطلاق النار بشكل متقطع طوال الليل عبر المياه، وكذلك ضحكات ولعنات الثملين. عندما بزغ النهار لم يظهر أحد. ورست المعدِّية في مرساها، وأتى رجل عبر النهر إلى المرسى ونفخ ببوق وانتظر ثم انصرف.

رست المعدِّية مُعطَّلة طوال ذلك اليوم. وعند المساء بدأ السُكْر والعربدة والصخب من جديد، وانطلقت صيحات الفتيات عبر المياه إلى أسماع المهاجرين المحتشدين في معسكرهم. أحدهم أعطى المعتوه ويسكي مخلوطاً بشراب غازي مُنَكَّه بالفشاغ(**)، وهذا المخلوق الذي

(*) أرشمندريت: كاهن في كنيسة.

(**) فشاغ: نبات أمريكي معترش.

لم يكن قادراً على شيء أكثر من المشي بدأ يرقص أمام النار بخطوات قافزة كالقرود، ويتحرك بثقل متمطقاً بشفتيه الرخوتين المبتلتين.

عند الفجر خرج الرجل الأسود إلى المرسى ووقف يتبول في النهر. كانت القوارب المسطحة ترسو أسفل النهر مقابل الضفة وعلى ألواح أرضها بضعة إنشات من المياه الملوثة بالرمال. سحب ثوبه عليه وصعد على سطح القارب وجلس على مقعد المُجدِّف ووازن نفسه هناك. جرت المياه على الألواح باتجاهه. فوقف ينظر بعيداً. لم تكن الشمس مرتفعة، وكانت هناك خيوط رفيعة منخفضة من السديم فوق الماء. عند أسفل مجرى النهر خرجت عدة بطّات من بين الصفصاف، وصارت تدور في دوامة المياه ثم طارت بعيداً عبر النهر المكشوف وارتفعت وحامت ثم توجهت نحو أعلى مجرى النهر. كان يوجد على أرض القارب قطعة نقدية صغيرة. ربما كانت مستقرة يوماً ما في حذاء أحد المسافرين. انحنى ليحضرها. ووقف ليمسح حبيبات الرمل عن القطعة النقدية ورفعها، وأثناء قيامه بذلك اخترق سهم ذو قصبة طويلة الجزء العلوي من بطنه وطار خارجاً من ظهره ثم وقع بعيداً في النهر وغرق ثم اندفع ثانية إلى السطح وبدأ بالدوران والانجراف نحو أسفل مجرى النهر.

أدار وجهه حوله ورداؤه ملتصق به. كان يمسك جرحه، وبيده الأخرى أخذ يبحث بين ملابسه عن الأسلحة التي لم تكن هنا ولم تكن هناك. ومرّ سهم آخر على اليسار، وأُطلق سهمان آخران واستقرا عميقا في صدره وفي أعلى فخذه. كان طولهما كاملاً أربعة أقدام،

وارتفعا قليلاً مع حركاته كصولجانات في احتفال شعائري، وأمسك فخذه حيث تدفق دم شرياني غامق على السهم، وتقدّم خطوة إلى الأمام نحو الشاطئ ثم وقع على جنبه في النهر.

كانت المياه ضحلة وكان يتحرك بوهن ليستعيد توازنه عندما قفز أول هنود الـ(يوما) وصعد إلى القارب. كان عارياً تماماً وشعره مصبوغ باللون البرتقالي، ووجهه ملـّون بالأسود مع خطوط قرمزية تُقسِّم وجهه من خط الشعر إلى الذقن. وضرب بقدميه مرتين على جانب القارب ثم قذف ذراعيه كصانع معجزات همجي في مسرحية عن صفات أسلافه ومدّ نفسه وأمسك بالرجل الأسود من ردائه حيث كان ممدداً في المياه المُحمَرَّة، ورفعه ثم هشَّم رأسه بهراوته.

احتشدوا فوق التلة باتجاه الحصن حيث كان يرقد الأمريكيون نائمين، وكان بعض الهنود راكبين وبعضهم مترجلين، وجميعهم مسلحين بالسهام والهراوات، ووجوههم سوداء أو باهتة بلون وضعوه عليها، وكانت شعورهم ممزوجة بالوحل. أول مأوى دخلوه كان لـ(لنكون). عندما ظهروا بعد دقائق، كان أحدهم يحمل رأس الطبيب المبتل من شعره، وآخرون كانوا يجـرُّون كلب الطبيب وراءهم على تراب ساحة المبنى وهو مربوط من فمه ويهتز بعنف ويقاوم. دخلوا إلى كوخ مصنوع من قصب الصفصاف والقماش وذبحوا (غن) و(ويلسون) و(هندرسون سميث) كلاً بدوره حيث كانوا مستلقين ثملين وهم يرفعون أرجلهم إلى الأعلى، ثم تنقّل الهنود بين أنصاف

الجدران البالية بصمت مطبق وهم يتلألؤون بالألوان والدهن والدم بين حُزم أشعة الشمس التي أشرقت الآن ولامست الأرض الأكثر ارتفاعاً.

عندما دخلوا حجرة (غلانتون) ترنح وهو واقف وحملق بوحشية حوله. كانت الغرفة الطينية التي شَغَلَها مملوءة تماماً بسرير نحاسي كان قد سلبه من إحدى عائلات المهاجرين، وجلس فيه كإقطاعي مخمور، في حين تدلَّت أسلحته بترتيب مُضحك من النهائيات(*). صعد (كابالو دي بيلو) على السرير معه ووقف هناك في حين أعطاه أحد مرافقيه من جانبه الأيمن فأساً غير مصقولة وعلى مقبضها الخشبي حُفرت صور وثنية وزُينت بريش طيور مفترسة. بصق (غلانتون).

وقال: أضرب أيها الهندي الأحمر الحقير. ورفع الرجل العجوز الفأس وفصل رأس (جون جول غلانتون) من الحنجرة.

عندما دخلوا مأوى القاضي وجدوا المعتوه وفتاة ربما في الثانية عشرة من عمرها عاريين يرتعدان منكمشين على الأرض. ووقف خلفهما القاضي عارياً أيضا. كان قد صوّب ماسورة المدفع البرونزية نحوهم. والقاعدة الخشبية تقف على الأرض وقد نُزعت الأربطة بعتلة ولُفَّت بعيداً عن المَحْمِل. كان المدفع تحت أحد ذراعي القاضي، وكان يحمل سيجاراً مشتعلاً فوق فوهة الاشتعال. سقط هنود (يوما) إلى الخلف واحداً فوق الآخر، ووضع القاضي السيجار في فمه وأخذ

(*) النهائيات: قمة مزخرفة لبرج أو لسرير.

حقيبته وخرج من الباب وظهره إليهم باتجاه الجسر. والتصق المعتوه، الذي يصل طوله إلى خصر القاضي، قريباً بجانبه. ودخلاً سويا الغابة عند قاعدة التلة ثم اختفيا عن الأنظار.

* * *

أشعل الهمجيون ناراً على التلة وأذكوها بأثاث مساكن الرجال البيض ورفعوا جثة (غلانتون) وحملوها عالياً بطريقة حمل بطل مذبوح ثم قذفوها في النار، وقد ربطوا كلبه بجثته، وقد نُتفت في محرقة سوتية(*) نابحة لتختفي مُقرقعة في دخان الخشب الأخضر المتدفق. وسُحبت جثة الطبيب من الكعبين ثم رُفعت وقُذفت في المحرقة، وكذلك كلب الطبيب أُلقي في النار، فانزلق مقاوماً عند الطرف البعيد، ويبدو أن السِيْر الجلدي الذي كان مربوطاً به قد احترق لأنه بدأ بالزحف وهو متفحم وأعمى وينبعث منه دخان النار، ثم قُذف ثانية إلى النار بواسطة جاروف. وكُوِّمت باقي الجثث، وكان عددها ثمان، في النار حيث أصدرت صوت طشيش وانتشرت رائحتها وتدفقَ دخان كثيف فوق النهر. كان رأس الطبيب قد حُمل على وتد ورُفع، ولكن في النهاية قُذف في اللهب هو الآخر. وُزِعت المسدسات والملابس فوق الطمي الطيني، وكذلك وُزع الذهب والفضة التي أخذوها من على الصدور المشقوقة والممزقة التي جرّوها. كل شيء

(*) سوتية: إحراق المرأة الهندوسية نفسها مع زوجها المتوفي علامة على إخلاصها له.

آخر كُوِّم في النار، وأثناء سطوع الشمس وتلألؤها على وجوههم الملونة، جلسوا على الأرض كل منهم مع سِلَعه الجديدة أمامه، وراقبوا النار ودخنوا غلايينهم كما يمكن أن تفعل مجموعة مهرجين مُقلِدين ومبهرجين بالألوان ليجددوا نشاطهم في مكان ناءٍ بعيدٍ عن القرى، وتصدر الأشياء صوت صاخب عبر المشاعل المُدخِّنة، متأملين ببلدات سيصلون إليها. والاستعراض البائس للأبواق والطبول والطاولات الخشبية البسيطة التي حُفرت فوقها مصائرهم، فأولئك الناس لم يكونوا أقل ارتباطاً والتزاماً، وكانوا يراقبون، وكأنهم يطّلعون على الصورة السبقية(*) لنهايتهم، الجماجم المتفحمة لأعدائهم تتوهج أمامهم ساطعة كالدم وسط الفحم.

* * *

(*) الصورة السبقية: صورة تدل على وقوع الشيء قبل حدوثه.

-20-

الهروب - داخل الصحراء - مطاردون من الـ(يوما) - مِنَصة - (آلامو موتشو) - لاجئ آخر - حصار - على خط انطلاق طويل - نيران الليل - القاضي يعيش - مقايضة في الصحراء - كيف أصبح القسيس السابق يؤيد الجريمة - بداية رحلة - مواجهة أخرى - (غاريتسو كريك) - هجوم - بين العظام - لعب للأبد - تعويذة - (توبين) جريح - تشاور - مذبحة الخيول - القاضي يتحدث عن الضرر - هروب آخر، صحراء أخرى.

* * *

خاض (تودفين) والصبي معركة هروب أعلى النهر خلال نبات خريفي كثيف على الشاطئ، والسهام تصلصل بين نبات قصب السكر في كل مكان حولهما. خرجا من خلال أجمة الصفصاف وتسلقا الكثبان ونزلا إلى الجانب البعيد ثم ظهرا ثانية، شكلان بشريان قاتمان يعانيان فوق الرمال، والآن يترنحان، وينحنيان، ودويّ المسدس غير واضح وخافت في الأرض المكشوفة. كان عدد هنود (يوما) الذين وصلوا إلى قمة الكثبان أربعة، لم يلحقوا بهما بل تركوهما للأرض التي كرسا أنفسهما لها ورجعوا.

كان الصبي قد أصيب بسهم في ساقه وصل إلى العظم. توقف وجلس ثم كسر السهم على بُعد بضعة إنشات من الجُرح، ونهض ثانية، وتابعا طريقهما. كان هنود (يوما) قد تركوا الكثبان في ذلك الوقت، واستطاعوا أن يروا الدخان يرتفع بلون أسود على طول انحدار النهر. إلى الغرب كانت الأرض مليئة بالتلال الرملية المتماوجة حيث يستطيع الإنسان أن يتوارى ولكن لا يوجد مكان لا تجده الشمس فيه ويستطيع الريح فقط أن يمحو آثاره.

هل تستطيع المشي؟ قال (تودفين).

ليس لدي خَيَار.

كم من الماء لديك؟

ليس الكثير.

ماذا تريد أن تفعل؟

لا أعرف.

يمكننا العودة إلى النهر والاستلقاء هناك، قال (تودفين).

إلى متى؟

نظر إلى الحصن مرة ثانية ونظر إلى السهم المكسور في ساق الصبي وإلى الدم المتدفق. تريد أن أحاول وأسحب ذاك؟

لا.

ماذا تريد أن تفعل؟

أمضي قدما.

عدّلا خط سيرهما وتبعا آثار عربة الجماعات، مشيا في صدر النهار وفي النهار وفي مساء ذلك اليوم. عند حلول الظلام نفد الماء الذي كان معهما، وسارا بجهد تحت الدوران البطيء للنجوم وناما وهما يرتجفان بين الكثبان، ونهضا في الفجر وانطلقا مرة ثانية. تيبست ساق الصبي، وصار يعرج بعد ذلك متكئاً على قطعة من عريش عربة عِوضاً عن عكازة، وطلب من (تودفين) مرتين أن يتركه ويرحل، ولكنه لم يفعل. قبل الظهيرة ظهر السكان الأصليون.

راقباهم وهم يجتمعون عند نزول الأفق الشرقي المرتعش كدُمى مشؤومة. كانوا بدون خيول، وبدوا كأنهم يتنقلون هرولة ويطلقون السهام على الفارّين.

تابعا طريقهما، مسدس الصبي مسحوباً من حزامه. وكانا يمشيان وينحنيان ليتجنبا الأسهم التي تهبط من الشمس. كان امتداد الأسهم يتلألأ مقابل السماء الباهتة وينكمش بتذبذب هزيل وفجأة يهتز ويسقط ساكناً على الأرض. كانا يلتقطان الأسهم حتى لا يتم استخدامها مرة ثانية، ومشيا بجهد جانبياً فوق الرمال مثل سرطان البحر حتى أصبحت الأسهم كثيفة وقريبة، فتوقفا. وسقط الصبي على كوعيه ووضع زند المسدس على وضع الصَّـلي وسدَّده. كان هنود (يوما) على بعد مائة ياردة وأطلقوا صيحة، ونزل (تودفين) على إحدى ركبتيه بجانب الصبي. قفز المسدس وتعلّق دخان رمادي في

الهواء بدون حِراك، وسقط أحد الهمجيين كلاعب وقع عبر شِرك. وضع الصبي زناد المسدس على الصَّلي مرة ثانية، ولكن (تودفين) وضع يده على ماسورة المسدس فرفع الصبي نظره إليه وأخفض الزند ثم جلس يعيد حشو حجيرات الرصاصات الفارغة ودفع نفسه إلى الأعلى ثم استعاد عكازه وانطلقا. استطاعا أن يسمعا خلفهما على السهل صخب السكان الأصليين الخافت أثناء اجتماعهم حول الرجل الذي أطلق عليه الرصاص.

تعقَّبت قبيلة الهنود المصبوغين بالألوان خطواتهما طوال النهار. مكثا أربعاً وعشرين ساعة بدون ماء، وبدأت جدارية السماء والتراب الجرداء تومض وتدور، وانطلقت الأسهم بشكل متقطع منحرفة عن الأرض حولهم كباقة من سوق نباتات الصحراء المتقلبة التي تنتشر بغضب في هواء الصحراء الجاف. لم يتوقفا. وعندما وصلا إلى الآبار في (آلامو موتشو) كانت الشمس قد نزلت أمامهما وكانت هناك صورة لشكل يجلس على حافة الحوض. هذا الشكل نهض ووقف فبدا مشوّها في عدسة ذلك العالم المرتجفة وهو يرفع إحدى يديه، إما للتحية أو للتحذير، لم يكن لديهما طريقة لمعرفة ذلك. حجبا أعينهما ومشيا باضطراب، فنادى عليهما ذلك الشكل عند البئر. لقد كان القسيس السابق (توبين).

كان وحيداً وأعزل. وقال: كم عددكم؟

ماذا ترى؟ قال (تودفين).

الباقون جميعهم ماتوا؟ (غلانتون)؟ القاضي؟

لم يجيبا. انزلقا إلى قاع البئر حيث يوجد بضعة إنشات من الماء ثم ركعا وشربا.

كان عمق الحفرة التي فيها البئر ربما اثني عشر قدماً، واتخذوا موقعاً لهم عند المنحدر الداخلي لهذه البروز وراقبوا الهنود ينتشرون على شكل مروحة فوق السهل، ويتنقلون بعيداً وهم يتبخترون ببطء. احتشدوا بمجموعات صغيرة في مواقع رئيسة هناك، وبدأوا بإطلاق سهامهم على المدافعين، وصاح الأمريكيون بوصول الأسهم كضباط في سلاح المدفعية، وهم مستلقون هناك على الضفة المكشوفة ويراقبون من الحفرة باتجاه العدو في ذلك الموقع، وأيديهم متشبثة على الجوانب وأرجلهم منتصبة ومتصلبة كالقطط. أوقف الصبي إطلاق النار تماماً وبدأ الهمجيون الذين يفضلون الضوء بالتقدم من الجانب الغربي.

كانت هناك حول البئر روابٍ من الرمال أخرجت من حفر قديمة، وربما حاول هنود (يوما) الوصول إليها. ترك الصبي موقعه وانتقل إلى الحافة الغربية للحفرة وبدأ بإطلاق النار فوقهم حيث يقفون أو يجثمون ومؤخراتهم على راحتي أقدامهم كالذئاب هناك على المنخفض الومض. ركع القسيس السابق بجانب الصبي وراقب ما وراءهما ثم حمل قبعته بين الشمس وبين مدى الرؤيا لمسدس الصبي، وثبت الصبي المسدس بكلتا يديه على حافة الخندق وأطلق الرصاصات. عند إطلاق الرصاصة الثانية سقط أحد الهمجيين

واسلتقى دون حِراك. وجعلت الطلقة التالية همجياً آخر يدور ويجلس ثم نهض ومشى بضعة خطوات ثم جلس ثانية. وهمس القسيس السابق المنبطح عند كوعه بعبارات تشجيع، وأعاد الصبي مطرقة المسدس بإبهامه إلى الوراء، وعدّل القسيس السابق القبعة ليظلل مدى الرؤية ومِهداف المسدس بظل واحد، وأطلق الصبي النار مرة ثانية، ثم نقل المِهداف نحو الرجل الجريح الجالس على المنخفض وأسقطته طلقته ميتاً. فأطلق القسيس السابق صفيراً خافتاً.

وهمس: آه، أنت ممتاز. عمل يدل على براعة حقاً، ومع ذلك فإنه يحتاج لكل الشجاعة.

بدا هنود (يوما) مشلولي الحركة بذلك الحظ السيء، وهيأ الصبي المسدس وأطلق النار على هندي آخر منهم قبل أن يبدأوا بلملمة أنفسهم والتقهقر، آخذين موتاهم معهم ومُطلِقين مجموعة من الأسهم وهم يولولون بقَسَم الدم بلغة العصر الحجري الخاصة بهم أو يتضرعون إلى أي إله حرب أو إله حظ يصغي إليهم وهم يتقهقرون على المنخفض إلى أن أصبحت أحجامهم صغيرة جداً.

حمل الصبي دورقه على كتفه وانزلق داخل الحفرة إلى قعر البئر حيث حفر حوضاً ثانياً صغيراً بالجاروف القديم، وغسل بالماء المتسرب حجيرات الطلقات والماسورة ثم أدخل أجزاءً من قميصه خلال الفوهة بواسطة عود حتى أصبحت نظيفة. ثم أعاد تجميع المسدس ونقر على مسمار الماسورة حتى التصقت الحجيرة ثم وضع السلاح على الرمال الساخنة ليجف.

مشى (تودفين) حول الخندق إلى أن وصل إلى القسيس السابق، فاستلقيا يراقبان تقهقر الهمجيين في الحرارة المتوهجة من الأرض المنخفضة في آخر النهار.

إنه بارع في الرماية ولا يخطئ، أليس كذلك؟

أومأ (توبين) برأسه. ونظر إلى الحفرة حيث جلس الصبي يحشو المسدس، وقد قلَبَ الحجيرات المليئة بالبارود وقسَّمها بالنظر واضعاً الرصاصات مع فتحات الصب على الأرض.

كم يمكنك الصمود بتلك الذخيرة؟

لفترة قصيرة، لدينا بضعة رصاصات، ليس كثيراً.

أومأ القسيس السابق برأسه.

كان المساء يقترب، وكان هنود (يوما) يتجمّعون في الأرض الحمراء إلى الغرب بصورهم الظليّة أمام الشمس.

اشتعلت نيران الحراسة طوال الليل في الدائرة الصغيرة المظلمة من العالم، وفكّ الصبي الماسورة عن المسدس واستخدمها كمنظار مُقرِّب، مشى على التراب الدافئ حول حافة البئر وتفحّص النيران المتفرقة لرصد أية حركة. نادراً ما توجد في العالم صحراء قاحلة إلى هذا الحد وتُسمع فيها أصوات صياح مخلوقات أثناء الليل، ومع ذلك فها هنا أصوات، واستمَعوا إلى أصوات تنفسهم في الظلام والبرد

واستَمعوا إلى أصوات انقباضات قلوبهم الياقوتية اللون المعلَّقة بداخلهم. عند بزوغ النهار كانت النيران قد خمدت ونهايات خطوط الدخان الهزيلة انتشرت من السهل في ثلاثة مواقع متفرقة في المدى، وكان الأعداء قد رحلوا. على الجانب الآخر من المنخفض باتجاههم من الشرق ظهرت صورة لشكل ضخم ومصحوب بشكل أصغر. وكان (تودفين) والقسيس السابق يراقبان.

ماذا تعتقد من الممكن أن يكون؟

هزَّ القسيس السابق رأسه.

جعل (تودفين) يديه بشكل كوب وصفر بحدّة للصبي الذي كان جالساً مع المسدس، فتسلّق المنحدر بصعوبة بساقه المتيبسة. واستلقى ثلاثتهم يراقبون.

كانا القاضي والمعتوه. كلاهما كان عارياً واقتربا خلال الصحراء كأحياء ذات شكل منحرف قليلاً بالنسبة للعالم ككل، وكانت أشكالهما أحياناً حية وواضحة وأحياناً متملصة في غرابة ذلك الضوء نفسه. كالأشياء التي تجعل منها عجائبها شيئاً غامضاً. وكأشياء مشحونة بمدلولات إلى الحد الذي تصبح فيه أشكالها باهتة. راقب الثلاثة الجالسون عند البئر بصمت ذلك التحوّل في بزوغ النهار، وحتى لو لم يعد هناك أي سؤال عن ماهية ذلك الشيء الذي يقترب، فما زال لا يستطيع أي منهم تسميته. مشيا بتثاقل، وبدا القاضي بلون زهري

شاحب تحت بودرة التراب كشيء وُلِد حديثا، وكان المعتوه داكناً أكثر، وترنّحا مع بعضهما فوق المنخفض عند أقصى أطراف القفر كملك سفيه تجرّد من ردائه وأخذ مع مهرج بلاطه إلى البريّة ليموتا.

أولئك الذين يسافرون في أماكن صحراوية يقابلون فعلاً مخلوقات تفوق كل وصف. نهض المراقبون الذين عند البئر ليشاهدوا بشكل أفضل هذين الواصلين. كان المعتوه يقفز قليلاً لكي لا يتخلف عن القاضي. ولبس القاضي على رأسه جُمّة من وحل النهر جف وقد برزت منها قطع صغيرة من القش والحشائش، ورُبط على رأس المعتوه فرو رث بحيث كان الجانب الذي عليه الدم القاتم إلى الخارج. حمل القاضي بإحدى يديه حقيبة صغيرة من القماش وكان مكسواً تماماً بلحم متدل على نحو متجعد كتائبٍ من العصور الوسطى. ومشى يلهث عند الحفر ويومئ لهم بتحية صباح الخير، ثم انزلق هو والمعتوه إلى الضفة وركعا وبدءا يشربان.

حتى المعتوه الذي يجب أن يُطعم باليد، ركع بجانب القاضي ورشف من المياه المعدنية مُصدراً صوتاً مزعجاً ثم رفع عينيه السوداوين نحو الرجال الثلاثة الجاثمين فوقه على حافة الحفرة ثم انحنى وشرب مرة ثانية.

رمى القاضي حزامه المحتوي على لحم اسودّ من الشمس، وبدا جلده مكان الحزام مقلّما باللونين الزهري والأبيض بشكل غريب. وضع غطاء رأسه الطيني الصغير جانباً وصبَّ الماء على رأسه المحروق

والمتقشر بفعل الشمس، وعلى وجهه، ثم شرب مرة ثانية وجلس على التراب. رفع نظره إلى رفاقه القدماء. كان فمه متشققاً ولسانه متورماً.

وقال: (لويس)، كم تأخذ مقابل تلك القبعة؟

بصق (تودفين). وقال: إنها ليست للبيع.

كل شيء معروض للبيع، قال القاضي. كم ستأخذ؟

نظر (تودفين) بتوتر إلى القسيس السابق. ونظر إلى الأسفل نحو البئر. وقال: تريد الحصول على قبعتي.

كم تريد؟

أشار (تودفين) إلى حبال اللحم بذقنه. أظن أنك تريد أن تقايض ببعض من تلك الحبال مقابلها.

مطلقاً، قال القاضي. شيء مثل هذا هو للجميع. كم تريد مقابل القبعة؟

كم ستدفع؟ قال (تودفين).

تمعّن به القاضي. وقال: سأدفع مائة دولار.

لم ينطق أحد ببنت شفة. جثا المعتوه ومؤخرته على راحتي قدميه، وكان يبدو أنه هو أيضا ينتظر نتيجة تلك المقايضة. خلع (تودفين) القبعة ونظر إليها، فتدلى شعره الأسود السبط على جانبي رأسه. وقال: لن تناسبك.

ردّ عليه القاضي مقتبسا بعض عبارات باللاتينية، وابتسم. وقال: هذا ليس شأنك.

وضع (تودفين) القبعة على رأسه وعدّها. وقال: أظن أن هذا هو ما لديك داخل الحقيبة.

ظنك في مكانه. قال القاضي.

نظر (تودفين) بعيداً نحو الشمس.

سأجعلها مائة وربع ولن أسألك من أين حصلت عليها. قال القاضي.

لنرى نقودك.

فكّ القاضي الحقيبة وقلَبها وفرّغها على التراب. كانت تحتوي على سكين وربما ملء نصف دلو من القطع النقدية الذهبية بكل القيم. دفع القاضي السكين جانباً، وفرَشَ القطع النقدية براحة يده ونظر إلى الأعلى.

خلع (تودفين) القبعة. ومشى على المنحدر. وجثا هو والقاضي على جانبي مجموعة أشياء القاضي، وقدّم القاضي القطع النقدية المُتفق عليها، دافعاً إياها بظاهر يده كما يفعل المسؤول عن طاولة القمار. فسلّمه (تودفين) القبعة وجمع القطع النقدية، وأخذ القاضي السكين وشقّ رباط القبعة من الخلف وقصّ من خلال الحافة وفتح اكليل القبعة ثم وضعها على رأسه ورفع نظره نحو (توبين) والصبي.

وقال: إنزلا، إنزلا وشاركا في هذا اللحم.

لم يتحركا. وكان (تودفين) قد أخذ قطعة بكلتا يديه وكان يشدُّها بأسنانه. كان الجو بارداً في البئر وقد سقطت الشمس على الحافة العلوية فقط. جرف القاضي القطع النقدية الباقية وأعادها إلى الحقيبة ووضعها جانباً وانحنى ليشرب مرة ثانية. كان المعتوه يراقب انعكاس صورته في الماء وراقب القاضي وهو يشرب وراقب الماء يعود ساكناً مرة أخرى. مسح القاضي فمه ونظر إلى الأشخاص في الأعلى.

وقال: كيف تتدبرون أمركم بالنسبة للأسلحة؟

وضع الصبي إحدى قدميه فوق حافة الحفرة وسحبها الآن. ولم يتحرك (توبين). كان يراقب القاضي.

نحن نملك فقط المسدس الوحيد (هولدن).

نحن؟ قال القاضي.

الفتى هنا.

نهض الصبي على قدميه مرة ثانية، ووقف القسيس السابق إلى جانبه. وكذلك نهض القاضي من قاع الحفرة وعدَّل قبعته وأمسك بالحقيبة تحت ذراعه كمحامٍ ضخم وعارٍ أصابته الصحراء بالجنون.

فكّر مليّا بنصائحك أيها القسيس. قال القاضي. نحن هنا جميعاً مع بعض. والشمس هناك كعين الرَّب وجميعنا هالكون دون تمييز فوق ذلك الصاج السيليكوني الضخم، أؤكد لك.

أنا لست قسيساً وليس لدي نصائح، قال (توبين). الفتى هو شخص حرّ التصرف.

ابتسم القاضي. وقال: هو كذلك بالضبط. ونظر إلى (تودفين)، وابتسم للقسيس السابق مرة ثانية. وقال: ماذا إذن؟ هل سنشرب من تلك الحفر ونتحوّل لنصبح مثل مجموعات القرود التي تُزاحم بعضها؟

نظر القسيس السابق إلى الصبي. ووقفا مواجهين للشمس. ثم جلس القسيس السابق القرفصاء ليخاطب القاضي بشكل أفضل في الأسفل.

هل تعتقد أنه يوجد سِجل يمكنك تصنيف آبار الصحراء فيه؟

آه أيها القسيس. أنت تعرف عن تلك الطقوس أفضل مني. ليس لدي أي مزاعم هنا. لقد أخبرتك سابقاً، أنا رجل بسيط. أنت تعلم أنه مُرحب بك لتأتي هنا وتشرب وتملأ دورقك.

لم يتحرك (توبين).

أعطني المطرة، قال الصبي. وأخذ المسدس من حزامه وسلّمه للقسيس السابق ثم أخذ القِربة الجلدية ونزل المنحدر.

تبعه القاضي بعينيه. دار الصبي في قعر البئر، ولم يكن أي جزء منه بعيداً عن متناول القاضي، وركع مقابل المعتوه وسحب السدّادة من الدورق وغمره في البئر. وراقب هو والمعتوه الماء يجري داخل عنق الدورق وراقبا الماء يُظهر فقاعات ثم راقبا الفقاعات تتوقف. أغلق

الصبي الدورق بالسدّادة وانحنى وشرب من حوض الماء ثم جلس ليستريح ونظر إلى (تودفين).

هل ستذهب معنا؟

نظر (تودفين) إلى القاضي. وقال: لا أدري، فأنا مُعرّض للإعتقال، سيقبضون علي في كاليفورنيا.

يقبضون عليك؟

لم يُجِب (تودفين). كان جالساً على التراب وصنع شكلاً ثلاثياً بثلاثة أصابع وغرزها في التراب أمامه ثم رفع أصابعه ودسّـها مرة ثانية بحيث أصبح هناك ستة ثقوب بشكل نجمة سداسية ثم مسحها مرة ثانية. ونظر إلى الأعلى.

أنت لا تعتقد أنه من الممكن أن يهرب الشخص فجأة من البلدة إلى هنا، أليس كذلك؟

نهض الصبي ورمى الدورق على كتفه وهو ممسك بشريطه. كانت رجل سرواله سوداء من الدم، ونتأ عقِب السهم المضرج بالدم من فخذه كوتد لتعليق الأدوات عليه. بصق ومسح فمه بظاهر يده ثم نظر إلى (تودفين). وقال: ليست البلد هي ما تهرب منه. ثم مشى بطريقه على طول البئر متجهاً إلى الضفة في الأعلى. وتابعه القاضي بعينيه، وعندما وصل الصبي إلى ضوء الشمس في الأعلى استدار ونظر خلفه، وكان القاضي يضع الحقيبة مفتوحة بين فخذيه العاريين.

وقال: خمسمائة دولار، شاملاً البارود والرصاص.

كان القسيس السابق بجانب الصبي. وهمس: اقض عليه.

أخذ الصبي المسدس، ولكن القِس السابق تعلَّق بذراعه وهو يهمس، وعندما سحب الصبي ذراعه تحدّث بصوت عال، هكذا كان خوفه.

لن تحصل على فرصة ثانية أيها الفتى. اقتله الآن. إنه عارٍ، إنه أعزل. دم الرَّب، هل تعتقد أن هناك طريقة أخرى لتهزمه؟ إفعل ذلك أيها الفتى، إفعله من أجل محبة الرَّب. إفعل وإلا أقسم لك أن حياتك مُصادرة.

ابتسم القاضي وربَّت على صدغه. وقال: القسيس، القسيس جلس وقتا طويلاً في الشمس. سبعمائة وخمسون وهذا أفضل عرض لدي. إنه سوق بائع(*).

وضع الصبي المسدس في حزامه. ثم مشى حول الحفرة والقسيس ماسك بكوعه يلحُّ عليه. ثم انطلقا نحو الغرب عبر الأرض المنخفضة. تسلـَّق (تودفين) وراقبهما. وبعد برهة لم يعد هناك شيء ليراه.

في ذلك اليوم أوصلتهما طريقهما إلى أرضية شارع فسيفسائية واسعة ومرصوفة بقطع صغيرة جداً من حجر اليَشْب والعقيق الأحمر، وبعَرْض آلاف الفدادين حيث تُصدر الرياح صوتاً داخل الفرجات

(*) سوق بيع: سوق تكون فيه البضائع نادرة، والمشترون لديهم مدى محدود للاختيار والأسعار مرتفعة.

غير المحقونة بالمِلاط. أثناء اجتيازهما تلك الأرضية نحو الشرق، جاء (ديفيد براون) ممتطياً حصاناً ويسوق آخراً. كان الحصان الذي يقوده مسرجاً وعليه لجام، ووقف الصبي وإبهامه في حزامه وراقب، بينما كان (براون) يمتطي حصانه وينظر إلى رفاقه القدماء.

سمعنا أنك كنت في سجن المحكمة، قال (توبين).

لقد كنت، قال (براون)، ولم أعد فيه الآن. تفحَّصتْهم عيناه في كل جزء منهما. ونظر إلى قطعة السهم الناتئة من ساق الصبي ثم نظر في عيني القسيس السابق. وقال: أين جماعتك؟

إنك تنظر إليهم.

هل تنحّيت عن(غلانتون)؟

(غلانتون) مات.

بصق (براون) بقعة بيضاء في تلك الأرض الشاسعة المسطحة والمتكسرة. كان يوجد هناك حجر صغير في فمه ليخفف شعوره بالعطش ونقله بفكه ونظر إليهما. وقال: هنود الـ(يوما).

نعم، قال القسيس السابق.

هل قُضي عليهم جميعهم؟

(تودفين) والقاضي عند البئر هناك.

القاضي، قال (براون).

حملقت الخيول بكآبة على الأرض الحجرية المتصدعة حيث يقفون.

الباقون ماتوا؟ (سميث)؟ (دورسي)؟ الزنجي؟

جميعهم، قال (توبين).

نظر (براون) إلى الشرق عبر الصحراء. كم تبعد الطريق إلى البئر؟

لقد غادرنا منذ ساعة بعد بزوغ النهار.

هل هو مسلّح؟

لا ليس مسلّحا.

تمعّن في وجهيهما. وقال: القسيس لا يكذب.

لم يتكلم أحد. جلس وهو يتحسس بأصابعه عِقد الآذان المجففة. ثم أدار الحصان وانطلق وهو يسوق خلفه الحصان الذي بدون راكب. تابع طريقه وهو ينظر إليهما وراءه. ثم توقف مرة ثانية.

وصاح: هل رأيته ميتاً؟ (غلانتون)؟

رأيته، صاح القسيس السابق، لأنه مات حقاً.

تابع طريقه واستدار قليلاً على السرج والبندقية بين ركبتيه. استمر يراقب خلفه هذين المهاجرين، وهما يراقبانه. عندما اختفى تماماً في الصحراء استدارا وتابعا طريقهما.

* * *

عند ظهر اليوم التالي، بدءا يمران مرة ثانية بأمتعة مهجورة من القوافل، كأحذية ملقاة وقطع من أغطية الخيول وعظام وجثث جافة

لبغال مازالت عليها الأربطة التي تجمع كل إثنين مع بعضهما. داسا قوساً باهتاً لشاطئ بحيرة قديمة حيث تنتشر الصدفات المكسرة كقطع صغيرة من أوانٍ خزفية هشة متخللة بين ذرات الرمال، وفي المساء المبكر نزلا بين سلسلة من الكثبان والجروف المتصدعة باتجاه (كاريتسو كريك)، وكان هناك ينبوع صغير تسرَّب ماؤه من بين الحجارة وجرى بسرعة في الصحراء ثم اختفى ثانية. وهلكت آلاف المواشي هنا، وشق المهاجران طريقهما بين العظام الصفراء والجثث بملابسها الصوفية البالية، ثم ركعا بين العظام ليشربا. عندما رفع الصبي رأسه الذي يقطر منه الماء، قَعّرت رصاصة انعكاس صورته في الماء وصلصل صدى الطلقة حول المنحدرات المتناثرة فيها العظام وأصدرت صوت رنين في الصحراء ثم خمد.

لفَّ على بطنه وتسلق بصعوبة جانبياً وهو ينظر نحو خط السماء نظرة متفحصة. رأى الخيول أولا تقف أنفاً إلى أنف في ممر بين الكثبان إلى الغرب. ورأى القاضي مرتدياً رداءه الفضفاض الذي حصل عليه من رفاقه الجدد، وكان يمسك فوهة البندقية المتجهة إلى الأعلى في قبضته وهو يصب البارود من الدورق داخل الفوهة، وجثا المعتوه على التراب عند قدمي القاضي عارياً إلا من قبعة.

أسرع الصبي بالنزول إلى مكان منخفض في الأرض وانبطح والمسدس في قبضة يده وجدول ماء صغير يمر تحت كوعه. استدار ليبحث عن القسيس السابق ولكنه لم يجده. استطاع أن يرى من خلال

العظام المتشابكة القاضي ووديعته (المعتوه) على التل في الشمس فرفع مسدسه وسنده على السرج ذي التجويف كريه الرائحة وأطلق النار. رأى التراب يقفز على المنحدر خلف القاضي، وسدَّد القاضي البندقية وأطلق النار، فدوّت الرصاصة من خلال العظام وتدحرجت الطلقات بعيداً فوق أرض الكثبان.

استلقى الصبي وقلبه يطرُق على الرمال. أرجع مطرقة المسدس بإبهامه مرة ثانية ورفع رأسه. جلس المعتوه كما فعل في السابق، والقاضي يمشي مجهداً بوقار على طول خط السماء وهو ينظر أسفل منه إلى العظام المصطفَّة في خطوط بفعل الرياح باحثاً عن مكان يمنحه أفضلية. وبدأ الصبي بالتحرك مرة ثانية. زحف في الجدول على بطنه ثم استلقى وشرب وهو يحمل المسدس ودورق البارود إلى الأعلى ويرتشف الماء. ثم انتقل إلى الجانب البعيد وإلى ممر عبر التراب حيث الذئاب تروح وتجيء. بعيداً على يساره ظنَّ أنه سمع القسيس السابق يهمس له وسمع صوت هدير الجدول وتمدّد وهو يصغي. وضبط الزناد على وضع نصف مُهيأ ولفَّ حجيرة الطلقات وأعاد حشو الحجيرة الفارغة ثم أغلق المسدس، ونهض لينظر. كانت سلسلة التلال المنخفضة التي تقدّم من جانبها القاضي خالية، وكان الحصانان يندفعان نحوه عبر التراب باتجاه الجنوب. هيأ المسدس واستلقى يراقب. تقدما بحرية فوق المنحدر القاحل، وهما يلامسان برأسيهما الهواء برفق، وذيلاهما يتحركان بسرعة ورشاقة. ثم رأى المعتوه يمشي بتثاقل خلفهما كراعٍ من العصر الحجري. إلى يمينه رأى

القاضي يظهر من الكثبان ويستطلع ثم اختفى عن العيان. وتابع الحصانان سيرهما وكان هناك صوت خربشة خلفه، وعندما التفت الصبي كان القسيس السابق في الممر يهمس له.

وصاح: أطلِق عليه النار.

استدار الصبي ليبحث عن القاضي، ولكن القسيس السابق صاح ثانية بهمسه الأجش: المعتوه، أَطِلق النار على المعتوه.

رفع مسدسه. فمشا الحصانان، الأول وتلاه الثاني من خلال شق بين الأوتاد المُصْفَرَّة، وتبعهما المعتوه متثاقلاً ثم اختفوا. نظر خلفه إلى (توبين)، ولكن القسيس السابق كان قد رحل. مشى على طول الممر إلى أن وصل إلى الجدول مرة ثانية، الذي أصبح عكراً بسبب شرب الخيول من أعلى الجدول. بدأت ساقة تنزف فاستلقى وغمرها بالماء البارد ثم شرب ووضع الماء براحة يده على مؤخرة رقبته. كانت بقايا الدم المُتدلي من فخذه تُشبه علقات حمراء رفيعة في مجرى النهر. نظر إلى الشمس.

مرحباً، قال القاضي، جاء صوته من الجانب الغربي بدا وكأن هناك راكبي خيول جدداً كان يخاطبهم.

استلقى الصبي مصغياً. لم يكن هناك راكبو خيول جدد. بعد برهة صاح القاضي مرة أخرى. أخرج. هناك الكثير من الماء للجميع.

قذف الصبي دورق البارود على ظهره ليبقيه بعيداً عن ماء الجدول، ورفع مسدسه عالياً ثم انتظر. عند أعلى الجدول توقفت الخيول عن الشرب. ثم بدأت تشرب من جديد.

عندما انتقل إلى الجانب البعيد للجدول صادف آثار قدم ويد تركها القسيس السابق بين آثار أقدام القطط والذئاب وخنازير الصحراء الصغيرة. دخل إلى أرض مقطوعة الأشجار وجلس يتنصت في ذلك الركام الخالي. أصبحت ملابسه الجلدية ثقيلة وقاسية من الماء الذي تشربته، وكانت ساقه تنبض. على بعد مائة قدم من العظام ظهر رأس حصان يسيل الماء من خطمه ثم اختفى عن الأنظار. عندما صاح القاضي كان صوته آتياً من مكان جديد. دعاهما ليكونوا أصدقاء. راقب الصبي قافلة صغيرة من النمل تتحرك بسرعة وعزيمة بين أقواس أضلاع الماشية. وبينما هو يراقب قابلت عيناه عيني ثعبان سام ملتف تحت طرف جلد ماشية. مسح فمه وبدأ يمشي مرة ثانية. عند ممر مغلق في نهايته توقفت آثار القسيس السابق، فرجع واستلقى يصغي. كان ما يزال هناك ساعات لحلول الظلام. بعد مدة قصيرة سمع المعتوه يتكلم بطريقة عاطفية في مكان ما بين العظام.

سمع صوت الرياح آتية من الصحراء وسمع صوت تنفسه. عندما رفع رأسه لينظر بعيداً، رأى القسيس السابق يتعثر بين العظام ويحمل عالياً صليباً صنعه من قصبات مقدمة أرجل كبش وثبتها ببعضها بواسطة قطع من الجلود، وكان يحمل ذلك الشيء أمامه

كشخص مجنون يبحث عن مياه جوفية بواسطة عصا في برد الصحراء ويصيح بلغة غريبة ومنقرضة.

وقف الصبي وهو يحمل المسدس بكلتا يديه. ثم استدار، ورأى القاضي، وكان القاضي في مكان آخر تماماً، وكان يحمل البندقية على كتفه. عندما أطلق النار استدار (توبين) مواجهاً الطريق التي أتى منها وجلس ساكناً وهو يحمل الصليب. أنزل القاضي البندقية ورفع واحدة أخرى. حاول الصبي تثبيت ماسورة المسدس وأطلق الرصاصة ثم سقط على التراب. انطلقت الرصاصة الثقيلة التي خرجت من البندقية عالياً مثل كويكب واصطكت ومرت بسرعة خاطفة بين العظام المنتشرة على المرتفع في الخلف. وقف على ركبه وبحث عن القاضي، ولكن القاضي لم يكن هناك. أعاد حشو الحجيرة الفارغة وبدأ بالتحرك مرة ثانية على كوعيه نحو البقعة التي رأى فيها القسيس السابق، محدداً اتجاهه بواسطة الشمس، وهو يتوقف من وقت لآخر ليصغي. كانت على الأرض آثار أقدام حيوانات مفترسة أتت من السهول من أجل أكل الجيف، والرياح تحمل عبر الحُطام رائحة كريهة نتنة كرائحة ليفة غسل الصحون المتعفنة، ولم يكن يُسمع أي صوت في أي مكان سوى صوت الريح.

وجد (توبين) راكعاً في الجدول يغسل جرحه بقطعة من القماش من قميصه. لقد اخترقت الرصاصة رقبته بشكل كامل. لقد أخطأت بقليل الشريان السباتي، ومع ذلك لم يستطع إيقاف نزيف الدم. نظر

إلى الصبي الجاثي بين الجماجم والأضلاع ذات الحواف الناتئة المقلوبة راساً على عقب.

عليك أن تقتل الخيول، قال (توبين). ليس لديك فرصة أخرى للخروج من هنا. سيلحق بك.

نستطيع أن نأخذ الخيول.

لا تكن غبياً أيها الفتى. أي طـُعم آخر لديه؟

نستطيع الخروج بمجرد أن يحلّ الظلام.

أتعتقد أنه لن يكون هناك نهار مرة ثانية؟

راقبه الصبي. وقال: ألن يتوقف النزيف؟

لن يتوقف.

ماذا تعتقد؟

يجب أن أوقفه.

كان الدم يجري بين أصابعه.

أين القاضي؟ قال الصبي.

أين هو حقاً.

إذا قتلته نستطيع أن نأخذ الخيول.

لن تقتله. لا تكن غبياً. أقتل الخيول.

نظر الصبي بعيداً فوق الجدول الترابي الضحل.

إمض قُدُماً أيها الفتى.

نظر إلى القسيس السابق وإلى لُطخ الدم التي تسقط في الماء ببطء كبراعم الزهور وهي تنتفخ وتصبح شاحبة. وانصرف إلى أعلى الجدول.

عندما وصل إلى المكان الذي دخلت منه الخيول لتشرب، كانا قد ذهبا. وكانت الرمال على الجانب الذي ذهبا منه ماتزال مبللة. دفع المسدس أمامه وهو يزحف على مؤخرة كفيه. ومع كل حذره وجد المعتوه يراقبه قبل حتى أن يراه هو.

كان المعتوه يجلس بدون حراك في تعريشة من العظام وقد انعكس ضوء الشمس على وجهه الخالي من التعبير، وكان يراقب حوله كشيء متوحش في غابة. نظر الصبي إليه وتابع طريقه في آثار أقدام الخيول. دارت رقبته المرتخية ببطء وسال من فكه البليد لعاباً. عندما نظر الصبي خلفه كان المعتوه مايزال يراقب. كان معصماه موضوعين في الرمل أمامه، وبالرغم من أنه لم يكن على وجهه أي تعبير فقد كان يبدو كمخلوق تكتنفه كآبة كبيرة.

عندما رأى الحصانين كانا يقفان على مرتفع من الأرض فوق الجدول وينظران نحو الغرب. استلقى بهدوء وتفحّص الأرض. ثم نهض ومشى على طول حافة الجدول وجلس وظهره يواجه العظام ثم هيأ المسدس واسترخى واضعاً كوعيه على ركبتيه.

رآه الحصانان وهو يخرج من عند المُستنقع وكانا يراقبانه. عندما سمعا المسدس يُهيَّأ رفعا أذنيهما مُصغيين وبدءا السير باتجاهه على التراب. أطلق النار على الحصان المُتقدِّم في صدره فسقط وهو يتنفس بصعوبة والدم يتدفق من أنفه. توقف الحصان الآخر ووقف متشككاً، فهيأ المسدس وأطلق عليه النار وهو يستدير. فبدأ بالقفز بين الكثبان وأطلق عليه النار مرة ثانية، فتشابكت قائمتاه الأماميتان فاندفع إلى الأمام وتدحرج على جنبه. رفع رأسه مرة واحدة ثم رقد دون حراك.

جلس يتصنت. لم يتحرك شيء. كان الحصان الأول مستلقياً كما سقط، وأصبح لون التراب حول رأسه غامقاً لاختلاطه بالدم. واندفع الغبار بعيداً ونحو الأسفل وأصبح رفيعاً ثم تلاشى. عاد إلى المُستنقع وجثا تحت أضلاع بغل ميت وأعاد حشو المسدس ثم تابع سيره باتجاه الجدول مرة ثانية. لم يَعُد من الطريق التي أتى منها، ولم ير المعتوه مرة ثانية. عندما وصل إلى الجدول شرب وغسل ساقه واستلقى يتنصت كما كان يفعل من قبل.

ألقِ ذلك المسدس بعيدا الآن، قال القاضي.

تجمّد في مكانه.

كان الصوت لا يبعد أكثر من خمسين قدما.

أنا أعرف ماذا فعلت. القسيس هو الذي حرَّضك لتفعل ذلك وسأعتبر ذلك ظرفاً مخففاً في الفعل وفي القصد. كما أعتبره عند قيام أي شخص بفعل شرير. ولكن هناك قضية الممتلكات. أعطني المسدس الآن.

ظل الصبي مسلتقياً دون حِراك. سمع القاضي وهو يخوض في الجدول عكس التيار. كان يعُدُّ ببطء بصوت خافت. وعندما وصلت المياه العكرة إليه، توقف عن العد وترك جديلة من الأعشاب الجافة تجري في الماء مع التيار. وعند تلك المرحلة من العدّ كانت قد اختفت عن الأنظار بين العظام. خرج من الماء ونظر إلى الشمس وبدأ بالسير عائداً إلى حيث ترك (توبين).

وجد آثار القسيس السابق مازالت رطبة في المكان الذي ترك منه الجدول، وطريق تقدمه عليها علامات من الدم. تابع خلال الرمال إلى أن وصل إلى ذلك المكان الذي وجد فيه القسيس السابق يدور حول نفسه ثم استلقى وهمس إليه من مكان اختبائه:

هل قتلتهما أيها الفتى؟

رفع يديه.

نعم، لقد سمعت صوت جميع الطلقات الثلاثة. والمعتوه أيضا، هاه أيها الفتى؟

لم يُجِب.

فتى طيب، همس القسيس السابق. وكان قد ربط رقبته بقميصه وبقي عارياً إلى خصره، وجثا بين تلك الأوتاد النتنة ونظر إلى الشمس. كانت الظلال طويلة على الكثبان، وفي الظل كانت عظام الوحوش التي ماتت هناك مُلقاة بشكل مائل داخل الجلود المشوّهة والمتصلة مع

بعضها بشكل غريب على التراب. بقي أمامهما ساعتان لحلول الظلام، وقد قال القسيس السابق ذلك. جلسا تحت جلد ثور ميت يشبه لوح الخشب واستمعا إلى القاضي يناديهما. وصاح ذاكراً نقاطاً من القانون، واستشهد ببعض القضايا. وأيّد تلك القوانين الخاصة بحقوق المُلكية في الظروف الوحشية، واقتبس من قضايا خاصة بالتجريد من الحقوق المدنية بقدر ما يعرفه عنها من صلتها الوثيقة بالدم الفاسد لمالكي الخيول الأوائل المجرمين الذين هم الآن أموات بين العظام. ثم تكلم عن أشياء أخرى. مالَ القسيس السابق على الصبي وقال: لا تستمع إليه.

إنني لا أستمع.

سدّ أذنيك.

سدّ أذنيك أنت.

جعل القسيس السابق يديه على شكل كوب فوق أذنيه ونظر إلى الصبي. كانت عيناه صافيتين بسبب فقدان الدم وكان مستحوذاً عليه بجديّة كبيرة. فهمس القسيس السابق: إفعل ذلك. هل تعتقد أنه يتحدث إلي؟

أدار الصبي نظره بعيداً. وعلَّمَ موقع الشمس القابعة عند الحافة الغربية للصحراء، ولم يتكلما مع بعضهما حتى حلَّ الظلام ثم نهضا وتابعا مسيرهما.

انسلا إلى أعلى الحوض وانطلقا عبر الكثبان المنخفضة ونظرا مرة أخيرة وراءهما إلى الوادي حيث كانت توجد النار التي أشعلها القاضي تتمايل مع الريح عند حافة الحاجز الحجري ليراها الجميع. لم يحزرا ما هو الوقود الذي كان يغذيّها وكانا قد تقدّما في الصحراء قبل بزوغ القمر.

كان هناك ذئاب وأبناء آوى في تلك المنطقة، وكانت تعوي طوال الجزء الأول من الليل إلى أن ارتفع القمر فتوقفت عن العواء وكأنها اندهشت بظهور القمر. ثم بدأت العواء من جديد. كان المهاجران ضعيفين بسبب جروحهما. فاستلقيا ليستريحا ولكن ليس لفترة طويلة وليس بدون التمعّن بخط السماء إلى الشرق لرصد أي متطفل، وكانا يرتجفان في رياح الصحراء القاحلة القادمة من أي مكان ملعون كان، باردة وعقيمة ولا تحمل أي أخبار البتة. عندما أتى الصباح تابعا طريقهما نحو مرتفع خفيف على تلك الأرض اللامتناهية وجثيا على الصخر الطيني الليّن وراقبا بزوغ الشمس. كان الطقس بارداً، وضمَّ القسيس السابق نفسه بخرَقِه البالية وياقة الدم التي على رقبته. وناما على ذلك النتوء الجبلي الصغير. استيقظا في وقت الضحى وقد ارتفعت الشمس تماماً. جلسا ونظرا بعيداً. واستطاعا رؤية صورة شكل القاضي وشكل المعتوه قادمين إليهما على السهل في منتصف المسافة.

* * *

-21-

منبوذو الصحراء - الرجوع - الملجأ - الريح تهب على جهة - القاضي يعود - خطبة - (لوس ديونوس) - (سان فيليب) - حسن ضيافة الممجيين - في الجبال - الدببة البنية الرمادية - (سان دييجو) - البحر.

* * *

نظر الصبي إلى (توبين)، ولكن القسيس السابق جلس بدون أي تعبير. كان مُتغضّنا وشكله بائساً، ويبدو أن اقتراب المسافريْن لم يُثر فيه أي اهتمام آخر. رفع رأسه قليلاً وتحدث بدون النظر إلى الصبي. وقال: اذهب، انجُ بنفسك.

أخذ الصبي قِرْبة الماء من فوق الصخر الطيني وفتح السدادة ثم شرب ومررها. شرب القسيس السابق وجلسا يراقبان ثم نهضا واستدارا وانطلقا مرة ثانية.

كانا أكثر ضعفاً بسبب جروحهما وجوعهما وشكّلا مشهداً مثيراً للشفقة وهما يتقدمان مترنحين. عند الظهيرة نفد الماء الذي كان معهما فجلسا يتمعنان في الصحراء القاحلة حولهما. وهبت رياح من الشمال.

كان فاهاهما جافين. كانت الصحراء التي وصلا إليها صحراء مُطْلقة وقاحلة وبدون ملامح تماماً ولم يكن هناك أي شيء يمكنهما أن يُمّيزا تقدمهما بناءً عليه. وكانت الأرض تنحدر من جميع الجوانب بالتساوي في تقوسها، تلك هي التخوم التي كانت تطوقهما، وحيث يتواجدان هو موقعهما. نهضا وتابعا السير. كانت السماء مضيئة، ولم تكن هناك آثار يتبعانها سوى قطع صغيرة من مخلفات تركها المسافرون وحتى عظام رجال انساقت من قبورهم في الرمال المجروفة. بدأت الأرض بعد الظهر ترتفع أمامهما، وعند قمة كثيب منخفض وقفا ونظرا خلفهما ليريا القاضي هناك على السهل على بُعد ميلين. تابعا مسيرهما.

كانت علامة الاقتراب من أي مكان فيه ماء في الصحراء هي جثث الحيوانات الميتة عندما تتزايد أعدادها، وهذا كان يحدث الآن، وكأن الآبار كانت محاطة بخطر ما يسبب الموت للمخلوقات. نظر المسافران إلى الخلف. كان القاضي قد اختفى عن الأنظار خلف المرتفع. وأمامهما كانت هناك أخشاب عربة مبيضّة، وأبعد قليلا كانت هناك أشكال لبغل وثور وجلود صُقلت حتى أصبحت ملساء كقطعة قماش بفعل حت التراب المتواصل عليها.

وقف الصبي يتفحص هذا المكان ثم رجع من حيث أتى، حوالي مائة ياردة، ووقف ينظر إلى الأسفل نحو آثار أقدامه السطحية في التراب. نظر على منحدر الكثيب المنجرف الذي نزلا منه ثم ركع ووضع يديه على الأرض وأصغى إلى هسهسة الرياح الخفيفة.

عندما رفع يده كانت هناك طبقة رقيقة من الرمال قد انجرفت عليها وراقب هذه الطبقة وهي تتلاشى ببطء أمامه.

عندما عاد إليه، كان القسيس السابق يبدو بمظهر مرعب. فركع الصبي وتمعّن فيه حيث كان يجلس.

وقال: علينا أن نختبىء.

نختبىء؟

نعم.

أين تعتزم أن تختبىء؟

هنا. سنختبىء هنا.

لا يمكنك الاختباء أيها الفتى.

يمكننا الاختباء.

أتعتقد أنه لا يستطيع اتباع أثرك؟

تطمسه الريح. لقد مُسح عن المنحدر هناك.

مُسح؟

كل أثر.

هزَّ القسيس السابق رأسه.

هيا. علينا أن نواصل مسيرنا.

لا يمكنك الاختباء.

إنهض.

هزّ القسيس السابق رأسه وقال: آه أيها الفتى.

إنهض، قال الصبي.

إذهب، إذهب. ولوّح بيده.

تحدث الصبي إليه. إنه لا شيء. أنت أخبرتني ذلك بنفسك. البشر خُلقوا من تراب الأرض. أنت قلت إن ذلك لم يكن حكاية ر.... حكاية ر.....

حكاية رمزية ذات مغزى أخلاقي.

لم يكن حكاية رمزية ذات مغزى أخلاقي. لقد كان حقيقة مجردة. وأن القاضي بشرٌ مثل كل البشر.

واجِهه بجسارة إذن، قال القسيس السابق. واجِهه بجسارة إذا كان هو كذلك.

وهو معه بندقية وأنا معي مسدس. هو معه بندقيتان. إنهض من هنا.

نهض (توبين)، ووقف بوضع غير ثابت فاتكاً على الصبي. وانطلقا منحرفين عن الطريق المُنجَرف واتجها نحو الأسفل بجانب العربة.

مرّا بأول حاجز من حواجز العظم وتابعا سيرهما إلى حيث وجدا بغلين ميتين على الأرض، وهنا ركع الصبي مستنداً على قطعة

لوح خشبي وبدأ يحفر ملجأ لهما وهو يراقب خط السماء إلى الشرق أثناء عمله. ثم استلقيا منبطحين ومحتميين بتلك العظام النتنة كحيوانات باحثة عن طعام وهي متخمة، انتظرا وصول القاضي، ومرور القاضي إذا كان سيمر.

لم ينتظرا طويلاً. فقد ظهر القاضي فوق المرتفع وتوقف للحظات قبل أن يبدأ بالهبوط، هو ومعتوهه الذي يسيل لعابه. كانت الأرض أمامه منجرفة وتتدحرج بالرغم من أنه يمكن استكشافها بوضوح من المرتفع، لم يتفحص القاضي الأرض ولم يكن يبدو أنه قد أضاع الهاربَيْن من مدى رؤيته. نزل عن المرتفع وبدأ يسير عبر الأرض المنبسطة والمعتوه أمامه مرتدياً جلد حيوان ويسير في المقدمة. كان القاضي يحمل البندقيتين اللتين كانتا لـ(براون) ومطرتين حمالاتهما متصالبتان على صدره، وحمل قرناً للبارود ودورقاً وحقيبته، وحقيبة ظهر قماشية والتي لا بد أنها كانت تخصّ (براون) أيضاً. والأغرب من ذلك أنه كان يحمل مظلة خفيفة للشمس مصنوعة من بقايا جلود متعفنة مفروشة على إطار من عظام الأضلاع ومربوطة ببعضها بواسطة قطع من حبال الشدّ. كان مقبض الشمسية من رِجل أمامية لمخلوق ما، وكان القاضي الذي يقترب مرتدياً شيئاً أكثر بقليل من قصاصات ورق الأعراس، لقد كان لباسه ممزقاً جداً ليتلائم مع شكله. كان يحمل تلك الشمسية الكئيبة والمعتوه بطوقه المصنوع من جلد الحيوانات غير المدبوغ يمشي في المقدمة وبدا كمقاول فاسد يهرب من عرض لأدوية ومن غضب المواطنين الذين نهبوه.

تقدما عبر السهل وكان الصبي منبطحاً على بطنه فوق مراغة رملية يراقبهما من خلال أضلاع البغال الميتة. استطاع أن يرى آثار أقدامه وأقدام (توبين) على التراب، قاتمة ومدوّرة لكنها آثار إلى حدٍ ما، وراقب القاضي ونظر إلى الآثار وأصغى إلى التراب وهو يتحرك على أرض الصحراء. عندما توقف القاضي وتفحص المكان كان يبعد مائة ياردة تقريباً. جثا المعتوه على أربع وانحنى نحو الأمام كأحد الحيوانات من فصيلة الليمور(*). وأرجح رأسه وتنشّق الهواء، وكأنه يُستخدم لتقفّي الأثر. لقد فقد قبعته، أو ربما استردها القاضي، لأنه يرتدي الآن زوجاً فظاً وعجيباً من البامبوتي المقصوص من قطعة من جلد الحيوان ومربوطاً إلى أخمص قدميه بربطات من خيوط القنب التي أخذت من بعض الحطام في الصحراء. واندفع المعتوه والطوق على رقبته وصاح بصوت أجش وساعداه يتدليان على صدره. عندما مرّا بالعربة وتابعا سيرهما، عرف الصبي أنهما في الخلف عند الموقع الذي حَرَفَ هو و(توبين) خط سيرهما فيه. نظر إلى الآثار. كانت أشكالاً باهتة رجعت إلى الخلف على الرمال ثم تلاشت. أمسك القسيس السابق الذي بجانبه بذراعه وهمس وأشار باتجاه القاضي الذي كان ماراً، وأصدرت بقايا الجلود على الجثث أصوات خشخشة بفعل الرياح، ومرّ القاضي والمعتوه عبر الرمال ثم اختفيا عن الأنظار.

استلقيا بدون كلام. رفع القسيس السابق نفسه قليلاً ثم نظر بعيداً ونظر إلى الصبي. خفض الصبي مطرقة المسدس.

(*) الليمور: حيوان من فصيلة القردة طويل الذنب.

لن تسنح لك فرصة كهذه مرة ثانية.

وضع الصبي المسدس في حزامه ونهض على ركبتيه ونظر بعيداً.

وماذا الآن؟

لم يُجِب الصبي.

سيكون مُنتظِرا عند البئر التالية.

دعه ينتظر.

يمكننا العودة إلى الجدول.

وماذا نفعل.

ننتظر جماعة ما تأتي لإنقاذنا.

تأتي من أين؟ لا يوجد معدّية.

يوجد طرائد تأتي إلى الجدول.

كان (توبين) ينظر بعيداً من خلال العظام والجلود. عندما لم يُجِبْ الصبي رفع نظره إلى الأعلى. وقال: يمكننا الذهاب إلى هناك.

لدي أربع طلقات، قال الصبي.

نهض ونظر إلى الأرض المجرودة، ثم نهض القسيس السابق وأخذ ينظر معه. ما رأياه كان القاضي وهو عائد.

توّعد الصبي وانبطح على بطنه. وجلس القسيس السابق القرفصاء، واندسّا داخل المراغة وذقناهما على التراب كالسحالي، وراقبا القاضي يجتاز الأرض أمامهما مرة ثانية.

مرّ القاضي ومعتوهه المربوط بالرسن ومعداته والمظلة التي تنخفض وترتفع في الريح كوردة سوداء ضخمة بين الحطام إلى أن وصل مرة ثانية فوق منحدر الكثيب الرملي. عند القمة استدار وجثا المعتوه على ركبيته، وأخفض القاضي المظلة أمامه وخاطب الصحراء حوله.

القسيس حرّضك على هذا، يا فتى. أنا أعرف أنك ما كنتَ لتختبئ. وأعرف أيضاً أنه ليس عندك قلبُ سفاحٍ وضيع. لقد مررت أمام مدى مسدسك مرتين في هذه الساعة وسأمر مرة ثالثة. لماذا لا تُظهر نفسك؟

لستَ سفّاحاً، صاح القاضي. ولا موالياً. يوجد مكان متصدع في بنيّة قلبك. هل تعتقد أنه لا يمكنني أن أعرف؟ أنت الوحيد الذي كنت متمرداً. أنت الوحيد الذي حجز في روحه زاوية للرأفة بالهمجيين.

وقف المعتوه ورفع يديه إلى وجهه وصاح بصوت عال وبشكل غريب ثم جلس مرة ثانية.

تعتقد أنني قتلت (براون) و(تودفين)؟ إنهما أحياء مثلك ومثلي. إنهما أحياء وقد جنيا ثمار خيارهما، هل تفهم؟ اسأل القسيس. القسيس يعرف. القسيس لا يكذب.

رفع القاضي المظلة وعدّل أمتعته. وصاح: ربما، ربما أنك رأيت هذا المكان في الحلم. وأنك ستموت هنا. بعدئذ نزل عن الكثيب، واجتاز مرة ثانية أرض الحطام والمعتوه المربوط بالرسن يقوده حتى صار الإثنان مومضين وواهيين في أمواج الحرارة ثم اختفيا تماماً.

كان من الممكن أن يموتا لو لم يجدهما الهنود. طوال الجزء المبكر من الليل بقيت الشّعْرى اليمانية على يسارهما في الأفق الجنوب غربي، وقَيْطس بعيداً يخوض في الفراغ، وكوكبة الجبّار ومنكب الجوزاء يدوران عالياً، وناما منكمشين وهما يرتجفان في ظلام السهول، واستيقظا ليجدا السماء كلها قد تغيّرت، وجميع النجوم التي اهتديا بها لم تعُد موجودة. وكأن نومهما قد شمل فصولا كاملة. في الفجر الأسمر المحمر رأيا همجيين نصف عراة جاثمين أو واقفين في صف على طول مرتفع إلى الشمال. نهضا وتابعا سيرهما، كان ظلاهما طويلين جداً وضيقين جداً ويرتفعان بتسلل زائف عند كل حركة لمفصل ساق نحيلة. ابيضّت الجبال إلى الغرب مقابل بزوغ النهار. انتقل السكان الأصليون على طول التل الرملي. بعد برهة جلس القسيس السابق ووقف الصبي بجانبه ومعه المسدس، وأتى الهمجيون من الكثبان واقتربوا بقفزات ووقفوا على السهل كعفاريت مدهونة بالألوان.

كانوا من هنود الـ(ديغينوس). وكانوا مسلحين بأسهم قصيرة، واقتربوا من المسافرَيْن وركعوا وأعطوهما ماءً بداخل قشرة يقطين. لقد رأوا مهاجرين مثلهما من قبل وبمعاناة أكثر رعباً. عاشوا حياة تقشف يائسة في هذه الأرض وعرفوا أن لا شيء سوى مطاردة من بعض المتوحشين هي التي تقود الرجال إلى مثل هذا المأزق، وكانوا يترقبون ذلك اليوم ليجمع ذلك الشيء نفسه ويخرج من فترة حضانته المرعبة في منزل الشمس ويحتشد على طول حاجز العالم الشرقي

وسواء كان جيوشاً أو طاعوناً أو وباءً أو أي شيء لا يمكن وصفه نهائياً فقد انتظروه برباطة جأش.

قادوا اللاجئَيْن إلى مخيمهم في (سانت فيليب)، والذي كان عبارة عن مجموعة من أكواخ بسيطة مصنوعة من القصب وتسكنها جماعة من المخلوقات القذرة والمُعدَمَة، ومعظمهم مكسوون بالقمصان القطنية التي كانت لباحثين عن الذهب مرّوا من هناك، قمصان فقط ولا شيء آخر. أحضروا لهما طبخة ساخنة من خضار ولحم عَظاءات وحيوانات جرابية داخل صحون عميقة، ونوعاً من البينول المصنوع من الجنادب المجففة والمسحوقة، وجثموا حولهما وراقبوهما بوقار وهما يأكلان.

مدَّ أحدهم نفسه ولمس قبضات المسدس الذي في حزام الصبي، وارتد إلى مكانه، وقال: مسدس. (بالإسبانية).

تناول الصبي طعامه.

أومأ الهمجيون برؤوسهم.

أريد أن أرى مسدسك، (بالإسبانية)، قال الرجل.

لم يُجِب الصبي. وعندما مدّ الرجل نفسه نحو المسدس، اعترض يده وأزاحها عنه. فلما حرر الرجل يده، مدّ نفسه مرة أخرى ودفع الصبي يده بعيداً مرة ثانية.

ابتسم الرجل. ومدّ نفسه مرة ثالثة. فوضع الصبي الصحن بين رجليه وسحب المسدس وهيأه ثم وضع الماسورة على جبهة الرجل.

جلسوا جميعهم ساكنين تماماً. راقب الآخرون. وبعد فترة قصيرة أخفض الصبي المسدس وأنزل المطرقة ثم وضعه في حزامه، ورفع الصحن وبدأ بالأكل مرة ثانية. أشار الرجل نحو المسدس وتكلم مع رفاقه فأومأوا ثم جلسوا كما كانوا من قبل.

ماذا حدث مع حضراتكم. (بالإسبانية).

راقب الصبي الرجل من فوق حافة الصحن بعينيه السوداوين المجوَّرتين.

نظر الهندي إلى القسيس السابق.

ماذا حدث مع حضراتكم. (بالإسبانية).

أدار القسيس السابق، وعلى عنقه ربطة سوداء مقشرّة، جذعه كله لينظر إلى الرجل الذي تكلم. ونظر إلى الصبي. كان يأكل بأصابعه ولحسها ثم مسحها برِجل سرواله القذر.

وقال: هنود الـ(يوما). (بالإسبانية).

تنشقوا الهواء ثم أصدروا صوت قرقعة بألسنتهم.

إنهم شريرون جداً. (بالإسبانية).

واضح.

أليس معك أصدقاء؟ (بالإسبانية)

نظر الصبي والقسيس السابق إلى بعضهما.

نعم (بالإسبانية)، قال الصبي، كثير. (بالإسبانية). ولوّح بيده نحو الشرق. سيأتون. رفاق كثيرون.

استقبل الهنود هذا الخبر بدون أي تعبير. وأحضرت امرأة المزيد من (البينول)، ولكنهما كانا بدون طعام لفترة طويلة بحيث فقدا شهيتهما ولوّحا لها بالانصراف.

في فترة ما بعد الظهر، استحما في الجدول وناما على الأرض. عندما استيقظا كانا يُراقَبان من قِبل مجموعة من الأطفال العراة وبضعة كلاب. وعندما صعدا خلال المخيم، شاهدا الهنود جالسين على طول حاجز حجري ويراقبون بشكل متواصل الأرض إلى الشرق لرصد كل ما يمكن أن يأتي من هناك. لم يخبرهما أحد عن القاضي، وهما لم يسألا. وتبعهما الأطفال والكلاب إلى خارج المخيم، وسلكا الطريق إلى الأعلى نحو التلال الخفيضة إلى الغرب نحو المكان الذي كانت تتجه إليه الشمس الآن.

وصلا إلى مزرعة (وارنر) في وقت متأخر من اليوم التالي، وجددا نشاطهما في الينابيع الكبريتية الحارَّة. ولم يكن هناك أحد في ذلك المكان. واصلا سيرهما. كانت الأرض إلى الغرب ممتدة وعشبيّة، وفي الخلف كانت الجبال تمتد إلى الشاطئ. ناما في تلك الليلة بين أشجار الأرز القزمة، وفي الصباح كان العشب مُتجلّداً وسمعا صوت الرياح في العشب المُتجلّد وزقزقة العصافير التي كانت بهيجة مقارنة بالقفار الخالية والكئيبة التي خرجوا منها.

طوال ذلك اليوم استمرا بتسلق الأراضي المرتفعة المزروعة بأشجار يَشُوع والمحاطة بالقمم الغرانيتية الجرداء. وفي المساء حلـّقت أسراب من النسور فوق الممر أمامهما، وشاهدا على تلك الأراضي المرتفعة العشبية الأشكال الضخمة لدببة تمشي بتثاقل كقطيع يرعى على نبات الخلنج. كانت الثلوج على حواف الرفوف الجبلية، وفي الليل سقطت بعض الثلوج الخفيفة عليهما. في الفجر هبت أشرعة من السديم عبر المنحدرات عندما انطلقا وهما يرتجفان، وعند نزول الثلج شاهدا آثار أقدام الدببة التي نزلت لتفاجيء طرائدها قبيل بزوغ النهار.

في ذلك اليوم لم تسطع الشمس، فقط ضوء باهت في السديم، وكانت الأرض بيضاء بالصقيع، وبدت الشجيرات مثل إيزومرات قطبية من أشكالها نفسها. وتحركت ظلال الأكباش البرية كالأشباح على تلك الثنيات الصخرية، كانت منطقة مملوءة بالدخان بفعل البخار الكثيف الذي يسوقه إلى الممر تيار هوائي كما لو كان العالم هناك مشتعلاً بأكمله. تحدثا مع بعضهما أقل وأقل إلى أن صمتا تماماً كما هي الحال غالباً مع المسافرين الذين يقتربون من نهاية الرحلة. شربا من جداول الجبال الباردة وغسلا جروحهما ثم قتلا ظبياً صغيرا عند النبع وأكلا قدر حاجتهما ثم دخّنا الشرائح الرقيقة من اللحم الباقي ليأخذاها معهما. وبالرغم من أنهما لم يعودا يريا أي دببة، فقد رأيا علامات تدل على قُربها. ومشيا فوق المنحدرات لمسافة ميل كامل من المخيم قبل أن يستريحا في الليل. في الصباح اجتازا طبقة من الصخور النيزكية المتجمعة على ذلك المرج كبيض متحجر لطيور

بدائية. مشيا على خط الظل تحت الجبال ليبقيا في الشمس من أجل الحصول على الدفء منها، وفي بعد ظهر ذلك اليوم كان أول ما رأياه هو البحر، بعيداً أسفل منهما، وكان أزرق وصافياً وهادئاً تحت الغيوم.

انحدر الطريق من خلال التلال الخفيضة وتعرفا على آثار العربة حيث انزلقت العجلات المكبوحة، وتركت الإطارات المعدنية آثاراً على الصخر، وأعتم البحر وغربت الشمس، فتحولت كل الأراضي حولهما إلى زرقاء وباردة. ناما وهما يرتجفان تحت كتلة صخرية شاخصة مشجرة بين نعيب البوم ورائحة الصنوبر في حين انتشرت النجوم في الليل العميق.

حلَّ مساء اليوم التالي عندما دخلا (سان دييجو). وذهب القسيس السابق ليبحث لهما عن طبيب، ولكن الصبي تجوّل خلال الشوارع الطينية وبين الأكواخ المصنوعة من جلود الحيوانات والمصطفة بجانب بعضها، ومشى عبر نطاق من الحصى نحو الشاطئ الرملي.

امتدت شواطئ ليّنة من الأعشاب البحرية ذات اللون الأحمر كالجمر كحطام مطاطي عند خط المد. وكانت هناك فقمة ميتة. وخلف الخليج الداخلي كان هناك جزء من شراع بحري في حبل رفيع كشيء غارق هناك حيث بدا البحر وكأنه يُسنن. جثا على التراب وراقب الشمس على وجه الماء المسطح الذي بدا كأنه مضروب بمطرقة، وهناك، بعيداً عن الشاطئ، حلقت جزرٌ من السحاب فوق بحر

آخر برتقالي. طائر بحري في صورة ظلّيّة. وعلى الشاطئ كانت الأمواج الضعيفة تنشط. وكان حصان يقف هناك ويحدّق بالمياه المعتمة ومُهر صغير كان يقفز ويهرول بعيداً ثم يعود.

جلس يراقب في حين كانت الشمس تنغمر وهي تهسهس داخل الأمواج. وقف الحصان معتماً مقابل السماء. هدرت الأمواج المتكسرة على الشاطيء في الظلام وانسحب غطاء البحر الأسود في ضوء النجوم الخافت، وتبخترت الأمواج الطويلة الشاحبة خارجة من الليل وتكسرت على الشاطئ.

نهض واتجه نحو أضواء البلدة. وكانت البِرَك التي خلـّفها المد مضيئة كقدور المعادن المصهورة بين الحجارة السوداء حيث تتسلق السرطانات الومضة عائدة إلى البحر. أثناء اجتيازه الأعشاب الملحية نظر إلى الوراء. لم يتحرك الحصان. وومض ضوء سفينة في الأمواج. وقف المُهر مقابل الحصان ورأسه إلى الأسفل والحصان كان يراقب، هناك بعيداً إلى ما وراء معرفة البشر، حيث تغرق النجوم وحيث تنتقل الحيتان بأجسامها الكبيرة عبر البحر الأملس الأسود.

* * *

-22-

موقوف - القاضي يقوم بزيارة - اتهام - جندي، قسيس، قاضٍ - على كفالته الخاصة - يرى جرّاحا - انتزاع السهم من ساقه - هذيان الحمى - يسافر إلى لوس أنجلوس - إعدام علني - المشنوقان - البحث عن القسيس السابق - معتوه آخر - العِقد - سَكرامنتو - مسافر في الغرب - يهجر فرقته - الأخوة التائبون - عربة الموتى - مجزرة أخرى - المسنّة في الصخور.

* * *

قابل وهو عائد خلال الشوارع ماراً بأضواء النوافذ الصفراء ونباح الكلاب، فرقة من الجنود، إلا أنهم حسِبوه رجلاً مسناً في الظلام وتابعوا مسيرهم. دخل إلى حانة وجلس في زاوية معتمة يراقب مجموعات الرجال الجالسين على الطاولات. في ذلك المكان لم يسأله أحد ماذا يريد. كان يبدو وكأنه ينتظر قدوم أحد ما، وبعد برهة دخل أربعة جنود واعتقلوه. ولم يسألوه حتى عن اسمه.

في تلك الزنزانة بدأ بالحديث بإلحاح غريب عن أشياء شاهدها بضعة رجال في حياتهم، وقال سجّانه عنه إنه قد فقد عقله بفعل الأفعال الدموية التي شارك فيها. في صباح أحد الأيام استيقظ ليجد

القاضي واقفاً عند زنزانته، و قبعته في يده ويبتسم له. كان مرتدياً بذلة من الكتّان الرمادي، وحذاء جديداً ملمَّعاً. كانت أزرار سترته مفتوحة وبداخل صدرته كان يضع ساعة ذات سلسلة ومشبكاً لتثبيت ربطة العنق، وفي حزامه مشبك مكسو بالجلد ويحمل فيه مسدساً صغيراً مطلياً بالفضة ومقبضه من خشب الورد. نظر إلى ردهة المبنى الطيني غير المصقول، وارتدى قبعته وابتسم مرة ثانية للسجين.

وقال: حسناً، كيف حالك؟

لم يُجِب الصبي.

أرادوا أن يعرفوا مني إذا كُنتَ مجنوناً دائماً، قال القاضي. قالوا إنها كانت الأرض. الأرض التي طردتهم.

أين (توبين)؟

أخبرتهم أن الأبله كان رجلاً محترماً يحمل درجة الدكتوراة في اللاهوت من كلية هارفارد مؤخراً منذ شهر مارس/آذار من هذه السنة. وأن فكره قد أوصله بعيداً إلى الغرب حتى جبال (أكويرياس). كانت الأرض التالية هي التي اختطفتهم. هو وملابسه.

و(تودفين) و(براون). أين هما؟

في الصحراء حيث تركتهما. إنه شيء قاس. رفاقك في السلاح. وهز القاضي رأسه.

ماذا يعتزمون أن يفعلوا بي؟

أعتقد أنهم يعتزمون شنقك.

ماذا أخبرتهم؟

أخبرتهم الحقيقة. أنك أنت الشخص المسؤول. ليس لأنه لدينا جميع التفاصيل، ولكنهم فهموا أنه أنت، وليس شخصاً آخراً، من وجّه الأحداث في ذلك الاتجاه الكارثي. ومسَبِباً للمذبحة عند مخاضة النهر والتي قام بها الهمجيون الذين تآمرت معهم. الوسائل والغايات هنا ليست ذات أهمية. تخمينات تافهة. ومع أنك تحمل معك مسودة خطتك الإجرامية إلى القبر، فسوف تكون معروفة بكل ما فيها من شر لبارئك، وبذلك ستكون معروفة لأدنى البشر. كل شيء في وقته.

أنت هو المجنون، قال الصبي.

ابتسم القاضي. وقال: لا. لم أكن أنا أبداً. ولكن لماذا تتوارى هناك في الظلام؟ تعال إلى هنا حيث يمكننا الحديث، أنت وأنا.

وقف الصبي مقابل الحائط البعيد. وكان بالكاد أكثر من خيال.

تقدَّم، قال القاضي. تقدَّم، فمازال لدي المزيد لأخبرك به.

نظر إلى المدخل. وقال: لا تخف، سأتحدث بلطف. لن أتحدث على مسمع من العالم بل على مسمعك أنت فقط. دعني أراك. الا تعلم أنني أحببتك كإبن؟

مدّ نفسه من خلال القضبان، وقال: تعال هنا. دعني ألمسك.

وقف الصبي وظهره إلى الحائط.

تعال هنا إذا لم تكن خائفا، همس القاضي.

لست خائفاً منك.

ابتسم القاضي. وتحدث بلطف في الزنزانة الطينية المعتمة. وقال: لقد تطوعتَ لتأخذ دوراً في مهمة. ولكنك كنت شاهداً ضد نفسك. لقد عرَّضت نفسك للمحاكمة بسبب أفعالك. لقد وضعت إقراراتك أمام محاكمة التاريخ وتنصَّلت من الجماعة التي ارتبطتَ معها بدور ودسستَ لهم السُّم في كل أعمالهم. استمع إلي أيها الرجل. لقد تحدثتُ اليك في الصحراء وإليك وحدك، وأنت لم تعرني أذناً صاغية. إذا لم تكن الحرب مقدسة، فالإنسان إذن لا شيء أكثر من طمي غريب. حتى الأبله يتصرف بإخلاص وفقاً لمصلحته الخاصة. فليس مطلوباً من أي شخص أن يعطي أكثر مما يمتلك، ولا يُقارن نصيب أي شخص مع نصيب شخص آخر. ومطلوب من كل شخص فقط أن يفرِّغ رغباته في رغبات الجماعة، ولكن شخصاً لم يفعل ذلك. هل تستطيع أن تخبرني من كان ذلك الشخص؟

لقد كان أنت، همس الصبي. أنت كنت ذلك الشخص.

راقبه القاضي من خلال القضبان، وهزَّ رأسه. وقال: ما يجمع الرجال ليس تقاسم الخبز ولكن تقاسم الأعداء. ولكن إذا كنتُ عدوك مع من ستتقاسمني؟ مع من؟ القسيس؟ أين هو الآن؟ أنظر إلي. لقد تشكَّـلت أحقادنا وتأجلت حتى قبل أن نتقابل نحن الاثنان. ومع ذلك ما زال باستطاعتك تغيير كل شيء.

أنت، قال الصبي. لقد كان أنت.

لم يكن أبداً أنا، قال القاضي. استمع الي. هل تعتقد أن (غلانتون) كان غبياً؟ الا تعرف أنه كان من الممكن أن يقتلك؟

افتراءات، قال الصبي. افتراءات، أقسم بالرَّب أنها افتراءات.

فكـّر مرة ثانية، قال القاضي.

لم يكن له دور أبداً في جنونك.

ابتسم القاضي. وأخذ ساعته من صدرته ثم فتحها وحملها إلى الضوء الباهت.

وقال: حتى لو أصررت على رأيك، فما هو ذلك الرأي؟

رفع نظره إلى الأعلى. وضغط العلبة فأغلقها وأعاد الأداة إلى نفسه. وقال: الوقت يجري وأنا لدي مهام.

أغلق الصبي عينيه. وعندما فتحهما كان القاضي قد رحل. في تلك الليلة نادى على العريف وجلسا على جهتي القضبان في حين أخبر الصبي العريف عن مجموعة كبيرة من المسكوكات الذهبية والفضية المخبأة في الجبال غير البعيدة عن هذا المكان. تكلم لفترة طويلة. ووضع العريف الشمعة على الأرض بينهما وراقبه كمن يراقب طفلاً عفوياً وكاذباً. وعندما انتهى نهض العريف وأخذ الشمعة معه تاركاً إياه في ظلام.

أطلق سراحه بعد يومين. وجاء قسيس إسباني لتعميده وقذف الماء عليه من خلال القضبان كقسيس يقوم بطرد أرواح. وبعد ساعة عندما أتوا من أجله أصيب بدُوار من الخوف. أُخذ ليقف أمام العمدة ومعه ذلك الرجل الذي تحدّث إليه بطريقة أبويَّة باللغة الاسبانية، ثم أطلق في الشوارع.

كان الطبيب الذي وجده شاباً من عائلة نبيلة من الشرق، والذي قام بقصٍّ رِجل بنطاله بالمقص ونظر إلى السهم المسوّد وحرّكه قليلاً. وكان قد تكوَّن حوله تجويف لين.

وقال: هل تشعر بأي ألم؟

لم يُجِب الصبي.

ضغط حول الجرح بإبهامه. وقال إن بإمكانه إجراء الجراحة وإنها ستكلِّفه مائة دولار.

نهض الصبي من على الطاولة وخرج وهو يعرج.

بينما كان يجلس في الساحة في اليوم التالي، جاء ولد وقاده مرة ثانية إلى الكوخ خلف الفندق، وقال له الطبيب إنهم سيجرون الجراحة في الصباح.

باع مسدسه لرجل انجليزي مقابل أربعين دولارا. واستيقظ في الفجر ليجد نفسه في مكان تحت بعض الألواح حيث زحف هناك في الليل. كانت تمطر وقد مشى خلال الشوارع الطينية الفارغة، ودقَّ

على باب بائع الخمر إلى أن أدخله الرجل. عندما ظهر عند عيادة الطبيب الجراح كان ثملاً جداً، وينتظر عند عِضادة الباب وهو يُمسك بيده زجاجة ويسكي سعة ربع ليتر وممتلئة إلى النصف.

كان مساعد الجرّاح طالباً من (سينالوا) وكان يتدرب هنا. ونشبت مشاجرة عند الباب إلى أن أتى الجرّاح بنفسه من خلف المبنى.

وقال: عليك أن تأتي غداً.

لا أعتزم أن أكون غير صاح في ذلك الوقت.

تفحَّصه الجرَّاح. وقال: حسناً أعطني الويسكي.

دخل وأغلق المتدرب الباب وراءه.

لن تحتاج إلى الويسكي، قال الطبيب. دعني آخذه.

لماذا لن أحتاجه؟

لدينا مشروب روحي من الإيثر. لن تحتاج إلى الويسكي.

هل هو أقوى؟

أقوى بكثير. على أية حال لا يمكنني أن أجري جراحة لرجل ثمل تماماً.

نظر إلى المساعد ثم إلى الطبيب الجرّاح. ووضع الزجاجة على الطاولة.

جيد، قال الجرّاح. أريدك أن تذهب مع (مارسيلو). سيجهز لك الحمام وسيعطيك ملابس نظيفة ويأخذك إلى السرير.

أخرج ساعته من سترته وحملها في راحة يده واطّـلع على الوقت.

إنها الثامنة إلا ربع. سنجري الجراحة عند الواحدة. خذ قسطاً من الراحة. إذا احتجت أي شيء أرجو أن تُعلمنا.

أرشده المساعد عبر الساحة إلى المبنى الطيني المُبيَّض في الخلف. كانت حجرة فيها أربعة أسرَّة حديدية فارغة جميعها. استحم في مرجل كبير نحاسي ثابت، يبدو أنه أنقذ من سفينة غارقة، واستلقى على الفرشة القاسية واستمع إلى الأولاد وهم يلعبون في مكان ما خلف الحائط. لم ينم. عندما أتوا لأخذه كان مايزال ثملاً. أخذ إلى الخارج ومُدد على منصة في غرفة فارغة مجاورة للغرفة التي كان فيها، وضغط المساعد قماشة مثلجة على أنفه وطلب منه أن يتنفس بعمق.

في فترة نومه تلك وفي فترات نومه التالية جاء القاضي للزيارة. مَنْ غيره من الممكن أن يأتي؟ طفرة ضخمة تمشي بتثاقل، صامتة وهادئة. أياً كان أسلافه فقد كان شيئاً مختلفاً تماماً عن أفضلهم، ولا يوجد نظام لتمييز منابته وإرجاعه إلى أصوله، فلا يمكن أن يرجع. وكل من يريد أن يبحث في تاريخه من خلال تتبع خيوط السلالات والسجلات سوف يقف في النهاية بغموض وصمت على شاطئ الخواء الذي لا بداية له ولا نهاية، وأياً كان العلم الذي سيستعين به ليدنو من المادة الأولية التي بُعثت فيها الحياة في العصر الألفي، لن يكتشف أيّ أثر لبيضة الأسلاف الأولية التي سيتعرف منها على

بدايته. وقف في الغرفة البيضاء ببذلته المُعدَّة خصيصاً له وقبعته في يده، وحدق بعينيه الصغيرتين عديمتي الرموش واللتين تشبهان عيني خنزير، كيف استطاع هذا الطفل، الذي يتواجد على الأرض فقط منذ ستة عشرة عاما، أن يدرك معنى مجموعات برمتها من الأحكام النهائية التي لا يدركها رجال في بلاط الملوك ورأى اسمه، الذي ما كان ليكشفه في أي مكان آخر، داخلاً في السجلات كشخص ضليع بارع. مسافر معروف في نطاق السلطات الموجودة فقط في مطالب بعض المتقاعدين أو في خرائط قديمة.

في هذيانه بحث في ملاءات فراشه عن أسلحة ولكن لم يكن هناك أي شيء منها. ابتسم القاضي. لم يعد المعتوه هناك، بل رجل آخر، وقد كان من الممكن لهذا الرجل الآخر أن لا يراه مطلقاً، لولا أنه كان يبدو حِرفياً وعاملاً في المعادن. تعقبه القاضي إلى حيث كان جاثماً فوق عمله، كان حداداً يعمل بمطرقة وقالب، ربما بسبب تهمة ما ومنفى من نيران الرجال، يعمل لتحقيق مصيره المتوقّع بجهد ومثابرة طوال الليل الذي أصبح فيه يسك النقود وحتى الفجر الذي لن يكون. إنه صانع النقود المزيف هذا بمِنقاشه وإزميله والذي يسعى لكسب ودّ القاضي، وقد كان يعمل على ابتكار وجه من الخَبَث البارد في بوتقة الصهر، صورة تجعل هذه العملة المسكوكة المتبقية سارية في الأسواق حيث يُتاجر الرجال. مِن هذا القاضي هو القاضي والليل لا ينتهي.

* * *

تغيّر الضوء في الغرفة، وأغلق باب. فتح عينيه. كانت ساقه ملفوفة بملاءة ودُعِّمَت بلفات من قصب الحُصر. كان يشعر بظمأ شديد، ورأسه يدوّي وساقه كانت كزائر شرير معه في السرير، وهكذا كان الألم. وبعد قليل جاءه المساعد بالماء. لم ينم مرة ثانية. سال الماء الذي شربه على جسده وبلل الفراش، واستلقى بدون حِراك وكأنه يفعل ذلك ليتغلّب على الألم، وكان وجهه رمادياً ومتعباً، وشعره الطويل رطباً ومتلبداً.

بعد أسبوع كان يمشي وهو يعرج خلال البلدة مستنداً على عكازين زوده بهما الطبيب. استفسر عند كل باب عن القسيس السابق، ولكن لم يتعرف عليه أحد.

في شهر يونيو/ حزيران من ذلك العام في لوس أنجلوس أقام في نُزل لم يكن أكثر من مكان عام للمنامة المؤقتة، هو وأربعون رجلاً من جميع الجنسيات. في صباح اليوم الحادي عشر من الشهر نهضوا جميعاً وكان الوقت ما يزال ظلاماً وخرجوا ليشهدوا إعداماً علنياً عند السجن الوطني. عندما وصل كان الضوء باهتاً وكان قد احتشد جمع من المشاهدين وصلوا عند البوابة فلم يستطع أن يرى الإجراءات بوضوح. وقف عند طرف الحشد في الوقت الذي بزغ فيه النهار وألقيت الخطابات. ثم وبشكل مفاجئ، شكلان بشريان مربوطان نهضا من بين رفاقهما إلى أعلى المنصة وهناك أُعدما وهناك ماتا. وبدأ تبادل زجاجات المشروب، وبدأ الشهود الذين كانوا يقفون في صمت بالحديث مرة أخرى.

عندما عاد في المساء إلى ذلك المكان لم يكن يوجد أحد هناك نهائيا. واتكأ حارس عند بوابة السجن وهو يمضغ التبغ وبدا المشنوقان المتدليان من آخر الحبلين كفزاعة لإخافة الطيور. وعندما اقترب رأى أنهما كانا (تودفين) و(براون).

كان معه القليل من المال، ثم لم يبق معه أي شيء، ولكنه كان يذهب إلى كل خمارة وكل مكان لعب قمار، وإلى كل حلبة مصارعة ديوك وكل حانة رديئة السمعة. كان شاباً هادئاً ببذلة كبيرة جداً عليه والحذاء البالي نفسه الذي خرج به من الصحراء. كان يقف عند باب حانة قذرة بعينيه اللتين تتنقلان تحت حافة القبعة التي كان يلبسها والضوء المنبعث من المصباح المحمول على الجدار على طرف وجهه، أخذ على أنه عاهر، وقدّم له المشروب ثم أخذ إلى خلف المبنى. وترك زبونه غير واعٍ في غرفة طينية هناك حيث لم يكن يوجد ضوء. ووجده رجال آخرون أثناء مهامهم الخسيسة القذرة ورجال غيرهم أخذوا محفظته وساعته. وفيما بعد أخذ أحدهم حذاءه.

لم يسمع أي أخبار عن القسيس السابق فتخلّى عن السؤال عنه. أثناء عودته إلى مكان إقامته في أحد الأيام عند بزوغ النهار وفي المطر الرمادي، رأى وجهاً يسيل لعابه في الشباك العلوي، فصعد الدرج وطرق الباب. فتحت امرأة ترتدي كيمونو من الحرير الباب ونظرت إليه. وكانت وراءها شمعة مشتعلة على الطاولة، وفي الضوء الباهت عند النافذة جلس أبله في حظيرة صغيرة مع قطة. استدار لينظر إليه،

ولم يكن معتوه القاضي ولكنه كان معتوهاً آخراً. عندما سألته المرأة ماذا يريد استدار بدون كلام ونزل الدرج إلى المطر والطين في الشارع.

اشترى بآخر دولارين معه من أحد الجنود عِقداً من آذان الهمجيين والذي كان (براون) يلبسه على منصة الشنق. لبسه في اليوم التالي عندما عمل لدى مرشد مستقل من ولاية ميسوري مقابل أجر، ولبسه عندما انطلقوا إلى (فري مونت) على نهر سكرامنتو مع قافلة من العربات وحيوانات التحميل. وإذا كان لدى المرشد أي فضول بشأن ذلك العِقد فقد احتفظ به لنفسه.

بقي في تلك الوظيفة لبضعة أشهر ثم تركها دون إشعار. سافر من مكان إلى آخر. ولم يتجنب صحبة رجال آخرين. كان يُعامَل باحترام يليق برجل خَبِر الحياة أكثر مما توحي به سنوات عمره. والآن أصبح لديه حصان ومسدس، بقايا العُدّة. عمل في أنواع تجارة مختلفة. وكان لديه إنجيل وجده في معسكرات التنقيب في المناجم، وقد حمل ذلك الكتاب معه دون أن يقرأ منه كلمة. كان البعض يحسبه واعظاً بملابسه السوداء البسيطة، ولكنه لم يكن يعيرهم اهتماماً ولا للأشياء التي في متناول اليد ولا للأشياء القادمة، لقد كان أدنى من أي رجل آخر. لقد كانت أماكن بعيدة تلك التي سافر إليها لتصل منها أخبار، في تلك الأوقات المتقلبة التي يشرب فيها الرجال نخب صعود حكام تم عزلهم عن السلطة ويهتفون لتتويج ملوك قُتلوا ويرقدون في قبورهم. عن مثل هذه الأحداث الشخصية حتى من مستوى تلك التي مر بها، لم تكن هناك أنباء، وبالرغم من أنها كانت عادة في البريّة أن تقف مع

أي مسافر وتتبادل معه الأخبار، فقد كان يبدو أنه يسافر بدون أخبار نهائياً وكأن أحداث العالم كانت مشوّهة جداً بالنسبة له لكي يتعامل معها أو ربما تافهة جداً.

رأى رجالاً ماتوا برصاص المسدسات وبالسكاكين وبالحبال، ورأى نساء يتقاتلن حتى الموت الذي حددن قيمته بأنفسهن بدولارين. ورأى سُفنا من بلاد الصين مربوطة بسلاسل في المرافىء الصغيرة وبالات من الشاي والحرير والبهارات ممزقة بواسطة سيوف من قِبل رجال صغار الحجم ذوي بشرة صفراء بحديث مثل نطق القطط. على ذلك الشاطئ الموحش حيث احتضنت الصخور البحر الداكن والهادر، رأى صقوراً محلقة، المسافة بين أجنحتها مُصغَّرة إلى درجة أن جميع الطيور الأصغر منها كانت تبدو أشبه بطيور النورس أو طيور الزقزاق تحت النسور الزاعقة. رأى أكواماً من الذهب بالكاد تغطيها قبعة يُراهن عليها في دور من لعبة ورق وتُخسر، ورأى دببة وأسوداً محررة داخل حُفر لتقاتل ثيراناً حتى الموت، وكان مرتين في مدينة سان فرانسيسكو ورآها تحترق مرتين ولم يعد إلى هناك أبداً بعدها، كان ممتطياً حصانه على الطريق إلى الجنوب حيث كان منظر المدينة تحترق طوال الليل مقابل السماء ثم تحترق مرة ثانية في مياه البحر السوداء حيث تتدحرج الدلافين من خلال اللهب والنيران في البحيرة من خلال سقوط الخشب المشتعل وصيحات التائهين. لم يرَ القسيس السابق مرة ثانية. وسمع عن القاضي إشاعة في كل مكان.

في ربيع السنة الثامنة والعشرين من عمره انطلق مع آخرين إلى الصحراء في الشرق، كان واحداً من خمسة مُستأجَرين ليرافقوا مجموعة خلال البريّة إلى مواطنهم في منتصف الطريق عبر القارة. تركهم على مسافة مسير سبعة أيام من الشاطئ عند بئر صحراوي. كانوا جماعة من المهاجرين عائدين إلى مواطنهم، رجالاً ونساء، مغبرين ومنهكين من السفر.

أدار وجه الحصان نحو الشمال باتجاه الجبال الصخرية الممتدة بشكل رفيع تحت حافة السماء، ارتحل والنجوم متألقة وسافر والشمس مرتفعة. كانت أرضاً لم يرَ مثلها في حياته، ولم تكن هناك آثار ليتبعها داخل تلك الجبال ولم تكن هناك آثار خارجها. ومع ذلك وعند المَعْقل الأشد وطأة لتلك الصخور قابل رجالاً يبدو أنهم كانوا غير قادرين على تحمُّل سكون العالم.

رآهم بداية يمشون بجهد على السهل في الغسق بين نبات الأوكوتيللو المزهر والذي بدا كأنه يحترق في الضوء الأخير لشمعدان له عدة رؤوس. قادهم عازف ينفخ في مزمار وخلال تقدمهم سمع صوت قرقعة الدف والطقطاقة، وظهر رجال عراة حتى الخصر بأثواب سوداء فضفاضة تحت الخصر، وقلنسوات، كانوا يضربون أنفسهم بسياط من نبات اليُكَّة المجدول ورجال يحملون على ظهورهم العارية أحمالاً كبيرة من نبات التشولا، ورجل مربوط بحبل ويُسحب إلى هذه الناحية ثم إلى تلك من قِبل رفاقه، ورجل يرتدي قلنسوة ورداء أبيض ويحمل صليباً خشبياً ثقيلاً على كتفيه. جميعهم كانوا حُفاة وخلَّفوا أثراً

من الدم على الصخور، وكانت تتبعهم عربة بسيطة حيث جلس فيها شكل لهيكل عظمي مصنوع من الخشب المنقوش الذي كان يصدر أصوات خشخشة على طول الطريق ويحمل أمامه قوساً وسهماً. وشاركته في عربته حمولة من الحجارة، ومضوا يتدحرجون فوق الصخور وهم مجرورون بحبال مربوطة على رؤوس وعلى كواحل الحمالين ومترافقة مع وفد من النساء اللواتي يحملن أزهاراً صحراوية صغيرة في أيديهن المضمومة أو يحملن مشاعل من نبات السوتول أو مصابيح بدائية من الصفائح المثقوبة.

اجتازت هذه الطائفة المزعجة ببطء الأرض تحت الجرف حيث وقف المُراقب، ثم شقوا طريقهم فوق ركام حجارة متكسرة لمذراة حُتَّت من صخر متجعد فوقهم، وكانوا يولولون وينفخون ويقعقعون، ومرّوا بين الجدران الغرانيتية إلى الوادي العلوي ثم اختفوا في الظلام القادم كنذير لكارثة لا يمكن وصفها تترك وراءها فقط آثار أقدام مضرجة بالدماء على الحجارة.

عسكر على أرض منخفضة جرداء واستلقى هو والحصان معاً، وهبت الرياح الجافة على الصحراء طوال الليل، وكانت الرياح صامتة تقريباً وذلك لعدم وجود رنين بين الحجارة. عند الفجر وقف هو والحصان يراقبان الشرق حيث بدأ بزوغ الضوء ثم سرج الحصان وقاده إلى طريق وعرة خلال الوادي حيث وجد حوضاً مخفياً تحت منحدر من الصخور المستديرة. امتدت المياه في الظلام وكانت الحجارة

باردة وشرب ثم أحضر ماءً للحصان بقبعته. وقاد الحصان فوق الجرف وتابعا طريقهما، كان الرجل يراقب النجد إلى الجنوب والجبال إلى الشمال والحصان كان يصدر أصوات خشخشة في الخلف.

بعد قليل بدأ الحصان بردِّ رأسه إلى الوراء وماهي إلا لحظات حتى رفض التحرك. وقف الرجل ممسكاً بالرسن ومتفحصاً الأرض. ثم رأى المهاجرين. كانوا مبعثرين في كل مكان إلى الأسفل منه عند جدول حمم بركانية ميتين في دمائهم. أخذ بندقيته وجثا يصغي. قاد الحصان تحت ظل الجدار الصخري ثم قيّد قوائمه ونزل على طول الصخر إلى المنحدر.

ألقي أفراد مجموعة المهاجرين مقتولين بفؤوس ومذبوحين بين الحجارة في كل الوضعيات. بعضهم كان ممدداً عند الصليب الساقط، وبعضهم كان مقطّعاً ومشوّهاً وبعضهم بدون رؤوس. ربما اجتمعوا تحت الصليب للاحتماء ولكن الحفرة التي كان موضوعاً عليها والنصب الحجري حول قاعدته يُريان كيف دُفع فوقهم وكيف قُتل المسيح البديل المرتدي القلنسوة ونُزعت أحشاؤه، وكيف هو ملقى الآن مع بقايا الحبال التي رُبط بها والتي ماتزال مربوطة على معصميه وكاحليه.

نهض الرجل ونظر إلى ذلك المشهد الكئيب ثم رأى امرأة عجوزاً وحيدة عند محراب صغير في الصخور وراكعة وهي ترتدي شال الريبوزو المكسيكي الباهت وعيناها تنظران إلى الأسفل.

شق طريقه بين الجثث ووقف أمامها. كانت مُسنَّة جداً ووجهها مجعّد وقد تجمعت الرمال داخل ثنيات ملابسها. لم تنظر إلى الأعلى. وكان لون الشال الذي ترتديه على رأسها أكثر شحوباً ومع ذلك فقد ظهرت عليه أشكال محبوكة لنجوم وأرباع أقمار وعلامات أخرى مصدرها غير معروف بالنسبة له. تحدث إليها بصوت منخفض. أخبرها أنه أمريكي، وأنه قطع طريقاً طويلة من بلد مولده، وأن ليس لديه عائلة وأنه سافر كثيراً ورأى أشياءً متنوعة وأنه كان في الحرب وأنه تحمّل الكثير من المشقة والحرمان. أخبرها أنه سيوصلها إلى مكان آمن حيث يرحب بها أهالي بلدتها وحيث يمكنها الانضمام إليهم لأنه لا يستطيع أن يتركها في مكان كهذا وإلا ستموت بالتأكيد.

ركع على إحدى ركبتيه وهو يسند بندقيته أمامه كالعكاز. وقال: جدتي، ألا تستطيعين سماعي؟ (بالإسبانية)

مدّ نفسه داخل الكوّة الصغيرة وأمسك ذراعها. تحركت قليلاً، وكان جسدها كله خفيفاً وقاسياً. كان وزنها خفيفاً جداً. لقد كانت مجرد هيكل جاف وكانت ميتة في ذلك المكان منذ سنوات.

* * *

-23-

على سهول تكساس الشمالية- صياد جواميس عجوز- جماعة الألفية- جامعو العظام- الليل في البراري- الزوار- آذان الأباتشي- (إلرود) يأخذ موقفا- قتل- حمل الميت- (فورت غريفين)- المكان المزدحم- عرض مسرحي- القاضي- قتل دب- القاضي يتحدث عن الأيام الخوالي- اثناء التحضير للرقص- القاضي يتحدث عن الحرب، القـَدَر، تفوّق الجنس البشري- قاعة الرقص- العاهرة- المراحيض الخارجية وما تم مصادفته هناك- "عليكم أن تناموا ولكن عليَّ أن أرقص" (بالألمانية).

* * *

في الشتاء السابق لعام ألف وثمانمئه وثمانية وسبعين، كان على سهول شمال تكساس. واجتاز شُعب جبال (دبل ماونتن) لنهر (برازوز) في الصباح عندما امتدت طبقة خفيفة من الجليد على طول الشاطئ الرملي، ثم امتطى حصانه خلال الغابة المظلمة للأشجار القزمة السوداء والمتشابكة لنبات المسكيت الشوكي. وأقام معسكره في تلك الليلة على قطعة من أرض مرتفعة حيث يوجد واق من الريح تكوّن من شجرة قُطعت بفعل البرق. وما لبث أن أشعل نار معسكره

حتى رأى ناراً أخرى عبر البراري في الظلام. كانت مثل ناره تتمايل بفعل الريح، وكانت مثل ناره تدفىء رجلاً وحيداً.

كانت نار معسكر لصياد عجوز، وتقاسم الصياد تبغاً معه وأخبره عن الجواميس والفخاخ التي نصبها لهم، والموضوعة في مكان غائرعلى مرتفع ما حيث تنتشر الحيوانات الميتة على الأرض وبدأ القطيع بالدوران بعشوائية وأصبحت ماسورة البندقية ساخنة جداً بحيث كانت قطع التنظيف المبللة تصدر صوت طشيش داخل الفوهة، وكانت أعداد الحيوانات بالآلاف وعشرات الآلاف، والجلود مُلقاة على مساحة أميال مربعة فعليَّة من الأرض، وفِرق سالخي الجلود يسابقون بعضهم البعض على مدار الساعة، واستمر إطلاق الرصاص لمدة أسابيع وأشهر حتى أصبحت فوهة البندقية مصقولة وكعب البندقية مرتخياً في مكان تثبيته، وأكتافهم صارت صفراء وزرقاء حتى الكوع، وعربات التَّنْدَم(*) تئن دون انقطاع في البراري ومجموعات من الثيران من عشرين إلى اثنين وعشرين ثوراً، والجلود القاسية بالأطنان ومئات الأطنان، ولحم يتعفن على الأرض، والهواء يئز بصوت الذباب والصقور وغربان الغداف والليل، إنه رُعب الزمجرة والأكل مع الذئاب نصف الهائجة والتمرغ بالجيف.

(*) التَّنْدَم: مركبة يجرها جوادان أحدهما أمام الآخر.

رأيتُ عربات (ستودبيكر) تجرها ستة إلى ثمانية من الثيران متجهة نحو الأرض لا تنقل شيئاً سوى الرصاص. فقط كبريتيد الرصاص النقي. أطنان منه. على هذه الأرض فقط بين نهر أركنسا والـ(كونتشو)، كانت هناك ثمانية ملايين جثة، فهذا هو عدد الجلود التي وصلت إلى سكة الحديد. قبل سنتين انطلقنا من (غريفين) من أجل آخر صيد. نقبّـنا الأرض. مرّت ستة أسابيع. أخيراً وجدنا قطيعاً من ثمانية حيوانات فقتلناها واقتربنا. فاختفت. كل واحد منها خلقه الرَّب اختفى وكأنها لم توجد أبداً.

عصفت الشرارات المسننة مع الرياح. وقبعت البراري حولها ساكنة. خلف النار كان الجو بارداً والليل صافياً والنجوم تتساقط. سحب الصياد العجوز بطانيته عليه. وقال: أتساءل إذا كان يوجد عوالم أخرى كهذا. أم أنه الوحيد.

* * *

عندما وصل إلى جامعي العظام كان قد مرَّ عليه ثلاثة أيام وهو ممتطياً حصانه في أرض لم ير مثلها في حياته. كانت السهول تبدو محترقة والأشجار الصغيرة سوداء ومشوّهة وتتردد عليها غربان الغداف، وفي كل مكان توجد قطعان من ذئاب ابن آوى المنهكة وعظام القطعان البائدة المبيضة بالشمس. ترجّل وقاد الحصان. رأى هنا وهناك بين

أقواس الأضلاع بضعة أقراص مسطحة من الرصاص الداكن وكأنها ميداليات لنظام ما للصيد. انطلقت بعيداً مجموعات من الثيران تجرُّ ببطء عربات ثقيلة تصدر أصوات صرير بطريقة جافة. قذف جامعو العظام داخل تلك العربات العظام، وهم يركلون الهيكل المُتكلّس، ويكسرون الهياكل الكبيرة إلى قطع بواسطة الفؤوس. وأحدثت العظام أصوات قرقعة داخل العربات، واصلوا العمل وانتشر التراب في غبار باهت. راقبهم وهم يمرون بأشكالهم الرثة القذرة، والثيران ساخطة وتبدو كالمجانين. لم يتحدث إليه أحد. استطاع أن يرى بعيداً قافلة من العربات تتجه نحو الشمال الشرقي بأحمال كبيرة من العظام تتمايل، وأبعد إلى الشمال رأى فريقاً آخر من جامعي العظام وهم يعملون.

امتطى حصانه وتابع طريقه. جُمّعت العظام في صفوف معرضة للريح بارتفاع عشرة أقدام وطول مئات الأقدام، أو على شكل تلال مخروطية وضع أعلاها علامات أو إشارات باسم مالكها. لحق بإحدى عربات تحميل الأخشاب، وكان فتى يقود عربة يجرها ثور وتهتز بخط متعرج ومعه عصا. وحملق إليه شابان يجثمان أعلى كومة من الجماجم وعظام الحوض.

بدا السهل في الليل منقَّطاً بنيرانهم. جلس وظهره إلى الريح وشرب من مطرة خاصة بالجيش، وأكل حفنة من الذرة المشويّة في عشائه. عبْر كل تلك الأرض كانت أصوات عواء وعويل الذئاب الجائعة تتتابع، وإلى الشمال زوّد البرق الصامت كوكبة القيثارة الواهنة

بأشرعة عند حافة العالم المظلمة. انبعثت من الهواء رائحة المطر ولكن لم يهطل المطر، ومرّت عربات العظام ذات الصرير في الليل كسفن داكنة، واستطاع أن يشم رائحة الثيران ويسمع صوت تنفسها. كانت رائحة العظام النتنة تنتشر في كل مكان. عند منتصف الليل نادت عليه فرقة وهو يجثم عند فحماته. فقال: اقتربوا.

ظهروا من الظلام، وكانوا مجموعة من البائسين المتجهمين المكسوين بالجلود، ويحملون مسدسات عسكرية قديمة ماعدا واحد منهم كان معه بندقية لصيد الجواميس، ولم يكن لديهم معاطف، وكان أحدهم يلبس مَداساً من جلد مقشور من عرقوب حيوان ما حيث جُمِّعت الأصابع وأغلقت بوتر عضلي.

مساء الخير أيها الغريب، صاح الفتى الأكبر بينهم.

نظر إليهم. كانوا أربعة وفتى غير مكتمل النمو، وتوقفوا عند حافة الضوء واتخذوا موقعاً لهم هناك.

إظهروا، قال لهم.

تقدموا بغير نظام. ثلاثة منهم جثموا واثنان وقفا.

أين معداتك؟ قال أحدهم.

لم يخرج لجمع العظام.

لا يوجد في ملابسك قطعة من التبغ للمضغ، أليس كذلك؟

هزَّ رأسه.

ولا شيء من الويسكي أيضا على ما أظن.

ليس لديه ويسكي.

إلى أين تتجه أيها السيد؟

هل تتجه إلى (غريفين)؟

نظر إليهم بتفحُّص. وقال: نعم.

أراهن أن معك نقوداً من أجل العاهرات.

إنها مليئة بالعاهرات، (غريفين) مليئة بهن.

ياللجحيم، ربما ذهب إلى هناك أكثر منك.

هل ذهبت إلى (غريفين) أيها السيد.

ليس بعد.

مليئة بالعاهرات. مليئة تماماً.

يقولون إنه يمكنك الوصول خلال يوم على الحصان إذا كانت الريح مناسبة.

يجلسن على شجرة أمام هذا المكان ويمكنك أن تنظر إلى الأعلى وترى سراويلهن. لقد قمتُ بالعدّ حتى ثمان من تلك الشجرة في المساء. جلسنَ هناك مثل حيوان الراكون يدخنَّ السجائر ويَصِحْن عليك.

يُقال إنها أكبر مدينة للخطيئة في تكساس كلها.

إنها مكان مفعم بالحيوية بسبب الجرائم إلى الدرجة التي تهتم فيها بزيارتها.

صرير بسكاكين. أي نوع من الدناءة يمكنك تسميته.

نظر إليهم واحداً تلو الآخر. مدّ نفسه وأخذ قصبة وحرّك النار بها ثم وضع القصبة في النار. وقال: جميعكم تحبون الدناءة؟

نحن لا نوافق عليها.

تحبون شرب الويسكي؟

إنه يتبجح فقط، ليس بشارب ويسكي.

يا للجحيم، لقد رأيتموه يشربه الآن قبل أقل من ساعة.

ورأيته يتقيأه أيضا. ما تلك الأشياء حول رقبتك ياسيد؟

سحب العقد القديم من صدر قميصه ونظر إليه، وقال: إنها آذان.

إنها ماذا؟

آذان.

أي نوع من الآذان؟

شدَّ الشريط المربوطة فيه ونظر إليها. كانت بلون أسودٍ تماماً وقاسية وجافية وبدون شكل نهائياً.

وقال: بشرية، آذاناً بشرية.

لم يكن أنت من فعل ذلك؟ قال الذي يحمل البندقية.

لا تدعوه بالكاذب يا (إيلرود)، يستطيع أن يقتلك. دعنا نرى تلك الأشياء أيها السيد إذا كنت لا تمانع.

سحب العقد من فوق رأسه ومرره إلى الفتى الذي تكلم. ضغطوا عليها وتحسسوا الأشياء المتدلية الجافة والغريبة.

وقالوا: لزنوج، أليس كذلك؟

يقطعون آذان الزنوج لكي يعرفوهم عندما يهربون.

كم عددهم يا سيد؟

لا أعرف. كانوا قريباً من مائة.

حملوا ذلك الشيء إلى الأعلى وأداروه نحو ضوء النار.

إنها آذان زنوج بحق الرَّب.

ليست لزنوج.

ليست كذلك؟

لا.

ما هي؟

هنود.

يا للجحيم هي كذلك.

(إيلرود) لقد عرفتَ ذلك.

كيف يكون لونهم أسود إلى هذا الحد إذا لم يكونوا لزنوج.

لقد أصبحوا كذلك. يستمرون بالتحول إلى اللون الأسود إلى درجة لا يمكن أن يصبحوا أكثر سواداً بعدها.

من أين حصلت عليها؟

قتلتَ أبناء العاهرات، أليس كذلك ياسيد؟

لقد كنتَ مستكشفاً في البريّة، أليس كذلك؟

لقد اشتريتُ الآذان في كاليفورنيا من جندي في حانة لم يكن لديه نقود ليشرب بها.

مدّ نفسه وأخذ العِقد منهم.

أراهن أنه كان مستكشفاً في البراري وقتل كل واحد منهم أبناء العاهرات.

تتبع الشخص الذي اسمه (إيلرود) التذكار بذقنه وتنشق الهواء. وقال: لا أرى ماذا تريد من تلك الأشياء، لم أكن لآخذها.

نظر إليه الآخرون بريبة.

لا تعرف من أين أتت تلك الآذان. وذلك الفتى الذي اشتريتها منه ربما قال إنهم لهنود، ولكن ذلك لم يحدث.

لم يُجِب الرجل.

هذه الآذان يمكن أن تكون لآكلي لحوم البشر أو أي نوع من الزنوج الأجانب. لقد أخبروني أنه يمكنك شراء جميع الرؤوس في (نيو أورلينز). يأتي بهم البحارة ويمكنك شراؤهم مقابل خمسة دولارات. طوال النهار يمكنك شراء تلك الرؤوس.

صه يا (إيلرود).

جلس الرجل حاملاً العقد في يديه. وقال: لم يكونوا أكلي لحوم بشر. كانوا من الآباتشي. وأعرف الرجل الذي قطعها. أعرفه وركبت معه ورأيته مشنوقاً.

نظر (إلرود) إلى الآخرين وابتسم. وقال: هنود الآباتشي. أراهن أنهم هنود آباتشي قدماء كما أنا متأكد من أن البطيخة ليست مجرد قشرة، ماذا عنكم جميعا؟

نظر الرجل بتململ. أنت لا تدعوني كاذباً، أليس كذلك يابني؟

أنا لست ابنك.

كم عمرك؟

هذا ليس من شأنك.

كم عمرك؟

إنه في الخامسة عشرة.

أغلق فمك اللعين.

استدار إلى الرجل. وقال: هو لا يتكلم بالنيابة عني.

لقد تكلم. لقد كنت في الخامسة عشرة عندما أصبت برصاصة لأول مرة.

أنا لم أصب برصاصة أبداً.

ولم تبلغ السادسة عشرة بعد أيضاً.

هل تعتزم أن تطلق علي النار؟

أعتزم تجنُب فعل ذلك.

تعال يا (إيلرود).

لن نُطلق النار على أحد. ربما في ظهورهم أو وهم نيام.

(إيلرود)، نحن ذاهبون.

أنا عرفتك وعرفتُ ماذا كنتَ عندما رأيتك.

من الأفضل لك أن تذهب.

إجلس هناك وتحدث عن إطلاق النار على أحدٍ ما. لم يفعلها أحد منهم بعد.

وقف الأربعة الآخرون عند حدود ضوء النار. كان الأصغر منهم يوزع نظرات بعيداً في الملاذ المظلم لليل البراري.

إذهب، قال الرجل. إنهم ينتظرونك.

بصق في نار الرجل ومسح فمه. ومرّت في البراري إلى الشمال قافلة من العربات التي تجرها حيوانات، وكانت الثيران واهنة وصامتة في ضوء النجوم، وأصدرت العربات صوت صرير بشكل خفيف بعيداً، واتَّبَعهم ضوء مصباح ذي زجاج أحمر وكأنه عين غريبة. هذه الأرض كانت مليئة بالأولاد العنيفين الذين أصبحوا أيتاماً بسبب الحرب. بدأ رفاقه بالرجوع كي يحضروه وربما شجَّعَه هذا الشيء أكثر، وربما قال أشياء أخرى للرجل لأنهما عندما وصلا إلى النار نهض الرجل على قدميه. وقال: أبعدوه عني، إذا رأيته يعود إلى هنا سأقتله.

عندما رحلوا أشعل النار وأمسك الحصان وفك قيد قوائمه وربطه ووضع عليه السرج ثم افترق عنه وفرش بطانيته واستلقى في الظلام.

عندما استيقظ لم يكن هناك ضوء إلى الشرق بعد. كان الفتى يقف أمام رماد النار والبندقيّة في يده. تنشـَّق الحصان الهواء، والآن تنشـَّق مرة ثانية.

عرفت أنك ستختبئ، صاح الفتى.

أزاح البطانية ولفـَّ على بطنه وهيأ المسدس وسدّده نحو السماء حيث النجوم المتجمعة المتوهجة للأبد. وضع المِهداف في الوسط عند الثلم المصقول لرباط الإطار، حاملاً السلاح بهذه الطريقة، أرجحه من خلال ظلام الأشجار بكلتا يديه نحو شكل الزائر الأكثر إعتاما.

وقال: أنا هنا.

لوّح الفتى بالبندقية ثم أطلق النار.

ما كنت لتعيش على أية حال، قال الرجل.

كان فجراً رمادياً عندما اقترب الباقون. لم يكن معهم خيول. وقادوا الفتى غير مكتمل النمو إلى حيث تمدد الشاب الميت على ظهره ويداه مضمومتان على صدره.

لا نريد مشاكل ياسيد، ولكننا نريد أن نأخذه معنا.

خذوه.

لقد عرفت أننا سندفنه في هذه البريّة.

لقد أتوا إلى هنا من كنتاكي أيها السيد. هذا الطفل وأخوه. أمه وأبوه توفيا كلاهما. وجدّه قتله شخص مجنون ودُفن في هذه البريّة مثل الكلب. لم يعرف حظاً جيداً في حياته، والآن لا توجد له روح في هذا العالم.

(راندال) عليك أن تلقي نظرة جيدة على الرجل الذي جعلك يتيماً.

حملق اليتيم، المرتدي ملابس كبيرة وهو يحمل البندقية القديمة ذات المقبض المُعدَّل، إليه بتيبس. كان عمره ربما اثني عشر عاما، ولم يكن يبدو غبياً بقدر ما كان يبدو مخبولاً. قام اثنان من الباقين بتفتيش جيوب الفتى الميت.

أين بندقيته أيها السيد؟

وقف الرجل ويده على حزامه. وأشار برأسه إلى حيث سُندت البندقية على شجرة.

أحضروها وقدموها للأخ. كانت من نوع (شارب) عيار خمسين، فبدا وهو يحملها ويحمل البندقية المسكيت كأبله مسلَّح وعيناه تتحركان بسرعة.

أعطاه أحد الفتيان الأكبر قبعة الفتى الميت ثم استدار نحو الرجل. لقد دفع أربعين دولارا مقابل تلك البندقية في (ليتل روك). يمكنك شراؤها في (غريفين) مقابل عشرة. إنها لا تستحق شيئاً. (راندال)، هل أنت جاهز للذهاب؟

لم يُساعد في حمل الجثة لكونه صغيراً. عندما انطلقوا عبر البراري وجثة أخيه محمولة عالياً على أكتافهم، تبعهم في الخلف وهو يحمل المُسكيت وبندقية الفتى الميت وقبعة الفتى الميت. راقبهم الرجل مرة أخرى. هناك بعيداً لم يكن يوجد شيء. كانوا ببساطة يحملون الجثة عالياً فوق الصحراء التي تتناثر فيها العظام باتجاه الأفق الظاهر. استدار اليتيم مرة واحدة لينظر إليه، ثم أسرع ليلحق بهم.

* * *

واصل طريقه بعد الظهر خلال معبر (ماكينزي) عند (كلير فورك) لنهر (برانزوس)، ومشى مع الحصان جنباً إلى جنب في الشفق باتجاه البلدة حيث شكّلت التجمعات العشوائية للمصابيح في الغسق الأحمر الممتد وفي الظلام، شكّلت ببطء شاطئا مزيفاً لنُزل يحتضنه سهل منخفض أمامهما. مرّا بأكوام ضخمة من العظام، حواجز ضخمة مؤلفة من جماجم ذات قرون، وتكوّمت الأضلاع الهلالية الشكل التي تشبه الأقواس العاجية كآثار معركة أسطورية، والتفت حواجز ضخمة منها بعيداً فوق السهل في الليل.

دخلا البلدة تحت سقوط مطر خفيف. صهل الحصان وتنشّق بحذر على عراقيب قوائم الحيوانات الأخرى الواقفة في المربط أمام حمام عمومي مُضاء بمصابيح مرّا به. وصدر صوت موسيقى كمان في الشارع الطيني المنعزل، ومرّت أمامهما كلاب نحيلة من ظل إلى ظل. في نهاية البلدة، قاد الحصان إلى سياج وربطه بين آخرين، وصعد الدرج الخشبي المنخفض إلى ضوء معتم سقط من المدخل هناك. نظر مرة أخيرة إلى الخلف على الشارع وعلى أضواء النوافذ العشوائية التي تُركت مضيئة في الظلام، وعلى آخر ضوء باهت في الغرب والتلال الخفيضة حوله. ثم دفع الباب ودخل.

تجمع في الداخل حشد من الرعاع المهتاجين. كأن هيكل المنصة الخشبية غير المصقولة الذي بُني ليحتويهم قد شكّل بالوعة فساد مُطلقة انجذبوا إلى داخلها من الأراضي المنبسطة المحيطة. كان رجل عجوز

يرتدي رداء (تايرولين) يتنقل بين الطاولات جارّاً قدميه ويمدُّ قبعته إلى الأمام، في حين كانت فتاة صغيرة ترتدي ثوباً فضفاضاً، تدير ذراع صندوق أرغن، ودب يرتدي فستاناً واسعاً يدور بطريقة غريبة على خشبة المسرح المحاطة بصف من الشموع المصنوعة من شحم الحيوان والتي كانت تقطر وتطشطش في برك الدهن التي تذوب منها.

شق طريقه بين الحشد إلى البار حيث كان عدد من الرجال يرتدون قمصاناً نصفيّة يقدمون البيرة أو يصبون الويسكي، ووراءهم صبِيَة يقومون بإحضار صناديق زجاجات ورفوف من الأكواب يسيرون من حجرة غسيل وحفظ الأواني إلى المؤخرة. كان البار مغطى بالزنك، ووضع كوعيه فوقه وأدار قطعة نقود فضيّة بشكل لولبي أمامه ثم صفعها وجعلها منبسطة.

تكلم أو اصمت للأبد، قال الساقي.

ويسكي.

ويسكي ها هو. وضع كأساً ونزع الفلينة من الزجاجة وصبَّ ربما ربع جـِل ثم أخذ القطعة النقدية.

وقف ينظر إلى الويسكي. ثم خلع قبعته ووضعها على البار ورفع الكأس وشربه بكل تأن، ثم وضع الكأس الفارغ على البار مرة ثانية. مسح فمه واستدار حول نفسه ووضع كوعيه على البار خلفه.

عبر الدخان المتراكم بشكل طبقات في الضوء الأصفر، كان القاضي يراقبه.

كان جالساً على إحدى الطاولات، ومرتدياً قبعة مدورة ذات حافة ضيقة وكان بين رجال من كل نوع، راع ومصارع ثيران وتاجر ماشية وشاحن وعامل منجم وصياد وجندي وبائع متجول ومقامر وعاطل ومدمن ولص، كما كان بين حثالة العالم من طبقة المتسولين منذ آلاف السنين وبين سليل الأنذال المتحدرين من السلالات الحاكمة في المعسكر الشرقي، وفي كل هذا الجمع المختلط، جلس بجانبهم وحده وكأنه كان نوعاً آخر كاملاً من الرجال، وكان شكله قد تغيّر قليلاً أو لم يتغيّرنهائياً طوال تلك السنين.

استدار بعيداً عن تلك العيون ووقف ينظر إلى الأسفل على القدح الفارغ الذي بين قبضتيه. وعندما رفع نظره كان الساقي يراقبه. رفع إصبعه السبابة فأحضر الساقي الويسكي.

دفع. ورفع الكأس وشرب. كانت هناك مرآة وراء البار، ولكنها كانت مغطاة بالدخان والأطياف فقط. كان صندوق الأورغن يئن ويصدر صوت صرير، والدب بلسانه المتدلي يدور بثقل على خشبة المسرح.

عندما استدار نهض القاضي وكان يتكلم مع الرجال الآخرين. وشق رجل الاستعراض طريقه بين الزحام وهو يهزُّ القطع النقدية داخل قبعته. كانت العاهرات المكسوات بملابس مبهرجة يخرجن من

الباب في مؤخرة المبنى، وراقبهن وراقب الدب، وعندما نظر إلى الخلف عبر الغرفة لم يكن القاضي هناك. ويبدو أن رجل الاستعراض قد وقع في مشاجرة مع الرجال الجالسين على الطاولة. نهض رجل آخر. أشار رجل الاستعراض بقبعته. وأشار أحدهم إلى البار. فهزَّ رأسه. كانت أصواتهم مشوشة في الضجيج. كان الدب يرقص على المسرح بكامل قدرته وجهده، والفتاة الصغيرة تدير ذراع الأرغن، وبدت ظلال العرض التي أظهرها ضوء الشمعة على الحائط كأنها ربما تستجدي من أجل العودة إلى أي عالم في ضوء النهار. وعندما نظر إلى الوراء كان رجل الاستعراض قد لبس قبعته ووقف ويداه على ردفيه. سحب أحد الرجال مسدساً من سلاح الفرسان ذا ماسورة طويلة من حزامه. واستدار وسدّد المسدس نحو المسرح.

غطس البعض إلى الأرض، وبعضهم مدّوا أنفسهم ليصلوا إلى أسلحتهم. ووقف مالك الدب كبائع في معرض للرماية. كانت الطلقة مدوّية، وبعد الضربة التِّلْويّة(*) توقفت جميع الأصوات في تلك الغرفة. اخترقت الرصاصة الجزء الأوسط من جسد الدب. فأطلق أنيناً خافتاً، وبدأ يرقص أسرع، يرقص بصمت إلا من صوت ضربات لِبْد أقدامه على أرض المسرح الخشبية. سال الدم على فخذه. تجمّدت الفتاة التي تحمل صندوق الأرغن في مكانها، وتوقفت ذراع التدوير في أعلى

(*) الضربة التِّلْويّة: حادثة غير مرتقبة تتلو مسألة يُفترض أنها منتهية.

اللفـة. أطلق الرجل الذي يحمل المسدس النار مرة ثانية فاهتزّ المسدس ودوّى، وانتشر الدخان الأسود، فتأوّه الدب وبدأ يدور كالسكران. كان يمسك بصدره وسالت رغوة رفيعة من الدم من فكـّه وبدأ يترنح ويصيح كطفل وخطا بضعة خطوات أخيرة وهو يرقص ثم سقط مرتطماً بأرض المسرح.

أمسك أحدهم بيد الرجل التي تحمل المسدس، والذي أطلق الرصاص، فصار المسدس يتأرجح عالياً. وقف مالك الدب مصعوقاً، وهو يمسك بطرف قبعته الأوروبيّة.

اللعنة، لقد قتلت الدب. قال الساقي.

فكّت الفتاة الصغيرة شريط صندوق الأرغن عنها، فوقع على الأرض محدثا أصوات قرقعة وصفير. ركضت مندفعة إلى الأمام وركعت وضمّت الرأس ذا الوبر الخشن بذراعيها وبدأت تتأرجح إلى الخلف وإلى الأمام وهي تنشج بالبكاء. نهض معظم الرجال الموجودين في الغرفة ووقفوا في الفراغ المفعم بالدخان الأصفر وأيديهم على جانبيهم. وأخذت جميع العاهرات يركضن نحو المؤخرة ثم صعدت امرأة على المسرح وتقدمت من الدب ومدّت يديها، وقالت:

كل شيء انتهى، كل شيء انتهى.

هل تعتقد أن كل شيء انتهى يا بني؟

استدار. فكان القاضي يقف عند البار وهو ينظر إليه. ابتسم وخلع قبعته. لمعت قُبَّة رأسه كبيضة فوسفورية ضخمة في ضوء المصباح.

نهاية المطاف. نهاية المطاف. أنا أقول إنهم ماتوا جميعهم إلا أنا وأنت. ألا تعتقد ذلك؟

حاول أن ينظر وراء القاضي. ولكن ذلك الجسد الضخم حجب عنه كل شيء وراءه. واستطاع أن يسمع المرأة تعلن ابتداء الرقص في القاعة الخلفيّة.

لم يولَد بعد من سيكون لديه سبب ليلعن روح (دوفن)(*)، قال القاضي. استدار قليلاً. هناك الكثير من الوقت للرقص.

لم أتعلم الرقص.

ابتسم القاضي.

انحنى المالك ورجل آخر فوق الدب. وكانت الفتاة تجهش بالبكاء، ومُقدِّمَة فستانها سوداء من الدم. اتكأ القاضي على البار وأمسك زجاجة ثم نزع السدادة منها بإبهامه. طارت السدادة في الظلام فوق المصابيح وأصدرت صوت أزيز كأنها رصاصة. وقذف في

(*) دوفن: لقب أكبر أبناء ملك فرنسا.

فمه جرعة كبيرة من المشروب ثم اتكأ إلى الخلف على البار. وقال: أنت هنا من أجل الرقص.

عليّ أن أذهب.

بدا القاضي حزيناً، وقال: تذهب؟

أومأ برأسه. ومدّ نفسه وأمسك بقبعته حيث كانت على البار، ولكنه لم يأخذها ولم يتحرك.

أي رجل يصبح راقصاً إذا كان بمقدوره فِعْل ذلك، قال القاضي. إنه شيء رائع. الرقص.

كانت المرأة راكعة وذراعها حول الفتاة الصغيرة. وطشطشت الشموع واستلقى الدب بشكل كومة شعر ضخمة بردائه الفضفاض، وبدا كوحش مذبوح في مهمة لأفعال غير طبيعية. ملأ القاضي الكأس تماما، وقد كانت فارغة بجانب القبعة، ودفعها إلى الأمام.

وقال: إشرب. إشرب. في هذه الليلة قد تحتاج حيويتك.

نظر إلى الكأس. ابتسم القاضي وأشار بالزجاجة. أخذ الكأس وشرب.

راقبه القاضي. وقال: هل كانت فكرتك دائماً، أنك إذا لم تتكلم فلن يتم فهمك؟

لقد رأيتني.

تجاهل القاضي ذلك. لقد فهمتك منذ رأيتك لأول مرة، ومع ذلك فقد كنت مخيباً لأملي. من وقت لآخر. وبالرغم من ذلك أجدك في النهاية هنا معي.

أنا لست معك.

رفع القاضي حاجبه عديم الشعر. وقال: لست معي؟ نظر حوله بطريقة محيّرة ومصطنعة وكان ممثلاً لا بأس به.

لم آتِ إلى هنا للبحث عنك أبداً؟

ماذا إذن؟ القاضي.

ماذا أريد منك؟ أتيت إلى هنا للسبب نفسه الذي يأتي من أجله أي رجل.

وما هو ذلك السبب؟

ما هو سبب ماذا؟

سبب وجود هؤلاء الرجال هنا.

لقد أتوا ليقضوا وقتا ممتعاً.

راقبه القاضي. وبدأ يُحدّد رجالاً مختلفين في الغرفة ويسأل إذا كان هؤلاء الرجال قد أتوا إلى هنا من أجل قضاء وقت ممتع، أو إذا كانوا يعرفون فعلاً لماذا هم هنا أصلاً.

لا يحتاج كل شخص لسبب لكي يكون في مكان ما.

بالضبط، قال القاضي. ليسوا بحاجة لأن يكون لديهم سبب. ولكن النظام لا يُركَن جانباً بسبب لامبالاتهم.

تمعّن في القاضي بحذر.

دعني أوضح لك بهذه الطريقة. قال القاضي. إذا كان الأمر كذلك بأنهم هم أنفسهم ليس عندهم سبب، ومع ذلك فهم هنا فعلاً، ألا يجب أن لا يكونوا هنا لسبب ما آخر؟ وإذا كان الأمر كذلك، هل يمكنك تخمين ماذا يمكن أن يكون ذلك السبب الآخر؟

لا. هل يمكنك أنت؟

أعرفه جيداً.

ملأ الكأس كاملاً مرة ثانية وشرب هو نفسه من الزجاجة ثم مسح فمه واستدار ليتفحّص الغرفة. هذه مؤلفات موسيقية للحدَث. للرقص في الحقيقة. سيُعْلم المشاركون بأدوارهم في الوقت المناسب. بالنسبة للوقت الحاضر فيكفي أنهم وصلوا. بما أن الرقص هو الشيء الذي نهتم به، والذي يشمل بحد ذاته بشكل كامل ترتيباته وتاريخه وخاتمته، فلا توجد ضرورة لأن يحمل الراقصون تلك الأشياء داخلهم أيضاً. في جميع الأحداث فإن تاريخ الجميع ليس هو تاريخ كل واحد، وليس بالطبع محصلة تواريخهم، ولا يستطيع أحد هنا في النهاية أن يستوعب السبب لحضوره لأنه ليس لديه طريقة لمعرفة ماذا يشمل الحدث. في الواقع، إذا عَرِف فمن الممكن أن يتغيب ويمكنك أن ترى ذلك، أنه من غير الممكن أن يكون جزءاً من الخطة إذا كانت هناك خطة.

ابتسم، فلمعت أسنانه الضخمة. ثم شرب.

حَدَث، احتفال. كانت القطع الموسيقية جزءاً منه. حملت التمهيدات علامات حاسمة محددة. اشتملت ذبح دب ضخم. ولن يبدو جريان أحداث الليلة غريباً أو غير مألوف حتى لأولئك الذين يتساءلون في التكتم عن الأحداث التي نـُظمت هكذا.

إذن احتفال. يستطيع الشخص أن يُـجادل أنه لا توجد أصناف للاحتفال ولكن فقط احتفالات بدرجات أعلى أو أقل، واحتراماً لهذا الجدال سنقول إن هذا احتفال ذو أهمية خاصة، ربما يدعى بشكل معروف أكثر طقس شعائري. الطقس الشعائري يشتمل على إراقة الدم. والطقوس الشعائرية التي تفشل في هذا المُـتطلب ماهي إلا طقوس زائفة. هنا يُعرف كل شخص مزيف فوراً. لا شك في ذلك أبداً. هذا الشعور في الثدي الذي يُستدعى في ذكرى العزلة لدى الطفل، تماماً كما يحدث عندما يرحل الآخرون وتبقى فقط اللعبة مع مشاركيها المنعزلين. لعبة مهجورة، بدون خصم. حيث القوانين هي فقط المجازفة. لا تنظر بعيداً. نحن لا نتكلم بالألغاز. أنت من بين جميع الرجال لست غريباً على ذلك الشعور، الفراغ واليأس. أليس هذا هو ما حملنا السلاح ضده، أليس كذلك؟ أليس الدم هو العامل الوسطي في المِلاط الذي يسبب الإلتصاق؟ انحنى القاضي مقترباً أكثر. ما هو الموت في اعتقادك أيها الرجل؟ عن من نتكلم نحن عندما نتكلم عن شخص كان موجوداً ولم يعد موجوداً؟ هل أولئك أحاجي مبهمة أم

أنهم ليسوا جزءاً من نطاق سلطة شخص آخر؟ ما هو الموت إذا لم يكن وسيطاً؟ ومن يَقصد عندما يأتي؟ إنظر إليَّ.

لا أحب الجنون.

ولا أنا. ولا أنا. تحمَّلني. أنظر إليهم الآن. اختر رجلاً. أي رجل. ذلك الرجل هناك. هل تراه؟ ذلك الرجل بدون قبعة. هل تعلم رأيه في العالم. يمكنك قراءته في وجهه، في وقفته. ومع ذلك فشكواه هي أن حياة الرجل ليست صفقة تخفي القضية الحقيقية بالنسبة له. هذا يعني أن الرجال لن يفعلوا ما يريدهم هو أن يفعلوه. لم يفعلوا أبداً ولن يفعلوا. هذه هي الطريقة التي تسير بها الأشياء معه، وحياته مليئة بالصعاب وتصبح متغيّرة جداً ببنائها المطلوب حيث أنه ليس أكثر من كوخ متنقل بالكاد ملائم كسكن لروح بشرية فيه. هل يمكن لشخص كهذا أن يقول إنه لا يوجد شيء مؤذ ضده؟ إنه لا توجد قدرة ولا قوة ولا سبب؟ أي سلوك هرطقي(*) يمكنه الشك بالقوة والمَطْلب على حد سواء؟ هل يعتقد أن تحطم وجوده ليس مُستَلزَماً كنتيجة لا بد منها؟ لا رهن، ولا دائنين؟ إله الانتقام والرحمة على حد سواء يضطجع نائما في تجاويفهم، وسواء كانت صرخاتنا من أجل المحاسبة أو من أجل تدمير الدفاتر تماماً فيجب أن يثيروا فقط الصمت نفسه الذي هو هذا الصمت الذي سيسود؟ إلى من يتحدث، أيها الرجل؟ ألا تستطيع أن تراه؟

(*) هرطقي: منشق عن عقيدة ما.

كان الرجل يثرثر فعلاً مع نفسه ويحملق بشحوب حول الغرفة التي لا يوجد فيها صديق له.

يبحث الشخص عن مصيره هو وليس مصير أحد آخر، قال القاضي. شاء أم أبى. أي شخص يستطيع أن يكتشف مصيره هو ويختار لأجل ذلك بعض الاتجاهات المعاكسة، سيصل في النهاية إلى الافتراض نفسه في الوقت نفسه المحدد، لأن مصير كل رجل كبير بكِبَر العالم الذي يعيش فيه ويحتوي في داخله جميع التناقضات أيضا. تلك الصحراء التي تحطم العديدون فوقها، شاسعة وتدعو إلى اتساع القلب ولكنها أيضا خالية بشكل مُطلق. إنها قاسية، وجرداء. وطبيعتها الغالبة هي الصخر.

صبَّ القدح وملأه. وقال: اشرب. الحياة تستمر. لدينا رقص كل ليلة وهذه الليلة ليست استثناءً. الطريق المستقيم والملتوي هما طريق واحد، والآن بما أنك هنا ما أهمية السنين منذ التقينا نحن الإثنان مع بعضنا؟ ذاكرة البشر مشكوك فيها، والماضي الذي كان يختلف عن الماضي الذي لم يكن.

أخذ القدح الذي صبَّه القاضي وشرب ثم أعاده إلى الطاولة. نظر إلى القاضي. وقال: لقد ذهبت إلى كل مكان، وهذا مجرد مكان آخر.

قوّس القاضي حاجبه. وقال: هل عيَّنت شهود عيان؟ ليخبروك عن استمرار وجود تلك الأماكن التي غادرتها يوماً ما؟

هذا جنون.

حقاً؟ أين الأمس؟ أين (غلانتون) و(براون)، وأين القسيس؟ انحنى مُقترباً. أين (شيلبي)، الذي تركته تحت رحمة (إلياس) في الصحراء، وأين (تيت) الذي تخليت عنه في الجبال؟ أين السيدات، آه السيدات الشقراوات الرقيقات اللواتي رقصت معهن في قاعة قصر الحاكم عندما كنت بطلاً مدهوناً بدم أعداء الجمهورية التي اخترت الدفاع عنها؟ وأين عازف الكمان وأين الرقص؟

أظن أنه يمكنك أن تخبرني.

سأخبرك هذا. حيث أن الحرب أصبحت عاراً ووضِع نـُبلها في موضع مساءلة، وهؤلاء الرجال الذين أدركوا قداسة الدم سيُستثنون من الرقص، والذي هو حق للمحارب، وبذلك سيصبح الرقص رقصاً زائفاً والراقصون راقصين مزيفين. ومع ذلك سيبقى هناك دائماً واحد هو راقص حقيقي وهل يمكنك أن تخمن مَن مِن الممكن أن يكون؟

أنت لا شيء.

أنت تتكلم بصدق أكثر مما تعلم. ولكني سأخبرك. فقط ذلك الرجل الذي وهب نفسه كاملة لدم الحرب، والذي كان في قعر البئر ورأى الأهوال في الرحلة وتعلّم في النهاية أنها تخاطب أعماق قلبه، فقط ذلك الرجل يمكنه أن يرقص.

حتى الحيوان الغبي يمكنه الرقص.

وضع القاضي الزجاجة على البار. وقال: استمع إلي. يوجد مكان على المسرح لوحش واحد، وواحد بمفرده. والآخرون جميعهم يتجهون نحو ليلة أبدية وبدون اسم. سيخطون واحداً تلو الآخر إلى داخل الظلام أمام المصابيح الأرضية. دببة ترقص ودببة لا ترقص.

* * *

اندفع مع الحشد نحو الباب في المؤخرة. وبعد الظهر جلس مع رجال يلعبون الورق، داكناً في الدخان. انتقل من مكانه. وكانت امرأة تأخذ أوراقا صغيرة من الرجال وهم يمرّون في طريقهم إلى الغرفة في مؤخرة المبنى. نظرت إليه، لم يكن معه ورقة. أرشدته إلى طاولة حيث كانت امرأة تبيع البطاقات وتحشو النقود بواسطة خشبة صغيرة داخل شِق طولي في خزانة حديدية حصينة. دفع دولاره وأخذ الشارة النحاسية المختومة وسلّمها عند الباب ودخل.

وجد نفسه في صالة واسعة فيها منصة للموسيقيين عند أحد أطرافها، وموقد كبير من الصاج صناعة محلية في الطرف الآخر. فرق كاملة من العاهرات يملأن باحة الرقص. وكن يرتدين ملابس فضفاضة مبقّعة وجوارب خضراء، وسراويل داخلية بلون البطيخ، وكن يندفعن خلال ضوء المصباح الزيتي للتظاهر بالخلاعة، لهن أشكال

أطفال وخليعات في نفس الوقت. أمسكت بذراعه عاهرة سوداء قزمة صغيرة وابتسمت له.

وقالت: رأيتك للتو، أنا دائما التقط الشخص الذي أريده.

أخذته من خلال الباب إلى حيث كانت توجد امرأة مكسيكية عجوز تُسلّم المناشف والشموع وصعدا الدرج الخشبي إلى الغرف العلوية، كلاجئين من كارثة قذرة.

استلقى في الغرفة الصغيرة وبنطاله عند ركبتيه وراقبها. راقبها وهي تأخذ ملابسها وترتديها، وراقبها وهي تحمل الشمعة إلى المرآة وتتفحّص وجهها هناك. استدارت ونظرت إليه.

وقالت: لنذهب. عليّ أن أذهب.

إذهبي.

لا يمكنك الاستلقاء هناك. تعال. عليّ أن أذهب.

جلس منتصباً وأرجح رجليه على طرف السرير المعدني الصغير، وسحب بنطاله ثم ربط حزامه. كانت قبعته على الأرض، فالتقطها ونفضها على طرف ساقه ثم لبسها.

تحتاج أن تنزل وتأخذ كأسا من المشروب، قالت له. ستكون على ما يرام.

أنا على ما يرام الآن.

خرج، واستدار عند نهاية الرواق ونظر إلى الوراء، ثم نزل الدرج. أتت إلى الباب ووقفت في الرواق وهي تحمل الشمعة وتمشّط شعرها إلى الخلف بيد واحدة وراقبته وهو ينزل إلى ظلام بيت الدرج ثم أغلقت الباب وراءها.

وقف عند حافة باحة الرقص، وبدأت حلقة من الناس يرقصون وأيديهم متشابكة ويبتسمون وينادون على بعضهم البعض بأسمائهم. وجلس عازف كمان على كرسي فوق المنصة، وكان هناك رجل يروح ويجيء ويصيح بتعليمات الرقصة ويقوم بعمل إشارات ويخطو بالطريقة التي يريدهم أن يقوموا بها. في الخارج وفي الساحة المظلمة وقفت جماعات من الـ(تونكواس) البائسين في الوحل بوجوههم المنظومة في لوحات تائهة داخل إطار أضواء النوافذ. نهض عازف الكمان ووضع الكمان على فكّه. وانطلقت صرخة ثم بدأت الموسيقى وبدأت حلقة الراقصين بالدوران بتثاقل وبدون نظام. وخرج راجعاً إلى الخلف.

توقفت الأمطار وكان الهواء بارداً. وقف في الساحة. كانت النجوم تسقط عبر السماء بالآلاف وبشكل عشوائي. وتتسارع على طول مسارات قصيرة المدى من منشئها في الليل إلى مصائرها في الغبار والفراغ. داخل الصالة صدر صوت الكمان حاداً واختلط الراقصون ورقصوا بخطوات ثقيلة مدوّية. وفي الشوارع كان الرجال ينادون الفتاة الصغيرة التي مات دبُّها لأنها كانت مفقودة. خرجوا بين الساحات المُـظلمة بالمصابيح والمشاعل وهم ينادون عليها.

مشى على الناصية الخشبية باتجاه المراحيض الخارجية. ووقف في الخارج يُصغي إلى الأصوات التي تخفت ببطء، ونظر مرة ثانية إلى مسارات النجوم الصامتة حيث تتلاشى فوق التلال المعتمة. ثم فتح الباب الخشبي الخشن للمراحيض ودخل.

كان القاضي جالساً فوق المرحاض. كان عارياً ونهض وهو يبتسم ثم ضمّه داخل ذراعيه على لحمه الضخم المرعب ودفع مزلاج الباب في مكانه وراءه.

جاء رجلان إلى الحانة يريدان أن يشتريا جلد الدب، وكانا يبحثان عن مالكه. كان الدب ممدداً على الأرض في بركة هائلة من الدم. وقد انطفأت جميع الشموع إلا واحدة وقد سالت بصعوبة في شحمها كمصباح قربان. وفي صالة الرقص رافق عازف الكمان شاباً حافظ على الإيقاع الموسيقي بواسطة ملعقتين كان يضربهما ببعض بين ركبتيه. وكانت العاهرات يمشين نصف عاريات. وفي الساحة خلف المبنى ذهب رجلان باتجاه المراحيض. وكان رجل ثالث يقف هناك يتبول في الوحل.

هل يوجد أحد هناك؟ قال الرجل الأول.

لم يرفع الرجل الذي كان يتبول نظره. وقال: ما كنت لأدخل هناك لو كنت مكانك .

أيوجد أحد هناك؟

ما كنت لأدخل.

شدّ بنطاله وزرَّره ثم مشى من جانبهما وذهب أعلى الناصية باتجاه الأضواء. راقبه الرجل الأول وهو يذهب ثم فتح باب المراحيض.

وقال: أيها الرَّب الجبّار.

ما الأمر؟

لم يُجِب. مشى من جانب الرجل الآخر وعاد إلى الناصية. وقف الرجل الثاني يتابعه بنظره. ثم فتح الباب ونظر في الداخل.

كانوا في الحانة يدحرجون الدب الميت فوق ملاءة عربة وكانت هناك دعوة عامة للمساعدة. أحاط دخان التبغ في الحجرة المؤدية إلى الصالة بالمصابيح كضباب شيطاني وقدَّم الرجال عروضاً وتعاملوا بدمدمة خافتة.

كان هناك هدوء مؤقت في الرقص وصعد عازف كمان آخر إلى المنصة وقام الإثنان بربط أوتارهما ثم أدارا الأوتاد الخشبية الصلبة إلى أن اقتنعا. العديد بين الراقصين كانوا يتمايلون بثمالة خلال الغرفة وبعضهم خلعوا قمصانهم وستراتهم ووقفوا عراة الصدور وهم يتعرقون بالرغم من أن الغرفة كانت باردة لدرجة تكثفت معها أنفاسهم. وقفت مومس ضخمة تصفق بيديها على المنصة وتطلب الموسيقى بثمالة. لم تكن ترتدي سوى سروال رجالي وكانت بعض زميلاتها مكسوات بنفس الطريقة بما يبدو أنه غنائم - قبعات أو

سراويل أو سترات فرسان من قماش التويل الأزرق. وفي الوقت الذي استمرت فيه الموسيقى كانت هناك صيحة مفعمة بالحياة من الجميع ووقف أحدهم منادياً في الأمام وصاح للرقص ومشى الراقصون بخطوات ثقيلة مدوّية وأطلقوا صيحات كالنعيب ومالوا على بعضهم البعض.

إنهم يرقصون والأرض الخشبية تحت أحذيتهم تُحدث ضجة داوية وعازفا الكمان يتسمان بشكل بشع على تمايل أجسادهم. كان يرتفع فوقهم جميعا القاضي وهو عارٍ ويرقص، أقدامه الصغيرة كلها حيوية ورشاقة، والآن يرقص بخطى سريعة وينحني للسيدات، ضخما وشاحبا وعديم الشعر كطفل هائل. وقال إنه لا ينام أبداً. وقال إنه لن يموت أبداً. كان ينحني لعازفي الكمان وينزلق إلى الخلف ويقذف برأسه إلى الوراء ويضحك من قاع حنجرته، لقد كان محبوباً بشكل كبير، القاضي. كان يطيّر قبعته فتمُر قُبة رأسه الفضية بشحوب تحت الأضواء ويتأرجح هنا وهناك ثم أمسك إحدى آلات الكمان ودار على قدم واحدة ثم قام بعمل خطوة واحدة ثم خطوتين وهو يرقص ويعزف على الكمان في الوقت نفسه. كانت قدماه خفيفتين ورشيقتين. إنه لا ينام. يقول إنه لن يموت. إنه يرقص في الضوء وفي الظل وهو محبوب جداً. القاضي لاينام أبداً. إنه يرقص، يرقص. يقول إنه لن يموت أبداً.

* * *

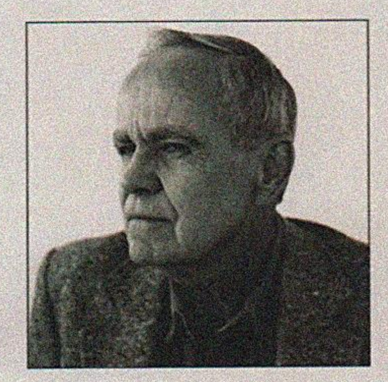
النهايــة

الخاتمــة

عند الفجر، هناك رجل يتقدّم على السهل بواسطة حُفر يصنعها في الأرض. يستخدم أداة بمقبضين ويرميها في الحفرة ثم يُـشعل الصخر في الحفرة بسكينه حفرة تلو الأخرى مُحْدثاً النار من الصخر الذي وضعه الرَّب هناك. على السهل خلفه يوجد الجوالون في مهمة بحث عن العظام وأولئك الذين لا يبحثون ويمشون بتلكؤ في الضوء كآلات يُراقب حركاتها ميزان الساعة(*) حيث بدوا مقيدين بالحذر أو بالتأمل والتفكير الذي ليس له حقيقة داخلية واجتازوا في تقدمهم واحدا تلو الآخر درب الحُفر التي تمتد إلى حافة الأرض الظاهرة والتي تبدو أقل كأنها مُطارَدة لاستمرارية ما من كونها إثبات لمبدأ، إثبات شرعية النتيجة والسبب وكأن كل دائرة وحفرة تامة تدين بوجودها للتي قبلها هناك في تلك البراري التي تنتشر عليها العظام وجامعو العظام وأولئك الذين لا يجمعونها. أضرم النار في الحفرة وسحب سكينه. ثم ينطلقون جميعهم مرة ثانية.

(*) ميزان الساعة: أداة تساعد على الحركة باتجاه واحد بنسب متساوية.

روايات



خطّ الدم

أو حمرة الغسق في الغرب



المملكة الأردنية الهاشمية - عمان / وسط البلد
خلف مطعم القدس / ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف ٤٦٣٨٦٨٨
فاكس ٤٦٥٧٤٤٥ ♦ منشوراتنا في العام ٢٠٠٧م
♦ الغلاف: زهير أبو شايب.